تراثنا

المجلد السادس

من

لطائف الإشارات

تفسير صوفي كامل للقرآن الكريم

للإمام القُشَيرى

قدم له وحققه وعلق عليه

الدكتور ابراهيم بسيونى

صدّر له

الأستاذ حسن عباس زكى

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

١٣٩٠ هـ - ١٩٧١ م

al-Qushayri

"Laṭā'if"



بسم الله الرحمن الرحيم

[« بسم اللهِ » : إخبارٌ عن وجودِ الحقِّ بنعتِ القِدَم .

« الرحمنِ الرحيمِ » : إخبارٌ عن بقائه بوصفِ العَلاءِ والكَرَم .

كاشَفَ الأرواحَ بقوله : « بسم اللهِ » فَهَيَّمَها .

وكاشَفَ النفوسَ بقوله : « الرحمنِ الرحيمِ » فَتَيَّمَها ؛ فالأرواحُ دَهْشَى فى كَشْفِ جلالِهِ ، والنفوسُ عَطْشَى إلى لُطْفِ جماله] .

عبد الكريم القشيرى

فى

بسملة « الشمس »

سورة الحجرات

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » اسمٌ كريمٌ مَنْ تَنصَّلَ إليه من زلَّاته تفضَّلَ عليه بنجاته ، ومَنْ توسَّلَ إليهُ بطاعاته تطوَّل عليه بدرجاته .

« بسم الله » اسم عزيز مَنْ تقرَّب إليه بمناجاته قابَلَه بلطف أفضاله ، ومَنْ تحبَّبَ إليه بإيمانه أقبلَ عليه بكشف جلاله وجماله .

قوله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا لا تُقَدِّموا بين
يَدَىِ اللهِ ورسولِه واتقوا اللهَ إنَّ اللهَ
سميعٌ عليمٌ » .

« يأيها الذين آمنوا » : شهادةٌ المنادَى بالشَّرف .

« لا تقدموا » أمرٌ بتحمُّل الكُلَفَ . قدَّمَ الإكرام بالشرف على الإلزام بالكُلَف أى لا تقدموا بحكمكم « بين يدى الله ورسوله » : أى لا تقضوا أمراً من دون الله ورسوله ، أى لا تعملوا من ذات أنفسِكم شيئاً .

ويقال : قفوا حيثما وُقِفتُم ، وافعلوا ما به أُمِرتُم ، وكونوا أصحابَ الاقتداء والاتّباع . . لا أربابَ الابتداء والابتداع .

قوله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم
فوقَ صوتِ النبيِّ ولا تجهروا له
بالقولِ كجهرِ بعضكُم لبعضٍ أنْ
تحبطَ أعمالُكم وأنتم لا تشعرون » .

أَمَرَهم بحفظِ حرمته ، ومراعاةِ الأدب في خدمته وصحبته ، وألاَّ ينظروا إليه بالعين التي ينظرون بها إلى أمثالهم . وأنه إذا كان بخُلُقِه يُلاينُهم فينبغي ألا يتبسَّطوا معه متجاسرين ، ولا يكونوا مع ما يعاشرهم بِهِ مِنْ تَخَلُّقِه عن حدودِهم زائدين .

ويقال : لا تبدأوه بحديثٍ حتى يُفَاتِحَكم .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الذين يَغُضُّون أصواتَهم عندَ
رسولِ اللهِ أولئك الذين امتحنَ اللهُ
قلوبَهم للتقـوى لهم مغفرةٌ وأجرٌ
عظيم » .

هم الذين تقع السكينةُ عليهم من هيبة حضرته ، أولئك هم الذين امتحن اللهُ قلوبَهم للتقوى بانتزاع حُبِّ الشهوات منها ، فاتقوا سوءَ الأخلاقِ ، وراعوا الأدبَ .

ويقال : هم الذين انسلخوا من عادات البشرية .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الذين يُنَـــادونكَ مِنْ وراءِ
الحُجَراتِ أكثرهم لا يَعْقِـلون *
ولو أَنَّهم صَبَرَوا حتى تَخْرُجَ إليهم
لـكان خيراً لهم واللهُ غفورٌ رحيم » .

أي لو عرفوا قَدْرَكَ لَمَا تركوا حُرْمَتَك، والتزموا هَيْبَتَك .

ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم ولم يستعجلوا ، ولم يوقظوك وقت القيلولة بمناداتهم لـكان خيراً لهم[1] .

أمَّا أصحابه — صلواتُ الله عليه وسلامه — الذين يعرفون قدْره فإنَّ أحدهم — كما في الخبر: « كأنه يَقْرَعُ بابَه بالأظافر » .

---

(1) يقال : نزلت في قوم من بني تميم منهم الأقرع بن حابس وسويد بن هاشم ، ووكيع بن وكيع ، وعيينة ابن حصن ، وأن الأقرع نادى النبي (ص) من وراء حجرته أن اخرج إلينا فإن مدحنا زَيْنٌ وذمَّنا شَيْنٌ . وكان ذلك وقت الظهيرة والنبي في راحته وبعض شئونه الخاصة . فاستيقظ وخرج لهم .

قوله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا إنْ جاءكم فاسِقٌ بنَبَأٍ فتَبَيَّنُوا أنْ تُصيبوا قوماً بجهالةٍ فتُصْبِحوا على ما فَعَلْتُم نادمين » .

دلّت الآية[1] على تَرْكِ السكونِ إلى خَبَرِ الفاسق إلى أن يظهر صِدْقُه .

وفى الآية إشارة إلى تَرْكِ الاستماعِ إلى كلامِ الساعى والنمّامِ والمغتابِ للناس .

والآيةُ تَدُلُّ على قبول خبرِ الواحدِ إذا كان عَدْلاً .

والفاسقُ هو الخارجُ عن الطاعة[2] . ويقال هو الخارج عن حدِّ المروءة .

ويقال : هو الذى ألقى جلبابَ الحياء .

قوله جل ذكره : « واعلموا أنَّ فيكم رسولَ اللهِ لو يُطيعُكم فى كثيرٍ من الأمرِ لَعَنِتُّم ولكنَّ اللهَ حَبَّبَ إليكم الإيمانَ وزَيَّنه فى قلوبكم وكَرَّه إليكم الكفرَ والفسوقَ والعصيانَ أولئك هم الراشدون » .

أى لو وافقكم محمدٌ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فى كثير مما تطلبون منه لوقعتم فى العَنَتِ — وهو الفساد[3] . ولو قَبِلَ قولَ واحدٍ (قَبْلَ وضوحِ الأمر) لأصابتكم من ذلك شدة .

والرسول صلوات الله عليه لا يطيعكم فى أكثر الأمور إذا لم يَرَ فى ذلك مصلحة لكم وللدين .

---

(١) يقال : نزلت فى الوليد بن عقبة بن أبى مُعَيْط .. أرسله النبى (ص) ليجبى الصدقات من بنى المصطلق . فلما أبصروه تقدموا نحوه فهابهم ؛ فقد كانت بينه وبينهم إحنة .. فعاد منفوره إلى النبى وأخبره أنهم ارتدوا عن الإسلام ، فلم يقنع النبى (ص) بما سمع وأرسل إليهم خالدبن الوليد ليتثبت من الأمر فأخبروه أنهم على إسلامهم ، وأنهم كانوا خارجين إلى سفير النبى لإكرامه ، واستيقن خالد من ذلك حين سمع أذانهم وصلاتهم .. فعاد إلى النبى وجلى حقيقة الأمر .

(٢) مشتق من فَسَقَت الرطبة أى خرجت من قشرها ، والفأرة من جحرها .

(٣) للعنت معان أخرى : فهو : الفجور والزنا — كما جاء فى سورة النساء . وهو : الوقوع فى أمر شاق كما جاء فى آخر سورة براءة .

« ولكن الله حبَّبَ إليكم الإيمان » : الإسلام والطاعة والتوحيد ، وزيَّنها فى قلوبكم .

« وكرَّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان . . » : هذا من تلوين الخطاب .

وفى الآية دليلٌ على صحة قول أهل الحقِّ فى القَدَر[1] ، وتخصيص المؤمنين بألطافٍ لا يشترك فيها الكفارُ . ولولا أنَّه يوفِّر الدواعيَ للطاعات لَحَصَلَ التفريط والتقصير فى العبادات .

« فضلاً من الله ونعمة » : أى فَعَلَ هذا بكم فضلاً منه ورحمةً . والله عليم حكيم .

قوله جل ذكره : « وإنْ طائفتان[2] من المؤمنين اقتتلوا فأصْلِحوا بينهما فإنْ بَغَتْ إحداهما على الأخرى فقاتِلوا التى تبغى حتى تفيء إلى أمْرِ الله فإنْ فاءتْ فأَصْلِحوا بينهما بالعَدْلِ وأقْسِطوا ، إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقْسِطين » .

تدل الآية على أن المؤمن بفسقه — والفسق دون الكفر — لا يخرج عن الإيمان لأن إحدى الطائفتين — لا محالة — فاسقة إذا اقتتلا .

وتدل الآية على وجوب نصرة المظلوم ؛ حيث قال : « فإن بغت إحداهما على الأخرى . . . » .

والإشارة فيه : أن النفس إذا ظَلَمَتْ القلب بدعائه إلى شهواتها ، واشتغالها فى فسادها فيجب

(١) يقصد القشيرى أن القائلين بأن الله سبحانه المتفرد بخلق ذوات العباد وخلق أفعالهم وصفاتهم واختلاف ألسنتهم و... على صواب لأن الآية صريحة فى خلق الأفعال ؛ فهو الذى حبَّب إلى الإيمان والعكس .

(٢) يقال نزلت فى ابن أُبَىّ حين وقف الرسول على مجلس به بعض الأنصار وهو على حمار فقال ابن أبى : خلِّ سبيل حمارك فقد آذانا ، فانبرى له عبد الله بن رواحة قائلاً :

والله إنَّ بول حماره لأطيب من مسكك .

وبعد أن مضى الرسول (ص) طال الخوض بينهما حتى استبَّا وتجالدا ، واشتبك الأوس والخزرج وتجالدوا بالعصى . وقيل بالأيدى والنعال والسعف ، فرجع الرسول (ص) إليهم فأصلح بينهم .

أن يقاتلها حتى تثخن بالجراحة بسيوف المجاهدة . فإن استجابت إلى الطاعة يُعْفَى عنها لأنها هى المطيَّةُ إلى باب الله .

قوله جل ذكره : « إنَّما المؤمنون إخوةٌ فأَصْلِحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلَّكم تُرْحَمون ».

إيقاعُ الصلح بين المتخاصمين مِنْ أوْكَد عزائم الدِّين .

وإذا كان ذلك واجباً فإنه يدل على عِظَمِ وِزْرِ الواشى والنمَّام ؛ والمَصْدَرِ فى إفساد ذات البَيْن.

(ويقال إنما يتم ذلك بتسوية القلب مع الله فإن الله إذا علم صِدْق هِمةِ عبدٍ فى إصلاح ذات البيْن)[1] فإنه يرفع عنهم تلك العصبيَّة[2] .

فأما شرط الأخوة : فَمِنْ حقِّ الأُخُوةِ فى الدِّين ألا تُحْوِجَ أخاك إلى الاستعانة بك أو التماس النصرة عنك ، وألا تُقَصِّرَ فى تَفَقُّدِ أحواله بحيث يشكل عليك موضع حاجته فيحتاج إلى مساءلتك .

ومن حقِّه ألا تُلْجِئَه إلى الاعتذار لك بل تبسط عُذْرَه ؛ فإنْ أشْكَلَ عليكَ وَجْهُه عُدْت باللائمة على نفسك فى خفاء عُذْرِه عليك ومن حقه أنْ تتوبَ عنه إذا أذْنَبَ ، وتعودَه إذا مرض . وإذا أشار عليك بشيء فلا تُطَالِبْه بالدليل عليه وإبراز الُحجَّة — كما قالوا :

إذا اسْتُنْجِدُوا لم يسألوا مَنْ دعاهم لأيَّةِ حَرْبٍ أم لأى مكان

ومِنْ حقِّه أَنْ تحفظَ عهْدَه القديم ، وأَنْ تُرَاعِيَ حقَّه فى أهله المتصلين به فى المشهد والمغيب ، وفى حال الحياة وبعد الممات[3] — كما قيل :

وخليل إن لم يكن منصفاً كُنْتَ منصفا

---

(١) ما بين القوسين موجود فى م وساقط فى ص .

(٢) هكذا فى م وهى فى ص المعصية ونحن نؤثر الأولى لملاءمتها للسياق .

(٣) فى هذه الفقرة ما يدحض مزاعم الذين يقولون بأن الصوفية قوم انعزاليون ، لا يفهمون معنى العلاقات الاجتماعية ولا يقدرونها .

تتحسَّى له الأمرَّ ين وكُنْ ملاطفا
إنْ يقُل لكَ استوِ احترفْ ت رضًى لا تكلُّفا

قوله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا لا يَسْخَرْ قومٌ من قومٍ عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أنْ يَكُنَّ خيراً منهن ، ولا تَلْمِزوا أنفسَكم ولا تنابزوا بالألقابِ بِئْسَ الاسْمُ الفُسُوقُ بعد الإيمان ومَنْ لم يَتُبْ فأولئك هم الظالمون » .

نهى اللهُ — سبحانه وتعالى — عن ازدراء الناس ، وعن الغَيْبَةِ ، وعن الاستهانةِ بالحقوق ، وعن تَرْكِ الاحترام .

« ولا تلمزوا أنفسكم » : أي لا يَعِيبَنَّ بعضُكم بعضاً ، كقوله : « ولا تقتلوا أنفسكم »[1].
ويقال : ما استصغر أحدٌ أحداً إلا سُلِّطَ عليه . ولا ينبغي أن يُعْتَبَر بظاهر أحوال الناس فإنَّ في الزوايا خبايا . والحقُّ يستر أولياءه في حجابِ الضَّعَةِ[2]؛ وقد جاء في الخبر :

« رُبَّ أشعث أغبر ذي طمرين لا يُؤْبَهُ له لو أقسم على الله لأَبَرَّه »[3] .

قوله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا اجتنِبوا كثيراً من الظَّنِّ إنَّ بعضَ الظَّنِّ إثمٌ ولا تَجَسَّسُوا ولا يَغْتَبْ بعضُكم بعضاً ، أيُحِبُّ

---

(١) آية ٢٩ سورة النساء .

(٢) الضعة هنا بمعنى خمول الذكر وانطفاء المنظر .

(٣) في بعض الروايات زيادة : « وإن البراء منهم » ، وعند مسلم بلفظ « رُبَّ أشعث أغبر مدفوعٍ إلى الأبواب لو أقسم على الله لأبرَّه » .

أحدُكم أنْ يأكلَ لحمَ أخيه ميتاً
فكرهتموه واتقوا اللهَ إنَّ اللهَ
توّابٌ رحيم » .

النَّفْسُ لاتَصْدُقُ ، والقلبُ لايَكْذِبُ . والتمييز بين النفس والقلب مُشْكِلٌ ومَنْ بَقِيَتْ عليه من حظوظه بقيَّةٌ — وإنْ قَلَّتْ — فليس له أن يَدَّعي بيانَ القلب بل هو بنفسه مادام عليه شيءٌ من نَفْسِه ، ويجب أن يَتَّهِمَ نَفْسَهُ في كل مايقع له من نقصان غيره . . هذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال وهو يخطب . « كلٌّ الناس أفقهُ من عمر .. امرأةٌ أفقهُ من عمر » .

« ولا تجسسوا » . والعارف لا يتفرغ من شهود الحقِّ إلى شهود الخَلْق . . فكيف يتفرغ إلى تجَسُّسِ أحوالهم ؟ وهو لا يتفرغ إلى نَفْسِه فكيف إلى غيره ؟ « ولا يغتب بعضكم بعضاً » : لا تحصل الغيبة للخَلق إلَّا من الغيبةِ عن الحقِّ .

« أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً .. » جاء في التفسير أن المقصود بذلك الغيبة ، وعلى ذلك يدل ظاهر الآية . وأخَسُّ الكفّار وأقلُّهم قدْراً مَنْ يأكل الميتةَ .. وعزيزٌ رؤيةُ مَنْ لا يغتاب أحداً بين يديك .

قوله جل ذكره : « يأيها الناسُ إنَّا خلقناكم مِنْ ذَكَرٍ
وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائلَ لتعارفوا
إنَّ أكرمَكم عند الله أتقاكم إن الله
عليمٌ خبيرٌ » .

إنَّا خلقناكم أجمعكم من آدمَ وحواء ، ثم جعلناكم شعوباً وقبائلَ لتعارفوا لا لتَكاثروا ولا لتنافسوا . فإذا كانت الأصولُ تربةً ونطفةً وعَلَقَةً .. فالتفاخر بماذا ؟ أبالحمأ المسنون ؟ أم بالنطفة في قرار مكين ؟ أم بما ينطوى عليه ظاهرك مما تعرفه ؟ ! [1] وقد قيل :

(١) ربما نفهم من هذه العبارة ما يقصده القشيرى في موضع آخر مائل من سخرية بالإنسان وتحطيم لتجبره ؛ كأن يقول له : من أنت أيها الإنسان ؟ أنت كنيف في قميص ! ألا ترى إلى ريح إبطك إذا عرقت ، وإلى ريح فمك إذا جعت ! ؟ ... ونحو ذلك .

إنَّ آثارَنا تَدُل علينا فانـظُروا بعْدَنا إلى الآثارِ

أم بأفعالك التى هى بالرياء مَشُوبة ؟ أم بأحوالك التى هى بالإعجاب مصحوبة ؟ أم بمعاملاتك التى هى ملأى بالخيانة ؟

« إن أكرمكم عند الله أتقاكم ؟ أتقاكم أى أبْعَـدكم عن نَفْسه ، فالتقوى هى التحرُّر من النفس وأطماعها وحظوظها . فأكرمُ العبادِ عند اللهِ مَنْ كان أبْعد عن نَفْسِه وأقربَ إلى الله تعالى .

قوله جل ذكره : « قالت الأعرابُ آمَنَّا قُلْ لم تُؤْمِنوا ولـكن قولوا أسْلَمنا » .

الإيمانُ هو حياة القلب ، والقلب لا يحيا إلا بعد ذَبْح النَّفس ، والنفوسُ لا تموت ولـكنها تغيب ، ومع حضورها لا يَتِمُّ خيرٌ ، والاستسلامُ فى الظاهر إسلام . وليس كلُّ مَنْ استسلَمَ ظاهراً مخلصٌ فى سِرِّه .

« ولمَّا يَدْخُل الإيمان فى قلوبكم »

فى هذا دليلٌ على أن محلَّ الإيمـانِ القلبُ . كما أنه فى وصف المنافقين قال تعالى : « فى قلوبهم مرض » ؛ ومرَضُ القلبِ والإيمانُ ضدان .

« إنمـا المؤمنون الذين آمنوا باللهِ
ورسـولِه ثم لم يرتابوا وجاهدوا
بأموالِهم وأنْفُسِهم فى سبيلِ اللهِ
أولئك هم الصادقون » .

جَعَلَ اللهُ الإيمـانَ مشروطاً بخصالٍ ذَكَرَها ، ونَصَّ عليها بلفظ « إنما » وهى للتحقيق الذى يقتضى طَرْدَ العَـكْسِ ؛ فَمَنْ خَرَج عن هذه الشرائط التى جَعَلَها للإيمان فمردودٌ عليه قَوْله .

والإيمانُ يوجِبُ للعبد الأَمان ، فما لم يكن الإيمان موجِبًا للأَمانِ فصاحبُه بغيره أَوْلَى .

قوله جل ذكره : « قُلْ أتُعَلِّمون اللهَ بدينِكم واللهُ يعلم ما فى السموات وما فى الأرضِ واللهُ بكل شىء عليم » .

تدل الآية على أنَّ الوقوف[1] فى المسائل الدينية يُعْتَبرُ واجباً ؛ فالأسامى منه تؤْخَذ ، والأحكامُ منه تُطْلَب ، وأوامره مُتَّبعة[2] .

قوله جل ذكره : « يَمُنُّون عليكْ أَنْ أَسْلموا قُلْ لا تَمُنُّوا علىَّ إسلامَكم بل اللهُ يَمُنُّ عليكم أَنْ هَداكم للإيمانِ إنْ كنتم صادقين » .

مَنْ لاحظ شيئاً من أعماله وأحواله فإنْ رآها مِنْ نَفْسه كان شِرْكاً ، وإنْ رآها لنفسه كان مكرًا فكيف يمن العبد بما هو شِرْكٌ أو بما هو مكر ؟ !

والذى يجب عليه قبول المِنَّة ... كيف يرى لنفسه على غيره مِنَّة ؟ ! هذا لعمرى فضيحة ! بل المِنَّةُ لله ؛ فهو ولىُّ النعمة . ولا تكون المِنةُ منةً إلا إذا كان العبدُ صادقًا فى حاله ، فأمَّا إذا كان معلولاً فى صفة من صفاته فهى محنةٌ لصاحبها لا مِنَّة .

والمِنَّةُ تُكَدِّرُ الصنيعَ إذا كانت من المخلوقين ، ولكن بالمِنَّةِ تطيب النعمة إذا كانت من قبل الله .

قوله جل ذكره : « إنَّ اللهَ يعلم غيب السمواتِ والأرضِ واللهُ بصيرٌ بما تعملون » .

---

(١) هكذا فى م وهى بمعنى (التوقف) (والتوقيف) عند بعض الأمور ، ولهذا فما جاء فى ص وهو (التوفيق) خطأ فى النسخ .

(٢) فالاتباع واجب والابتداع مرفوض — كما نبهنا القشيرى من قبل .

ومَنْ وُقِف ها هنا تكدَّرَ عليه عَيْشُهُ ؛ إذ ليس يدرى ما غيبه فيه ، وفى معنى هذا قول القائل :

أبكى .. وهل تدرين ما يبكينى ؟
أبكى حذاراً أن تفارقينِى
وتقطعى وَصْـــــلى وتهجرينى[1]

(١) فى (اللمع) للسراج وتقطعى (حبلى) وتهجرينى (اللمع ص ٣٠٥) وكلاهما صحيح فى المعنى ملائم للوزن .

سُورَةُ قٓ

« بسم الله » اسم جَبَرَ أحوالَ مَنْ رَحِمَهَ ، متجرٌّ بكبريائه على من أقماه فَقَهَرَه وحرَمه .

« بسم الله » لطيفٌ يعلم خفايا تصنُّع العابدين ، غافرٌ لجلائلِ ذنوبِ العاصين .

قوله جل ذكره : « قٓ والقرآنِ المجيد » .

قٓ مفتاح أسمائه : « قوى وقادر وقدير وقريب » . . أقسم بهذه الأسماء وبالقرآن المجيد .
وجوابُ القَسَم محذوف ومعناه لَتُبْعَثُنَّ فى القيامة .

ويقال جوابه : « قد علمنا ما تنقُصُ الأرضُ منهم وعندنا كتاب حفيظ » أى لقد علمنا . .
وحذفت اللام لمَّا تطاول الخطاب .

ويقال : جوابه قوله : « مايبدَّلُ القولُ لدىّ » .

قوله جل ذكره : « بل عَجِبوا أنْ جاءَهم مُنْذِرٌ منهم
فقال الكافرون هذا شئٌ عجيب » .

« منذرٌ منهم » : هو محمد صلى الله عليه وسلم

والتعجُّبُ نوعٌ من تعيير النَّفْسِ عن استبعادها لأمرٍ خارج العادة لم يقع به عِلْمٌ من قَبْل .
وقد مضى القولُ فى إنكارهم للبعث واستبعادهم ذلك :

« أئذا مِتْنا وكُنَّا تراباً ذلك رَجْعٌ بعيدٌ »

أى يَبْعُدُ عندنا أنْ نُبْعثَ بعد ماِتنا . فقال جل ذكره :

« قد عَلِمْنا ما تنقص الأرضُ منهم
وعندنا كتابٌ حفيظ » .

فى هذا تسليةٌ للعبد فإنه إذا وُسِّدَ التراب ، وانصرف عنه الأصحاب ، واضطرب لوفاته الأحباب . . فمَنْ يَتَفَقَّدُه ومَنْ يتعهَّدُه . . . وهو فى شفير قبره ، وليس لهم منه شئ سوى ذكره ، ولا أحدَ منهم يدرى ما الذى يقاسيه المسكين فى حُفْرته ؟ فيقول الحقُّ — سبحانه : « قد علمنا . . . » ولعلَّه يخبر الملائكة قائلا : عَبدى الذى أخرَجته من دنياه — ماذا بقى بينه مَنْ يهواه ؟ هذه أجزاؤه قد تفرَّقتْ ، وهذه عِظامُه بَلِيَتْ ، وهذه أعضاؤه قد تَفَتَّتَتْ !

« وعندنا كتابٌ حفيظ » : وهو اللَّوحُ المحفوظ ؛ أثْبتنا فيه تفصيل أحوالِ الخَلْقِ من غير نسيانٍ ، وبيَّنَّا فيه كلَّ ما يحتاج العبدُ إلى تَذَكُّره .

قوله جل ذكره : « بل كَذَّبوا بالحقِّ لمَّا جاءهم فهم
فى أمْرٍ مَرِيج » .

« مريج » أى مختلط ومُلْتبس ؛ فهم يتردَّدون فى ظُلُمات تحيُّرهم ، ويضطربون فى شكِّهم .

قوله جل ذكره : « أفلَمْ ينظروا إلى السماء فوقَهم كيف
بَنَيْناها وزَيَّناها وما لها من فروج » .

أَوَلَمْ يعتبروا ؟ أَوَلَمْ يَسْتَدِلُّوا بما رفعنا فوقهم من السماء ، رفعنا سَمْكها فَسوَّيْناها ، وأثبتنا فيها الكواكبَ وبها زَيَّناها ، وأَدَرْنا فيها شَمْسَها وقمَرَها ؟ أو لم يروا كيف جَنَّسْنا عَيْنَها ونَوَّعْنا أثَرَها ؟

« والأرضَ مَدَدْناها وألقينا فيها رواسِيَ
وأنبَتْنا فيها من كلِّ زوجٍ بهيج » .

والأرض مددناها ؛ فجعلناها لهم مِهاداً ، وجَعَلْنا لها الجبالَ أوتاداً ، وأَنْبَتْنا فيها أشجاراً وأزهاراً وأنواراً .. كل ذلك :

« تَبْصِرَةً وذِكرى لكلِّ عَبْدٍ مُنِيب»

علامةً ودلالةً لكل من أناب إلينا ، ورجع من شهودِ أفعالنا إلى رؤية صفاتنا ، ومن شهود صفاتنا إلى شهودِ حقِّنا وذاتنا[1] .

قوله جل ذكره : « ونَزَّلنا من السماء ماء مُبَاركاً فأنبتنا به جَنَّاتٍ وحَبَّ الحصيد » .

أنزلنا من السماء ماءً مباركاً كثيرَ النفع والزيادة ، فأنبتنا به « جنات وحب الحصيد » : أى الذى يُحْصَد — كما تقول : مسجد الجامع .

الأجزاء متجانسة . . ولكنَّ أوصافَها فى الطعوم والروائحِ والألوانِ والهيئاتِ والمقادير مختلفة .

قوله جل ذكره : « والنخلَ باسقاتٍ لها طَلْعٌ نضيد » .

والنخلُ باسقاتٌ : طويلاتٌ ، لها طَلْعٌ منضود بعضُه فوق بعض لكثرة الطَّلْع أو لما فيها من الثمار . وكيف جعلنا بعض الثمار متفرقة كالتفاح والكمثرى وغيرهما ، وكيف جعلنا بعضها مجتمعة كالعنب والرطب وغيرهما . . كلّ ذلك جعلناه رزقاً للعباد ولكى ينتفعوا به .

« . . . وأَحْيَيْنا به بلدةً مَيْتاً كذلك الخروج » .

وكما سقنا هذا الماء إلى بلدةٍ جفَّ نباتُها ، وكما فعلْنا كُلَّ هذه الأشياء ونحن قادرون على ذلك — كذلك نجمعكم فى الحشر والنشر ، فليس بَعْثُكُم بأبعدَ من هذا .

قوله جل ذكره : « كَذَّبَتْ قَبْلَهم قومُ نوحٍ وأصحابُ الرَّسِّ وثمودُ * وعادٌ وفرعونُ وإخوانُ

---

(1) هذا الترتيب فى منازل الشهود له أهمية فى فهم المعراج الروحى عند هذا الإمام ، وواضح منه أن أعلى درجات الشهود شهود الذات .. وذلك بشرائط سبقت الإشارة إليها فى غير موضع من الكتاب ، ولكننا مع ذلك لاننسى أن القشيرى — كما نعرف من منهجه — يرى الاستشراف من (الذات) من المحال ، فقد جلت الصمدية عن الدرك واللحوق .. مهما سما العبد فى معراجه الروحى .

لوط * وأصحابُ الأيكةِ وقومُ تُبَّع
كلٌّ كذَّبَ الرُّسُلَ فحقَّ وعيد » .

إنّا لم نَعْجَزْ عن هؤلاء — الذين ذكر أسماءهم — وفيه تهديدٌ لهم وتسليةٌ للرسول .

« أفعَيينا بالخلْقِ الأول ؟ بل هم فى
لَبْسٍ من خَلْقٍ جديد » .

أى إنّا لم نعجزْ عن الخلْقِ الأول . . فكيف نعجز عن الخلق الثانى — وهو الإعادة ؟ لم يعتص علينا فعلُ شىء ، ولم نتعب من شىء .. فكيف يشق علينا أمر البعث؟أى ليس كذلك[1].

قوله جل ذكره : « ولقد خلَقْنا الإنسانَ ونعلم ما تُوَسْوِسُ
به نَفْسُه ونحن أقربُ إليه من حَبْلِ
الوريد » .

نعلم ما توسوس به نَفْسُه من شهواتٍ تطلب استنفاذها ، مثل التصنُّع مع الخلْق ، وسوء الخُلُق ، والحقد . . وغير ذلك من آفات النفْس التى تُشَوِّش على القلب والوقت .

« ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » فَحَبْلُ الوريد أقربُ أجزاء نَفْسِه إلى نَفْسِه ، والمرادُ من ذلك العلم والقدرة ، وأنه يسمع قولَهم ، ولا يشكل عليه شىءٌ من أمرهم .
وفى هذه الآية هَيْبَةٌ وفزَعٌ وخوفٌ لقومٍ ، ورَوْحٌ وسكونٌ وأُنْسُ قلبٍ لقومٍ .

قوله جل ذكره : « إذْ يتلَقَّى المُتَلَقِّيانِ عن اليمين وعن
الشمال قعيد » .

خوَّفَهم بشهود الملائكة وحضور الحفَظَةِ ، وبكتابتهم عليهم أعمالَهم ، فهما قَعيدا[2] كلٍّ

---

(١) فالاستفهام هنا للإنكار أو النفى .
(٢) عبر عن المثنى بالمفرد للدلالة بواحدٍ على الاثنين مثل قول الشاعر :
رمانى بأمر كنت منه ووالدى — بريئاً ومن أجل الطوى رمانى
أى رمانى بأمر كنت منه بريئاً وكان والدى منه بريئاً .

أحدٍ : ويقال : إذا كان العبدُ قاعداً فواحدٌ عن يمينه يكتب خيراتِه ، وواحدٌ على يساره يكتب معاصيه ، وإذا قام فواحدٌ عند رأسِه وواحد عند قدَمِه ، وإذا كان ماشياً فواحدٌ قائم بين يديه وآخرُ خَلْفَه .

ويقال : هما اثنان بالليل لـكلِّ واحدٍ ، واثنان بالنهار .

ويقال : بل الذى يكتب الخيراتِ اليومَ يكون غيره غداً ، وأمّا الذى يكتب الشر والمعصية بالأمس فإنه يكون كاتباً للطاعة غداً حتى يشهد طاعتك .

ويقال : بل الذى يكتب المعصية اثنان ؛ كل يوم اثنان آخران وكل ليلةٍ اثنان آخران لئلا يُعْلَمَ من مساويك إلا القليل منها ، ويكون عِلْمُ المعاصى متفرقاً فيهم[1] .

قوله جل ذكره : « وجاءَتْ سَكْرَةُ الموتِ بالحقِّ ذلك ما كُنْتَ منه تحيد » .

إذا أشرفت النَّفْسُ على الخروجِ من الدنيا فأحوالُهم مختلفة ؛ فمنهم مَنْ يزداد فى ذلك الوقت خوفُه ولا يَتَبيَّنُ إلاعند ذهابِ الروح حالَه . ومنهم مَنْ يُكاشَفُ قبلَ خروجه فيسكن رَوْعُه ، ويُحْفَظُ عليه عَقْلُه[2] ، ويتم له حضورُه وتمييزُه ، فيُسْلِمَ الرُّوحَ على مَهَلٍ مِنْ غير استكراهٍ ولا عبوس . . ومنهم ، ومنهم . . وفى معناه يقول بعضهم :

أنا إنْ مِتُّ ـ والهوى حشو قلبي ـ فبداءِ الهـوى يموت الـكرامُ

ثم قال جل ذكره : « ونُفِخَ فى الصُّورِ ذلك يومُ الوعيد * وجاءَتْ كلُّ نَفْسٍ معها سائقٌ وشهيدٌ » .

سائقٌ يسوقها إمّا إلى الجنة أو إلى النار ، وشهيدٌ يشهد عليها بما فعلت من الخير والشرِّ .

---

(١) واضح من ذلك مقدار ما يبثه الصوفية فى نفوس العصاة من تفاؤل ورجاء أملاً فى فتح باب التوبة .
(٢) سقطت (عقله) من النسخة م ، وموجودة فى ص .

ويقال له : « لقد كُنْتَ فى غفلةٍ من هذا فَكَشَفْنا عنكَ غطاءك فبصرُكَ اليومَ حديدٌ » .

المؤمنون — اليومَ بَصَرُهم حديد ؛ يُبْصرون رُشْدَهم ويحذرون شرَّهم .

والكافر يقال له غداً : « بصركَ اليومَ حديد » أى : ها أنت عَلِمْتَ ما كنتَ فيه من التكذيب ؛ فاليومَ لا يُسْمَعُ منكَ خطابٌ ، ولا يُرْفَعُ عنكَ عذابٌ .

قوله جل ذكره : « وقال قرينُه هذا ما لدىَّ عتيد » .

لا يَخْفَى من أحوالهم شىء إلا ذُكِرَ ، إنْ كان خيراً يُجَازون عليه ، وإن كان غير خيرٍ يُحَاسَبون عليه : إمَّا برحمةٍ منه فيغفر لهم وينجون ، وإمَّا على مقدار جُرْمِهم يُعَذَّبون .

« أَلْقِيا فى جهنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عنيد *
مَنَّاعٍ للخيرِ مُعْتَدٍ مُرِيب » .

منَّاعٍ للزكاة المفروضة .

ويقال : يمنع فَضْلَ مائِه وفَضْلَ كَلَئِه عن المسلمين .

ويقال : يمنع الناسَ من الخيرِ والإحسانِ ، ويسىء القول فيهما حتى يُزَهِّدَ الناسَ فيهما .

ويقال : المناعُ للخير هو المِعْوانُ على الشَّرِّ .

ويقال : هو الذى قيل فيه : « ويمنعون الماعون »(١) .

« مريب » : أى يُشَكِّكُ الناسَ فى أمره لأنه غير مخاص ، ويُلَبِّسُ على الناس حالَه لأنه منافق .

قوله جل ذكره : « قال قرينُه ربَّنا ما أَطْغَيْتُه ولكن كان فى ضلالٍ بعيد » .

يقول المَلَكُ من الحَفَظَةِ المُوَكَّلُ به : ما أَعْجَلْتُه على الزَّلَّة .

---

(١) آية ٧ سورة الماعون .

وإنما[1] كتبتُها بعد ما فَعَلَهَا — وذلك حين يقول الكافر : لم أفعلْ هذا ، وإنما أعجلنى بالكتابة علىّ ، فيقول المَلَكُ : ربَّنا ما أعجلته ..

ويقال : هو الشيطانُ المقرونُ به ، وحين يلتقيان فى جهنم يقول الشيطانُ : ما أكرهته على كفره ، ولكنه فعل — باختياره — ما وسوسْتُ به إليه .

فيقول جل ذكره : « قال لا تَخْتَصِموا لدىَّ وقد قَدَّمْتُ إليكم بالوعيد * ما يُبَدَّلُ القولُ لدىَّ وما أنا بظلاَّمٍ للعبيد » .

لا تختصموا لدىَّ اليومَ وقد أمَرْتُكم بالرُّشْدِ ونَهَيْتُكم عن الغَىِّ .

قوله جل ذكره : يومَ نقولُ لجهنَّمَ هل امتلأْتِ وتقول هل من مزيد » [2] .

« نقول لجهنّم ، « وتقول » : القولُ هنا على التوسُّع ؛ لأنه لو كانت جهنم ممن يجيب لقالت ذلك بل يُحْيِيها حتى تقولَ ذلك .

« هل من مزيد » : على جهة التغليظ ، والاستزادة من الكفار .

ويقال : بل تقول « هل من مزيد » : أى ليس فىَّ زيادة كقوله عليه السلام لمَّا قيل له :

يومَ فتح مكة : هل ترجع إلى دارك ؟ فقال : وهل ترك لنا عقيل داراً ؟ ! [3] أى لم يترك ، فإن الله — تعالى — يملأ جهنمَ من الكفارِ والعصاةِ ، فإذا ما أُخرِجَ العصاةُ من المؤمنين ازدادَ غيظُ الكفارِ حتى تمتلئْ بهم جهنم .

---

(١) هكذا فى ص وهى فى م (ما) والصواب ما أثبتنا .

(٢) عن قتادة عن أنس عن النبى (ص) قال : يلقّى فى النار وتقول هل من مزيد حتّى يضع قدمه فتقول قط قط . وفى رواية أبى هريرة : يقال لجهنم هل امتلأت وتقول : هل من مزيد فيضع الرب تبارك وتعالى قدمه عليها فتقول : قط قط (البخارى حـ ٣ ص ١٢٨) .

(٣) عن الزهرى عن على بن حسين عن عمرو بن عثمان عن أسامة بن زيد أنه قال زمن الفتح : يا رسول الله ، أين تنزل غداً ؟ قال النبى (ص) : وهل ترك لنا عقيل من منزل ؟ ثم قال : لا يرث المؤمن الكافر ولا يرث الكافر المؤمن (البخارى حـ ٣ ص ٤٢) .

قوله جل ذكره : « وأُزْلِفَتِ الجنَّةُ للمتقين غيرَ بعيد » .

يقال : إنَّ الجنَّةَ تُقَرَّبُ من المتقين ، كما أنَّ النارَ تُجَرُّ بالسلاسل إلى المحشر نحو المجرمين .

ويقال : بل تقرب الجنة بأن يسهل على المتقين حشرهم إليها . . وهم خواص الخواص .

ويقال : هم ثلاثةُ أصناف : قوم يُحْشَرون إلى الجنة مشاةً وهم الذين قال فيهم : « وسيق الذين اتقوا ربَّهم إلى الجنة زمراً[1] » — وهم عوام المؤمنين[2] وقوم يحشرون إلى الجنة ركبانا على طاعاتهم المصوَّرة لهم بصورة حيوان ، وهم الذين قال فيهم جَلَّ وعلا : « يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً »[3] — وهؤلاء هم الخــواص وأمَّا خاص الخاص فهم الذين قال عنهم : « وأزلفت الجنة للمتقين » أى تُقَرَّبُ الجنةُ منهم .

وقوله : « غير بعيد » تأكيدٌ لقوله : وأزلفت » .

ويقال : « غير بعيد » : من العاصين تطييباً لقلوبهم .

قوله جل ذكره : « هذا ماتوعَدون لكلِّ أوَّابٍ حفيظ » .

الأوَّابُ : الراجعُ إلى الله فى جميع أحواله .

« حفيظ » : أى محافظ على أوقاته ، (ويقال محافظ على حواسه فى الله حافظ لأنفاســه مع الله)[4] .

قوله جل ذكره : « مَنْ خَشِىَ الرحمنَ بالغيبِ وجاء بقلبٍ مُنيب » .

الخشيةُ من الرحمنِ هى الخشية من الفراق . (والخشية من الرحمن تكون مقرونة بالأُنْس ؛ ولذلك لم يقل : من خشى الجبَّار ولا من خشى القهَّار)[5] .

---

(١) آية ٧٣ سورة الزمر .
(٢) ما بين القوسين موجود فى م وغير موجود فى ص .
(٣) آية ٨٥ سورة مريم .
(٤) ما بين القوسين موجود فى ص وساقط فى م .
(٥) ما بين القوسين موجود فى ص وساقط فى م .

ويقال : الخشية من الله تقتضى العلم بأنه يفعل مايشاء وأنه لا يسْأَلُ عمّا يفعل .

ويقال : الخشيةُ ألطفُ من الخوف ، وكأنها قريبةٌ من الهيبة[1] .

« وجاء بقلب منيب » : لم يقل بنَفْسٍ مطيعة بل قال : بقلبٍ منيب ليكونَ للعصاةِ فى هذا أملٌ ؛ لأنهم — وإن قَصَّروا بنفوسهم وليس لهم صِـــدْقُ القَدَمِ — فلهم الأسفُ بقلوبهم وصدق الندَم .

قوله جل ذكره : « ادخلوها بسلامٍ ذلك يومُ الخلود » .

أى يقـال لهم : ادخلوها بسلامةٍ من كل آفةٍ ، ووجودِ رضوان ولا يسخطُ عليكم الحقُّ أبداً .

ومنهم مَنْ يقول له المَلَكُ : ادخلوها بسلامٍ ، ومنهم من يقول له : لـكم ما تشاءون فيها — قال تعالى :

« لهم ما يشاءون فيها ولَدَيْنا مَزيد » .

لم يقل : « لهم ما يسألون » بل قال : « لهم ما يشاءون » : فكلُّ ما يخطر ببالهم فإنَّ سؤلَهم يتحقق لهم فى الوَهْلة ، وإذا كانوا اليوم يقولون : ما يشاء الله فإنَّ لهم غداً منه الإحسان . . وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟

« ولدينا مزيد » : اتفق أهل التفسير على أنه الرؤية ، والنظر إلى الله سبحانه[2]. وقومٌ يقولون : المزيد على الثواب فى الجنة — ولا منافاة بينهما .

---

(١) يقول الدقاق شيخ القشيرى : هى مراتب : الخوف والخشية والهيبة : فالخوف من شرط الإيمان « وخافونِ إن كنتم مؤمنين » والخشية من شرط العلم : « إنَّما يخشى الله من عباده العلماء » . والهيبة من شرط المعرفة : « ويحذركم الله نفسه » . وقال أبو القاسم الحكيم : الخوف على ضربين : رهبة وخشية ؛ فصاحب الرهبة يلتجىء إلى الهرب إذا خاف وصاحب الخشية يلتجىء إلى الرب (الرسالة ص ٦٥) .

(٢) أجمعوا على أن الله تعالى يُرى بالأبصار فى الآخرة ، وأنه يراه المؤمنون دون الكافرين ، لأن ذلك كرامة من الله تعالى لقوله : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة» . وجوَّزوا الرؤية بالعقل وأوجبوها بالسمع ؛ وإنما جاز فى العقل لأنه موجود ، وكل موجود فتجوز رؤيته إذا وضع الله سبحانه فينا الرؤية له ، ولو لم تكن الرؤية جائزة عليه لكان سؤال موسى عليه السلام : «أرنى أنظر إليك» جهلاً وكفراً . وجاء السمع بوجوبه فى مثل :=

قوله جل ذكره : « وكم أهلكنا قبلهم مِنْ قَرْنٍ هم أشَدُّ منهم بَطْشًا فَنَقَّبوا فى البلادِ . . هل من محيص ؟ » .

أى اعْتَبِروا بالذين تَقَدَّموكم ؛ انهمكوا فى ضلالتهم ، وأصَرُّوا ، ولم يُقْلِعوا . . فأهلكناهم وما أَبْقَيْنَا منهم أحداً .

قوله جل ذكره : « إنَّ فى ذلك لَذِكْرَى لِمَنْ كان له قَلْبٌ أو أَلْقَى السَّمْعَ وهو شهيد » .

قيل : « لمن كان له قلب » : أى من كان له عقل . وقيل : قلب حاضر . ويقال قلبٌ على الإحسان مُقْبِل . ويقال : قَلْبٌ غيرُ قُلَّب .

« أو ألقى السمع » : استمع إلى ما ينادى به ظاهرُه من الخَلْقِ وإلى ما يعود إلى سِرِّه من الحق[1] . ويقال : لمن كان له قلبٌ صاحٍ لم يَسْكر[2] من الغفلة . ويقال : قلبٌ يعد أنفاسَه مع الله . ويقال : قلبٌ حيٌّ بنور الموافقة . ويقال : قلبٌ غيرُ مُعْرِضٍ عن الاعتبار والاستبصار .

ويقال : « القلبُ — كما فى الخبر — بين إصبعين من أصابع الرحمن » : أى بين نعمتين ؛ وهما ما يدفعه عنه من البلاء ، وما ينفعه به من النَّعماء ، فكلُّ قلبٍ مَنَعَ الحقُّ عنه الأوصافَ الذميمةَ وأَلْزَمَه النعوتَ الحميدةَ فهو الذى قال فيه : « إن ذلك لذكرى لمن كان له قلب » . وفى الخبر: « إن لله أوانىَ ألاَ وهى القلوب ، وأقربها من الله مارقَّ وصفا » شبَّه القلوب بالأوانى ؛ فقلبُ الكافرِ منكوسٌ لا يدخل فيه شيء ، وقلبُ المنافقِ إناء مكسور ، ما يُلقَى فيه من أوَّله يخرج من أسفله ، وقلبُ المؤمنِ إناء صحيح غير منكوس يدخل فيه الإيمانُ ويَبْقَى .

=« كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون» . « ووجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة» .. وقوله «ص» .. إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لاتضامون فى رؤيته يوم القيامة» . وأجمعوا على أنه لا يرى فى الدنيا بالأبصار ، ولكن بالقلوب ؛ لأن الدنيا دار فناء ولا يُرَى الباقى فى الدار الفانية .. وهى على العموم رؤية بلا كيفية ولا إحاطة .

(١) هكذا فى م وهى فى ص (الخلق) وهى خطأ فى النسخ .

(٢) هكذا فى م وهى فى ص (يسكن) وهى خطأ فى النسخ .

ولكنَّ هذه القلوبَ مختلفةٌ ؛ فقلبٌ مُلَطَّخٌ بالانفعالات وفنون الآفات ؛ فالشرابُ الذى يُلْقَى فيه يصحبه أثر ، ويتلطخ به .

وقلبٌ صفا من الكدورات وهو أعلاها قَدْراً .

قوله جل ذكره : « ولقد خَلَقْنا السمواتِ والأرضَ وما بينهما فى ستةِ أيامٍ ومَا مَسَّنا من لُغُوبٍ » .

وأَنى يَمَسُّه اللُّغوبُ . . وهو صَمَدٌ لا يحدث فى ذاته حادث ؟ !

قوله جل ذكره : « فاصْبِرْ على ما يقولون وسَبِّحْ بِحَمْدِ ربِّكَ قبلَ طلوعِ الشمسِ وقبلَ الغروب » .

إنْ تَأَذَّى سَمْعُكَ بما يقولون فىَّ من الأشياء التى يتقدَّس عنها نَعْتِى فاصبِرْ على ما يقولون ، واسترِوحْ عن ذلك بتسبيحك لنا .

« ومن الليلِ فَسَبِّحْه وأدبارَ السُّجودِ » .

فالليلُ وقتُ الخلوة — والصفاء فى الخلوة أَتَمُّ وأصفَى .

قوله جل ذكره : « واستمِعْ يومَ يُنادى المناد من مكانٍ قريبٍ * يومَ يَسمعُون الصيحةَ بالحقِّ ذلك يومُ الخروج » .

النداءُ من الحقِّ — سبحانه — واردٌ عليهم ، كما أنَّ النجوى تحصل دائماً بينهم . والنداءُ الذى يَرِدُ عليهم يكون بغتةً ولا يكون للعبد فى فِعْلِه اختيارٌ .

قوله جل ذكره : « إنَّا نحن نُحيي ونُميتُ وإلينا المصير » .

إلينا مَرْجِعُ الكُلِّ ومصيرُهم .

قوله جل ذكره : « يومَ تَشَقَّقُ الأرضُ عنهم سِراعاً
ذلكَ حَشْرٌ علينا يسير » .

هذا يسيرٌ علينا : سواء خلقناهم جملةً أو فرادى[1] ؛ قال تعالى : « ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفْسٍ واحدة »[2] .

قوله جل ذكره : « نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم
بجبَّارٍ فذَكِّرْ بالقرآنِ مَنْ يخافُ
وعيدِ » .

ما أنت عليهم بمُتَسَلِّطٍ تُكْرِههم .

وإنما يُؤَثِّرُ التخويفُ والإنذارُ والتذكيرُ فى الخائفين ، فأمّا مَنْ لا يخاف فلا ينجحُ فيه التخويفُ — وطيرُ السماء على أُلاَّفها تقعُ .

---

(١) هكذا فى ص وهى فى م (فرداً)
(٢) آية ٢٨ سورة لقمان .

سُورَة الذّارِيَات

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

بسم الله كلمةٌ عزيزةٌ مَنْ ذَكَرَها عزَّ لسانُه ، ومَنْ عَرَفَها اهتزَّ بصحبتِها جنانُه .

« بسم الله » كلمةٌ للألبابِ غلاّبةٌ ، كلمة لأرواح المحبِّين سلاّبةٌ .

قوله جل ذكره : « والذاريات ذَرْواً * فالحاملات وِقْراً * فالجاريات يُسْراً * فالمُقَسِّمات أمراً * إنَّما تُوعَدون لصادِقٌ * وإنَّ الدينَ لواقع » .

والذارياتُ : أى الرياح الحاملات « وقراً » أى السحاب « فالجاريات » أى السفن . « المقسمات أمراً » أى الملائكة .. أقسم بربِّ هذه الأشياء و بقدرته عليها . وجواب القسم : « إنما توعدون لصادق .. » والإشارة فى هذه الأشياء أن من جملة الرياح . الرياح الصيحية[1] تحمل أنينَ المشتاقين إلى ساحات العزَّةِ فيأتى نسيمُ القربةِ إلى مَشَامِّ أسرارِ أهل المحبة .. فعندئذ يجدون راحةً من غلَبَات اللوعة ، وفى معناه أنشدوا :

و إنى لأستهدى الرياحَ نسيمكم إذا أقبلَتْ من أرضكم بهبوب
وأسألها حمْلَ السلام إليكمو فإنْ هى يوماً بلَّغتْ .. فأجيبى

ومن السحاب ما يُمطر بعتاب الغيبة ، ويُؤْذِن بهواجم النَّوى والفرْقة . فإذا عَنَّ لهم من ذلك شىء أبصروا ذلك بنور بصائرهم ، فيأخذون فى الابتهال ، والتضرُّع فى السؤال استعاذةً منها .. كما قالوا :

---

(١) إشارة إلى صيحاتهم عند اشتداد الوجد .

أقول — وقد رأيتُ لها سحاباً من الهجران مقبلة إلينا
وقد سحَّت عزاليها[1] بِبَيْنٍ حوالينا الصدودُ ولا علينا

وكما قد يَحْمِلُ الملاَّحُ بعضَ الفقراء بلا أجرة طمعاً فى سلامة السفينة — فهؤلاء[2] يرْجُون أن يُحمَلوا فى فُلْكِ العناية[3] فى بحار[4] القدرة عند تلاطم الأمواج حول السفينة .

ومِنَ الملائكةِ مَنْ يتنزَّلُ لتفقد أهل الوصلة ، أو لتعزية أهل المصيبة ، أو لأنواعٍ من الأمور تتصل بأهل هذه القصة ، فهؤلاء القوم يسألونهم عن أحوالهم : هل عندهم خيرٌ عن فراقهم ووصالهم — كما قالوا :

بربِّكما يا صاحبيَّ قِفَا بيا أسائلكم عن حالهم وتسألانيا

« إنما توعدون لصادق . وإن الدين لواقع » : الحقُّ — سبحانه — وَعَدَ المطيعين بالجنة ، والتائبين بالرحمة ، والأولياء بالقربة ، والعارفين بالوصلة ، ووَعَدَ أرباب المصائب بقوله : « أولئك عليهم صلواتٌ من ربهم ورحمة[5] » وهم يتصدون لاستبطاء حُسْنِ الميعاد — واللهُ رءوفٌ بالعباد .

قوله جل ذكره : « والسماء ذاتِ الحبُكِ * إنَّكم لفى قولٍ مُّخْتلفٍ * يُؤْفَكُ عنه مَنْ أُفِكَ »

« ذات الحبك » أى ذات الطرائق الحسنة — وهذا قَسَمٌ ثانٍ ، وجوابه : « إنكم لفى قول مختلف » يعنى فى أمر محمدٍ صلى الله عليه وسلم فأحدهم يقول : إنه ساحر ، وآخر يقول : مجنون ، وثالث يقول : شاعر . . وغير ذلك .

---

(١) الأعزل من السحاب مالا مطر فيه (الوسيط حـ ٢ ص ٦٠٥) .

(٢) يقصد الصوفية .

(٣) هكذا فى ص وهى فى م (الكفاية) .

(٤) هكذا فى ص وهى فى م (محال) .

(٥) إشارة إلى الآيتين ١٥٦ ، ١٥٧ من سورة البقرة .
« الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون » : «أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » .

والإشارة فيه إلى القسم بسماء التوحيد ذات الزينة بشمس العرفان ، وقمر المحبة ، ونجوم القُرب .. إنكم فى باب هذه الطريقة لفى قولٍ مختلف ؛ فمِنْ مُنْكِرٍ يجحد الطريقة ، ومِنْ مُعترِضٍ يعترض على أهلها يتوهَّم نقصانهم فى القيام بحق الشريعة[1] ، ومن متعسِّف[2] لايخرج من ضيق حدود العبودية ولا يعرف خبراً عن تخصيص الحقِّ أولياءه بالأحوال السنية ، قال قائلهم :

قد سَحبَ الناسُ أذيال الظنون بنا وفرَّقَ الناسُ فينا قولهم فِرقَا
فكاذبٌ قد رمى بالظنِّ غَيْرتكم وصادقٌ ليس يدرى أنه صَدَقَا

قوله جل ذكره : « يُؤْفَكُ عنه مَنْ أُفِكَ » .

أى يُصْرَفُ عنه مَنْ صُرِف ، وذلك أنهم كانوا يصدُّون الناسَ عنه[3] ويقولون: إنه لمجنون .

قوله جل ذكره : « قُتِلَ الخرَّاصُون * الذين هُم فى غَمْرَةٍ سَاهُون » .

لُعِنَ الكذَّابون الذين هم فى غمرة الضلالة وظلمة الجهالة ساهون لاهون .

قوله جل ذكره : « يَسْأَلونَ أيَّانَ يومُ الدِّينِ * يومَ هُم على النارِ يُفْتَنُون * ذوقوا فِتْنَتَكم هذا الذى كُنتم به تَسْتَعْجِلون » .

يسألون أيان يومُ القيامة ؟ يستعجلون بها ، فلأَجْلِ تكذيبهم بها كانت نفوسُهم لاتسكن

---

(١) نلاحظ هنا حرص الإمام القشيرى على أن أرباب الحقيقة لايتنكرون بحال من الأحوال لأى حق من حقوق الشريعة .

(٢) هكذا فى ص وهى فى م (متقشف) التى هى خطأ فى النسخ .

(٣) واضح أن القشيرى يرى الضمير فى (عنه) التى فى الآية عائداً إلى الرسول (ص) . ويعيده بعض المفسرين إلى القرآن أو إلى الدين أو إلى (ما توعدون) . ومعنى عبارة القشيرى أنه يصرف عنه من صرفه فى سابق علمه .

إليها . ويوم هم على النار يُحْرَقون ويُعَذَّبون يقال لهم : فاسوا عقوبتكم ، هذا الذى كنتم به تستعجلون .

والإشارة فيه إلى الذين يَكْذِبون فى أعمالهم لِمَا يتداخلهم من الرياء ، ويكذبون فى أحوالهم لِمَا يتداخلهم من الإعجاب ، ويكذبون على الله فيما يدَّعونه من الأحوال . . قُتِلُوا ولُعِنوا . . وسيلقون غِبَّ تلبيسهم بما يُحْرَمون من اشتمام رائحة الصدق .

قوله جل ذكره : « إنَّ المتقين فى جناتٍ وعيون * آخذين ما آتاهم ربُّهم إنهم كانوا قبل ذلك مُحْسِنين » .

فى عاجلهم فى جنّاتِ وَصْلِهم ، وفى آجلهم فى جنّاتِ فَضْلِهم ؛ فغداً درجات ونجاة ، واليومَ قُرُبات ومناجاة ، فما هو مؤجَّلٌ حظٌّ أنفسِهم ، وما هو معجّلٌ حقٌّ ربِّهم . هم آخذين اليوم ما آتاهم ربهم ؛ يأخذون نصيبهم منه بِيَدِ الشكر والحمد ، وغداً يأخذون ما يعطيهم ربُّهم فى الجنة من فنون العطاء والرِّفد .

ومَنْ كان اليومَ آخذه بلا واسطة من حيث الإيمان والإتقان ، وملاحظة القسمة فى العطاء والحرمان . كان غداً آخذه بلا واسطة فى الجنان عند اللقاء والعيان . « إنهم كانوا قبل ذلك محسنين » ؛ كانوا ولكنهم اليوم بانوا[1] ولكنهم بعد ما أعدناهم حصلوا واستبانوا . . فهم كما فى الخبر : « أعبد الله كأنك تراه . . . »[2] .

قوله جل ذكره : « كانوا قليلًا من الليل ما يَهْجَعون * وبالأسحارِ هُم يستغفرون » .

---

(١) العارف كائن بائن (هذا رأى يحيى بن معاذ : رسالة القشيرى ص ١٥٧) والمعنى أنه وإن بدا بين الناس يشاركهم ويعاشرهم إلا أنه مشتغل عنهم بمعروفه لا يُشغل عنه طرفة عين .

(٢) جاء فى الحلية عن زيد بن أرقم : «أعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، واحسب نفسك فى الموتى ، واتق دعوة المظلوم » كذلك رواه الطبرانى والبيهقى عن معاذ بلفظ : «أعبد الله ولا تشرك به شيئاً واعمل كأنك تراه ، واعدد نفسك فى الموتى » .

المعنى إمّا : كانوا قليلًا وكانوا لا ينامون إلا بالليل (كقوله تعالى : « وقليلٌ من عبادى الشكور »[1] أو : كان نومُهم بالليل قليلًا ، أو :)[2] كانوا لا ينامون بالليل قليلًا[3] .

« وبالأسحار هم يستغفرون » : أخبر عنهم أنهم — مع تهجدهم ودُعائهم — يُنْزِلون أنفسَهم فى الأسحار منزلةَ العاصين ، فيستغفرون استصغاراً لِقدْرِهم ، واستحقاراً لِفعْلهم .

والليلُ . . للأحباب فى أُنْسِ المناجاة ، وللعصاة فى طلب النجاة . والسَّهرُ لهم فى لياليهم دائمًا ؛ إمّا لفَرْطِ أَسَفٍ أو لِشدَّةِ لَهَفٍ ، وإمّا لاشتياقٍ أو لفراقٍ — كما قالوا :

كم ليـلةٍ فيك لاصباحَ لها ... أفْنَيْتُها قابضاً على كبدى

قد غُصَّت العينُ بالدموعِ وقد ... وَضَعْـتُ خدى على بنان يدى

وإمّا لـكمال أُنْسٍ وطيب روح — كما قالوا :

سقى اللهُ عيشاً قصيراً مضى ... زمانَ الهوى فى الصبا والجون

لياليه تحـكى انسدادَ لحاظٍ ... لعَيْنِى عند ارتداد الجفون

قوله جل ذكره : « وفى أموالهم حقٌّ للسائِل والمحروم » .

السائلُ هو المُتَـكَفِّف ، والمحرومُ هوالمتعفِّف — ويقال هوالذى يحرم نفسه بترك السؤال.. هؤلاء هم الذين يُعْطَون بشرط العلم[4] ، فأمّا أصحابُ المروءة : فغير المستحق لمالهم أَوْلَى من المستحق[5] . وأما أهل الفترة فليس لهم مالٌ حتى تتوجه عليهم مطالبة ؛ لأنهم أهل الإيثار — فى الوقت — لـكلِّ ما يُفْتَحُ عليهم به .

---

(١) آية ١٣ سورة سبأ .

(٢) ما بين القوسين موجود فى م وسقط فى ص .

(٣) يقول النسفى : ولا يجوز أن تكون ما نافية على معنى أنهم لا يهجعون من الليل قليلا ويحيونه كله لأن ما النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها فلا تقول : زيداً ماضربت (النسفى حـ٤ ص ١٨٤) .

(٤) أى حسب شرائط الشريعة فى الزكاة .

(٥) هكذا فى م وهى مشطوبة بخط فوقها فى ص ... والعبارة قد تبدو غامضة ، وقد يكون مراد القشيرى — إن صحت عنه العبارة هكذا — أن أهل المروءة لايتقيدون فى عطائهم بما تفرضه الشريعة للمستحقين وحسب فإن المستحق يأخذ ما هو حق له ، وإنما يعطون دائماً ويمنحون دائماً بغض النظر عن استحقاق أو عدمه .

قوله جل ذكره : « وفى الأرضِ آياتٌ للموقِنِين * وفى أَنفُسِكم أفلا تُبْصِرُون * وفى السماء رِزْقُكُم وما توعَدون » .

كما أنَّ الأرضَ تحمل كلَّ شيء فكذلك العارف يتحمَّل كلَّ أحد .

ومَنْ استثقل أحدًا أو تبرَّمَ برؤية أحدٍ فلِغَيْبته عن الحقيقة ، ولمطالعته الخَلْقَ بعين التفرقة — وأهلُ الحقائق لا يتصفون بهذه الصفة .

ومن الآيات التى فى الأرض أنها يُلْقَى عليها كلُّ قذارةٍ وقمامة — ومع ذلك تُنْبِتُ كلَّ زَهْرٍ ونَوْرٍ .. كذلك العارف يتشرب كلَّما يُسْقَى من الجفاء ، ولا يترشح إلاَّ بكل خُلُقٍ عَلِيّ وشيمةٍ زكيَّة[1] .

ومن الآيات التى فى الأرضِ (أنَّ ما كان منها سبخًا يُتْرَكُ ولا يُعَمَّر لأنه لا يحتمل العمارة — كذلك الذى لا إيمانَ له بهذه الطريقة يُهْمَل ، فمقابلته بهذه الصفة)[2] كإلقاء البذر فى الأرض السبخة .

« وفى أنفسكم أفلا تبصرون » : أى وفى أنفسكم أيضًا آيات ، فمنها وقاحتها فى همتها[3] ، ووقاحتها فى صفتها ، ومنها دعاواها العريضة فيما ترى منها وبها ، ومنها أحوالها المريضة حين تزعم أنَّ ذَرَّةً أو (. . .)[4] بها أو منها .

« وفى السماء رزقكم وما توعدون » : أى قسمة أرزاقكم فى السماء ، فالملائكة الموكَّلون بالأرزاق ينزلون من السماء .

ويقال : السماء هاهنا المطر ، فبالمطر ينبت الحَبُّ والمرعى .

---

(١) يقول الجنيد : « الصوفى كالأرض يطرح عليها كل قبيح ولا يخرج منها إلا كل مليح » ، وقال أيضا : « إنه كالأرض يطؤها البر والفاجر » (الرسالة ص ١٣٩) .

(٢) ما بين القوسين موجود فى م وساقط فى ص .

(٣) هكذا فى م وهى فى ص (صمتها) ويبدو أن الهاء اشتبهت على الناسخ .

(٤) مشتبهة فى النسختين .

ويقال : على رب السماء أرزاقكم لأنه ضَمِنَها .

ويقال : قوله : « وفى السماء رزقكم » وها هنا وقف ثم تبتدئ : « وما توعدون » .

قوله جل ذكره : « فَوَرَبِّ السماء والأرضِ إنَّهُ لحقٌّ مثل ما أنكم تنطقون » .

أى : إنَّ البعثَ والنشرَ لَحَقٌّ .

ويقال : إنَّ نصرى لمحمدٍ ولدينى ، وللذى أتاكم به من الأحكام — لحقٌّ مثل ما أنَّكم تنطقون .

كما يقال : هذا حقٌّ مثل ما أنك هاهنا .

ويقال : معناه : « أنَّ اللهَ رازقُكم » — هذا القولُ حقٌّ مثلما أنكم إذا سُئِلْتُم : مَنْ ربُّكم ؟ ومَنْ خالقكم ؟ قلتم : الله . . فكما أنكم تقولون : إن الله خالق — وهذا حقٌّ . . كذلك القولُ بأَنَّ اللهَ رازقٌ — هو أيضًا حقٌّ .

ويقال : كما أنَّ نُطْقَكَ لا يتكلم به غيرُك فرزقُكَ لا يأكله غيرك .

ويقال : الفائدة والإشارة فى هذه الآية أنه حال برزقك على السماء ، ولا سبيلَ لك إلى العروج إلى السماء لتشتغلَ بما كلفك ولا تتمنَّى فى طلب مالا تصل إليه .

ويقال : فى السماء رزقكم ، وإلى السماء يُرْفَعُ عَمَلُكُم . . فإنْ أرَدْتَ أنْ ينزلَ عليك رزقُك فأَصْعِدْ إلى السماء عملَكَ — ولهذا قالوا : الصلاةُ قَرْعُ باب الرزق ، وقال تعالى : « وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقًا »(١) .

قوله جل ذكره : « هل أتاك حديثُ ضيفِ إبراهيم المُكرَمين » .

---

(١) آية ١٣٢ سورة طه .

قيل فى التفاسير : لم يكن قد أتاه خبرُهم قبل نزول هذه الآية .

وقيل : كان عددُهم اثنى عشر مَلَكاً . وقيل : جبريل وكان معه سبعة . وقيل : كانوا ثلاثة .

وقوله : « المكرمين » قيل لقيامه — عليه السلام — بخدمتهم . وقيل : أكرم الضيفَ بطلاقة وجهه ، والاستبشار بوفودهم .

وقيل : لم يتكلَّف إبراهيمُ لهم ، وما اعتذر إليهم — وهذا هو إكرام الضيف — حتى لا تكون من المضيف عليه مِنَّةٌ فيحتاج الضيف إلى تحملها .

ويقال : سمّاهم مكرمين لأن غير المدعوِّ عند الكرام كريم .

ويقال : ضيفُ الكرام لايكون إلا كريمًا .

ويقال : المكرمين عند الله .

قوله جل ذكره : « إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلامٌ قومٌ مُنكَرُون » .

أى سلَّمنا عليك (سلامًا) فقال إبراهيم : لكم منى (سلامٌ) .

وقولُهم : « سلامًا » أى لك منّا سلام ، لأنَّ السلامَ : الأمانُ .

« قومٌ مُنْكَرون » : أى أنتم قوم منكرون ؛ لأنه لم يكن يعرف مِثْلَهم فى الأضياف . ويقال : غرُبَاء .

قوله جل ذكره : « فَرَاغَ إلى أهْلِه فجاء بِعِجْلٍ سمين * فقَرَّبَه إليهم قال ألا تأكلون » .

أى عدَلَ إليهم من حيث لا يعلمون[1] ، وكذلك يكون الروغان[2] .

---

(١) أى من حيث لا يعلم الأضياف .

(٢) وكذلك يكون روغان الكرام : خفيةً حتى لا يُسبب لأضيافه الحرج .

« فجاء بعجلٍ سمين » فشواه ، وقرَّبه منهم وقال : « ألا تأكلون ؟ » وحين امتنعوا عن الأكل :

« فأوْجَسَ منهم خيفـــةً قالوا :
لا تَخَفْ ، وبَشَّروه بِغُلامٍ عليم » .

تَوَهَّمَ أنهم لصوص فقالوا له : « لا تخف » .

« وبشروه بغلام عليم » : أى بَشَّروه بالوَلد ، وببقاء هذا الوَلَدِ إلى أن يصير عليماً ؛ والعليم مبالغة من العلم ، وإنما يصير عليماً بعد كبره .

« فأقْبَلَتْ امرأتُه فى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ
وَجْهَهَا وقالت عجوزٌ عقيم » .

« فى صرَّة » أى فى صيحة شديدة ، « فصكت وجهها » أى فضربت وجهها بيدها كفعل النساء « وقالت عجوز عقيم » : أى أنا عجوز عقيم . وقيل : إنها يومَها كانت ابنةَ ثمانٍ وتسعين سنة ، وكان إبراهيمُ ابنَ تسع وتسعين سنة .

« قالوا كذلك قال رَبُّكِ إنَّه هو
الحكيمُ العليمُ » .

أى قلنا لكِ كما قال ربُّكِ لنا ، وأنْ نُخْبِرَكِ أنَّ اللهَ هو الُمحْكِمُ لأفعاله ، « العليمُ » الذى لا يخفى عليه شىء[1].

« قال فما خَطْبُكُمْ أيها المُرْسَلون ؟ » .

سألهم : ما شأنُكم ؟ وما أمرُكم ؟ وبماذا أُرْسِلْتُمْ ؟

« قالوا إنّا أُرْسِلْنا إلى قومٍ مُجْرِمين *
لِنُرْسِلَ عليهم حجارةً من طين *

---

(١) روى أن جبريل قال لها حين استبعدت : انظرى إلى سقف بيتك ، فنظرت فإذا جذوعه مورقة مثمرة .

مُسَوَّمةً عند ربِّكَ للمُسْرفين * فأخرجنا
من كان فيها من المؤمنين * فما وَجَدنا
فيها غير بيتٍ من المسلمين » .

هم قوم لوط ، ولم نجد فيها غيرَ لوطٍ ومَنْ آمن به .

قوله جل ذكره : « وتَرَكْنا فيها آيةً للذين يخافون
العذابَ الأليم » .

تركنا فيها علامةً يعتبر بها الخائفون — دون القاسية قلوبهم[1].

قوله جل ذكره : « وفى موسى إذ أرسلناه إلى فرعونَ
بسلطانٍ مُّبينٍ » .

أى بحجة ظاهرة باهرة[2].

. . . . إلى قوله : « والسماء بنيناها بأيدٍ وإنَّا لَمُوسِعون » : أى جعلنا بينها وبين الأرض سعة ، « وإنا لقادرون » : على أن نزيد فى تلك[3] السعة .

« والأرضَ فَرَشْناها فَنِعْمَ الماهدونَ » .

أى جعلناها مهاداً لكم . ثم أثنى على نَفْسه قائلاً : « فنعم الماهدون » .
دلَّ بهذا كلِّه على كمال قدرته ، وعلى تمام فضله ورحمته .

قوله جل ذكره : « ومِنْ كلِّ شىء خَلَقْنا زَوْجَيْنِ
لَعَلَّكم تَذَكَّرون » .

أى صنفين فى الحيوان كالذَّكرِ والأنثى ، وفى غير الحيوانِ ؛ كالحركة والسكون ، والسواد والبياض ، وأصناف المتضادات .

---

(١) قيل هى ماء أسود منتن .
(٢) هكذا فى م وهى فى ص (قاهرة) وكلاهما مقبول فى السياق .
(٣) هكذا فى م وهى فى ص (سلك) والسياق لايقبل هذه .

قوله جل ذكره: « فَفِرُّوا إلى اللهِ إنِّى لكم منه نذيرٌ مبين » .

أى فارجِعوا إلى الله — والإنسان بإحدى حالتين ؛ إمّا حالة رغبةٍ فى شىء ، أو حالة رهبةٍ من شىء ، أو حال رجاء ، أو حال خوف ، أو حال جَلْبِ نَفْعٍ أو رفع ضُرٍّ . . وفى الحالتين ينبغى أَنْ يكونَ فِرارُه إلى الله ؛ فإنَّ النافعَ والضارَّ هو اللهُ .

ويقال : مَنْ صَحَّ فِرارُه إلى اللهِ صَحَّ قَرارُه مع الله .

ويقال : يجب على العبد أَنْ يفرَّ من الجهل إلى العلم ، ومن الهوى إلى التُّقَى ، ومن الشّكِّ إلى اليقين ، ومن الشيطانِ إلى الله .

ويقال : يجب على العبد أَنْ يفرَّ من فعله — الذى هو بلاؤه إلى فعله الذى هو كفايته ، ومن وصفه الذى هو سخطه إلى وصفه الذى هو رحمته ، ومن نفسه — حيث قال : « ويحذركم اللهُ نفسه » إلى نفسه حيث قال : « ففروا إلى الله »[1] .

قوله جل ذكره : « ولا تجعلوا مع اللهِ إلهًا آخَرَ إنِّى لكم منه نذيرٌ مبين » .

أُخَوِّفُكم أليمَ عقوبته إنْ أشركتُم به — فإنَّه لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ به .

ثم بيَّنَ أنه على ذلك جرَت عادتُهم فى تكذيب الرُّسُل ، كأنهم قد توصوا فيما بينهم بذلك .

قوله جل ذكره : « فتَولَّ عنهم فما أنت بملوم » .

فأَعْرِضْ عنهم فليست تلحقك — بسوء صنيعهم — ملامة[2] .

قوله جل ذكره : « وذَكِّرْ فإنْ الذكرى تنفع المؤمنين » .

ذَكِّر العاصين عقوبتى ليرجعوا عن مخالفةِ أمرى ، وذَكِّر المطيعين جزيلَ ثوابى ليزدادوا

---

(١) هنا استخدم القشيرى ثقافته الكلامية فيما يتصل بصفات (الفعل) وصفات (الذات) (أنظر تقديمنا لكتاب التحبير فى التذكير) .

(٢) هكذا فى م وهى فى ص (ملايه) وهى خطأ من الناسخ .

طاعةً وعبادةً ، وذَكَّرْ العارفين ما صَرَفْتُ عنهم من بلائى ، وذكِّرْ الأغنياء ما أتحْتُ[1] لهم من إحسانى وعطائى ، وذَكِّر الفقراء ما أوجبْتُ لهم من صَرْفِ الدنيا عنهم وأَعْدَدْتُ لهم من لقائى .

قوله جل ذكره : « وماَخَلَقْتُ الجِـــنَّ والإنْسَ إلا لِيَعْبدونِ * ماأريد منهم مِنْ رِزْقٍ وما أريد أن يُطْعِمون * إنَّ اللهَ هو الرزّاقُ ذو القوةِ المتين » .

الذين اصطفيْتُهم فى آزالى ، وخَصَصْتُهم — اليومَ — بحسْنِ إقبالى ، ووعدْتُهم جزيلَ أفضالى — ما خَلَقْتُهم إلاَّ ليعبدونِ .

والذين سخطت عليهم فى آزالى ، وربطتهم — اليوم — بالخذلان فيما كلَّفتهم من أعمالى ، وخَلَقْتُ النارَ لهم — بحُكْمِ إلهيتى ووجوب حُكْمى فى سلطانى — ما خلقتهم إلا لعذابى وأنكالى ، وما أَعْدَدْتُ لهم من سلاسلى وأغلالى .

ما أريد منهم أَنْ يُطْعِموا أو يرزقوا أحداً من عبادى فإنَّ الرزَّاقَ أنا .

وما أريد أن يطعمونِ فإننى أنا اللهُ « ذو القوةِ » : المتينُ القُوَى .

قوله جلَّ ذكره : « فإن للذين ظلموا ذنوباً مثلَ ذنوبِ أصحابِهم فلا يستعجِلونَ » .

لهم نصيبٌ من العذابِ مثلَ نصيبِ مَنْ سَلَفَ من أصحابهم من الكفار فلِمَ استعجالُ العذابِ — والعذابُ لن يفوتَهم ؟ .

« فويلٌ للذين كفروا من يومِهم الذى يُوعَدون » .

وهو يوم القيامة .

---

(1) هكذا فى م وهى فى ص (الحث) وهى غير ملائمة للسياق .

سُورَةُ الطُّور

قوله جل ذكره: « بسم الله الرحمن الرحيم ».

« بسم الله » كلمةٌ ما استولت على قلبِ عارفٍ إلاّ تَيَّمَتْه بكشف جلاله، وما استولت على قلب مُتَأَفِّفٍ إلاّ أكرمته بلطف أفضاله.. فهى كلمةٌ قهّارةٌ للقلوب.. ولكن لا لكلِّ قلب، مُذْهِبَةٌ للكروب.. ولكن لا لكلِّ كرب.

قوله جل ذكره: « والطور * وكتابٍ مسطورٍ * في رَقٍّ منشور ».

أقسم الله بهذه الأشياء (التى فى مطلع السورة)، وجواب القَسَم قوله: « إن عذاب ربك لواقع ». والطورُ هو الجبلُ الذى كُلِّم عليه موسى عليه السلام؛ لأنه مَحَلٌّ قَدَمِ الأحبابِ وقتَ سماع الخطاب. ولأنه الموضعُ الذى سَمِعَ فيه موسى ذِكْرَ محمدٍ صلى الله عليه وسلم وذِكْرَ أُمَّته حتى نادانا ونحن فى أصلاب آبائنا فقال: أعطيتكم قبل أن تسألونى « وكتابٍ مسطور »: مكتوب فى المصاحف، وفى اللوح المحفوظ.

وقيل: كتاب الملائكة فى السماء يقرءون منه ما كان وما يكون.

ويقال: ما كتب على نفسه من الرحمة لعباده.

ويقال ما كتب من قوله: سبقت رحمتى غضبى[1].

ويقال: هو قوله: « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرضَ يرثها عبادى الصالحون »[2].

---

(١) فى الحديث أن الله كتب فى كتاب فهو عنده فوق العرش: «إن رحمتى سبقت غضبى».

(٢) آية ١٠٥ سورة الأنبياء.

ويقال : الكتاب المسطور فيه أعمال العباد يُعْطَى لعباده بأَيْمانهم وشمائلهم يوم القيامة .

« فى رقٍّ منشور »[1] : يرجع إلى ما ذكرنا من الكتاب .

« والبيتِ المعمور » .

فى السماء الرابعة[2] . ويقال : هو قلوب العابدين العارفين المعمورة بمحبته ومعرفته . ويقال : هى مواضع عباداتهم ومجالس خلواتهم . وقيل : الكعبة .

« و السقفِ المرفوع »

هى السماء . وقيل سماء هِمَمِهم فى الملكوت .

« و البحرِ المسجور »

البحار المملوءة .

أقسم بهذه الأشياء : إنَّ عذابَه لواقع . و عذابُه فى الظاهر ما توعَّدَ به عبادَه العاصين ، وفى الباطن الحجابُ بعد الحضور ، و السترُ بعد الكشف ، والردُّ بعد القبول .

« مَا لَهُ مِنْ دافع »

إذا ردَّ عَبْداً أبرمَ القضاءَ بردِّه :

إذا انصرفت نفسى عن الشىء لم تكن إليه بوجه آخرَ ـ الدهر ـ تُقْبِلُ

قوله جل ذكره : « يومَ تَمورُ السماءُ مَوْرًا * وتسير الجبالُ سـيرًا » .

« تمور » : أى تدور بمـا فيها ، وتسير الجبالُ عن أماكنها ، فتسير سيرا .

« فويلٌ يومئـذٍ للمُـكَذِّبين * الذين هم فى خوضٍ يلعبون » .

---

(١) الرق هو الصحيفة أو الجلد الذى يكتب فيه ، منشور لا ختم عليه أو لائح .

(٢) يقابل الكعبة معمور بالملائكة .

الويلُ كلمة تقولها العربُ لمن وقع فى الهلاك .

« فى خوضٍ يلعبون » : فى باطل التكذيب يخوضون .

« يومَ يُدَعُّون إلى نارِ جهنم دَعًّا * هذه النار التى كنتم بها تُكذِّبون * أفَسِحْرٌ هذا أمْ أنتم لا تُبصِرون » .

يومَ يُدْفَعون إلى النارِ دَفْعًا ، ويقال لهم : هذه هى النار التى كنتم بها تُكذِّبون . .

ثم يسألون : أهذا من قبيل السحر على ما قلتم أم غُطِّىَ على أبصاركم ؟ !

قوله جل ذكره : « اَصْلَوْها فاصبروا أو لاتصبروا سواءٌ عليكم إنَّما تُجْزَوْنَ ما كنتم تعملون »

والصبرُ على الجزاء فى العاقبة لاقيمة له ، لأنَّ عذابَهم عقوبةٌ لهم :

قوله جل ذكره : « إنَّ المتقين فى جنَّاتٍ ونعيم * فاكهين بمـا آتاهم ربُّهم ووقاهم ربُّهـم عـذابَ الجحيم » .

المتقون فى جنات ونعيم عاجلاً وآجلاً[1] . « فاكهين » أى مُعْجَبِين بمـا آتاهم ربهم وما أعطاهم .

ويقال : « فاكهون » : أى ذوو فاكهة : كقولهم رجل تامر أى ذو تمر ، ولا بنٌ أى ذو لَبَن .

قوله جل ذكره : « كُلُوا واشربوا هنيئًا بما كنتم تعملون »

قوم يصير لهم ذلك هنيئًا بطَعْمِهِ ولَذَّتِهِ ، وقومٌ يصـــير هنيئًا لهم سماعُ قولهم

---

(١) يشير القشيرى إلى النعيم العاجل الذى هو الوصلة والقربة . فمن المعلوم أن الصوفية يسلكون طريقهم فى حياة وسطى فيها قيامة وحشر ونشر وثواب ؛ وعذاب ، بما يشعرون ؛ من هجر ووصل ، وخوف ورجاء ، ونحو ذلك من الأحوال .

عنه — سبحانه — هنيئاً ، وقوم يصير لهم ذلك هنيا لينا وهم بمشهد منه :

فاشرب على وجهها كَفُوَّتِها مُدامةً فى الكئوس كالشَّرَرِ

« مُتَّكئين على سُرُرٍ مصفوفةٍ
وزَوَّجْنَاهم بحورٍ عين »

يظلُّون فى سرور وحبور ، ونصيب من الأُنْس موفور .

قوله جل ذكره : « والذين آمنوا واتَّبَعَتْهُم ذُرِّيَّتهم
بإيمانٍ أَلْحَقْنَا بهم ذُرِّيَّتهم »

يُكْمِلُ عليهم سرورهم بأَنْ يُلْحِق بهم ذُرِّيَّاتِهِم ؛ فإنَّ الانفرادَ بالنعمة عَمَّنْ القلبُ مشتغِلٌ به من الأهل والولد والذرية يُوجِب تَنَغُّص العيش .

وكذلك كلُّ مَنْ قلبُ الوليِّ يلاحِظه من صديقٍ وقريب ، ووليٍّ وخادم ، قال تعالى فى قصة يوسف : « وأتونى بأهلكم أجمعين »

وفى هذا المعنى قالوا :

إنِّى على جفواتها — فبربِّها وبكلِّ مُتَّصلٍ بها متوسِّلِ

لأُحبُّها ، وأحِبُّ منزلَها الذى نزلت به وأحب أهـل المنزلِ

« وما ألتناهم من عَمَلهم من شىء
كلُّ امرىء بما كَسَبَ رهين »

أى ما أنقصنا من أجورهم من شىء بل وفينا ووفَّرنا . وفى الابتداء نحن أَوْلَيْنا وزدنا على ما أعطينا .

« كلُّ امرىء بما كسب رهين » مُطَالَبٌ بعمله ، يوفىَّ عليه أجره بلا تأخير ، وإنْ كان ذنباً فالكثيرُ منه مغفور ، كما أنه اليوم مستور .

قوله جل ذكره : « وأمددناهم بفاكهةٍ ولحمْ مما يشتهون * يتنازعون فيها كأساً لا لَغْوٌ فيها ولا تأثيم »

أى لا يجرى بينهم باطلٌ ولا يؤثمهم كما يجرى بين الشَّرْبِ[1] فى الدنيا ، ولا يَذْهبُ الشُّرْبُ بعقولهم فيجرى بينهم ما يُخْرِجهم عن حَدِّ الأدبِ والاستقامة .

وكيف لا يكون مجلسهم بهذه الصفة ومن المعلوم مَنْ يسقيهم ، وهم بمشهد منه وعلى رؤية منه ؟ .

قوله جل ذكره : « ويطوف عليهم غِلمانٌ لهم كأنهم لؤلؤٌ مكنون » .

والقومُ عن الدارِ وعمَّن فى الدار مُخْتَطَفُون لاستيلاء ما يستغرقهم ؛ فالشرابُ يؤنِسُهم ولكن لا بِمَنْ يجانسهم[2] ؛ وإذا كان — اليومَ — للعبد وهو فى السجن فى طول عمره ساعةٌ[3] امتناع عن سماع خطاب الأغيار ، وشهود واحدٍ من المخلوقين — وإنْ كان ولداً عزيزاً ، أو أخاً شفيقاً — فمِنَ المحال أنْ يُظَنّ أنه يُرَدُّ من الأعلى إلى الأدنى . . إنْ كان من أهل القبول والجنة ، ومن المحال أن يظن أنه يكون غداً موسوماً بالشقاوة .

وإذا كان العبدُ فى الدنيا يقاسى فى غُرْبَته من مُقَاساة اللتيا والتى — فماذا يجب أن يقال إذا

---

(١) الشرب بالفتح القوم يشربون ويجتمعون على الشراب (الوسيط واللسان) .

(٢) هكذا فى م وهى أقرب إلى الصواب مما جاء فى ص (يجالسهم) باللام لأن السياق يتدعم بالأولى ؛ فالأنس الحاصل يومئذ بالحق لا بالخلق .

(٣) هذه محاولة طيبة يقدمها التفسير الإشارى عند بحث قضية التنعم فى الآخرة ونفى الحسيات عن هذا المتنعم ؛ لأنه إذا تصورنا أن العبد فى ساعة الفناء يكون محواً فيما يشهد ، وأن ذلك يحدث فى الدنيا .. فما بالك فى الآخرة وهم ناظرون إلى ربهم ؟ !

رجع إلى منزله ؟ أيبقى على ما كان عليه فى سفرته ؟ أم يلقى غير ما كان يقاسى فى سَفْرته ، ويتجرع غير ما كان يُسْقى من كاسات كُرْبته ؟ .

قوله جل ذكره : « وأقبل بعضُهم على بعضٍ يتساءلون *
قالوا إنّا كُنّا قَبْلُ فى أهلنا مشفقين *
فَمَنَّ اللّهُ علينا ووقانا عذابَ السّموم ».

لولا أنهم قالوا : « فَمَنّ اللّهُ علينا » لكانوا قد لاحظوا إشفاقَهم ، ولكن الحقّ - سبحانه - اختطفهم عن شُهود إشفاقهم ؛ حيث أَشهدهم مِنَّتَه عليهم حتى قالوا : « فَمَنَّ الله علينا ، ووقانا عذاب السموم ، إنّا كُنّا مِنْ قَبْلُ ندعوه إنه هو البرُّ الرحيم » .

قوله جل ذكره : « فَذَكِّرْ فما أنت بنعمة ربِّكَ بكاهنٍ ولا مجنون » .

أى أنهم يعلمون أنّكَ ليست بك كَهَانةٌ ولا جُنونٌ ، وإنما قالوا ذلك على جهة التسفيه ؛ فالسّفيهُ يبسط لسانَه فيمن يَسُبُّه بما يعلم أنه منه برىء .

« أم يقولون شاعِرٌ نتربَّصُ به رَيْبَ المَنُون * قُلْ تربّصوا فإنى معكم من المُتَرَبِّصِين » .

نتربص به حوادث الأيام ؛ فإنّ مِثْل هذا لا يدوم ، وسيموت كما مات مِنْ قبله كُهّانٌ وشعراء .

ويقال : قالوا : إنّ أباه مات شابّا ، ورَجَوْا أَنْ يموت كما مات أبوه ، فقال تعالى :

« قل تربصوا ... » فإننا منتظرون ، وجاء فى التفسير أنّ جميعَهم ماتوا . فلا ينبغى لأحد أن يُؤَمِّلَ موتَ أحدٍ . فَقَلّ مَنْ تكون هذه صنعتُه إلاّ سَبَقَتْه المَنيّةُ — دون أَنْ يُدْرِكَ ما يتمنّاه مِنْ الأمنيةّ .

قوله جل ذكره : « أم تأمُرُهم أحلامُهم بهـذا أم هم قومٌ طاغون » .

أتأمرهم عقولهم[1] بهذا ؟ أم تحملهم مجاوزة الحدّ فى ضلالهم وطغيانهم عَلَى هذا ؟

قوله جل ذكره : « أم يقولون تَقَوّله بل لا يؤمنون * فليأتوا بحديث مِثْله إنْ كانوا صادقين » .

إذا كانوا يزعمون أنك تقول هذا القول[2] من ذاتِ نَفْسك فليأتوا بحديثٍ مثلِه إنْ كانوا صادقين فيما رَمَوْكَ به !

قوله جل ذكره ، « أم خُلِقـوا من غـير شىء أم هم الخالقون ؟ » .

كلاّ ليس الأمرُ كذلك ، بل اللهُ هو الخالق وهم المخلوقون .

أم هم الذين خلقوا السمواتِ والأرضَ ؟ أم عندهم خزائن ربِّك .

— أى خزائن أرزاقه ومقدوراته ؟ أم هم المسيطرون المُتَسَلِّطون عَلَى الناس ؟ .

أم لهم سُلَّمٌ يرتقون فيه فيستمعون ما يجرى فى السموات ؟ فليأتِ مستمعُهم بسلطانٍ مبين .

ثم إنه سفّهَ أحلامهم فقال :

« أم له البناتُ ولكم البنون * أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مُثْقلون » .

أم تسألهم عَلَى تبليغ الرسالة أجرًا فهم مثقلون من الغُرْم والإلزام فى المال (بحيث يزهدهم ذلك فى اتباعك ؟ .

(١) كانت قريش يدعون أهل الأحلام والنُّهى - فإسناد الأحلام إلى الكفار فى الآية مجاز فيه سخرية منهم .

(٢) ما بين القوسين إضافة من جانبنا كى يتضح السياق - فالقشيرى كما هو واضح فى آخر السورة لا يعطى سوى كلمات مقتضبة ، وإنما يهتم بالجانب الإشارى - إن وجد .

أم عندهم علم الغيب فهم يكتبون ذلك ؟

أم يريدون كيدا[1] أي أن يمكروا بك مكراً فالذين كفروا هم المكيدون .

أم لهم إلهٌ غير الله يفعل شيئاً مما يفعل الله ؟ تنزيهاً له عن ذلك ! .

قوله جل ذكره : « وَإِنْ يَرَوْا كِسفًا من السماء ساقطًا يقولوا سحابٌ مركوم » .

أي إنْ رأَوْا قطعةً من السماء ساقطةً عليهم قالوا : إنه سحابٌ مركوم[2] رُكم بعضه عَلَى بعض والمقصود أنهم مهما رَأَوْا من الآيات لا يُؤمنون . ولو فتحنا عليهم باباً من السماء حتى شاهدوا بالعين لقالوا : إنما سُكِّرَتْ أبصارنا ، وليس هذا عياناً ولا مشاهدةً .

قوله جل ذكره : « فَذَرْهُم حتى يُلاقوا يَوْمَهم الذى فيه يُصعَقون * يومَ لا يُغْنِى عنهم كَيْدُهم شيئاً ولا هم يُنصَرُون » .

أي فأعرضْ عنهم حتى يُلاقوا يومَهم الذى فيه يموتون ، يوم لا يُغْنى عنهم كيدُهم شيئاً ، ولا يُمْنعون من عذابنا .

قوله جل ذكره : « وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك ولكنَّ أكثرَهم لا يعلمون » .

دونَ يوم القيامة لهم عذابُ القَتْلِ والسَّبْيِ ، وما نَزَلَ بهم من الهوان والخزى يوم بدر وغيره[3] .

« ولكن أكثرهم لا يعلمون » : أنَّ اللهَ ناصرٌ لدينه .

قوله جل ذكره : « واصْبِرْ لحُكمِ ربِّكَ فإنك بأَعْيُنِنَا » .

---

(١) يقال هو كيدهم للرسول والمؤمنين بدار الندوة — وقد يقصد به الكفار أجمعين .

(٢) فى ص (مكروم) وهى خطأ فى النسخ .

(٣) ويقال عذاب القبر لأنه يسبق القيامة .

أنت بمرأىً منَّا، وفى نصرةٍ منَّا .

« فإنك بأعيننا »[1] : فى هذا تخفيفٌ عليه وهو يقاسى الصبر .

« وسَبِّحْ بحَمْدِ ربِّكَ حين تقوم » .

أى تقوم للصلاةِ المفروضةِ عليك.

« ومن الليلِ فَسَبِّحْه وإدْبارَ النجوم »

قيل : المغرب والعشاء وركعتا الفجر .

وفى الآية دليل وإشارة إلى أنه أمَرَه أنْ يَذْكُرَه فى كلِّ وقت ، وألا يخلوَ وقتٌ من ذِكْره .

والصبرُ لِحكمِ اللهِ شديدٌ ، ولكن إذا عَرَفَ اطلاعَ الربِّ عليه سَهُلَ عليه ذلك وهان .

(١) التعبير بالجمع هنا قد يفيد زيادة الرعاية فى حق المصطفى صلوات الله عليه ، خصوصاً إذا تذكرنا أنه سبحانه قال فى حق موسى عليه السلام «ولتصنع على عينى» فالتعبير فى هذه الحالة بالمفرد ، والله سبحانه أعلم .

سُورَةُ النَّجْم

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » اسمٌ حليمٌ رحيمٌ ، يحلم[1] فيما يعلم ، ويستر مايبصر ويغفر[2] ، وعَلَى العقوبة يقْدِرْ ، يَرَى ويُخْفِي ، ويَعْلَم ولا يُبْدِي .

قوله جل ذكره : « والنجم إذا هَوَى * ما ضَلَّ صاحبكم وما غَوَى »

والثريا إذا سقط وغرب . ويقال : هو جِنْسُ النجوم أقسم بها .

(ويقال : هى الكواكب)[3] . ويقال : أقسم بنجوم القرآن عَلَى النبى صلى الله عليه وسلم

ويقال هى الكواكب التى تُرْمَى بها الشياطين .

ويقال أقسم بالنبى صلى الله عليه وسلم عند مُنْصَرفِهِ من المعراج .

ويقال : أقسم بضياء قلوب العارفين ونجوم عقولِ الطالبين .

وجوابُ القسَم قوله : « ما ضل صاحبكم وما غوى » : أى ما ضَلَّ عن التوحيد قط ، « وما غوى » : الغَيُّ : نقيضُ الرُّشد . . وفى هذا تخصيصٌ للنبى صلى الله عليه وسلم حيث تولَّى — سبحانه — الذَّبَّ عنه فيما رُمِىَ به ، بخلاف ماقال لنوح عليه السلام وأذِنَ له حتى قال : « ليس بى ضلالة[4] ، وهود قال : « ليس بى سفاهة[5] . . وغير ذلك ، وموسى

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (يكلم) وواضح أنها خطأ من الناسخ .

(٢) هكذا فى م وهى فى ص (يضر) وهى خطأ من الناسخ .

(٣) موجود فى م وساقط فى ص .

(٤) آية ٦١ سورة الأعراف .

(٥) آية ٦٧ سورة الأعراف .

قال لفرعون : « وإنى لأظُنُّكَ يا فرعونُ مثبوراً »(١) . وقال لنبينـا صلى الله عليه وسلم : « ما ضلَّ صاحبكم وماغوى » : معناه ماضلَّ صاحبُـكم ، ولا غَفَلَ عن الشهود طَرْفَةَ عينٍ .

قوله جل ذكره : « وما ينطقُ عن الهوى * إنْ هو إلا وَحْىٌ يُوحَى » .

أى ما ينطق بالهوى ، وما هـذا القرآنُ إلا وحىٌ يُوحَى . وفى هذا أيضاً تخصيصٌ له بالشهادة ؛ إذ قال لداود : « فاحْـكُم بينَ الناسِ بالحقِّ ولا تتَّبع الهوى »(٢) .

وقال فى صفة نبيِّنا صلى الله علية وسلم : « وما ينطق عن الهوى » .

(ومتى ينطق عن الهوى وهو فى محل النجوى ؟ فى الظاهر مزمومٌ بزِمام التقوى ، وفى السرائر فى إيواء المولى ، مُصَفًّى عن كدورات البشرية ، مُرَقًّى إلى شهود الأَحَدِية ، مُـكَاشَفٌ بجلالِ الصمدية ، مُخْتَطفٌ عنه بالـكُلِّيَّة ، لم تبقَ منه إلا للحقِّ بالحقِّ بقية . . ومَنْ كان بهذا النعت . . متى ينطق عن الهوى ؟)(٣).

قوله جل ذكره : « عَلَّمَهُ شـديدُ القُوَى * ذو مِرَّةٍ فاستوى * وهو بالأُفُقِ الأعلَى » .

أى جبريل عليه السلام . و « ذو مِرَّة » : أى ذو قوة وهو جبريل . « وهو بالأفق الأعلى » أى جبريل .

« ثم دَنَا فَتَدَلَّى * فـكان قابَ قَوْسَيْنِ أو أدنى » .

دنا جبريلُ من محمدٍ عليه السلام ، فتدلَّى جبريلُ : أى نَزَلَ من العُلُوِّ إلى محمد .

وقيل : « تدلَّى » تفيد الزيادةَ فى القُرْب ، وأَنَّ محمداً عليه السلام هو الذى دنا من ربِّه دُنُوَّ كرامة ، وأَنَّ التدلِّى هنا معناها السجود .

---

(١) آية ١٠٢ سورة الإسراء .

(٢) آية ٢٦ سورة ص .

(٣) كل ما بين القوسين موجود فى مكان آخر ، وضعناه فى مكانه الصحيح حتى يستقيم السياق .

ويقال : دنا محمدٌ من ربِّه بما أُودِعَ من لطائفِ المعرفة وزوائدِها ، فتدلَّى بسكون قلبه إلى ما أدناه .

« فكان قاب قوسين أو أدنى » : فكان جبريل — وهو فى صورته التى هو عليها — من محمد صلى الله عليه وسلم بحيث كان بينهما قَدْرُ قوسين أو أدنى .

ويقال : كان بينه — صلى الله عليه وسلم — وبين الله قَدْر قوسين : أراد به دُنُوَّ كرامة لا دُنُوَّ مسافة .

ويقال : كان من عادتهم إذا أرادوا تحقيقَ الأُلْفَةِ بينهم إلصاقُ أحدِهم قوسَه بقوس صاحبه عبارةً عن[1] عقد الموالاة بينهما ، وأنزل اللهُ — سبحانه — هذا الخطابَ على مقتضى معهودهم . ثم رفع اللهُ هذا فقال : « أو أدنى » أى بل أدنى .

قوله جل ذكره : « فأوحَى إلى عَبدِه ما أُوحَى »

أى أوحى اللهُ إلى محمدٍ ما أوحى . ويقال : أَجْمَلَه أجْمَالاً[2] لم يَطَّلِعْ عليها أحدٌ .

ويقال : قال له : ألم أجدك يتيمًا فآويتُك؟ ألم أجدك ضالًّا فهديتُك ؟

ألم أجدك عائلاً فأغنيتك ؟ ألم أشرح لك صدرك ؟

ويقال : بَشَّرَه بالحوض والكوثر .

ويقال : أوحى إليه أنَّ الجنَّةَ مُحَرَّمةٌ عَلَى الأنبياءِ حتى تدخلها ، وعلى الأمم حتى تدخلها أُمَّتك . والأَوْلَى أن يقال: هذا الذى قالوه كله حَسَنٌ ، وغيره مما لم يَطَّلِعْ أحدٌ .. كله أيضاً كان له فى تلك الليلة وحدَه ؛ إذ رقَّاه إلى مارقَّاه ، ولقَّاه بما لقَّاه ، وأدناه حيث لا دنوَّ قبله ولا بعده ، وأخذه عنه حيث لا غيرٌ ، وأصحاه له فى عين ما محاه عنه ، وقال له ما قال .. دون أن يَطَّلِعَ أحدٌ على ما كان بينهما من السِّرِّ[3] .

---

(١) كما نقول فى أسلوبنا الآن (تعبيراً عن ..)

(٢) هكذا فى ص وهى أصوب مما جاء فى م (أجمله إجمالاً) بالجيم فالسياق يرفضهما .

(٣) هذه الفقرة الأخيرة محاولة من جانب أرباب الحقيقة لفهم بعض جوانب فى قصة الإسراء والمعراج . ومضمون كلام القشيرى أننا لو كنا نستسيغ حدوث أحوال الكشوفات والمواصلات التى تتاح للأولياء والعارفين .. فكيف لا نتقبلها بالنسبة للمصطفى عليه صلوات الله وسلامه ؟ وبمعنى آخر : نجد التفسير الصوفى يبرز نفسه فى قوة ونصاعة لتوضيح قضية من قضايا التلاين ، كانت موضع جدل فى زمانها وبعد زمانها .

قوله جل ذكره : « ما كَذَبَ الفؤادُ ما رأى » .

ما كذَّبَ فؤادُ محمدٍ صلى الله عليه وسلم مارآه ببصره من الآيات . وكذلك يقال : رأى ربَّه تلك الليلة على الوصف الذى عَلِمَه قبل أن يراه[1] .

قوله جل ذكره : « أفَتُمارونه على ما يرَى » .

أفتجادلونه على ما يرى ؟

قوله جل ذكره : « ولقد رآه نَزْلَةً أخرى * عند سِدْرَةِ المنتهى * عندها جنةُ المأوىٰ » .

أى جبريلُ رأى اللهَ مرةً أخرى حين كان محمدٌ عند سدرة المنتهى ؛ وهى شجرة فى الجنة ، وهى منتهى الملائكة ،وقيل : تنتهى إليها أرواحُ الشهداء . ويقال : تنتهى إليها أرواحُ الخَلْقِ ، ولا يَعْلم ما وراءها إلا الله تعالى — وعندها « جنة المأوى » وهى جنة من الجِنان .

قوله جل ذكره : « إذْ يَغْشَىٰ السِّدْرَةَ ما يغشى » .

يغشاها ما يغشاها من الملائكة ما الله أعلمُ به .

وفى خبر : يغشاها رفرف طير خُضْرٍ .

ويقال : يغشاها فَرَاشٌ من ذَهَبٍ .

---

(١) يقول القشيرى فى كتابه المعراج ص ٩٤ : « واختلفوا فى رؤية الله سبحانه ليلة المعراج ؛ فقالت عائشة رضى الله عنها : إن النبى (ص) لم يَرَ ربَّه ليلة المعراج ، ومَنْ زعم أن محمداً رأى ربَّه ليلة المعراج فقد أعظم على الله الفرية . وقال ابن عباس : إن نبينا (ص) رأى ربَّه ليلة المعراج .
ثم اختلفت الرواية عن ابن عباس ؛ ففى رواية أنه رآه بعين رأسه ، وفى رواية أنه رآه بقلبه . وقال أهل التحقيق من أهل السُّنَّة : اختلافهم فى هذه المسألة دليل على إجماعهم أن الحق سبحانه يجوز أن يُرى ، لأنه لولا أنَّهم كانوا متفقين على جواز الرؤية لم يكن لاختلافهم فى الرؤية فى تلك الليلة معنى .
وقد رويت فى هذا الباب أخبار ، والله أعلم بصحتها ، فإن صحَّ ذلك فلها وجوه من التأويل ، من ذلك ما روى أنه قال : « رأيت ربى فى أحسن صورة» — فهذا الخبر يحتمل وجوهاً منها : رأيت ربى وأنا فى أحسن صورة يعنى فى أكمل رتبة وأتم فضيلة ، وأقوى ماكنت ؛ لم يصحبنى دهش ، ولا رهقتنى حيرة .
ويمكن أن تكون الرؤية بمعنى العلم ، أى رأيت من قدرة الله تعالى ودلائل حكمته ، ولم يشغلنى شهود الصور عن ذكر المصوِّر ؛ بل رأيت الفاعل فى الفعل .
وقيل : الصورة بمعنى الصفة ، يقال : أرنى صورة هذا الأمر أى : صفته . و« فى » على معنى « على » أى رأيت ربى على أحسن صفة من جلالة وصفه وإفضاله معى .

ويقال : أُعْطِيَ رسول الله (ص) عندها خواتيم البقرة ، وغُفِرَ لمن مات من أُمَّتِه لا يشرك بالله شيئاً .

قوله جل ذكره : « ما زاغ البصرُ وما طَغَى »

ما مَالَ — صلوات الله عليه وسلامه — ببصره عمَّا أُبيح له من النظر إلى الآيات ، والاعتبارِ بدلائلها .

فما جَاوَزَ حَدَّه ، بل رَاعَى شروطَ الأدبِ في الحَضْرة[1] .

قوله جل ذكره : « لقد رأى من آياتِ ربِّه الكُبْرى » .

أي « الآية » الكبرى ، وحَذَفَ الآية . . وهي تلك التي رآها في هذه الليلة . ويقال : هي بقاؤه في حال لقائهِ ربَّه بوصفِ الصَّحْوِ ، وحَفَظَه حتى رآه[2] .

قوله جل ذكره : « أفرأيتم اللَّاتَ والعُزَّى * ومَنَاةَ الثالثةَ الأخرى * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وله الأُنثى ؟ * تلك إذاً قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ » .

هذه أصنامٌ كانت العرب تعبدها ؛ فاللات صنمٌ لثقيف ، والعُزَّى شجرةٌ لغطفان ، ومناة صخرة لهذيل وخزاعة[3] .

ومعنى الآية : أَخْبِرونا ... هل لهذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله من القدرة أن تفعل بعائذٍ بها ما فَعَلْنا نحن لمحمدٍ صلى الله عليه وسلم من الرُّتب والتخصيص ؟ .

---

(١) قال أبو يزيد البسطامي : حفظ النبي (ص) طرفه في المسرى ، فما زاغ البصر وما طغى ، لعلمه بما يؤهل له من المشاهدة ، فلم يشاهد في ذلك شيئاً ، ولم يعير طرفه أحداً ، ثم لما رُدَّ إلى محل التأديب نظر إلى الجنة والنار ، والأنبياء والملائكة للإخبار عنها ، وتأديب الخَلْق بها ؛ فالمقام الأول مقام خصوص والمقام الثاني مقام عموم .

وقال رويم : لما أُكرِمَ عليه الصلاة والسلام بأعظم الشرف في المسرى علَتْ هِمَّتُه عن الالتفات إلى الآيات والكرامات والجنة والنار فما زاغ البصر وما طغى ؛ أي ما أعار طرفه شيئاً من الأكوان ، ومن شاهد البحر استقلَّ الأنهار والأودية .

(٢) سئل الشبلي : «كيف ثبت النبي (ص) في المعراج للقاء والمخاطبة ؟ فقال : إنه هُيِّئ لأمرٍ فمُكِّن فيه» ويقارن القشيري في موضع آخر بين موسى عليه السلام إذ خرَّ صعقا بمجرد سماع النداء وبين نبينا عليه الصلاة والسلام إذ ثبت في محل المشاهدة ، ويضيف : إن موسى في حال التلوين ، ومحمد في حال التمكين .

(٣) هذه الأصنام كلها مؤنثات .. وكانوا يقولون : إن الملائكة وهذه الأصنام بنات الله !

ثم وبَّخَهم فقال : أرأيتم كيف تختارون لأنفسكم البنين وتنسبون البنات إلى الله ؟ تلك إذاً قسمةٌ ناقصةٌ !

قوله جل ذكره : « إنْ هى إلَّا أسماءٌ سَمَّيْتُمُوها أنتم وآباؤُكم ما أنزلَ اللهُ بِها من سُلْطان إن يَتَّبِعونَ إلَّا الظَّنَّ وما تَهْوَى الأنفُسُ ولقد جاءهم من ربِّهمُ الهُدَى » .

أنتم ابتدعتُم هذه الأسماء من غير أنْ يكونَ اللهُ أَمَرَكم بهذا ، أو أذِن لكم به .

فأنتم تتبعون الظنَّ ، « وإن الظنَّ لا يغنى من الحقِّ شيئاً »[1]

« ولقد جاءهم من ربِّهم الهدى » : فأعرضوا عنه ، وكما أنَّ ظنَّ الكفار أوْجَبَ لهم الجهلَ والحَيْرةَ والحُكْمَ بالخطأ — فكذلك فى هذه الطريقة[2] : مَنْ عَرَّجَ على أوصاف الظنِّ لا يَحْظَى[3] بشيء من الحقيقة ؛ فليس فى هذا الحديث إلا القطعُ والتحقُّق ، فنهارُهم قد متَعَ[4] ، وشمسُهم قد طلعت ، وعلومُهم أكثرها صارت ضرورية .

أمَّا الظنُّ الجميلُ بالله فليس من هذا الباب ، والتباسُ عاقبةِ الرجلِ عليه ليس[5] أيضاً من هذه الجملة ذات الظن المعلول فى الله ، وفى صفاته وأحكامه .

قوله جل ذكره : « أم للإِنسانِ ما تَمَنَّى » .

أى ليس[6] للإِنسان ما يتمنَّاه ؛ فإنَّه يتمنى طولَ الحياةِ والرفاهيةَ وخِصْبَ العَيْشِ .. ومالا نهاية له ، ولكنَّ أحداً لا يبلغ ذلك بتمامه .

---

(١) آية ٢٨ فى السورة نفسها .

(٢) يقصد طريقة الصوفية .

(٣) فى م (يخطىء) وهى خطأ فى النسخ .

(٤) فى ص (متع) بالنون وهى خطأ ، فمتوع النهار من المصطلحات الصوفية التى زادها القشيرى على (اللوائح والطوالع واللوامع) كما نوهنا من قبل .

(٥) هكذا فى م وهى فى ص (ليبين) وهى خطأ من الناسخ .

(٦) هى (أم) المنقطعة ، ومعنى الهمزة فيها للإنكار ، أى للإنسان — يعنى الكافر — ما تمنى من شفاعة الأصنام ، وغير ذلك من التمنى .

ويقال: ما يتمنَّاه الإنسانُ أنْ يرتفعَ مرادُه واجباً فى كل شىء — وأن يرْتفعَ مرادُ عَبْدٍ واجباً فى كل شىء ليس من صفات الخَلْقِ بل هو لله، الذى له ما يشاء :

« فللهِ الآخرةُ والأُولى » .

له الآخرةُ والأُولى خَلقاً ومِلْكاً، فهو المَلِكُ المالك صاحبُ المُلْكِ التام. فأمَّا المخلوقُ فالنقصُ لازِمٌ للكُلِّ.

قوله جل ذكره: « وكم مِنْ مَلَكٍ فى السموات لا تُغْنِى شفاعتُهم شيئاً إلا مِنْ بعد أَنْ يأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يشاء ويرضَى ».

وهذا ردٌّ عليهم حيث قالوا: إنَّ الملائكةَ شفعاؤنا عندالله(١) .

قوله جل ذكره: « إِنَّ الذين لا يؤمنون بالآخرة لَيُسمُّونَ الملائكةَ تسميةَ الأنثى * وما لَهم به مِنْ عِلْمٍ إنْ يتَّبعون إلا الظنَّ وإنَّ الظنَّ لا يُغْنِى من الحق شيئاً » .

هذه التَّسْمِيةُ من عندهم، وهم لا يتبعون فيها علماً أو تحقيقاً .. بل ظَنّاً — والظنُّ لا يفيد شيئاً .

قوله جل ذكره: « فأَعْرِضْ عَمَّن تَوَلَّى عن ذكرنا ولم يُرِدْ إلا الحياةَ الدنيا * ذلك مبلَغُهُم من العِلْم إنَّ ربَّك هو أَعْلَمُ بِمَنْ ضلَّ عن سبيلِه وهو أعلمُ بمن اهتدى » .

أى أَعْرِض عمَّن أَعرض عن القرآنِ والإيمان به وتدَبُّرِ معانيه، ولم يُرِدْ إلا الحياةَ الدنيا.

---

(١) لا تنفع شفاعةُ أحدٍ إلا إذا أذن الله .. فإذا كانت الملائكة مع كثرتها وقربها من الله لا تصلح للشفاعة إلا بإذن من الله — فكيف تصلح هذه الأصنام للشفاعة ؟ !

ذلك مبلغهم من العلم؛ وإنما رضوا بالدنيا لأنهم لم يعلموا حديث الآخرة، وإنَّ ربَّك عليمٌ بالضالِّ، عليمٌ بالمهتدِي .. وهو يجازى كلًّا بما يستحق.

قوله جل ذكره: « ولله ما فى السموات وما فى الأرضِ
ليَجزىَ الذين أساءوا بما عَمِلوا ويجزىَ
الذين أحسنوا بالحسنى ».

يجزى الذين أساءوا بالعقوبات، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى.

قوله جل ذكره: « الذين يجتَنِبون كبائرَ الإثمِ والفواحِشَ
إلَّا اللَّمَمَ ».

الذنوبُ كلُّها كبائر لأنها مخالِفةٌ لأمر الله، ولكنَّ بعضَها أكبرُ من بعضٍ. ولا شىءَ أعظمُ من الشِّرك. « والفواحش » المعاصى.

« إلا اللمم »: تكلموا فيه، وقالوا: إنه استثناء منقطع، واللمم ليس بإثم ولا من جملة الفواحش.

ويقال: اللمم من جملة الفواحش ولكن فيها اشتباهًا — فأخبر أنه يغفرها.

ويقال: اللمم هو أن يأتىَ المرء ذلك ثم يُقْلِعَ عنه بالتوبة.

وقال بعضُ السَّلَفِ: هو الوقعة من الزِّنا تحصل مرةً ثم لا يعود إليها، وكذلك شرب الخمر، والسرقة .. وغير ذلك، ثم لا يعود إليها.

ويقال: هو أن يهم بالزَّلَّة ثم لا يفعلها.

ويقال: هو النَّظَر. ويقال: ما لا حدَّ عليه من المعاصى، وتُكَفِّر عنه الصلوات. (والأصحُّ أنه استثناء منقطع وأن اللمم ليس من جملة المعاصى)[1].

قوله جل ذكره: « إنَّ ربَّكَ واسِعُ المغفرةِ هو أعلمُ
بكم إذ أنشأكم من الأرضِ وإذ أنتم

---

(١) ما بين القوسين موجود فى م وغير موجود فى ص.

أجِنَّةٌ فى بطونِ أمهاتِكم فلا تُزَكُّوا
أنفُسَكم هو أعلمُ بِمَنِ اتَّقَى » .

« إذ أنشأكم من الأرض » : يعنى خَلْقَ آدم .

ويقال : تزكيةُ النَّفْسِ من علاماتِ كَوْنِ المرءِ محجوباً عن الله ؛ لأنَّ المجذوب إلى الغاية والمستغرق فى شهود ربِّه لا يُزَكِّى نفسه[1].

« هو أعلم بمن اتقى » : لأنه أعلمُ بكم منكم .

ويقال : مَنْ اعتقد أنَّ على البسيطة أحداً شرٌّ منه فهو مُتَكَبِّرٌ .

ويقال : المسلمُ يجب أنْ يكونَ بحيث يرى كلَّ مسلمٍ خيراً منه ؛ فإن رأى شيخاً ، قال : هو أكثرُ منِّى طاعةً وهو أفضلُ منِّى ، وإنْ رأى شاباً قال : هو أفضلُ منى لأنه أقلُّ منِّى ذَنْباً .

قوله جل ذكره : « أفرأيتَ الذى تَوَلَّى * وأعطى قليلاً
وأكْدى » .

أعرض عن الحقِّ ، وتصدَّق بالقليل . « وأكدى » أى قطع عطاءه .

« أعنده عِلْمُ الغيبِ فهو يَرَى »

« فهو يرى » : فهو يعلم صِحَّةَ ذلك . يقال : هو المنافق الذى يُعين على الجهاد قليلاً ثم يقطع ذلك :

« أعنده علم الغيب » : فهو يرى حاله فى الآخرة ؟

« أمْ لم يُنَبَّأْ بما فى صُحُفِ موسى *
وإبراهيمَ الذى وَفَّى » .

---

(١) قارن ذلك بقول النسفى فى ذكر المرء لطاعته : « . . وهذا إذا كان على سبيل الإعجاب أو الرياء لا على سبيل الاعتراف بالنعمة فإنه جائز لأن المسرة بالطاعة طاعة وذكرها شكر » النسفى جـ ٤ ص ١٩٨ . ونظن أن فى عبارة النسفى شيئاً يستحق التصويب : فالأولى أن يقال : وهذا إذا كان على سبيل الاعتراف بالنعمة — لا على سبيل الإعجاب أو الرياء — فإنه جائز . .

أم لم يُنَبَّأْ هذا الكافرُ بما فى صحف موسى ، وصحف إبراهيم الذى وفّى ؛ أى أتمَّ ما طُولِبَ به فى نَفْسِه وماله ووَلدِه .

قوله جل ذكره : « أَلَّا تَزِرُ وازِرةٌ وِزْرَ أُخرى * وأَنْ ليسَ لِلإنسانِ إلا ما سَعَى * وأَنَّ سَعْيَه سوف يُرَى * ثم يُجْزَاهُ الجزاءَ الأوْفى » .

الناسُ فى سَعْيِهم مختلِفون ؛ فَمَنْ كان سعيُهُ فى طلب الدنيا خسرت صفقتُه ، ومن كان سعيُهُ فى طَلَبِ الجنة ربحت صفقته ، ومن كان سعيُهُ فى رياضة نَفْسِه وصل إلى رضوان الله ، ومَنْ كان سعيه فى الإرادة شَكَرَ اللهُ سَعْيَه ثم هداه إلى نَفْسِه .

وأمَّا المُذْنِبُ — فإذا كان سعيُهُ فى طلب غفرانه ، ونَدَمِ القلبِ على ما اسودَّ من ديوانه ، فسوف يجد من الله الثوابَ والقربة والكرامة والزلفة .

ومَنْ كان سَعْيُه فى عَدِّ أنفاسه مع الله ؛ لا يعرِّج على تقصير ، ولا يُفَرِّط فى مأمور فسيرى جزاءَ سَعْيِه مشكوراً فى الدنيا والآخرة ، ثم يشكره بأنْ يُخاطِبَه فى ذلك المعنى بإسماعِه كلامَه من غير واسطة : عبدى ، سَعْيُك مشكور ، عبدى ، ذَنْبُكَ مغفور .

« ثم يجزاه الجزاءَ الأوْفى » : هو الجزاء الأكبرُ والأَجَلُّ ، جزاءٌ غير مقطوعٍ ولاممنوعٍ .

قوله جل ذكره : « وأنَّ إلى ربِّكَ المُنْتَهَى » .

إليه المرجعُ والمصيرُ ، فابتداءُ الأشياء من الله خَلْقاً ، وانتهاءُ الأشياء إلى الله مصيراً .

ويقال : إذا انتهى الكلامُ إلى الله تعالى فاسكُتُوا .

ويقال : إذا وَصَلَ العبدُ إلى معرفةِ الله فليس بعدَه شىءٌ إلا ألطافاً من مالٍ أو منالٍ أو تحقيق آمالٍ أو أحوالٍ . . يُجْرِيها على مرادِه — وهى حظوظٌ للعباد .

قوله جل ذكره : « وأنَّه هو أضْحَكَ وأبْكَى » .

أراد به الضحك والبكاء المتعارَف عليهما بين الناس ؛ فهو الذى يُجْرِيه ويَخْلُقُه .

ويقال : أضحك الأرضَ بالنباتِ ، وأبكى السماءَ بالمطرِ .

ويقال : أضحك أهلَ الجنة بالجنة ، وأبكى أهل النار بالنار .

ويقال: أضحك المؤمنَ في الآخرة وأبكاه في الدنيا ، وأضحك الكافرَ في الدنيا وأبكاه في الآخرة.

ويقال : أضحكهم في الظاهر ، وأبكاهم بقلوبهم .

ويقال : أضحك المؤمنَ في الآخرة بغفرانه ، وأبكى الكافرَ بهوانه .

ويقال : أضحك قلوبَ العارِفين بالرضا ، وأبكى عيونهم بخوف الفراق .

ويقال : أضحكهم برحمته ، وأبكى الأعداءَ بسخطه .

قوله جل ذكره : « وأنه هُوَ أمات وأحيا » .

أماته في الدنيا ، وأحياه في القبر ؛ فالقبر إما للراحة وإما للإحساس بالعقوبة .

ويقال : أماته في الدنيا ، وأحياه في الحشر .

ويقال : أمات نفوسَ الزاهدين بالمجاهدة ، وأحيا قلوبَ العارفين بالمشاهدة .

ويقال : أمات نفوسَهم بالمعاملات ، وأحيا قلوبهم بالمواصلات .

ويقال : أماتها بالهيبة ، وأحياها بالأُنْس .

ويقال : بالاستتار ، والتجلِّي .

ويقال : بالإعراض عنه ، والإقبال عليه .

ويقال : بالطاعة ، والمعصية .

قوله جل ذكره : « وأنَّه خَلَقَ الزوجينِ الذَّكَرَ والأُنثى » .

سماها زوجين لازدواجهما عند خلقهما من النُّطْفة .

قوله جل ذكره : « وأنه هُو أغنى وأقنى » .

« أغنى » : أعطى الغِنَى ، « أقنى » : أكثر القنية أي المال . وقيل « أقنى » : أي أحوجه إلى المال — فعلى هذا يكون المعنى : أنه خَلَقَ الغِنَى والفقر .

ويقال : « أقنى » أى أرضاه بما أعطاه[1].

ويقال : « أغنى » أى أقنع ، « وأقنى » : أى أرضى .

« وأنَّه هو ربُّ الشِّعْرَى »

(الشِّعرى : كوكبٌ يطلع بعد الجوزاء فى شدة الحر ، وكانت خزاعة تعبدها فأَعْلَمَ اللهُ أنه ربُّ معبودهم هذا)[2] .

« وأنه أَهْلَكَ عاداً الأولى * وثمودَا فما أبقى * وقومَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إنهم كانوا هم أظلَمَ وأطغى » .

عاد الأولى هم قوم هود ، وعاد الأخرى هى إرَم ذات العماد ، كما أهلك ثموداً فما أبقى منهم أحداً . وأهْلَكَ مِنْ قَبْلِهم قومَ نوحٍ الذين كانوا أظلَمَ من غيرهم وأغوى لِطُولِ أعمارهم ، وقوة أجسادهم .

« والمؤتفِكةَ أهوى * فغشَّاها ما غشَّى »

أى الخسوف بها ، وهى قرى قوم لوط ، قَلَبَهَا جبريل عليهم ، فهى مقلوبة معكوسة .

وقوله : « أهوى » أى : أسقطها اللهُ إلى الأرض بعدما اقتلعها من أصلها ، ثم عَكَسَهَا وألقاها فى الأرض ، فغشاها ما غشاها من العذاب .

قوله جل ذكره : « فبأى آلاء ربِّك تتمارَى ؟ »

فبأى آلاء ربك — أيها الإنسان — تتشكك ؟ وقد ذكر هذا بعد ما عدَّ إنعامَه عليهم وإحسانَه إليهم .

قوله جل ذكره : « هذا نذيرٌ من النُّذُر الأولى » .

---

(١) أقنى : من معانيها أرضى — كما ورد فى أكثر المعاجم .

(٢) ما بين القوسين إضافة من جانبنا اعتماداً على كتب التفاسير ، وهى غير موجودة فى نص القشيرى ، ولكننا أردنا إضافتها لتلفت النظر إلى خاطرة تراودنا .. أليس هناك ارتباط بين افتتاحية السورة «والنجم إذا هوى» وبين هذه النهاية ؟ . عابدون ومعبودون يهوون ويتساقطون ويهلكون .. أبعد هذا أيها الإنسان تتشكك فى أن هذا النذير صلوات الله عليه لم يأتِ بدعاً ؟ !

هو محمد صلى الله عليه وسلم ، أرسلناه نذيراً كما أرسلنا الرُّسُلَ الآخرين .

« أَزِفَتِ الآزِفَةُ * ليس لها من دون
الله كاشِفَةٌ » .

أى قَرُبَت القيامة . ولا يقدر أحدٌ على إقامتها إلا الله ، وإذا أقامها فلا يقدر أحدٌ على ردِّها وكَشْفِها إلا الله .

ويقال : إذا قامت قيامة هذه الطائفة — اليومَ — فليس لها كاشفٌ غيره . وقيامتُهم تقوم فى اليومِ غيرَ مَرَّةٍ . تقوم بالهَجْرِ والنَّوى والفراق .

قوله جل ذكره : « أَفَمِنْ هذا الحديثِ تَعْجَبونَ .... » .

أفمن هذا القرآن تعجبون ، وتكونون فى شكٍّ ، وتستهزئون ؟

« وأنتم سامِدونَ » : أى لاهون ..

« فاسجدوا لله واعبدوا » : فاسجدوا لله ولا تعبدوا سواه[1].

---

(١) عن الأسود بن يزيد عن عبد الله قال : « ... فسجد رسول الله (ص) وسجد مَنْ خلفه إلا رجلاً رأيته أخذ كفا من تراب فسجد عليه فرأيته بعد ذلك قتل كافراً وهو أمية بن خلف» (البخارى ج ٣ ص ١٣٠) .

سورة القمر[1]

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله »: كلة بها نور القلوب والأبصار ، وبعرفانها يحصل سرورُ الأرواح والأسرار . كلة تدلُّ على جلاله — الذى هو استحقاقه لأوصافه . كلة تدل على نعته الذى هو غاية أفضاله وألطافه .

قوله جل ذكره : « اَقتربَتِ الساعةُ وانشقَّ القمرُ » .

أجمع أهلُ التفسير على أنَّ القمرَ قد انشقَّ على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم .

قال ابن مسعود[2]: « رأيت حراء بين فلقتى القمر» ولم يوجد لابن مسعود مخالف فى ذلك ؛ فقد روى أيضاً عن أنس وابن عمر وحذيفة وابن عباس وجبير بن مطعم .. كلهم رووا هذا الخبر .

وفيه إعجازٌ من وجهين : أحدهما رؤية مَنْ رأى ذلك ، والثانى خفاء مثل ذلك على مَنْ لم يَرَه ؛ لأنه لا ينكتم مثله فى العادة فإذا خفى كان نقض العادة .

وأهل مكة رأوا ذلك ، وقالوا : إنَّ محمداً قد سحر القمر .

ومعنى « اقتربت الساعة » : أى ما بقى من الزمانِ إلى القيامةِ إلاقليلٌ بالإضافةِ إلى مامضى.

قوله جل ذكره : « وإنْ يَرَوْا آيةً يُعْرِضُوا ويقولوا

---

(١) يسميها البخارى : سورة «اقتربت الساعة» .

(٢) عن يحيى بن شعبة وسفيان عن الأعمش عن إبراهيم عن أبى معمر عن ابن مسعود قال : انشق القمر على عهد رسول الله (ص) فرقتين : فرقة فوق الجبل ، وفرقة دونه . فقال رسول الله (ص) : اشهدوا .

وعن قتادة عن أنس قال : انشق القمر فرقتين .

وعن مجاهد عن أبى معمر عن عبد الله قال : انشق القمر ونحن مع النبى (ص)فصار فرقتين . فقال لنا : اشهدوا اشهدوا . (البخارى حـ٣ ص ١٣٠) .

وقد جاء فى النسفى : قال ابن مسعود رضى الله عنه « رأيت حراء بين فلقتى القمر» (النسفى ص ٢٠١) .

سِحْرٌ مُسْتَمِر * وَكَذَّبوا واتَّبَعُو
أهواءهم وكُلُّ أمرٍ مُسْتَقِرٌّ » .

يعنى أن أهل مكة إذا رأوا آية من الآيات أعرضوا عن النظر فيها ، ولو نظروا لحصل لهم العلمُ واجباً .

« سحر مستمر » : أى دائمٌ قوىٌّ شديد .. (ويقال إنهم قالوا : هذا ذاهب لا تبقى مدته)[1] فاستمر : أى ذهب .

« وكذَّبوا واتبعوا أهواءهم » : التكذيب واتباع الهوى قريبان ؛ فإذا حصَل اتباعُ الهوى فمِنْ شُؤْمِه يحصل التكذيب ؛ لأنَّ اللهَ يُلَبِّس على قلب صاحبه حتى لا يستبصر[2] الرشد . أما اتباع الرضا فمقرونٌ بالتصديق ؛ لأنَّ اللهَ ببركاتِ اتباع الحقِّ يفتح عينَ البصيرة فيحصل التصديق .

وكلُّ امرئٍ جرَتْ له القِسْمةُ والتقدير فلا محالةَ يستقر له حصولُ ما قُسِمَ وقدِّر له .

« وكل أمر مستقر » : يستقر عملُ المؤمنِ فتُوجَبُ له الجنة ، ويستقر عملُ الكافرِ فيُجَازَى .

قوله جل ذكره : « ولقدجاءهم مِّنَ الأنباء مافيه مُزْدَجَرٌ *
حِكْمَةٌ بالغةٌ فما تُغْنِ النُّذُرُ » .

جاءهم من أخبارِ الأنبياء والأممِ الذين مِنْ قَبْلِهم والأزمنةِ الماضية مايجب أنْ يحصلَ به الارتداعُ ، ولكنَّ الحقَّ — سبحانه — أَسْبَلَ على بصائرهم سُجُوفَ الجهلِ فعَموا عن مواضع الرشد .

« حكمة بالغة . . » : بدل من (ما) فيما سبق : (ما فيه مزدجر) .

والحكمة البالغة هى الصحيحة الظاهرة الواضحة لمن تفكّر فيها .

« فما تغنِ النذر » : وأى شيء يغنى إنذارُ النذيرِ وقد سَبَقَ التقديرُ لهم بالشقاء ؟

---

(١) ما بين القوسين موجود فى م وغير موجود فى ص .

(٢) هكذا فى ص . وهى فى م (لا يستبشر) ، والأصوب ما أثبتنا .

قوله جل ذكره : « فَتَوَلَّ عنهم يومَ يَدْعُ الداعِ إلى شيءٍ نُكُرٍ * خُشَّعاً أبصارُهم » .

« فتولَّ عنهم » : هاهنا تمام الكلام — أى فأعرِضْ عنهم ، وهذا قبل الأمر بالقتال .
ثم استأنف الكلامَ : « يوم يدعُ الداعِ .. » والجواب : « يخرجون من الأجداث » — أراد به يوم القيامة .

ومعنى « نُكُر » : أى شيء ينكرونه (بِهَوْله وفظاعته)[1] وهو يوم البعث والحشر .

وقوله : « خشعاً » منصوب على الحال ، أى يخرجون من الأجداث — وهى القبور — خاشعى الأبصار .

« ... كأنهم جرادٌ مُنْتَشِرٌ *
مُهْطِعين إلى الداعِ يقول الكافرون
هذا يومٌ عَسِرٌ » .

كأنهم كالجراد لكثرتهم وتفرقهم ، « مهطعين » : أى مُديمى النظر إلى الداعى — وهو إسْرافيل .
« يقول الكافرون هذا يوم عَسِر » : لتوالى الشدائد التى فيه .

قوله جل ذكره : « كَذَّبَتْ قَبْلَهم قومُ نوحٍ فكَذَّبوا
عَبْدَنا وقالوا مجنونٌ وازْدُجِر *
فَدَعا ربَّه أنى مغلوبٌ فانتصر *
ففتحنا أبوابَ السماء بماءٍ مُنْهَمِر »

كذب قوم نوح نبيَّهم ، وقالوا : إنه مجنون ، وزجروه وشتموه .
وقيل : « ازدُجِر » : أى استطار عَقْلُه ، أى قومُ نوحٍ قالوا له ذلك .
فدعا ربَّه فقال : إنى مغلوب ؛ أى بتسلُّطِ قومى علىَّ ؛ فلم يكن مغلوباً بالحُجَّة لأنَّ الحُجَّةَ كانت عليهم ، فقال نوح لله : اللهمَّ فانتَصِرْ منهم أى انْتَقِمْ .

(١) ما بين القوسين توضيح من جانبنا غير موجود فى النص .

ففتحنا أبواب السماء بماء مُنْصَبٍّ ، وشَقَقْنا عيونًا بالماء ، فالتقى ماء السماء وماء الأرض على أمرٍ قد قُدِّرَ في اللوح المحفوظ ، وَقُدِرَ عليه بإهلاكهم !

وفي التفاسير : أن الماء الذي نَبَعَ من الأرض نَضَبَ . والماء الذي نزل من السماء هو البخارُ اليومَ .

« وحَمَلْناه على ذاتِ ألواحٍ ودُسُرٍ »

وحملنا نوحاً على « ذات ألواح » أي سفينة ، « ودسر » يعني المسامير وهي جمع دسار أي مسمار .

« تجري بأَعْيُنِنا جزاءً لِمَنْ كان كُفِرَ »

« بأعيننا » : أي بمرأى مِنَّا . وقيل : تجري بأوليائنا .

ويقال : بأعين ملائكتنا الذين وكلناهم لحفظهم .

ويقال : بأعين الماء الذي أنبعناه من أوجه الأرض .

« جزاءً لمن كان كُفِرَ » : أي الذين كفروا بنوح(١) .

قوله جل ذكره : « ولقد تركناها آيةً فهل من مُدَّكِرٍ »

جعلنا أَمْرَ السفينةِ علامةً بَيِّنَةً لِمَنْ يعتبر بها .

« فهل من مدكر » : فهل منكم من يعتبر ؟ . أمرَهم بالاعتبار بها(٢) .

قوله جل ذكره : « فكيف كان عذابي ونُذُرِ »

قالها على جهة التعظيم لأمره .

وقد ذَكَرَ قصة نوحٍ هنا على أفصح بيانٍ وأقصرِ كلامٍ وأَتَمِّ معنًى(٣) .

---

(١) يرى بعض المفسرين أن (الذي كُفِر) هو نوح عليه السلام لأنه مكفور به ، فكل نبي رحمة لأمته ، فكان نوح رحمة مكفورة .

(٢) أي أن الاستفهام – بلغة البلاغيين – قد خرج عن معناه الأصلي إلى الأمر .

(٣) كأن القشيري يريد أن يوضح تعليلاً (لتكرار) قصة نوح . ونحن نعلم أن القشيري لا يستريح تماماً لفكرة القول بالتكرار في القرآن .

وكان نوحٌ — عليه السلام — أطولَ الأنبياء عمراً ، وأشدَّهم للبلاء مقاساةً .

ثم إن اللهَ — سبحانه — لما نَجَّى نوحاً متَّعه بعد هلاك قومه ومتع أولادَه ، فكلُّ مَنْ على وجه الأرض من أولاد نوحٍ عليه السلام . وفى هذا قوةٌ لرجاء أهل الدين ، إذا لقوا فى دين الله محنةً ؛ فإنَّ الله يُهلِكُ — عن قريب — عَدوَّهم ، ويُمكِّنُهم من ديارهم وبلادهم ، ويورثهم ما كان إليهم .

وكذلك كانت قصة موسى عليه السلام مع فرعون وقومه ، وسنةُ اللهِ فى جميع أهل الضلال أن يُعِزَّ أولياءه بعد أن يزهق أعداءه .

قوله جل ذكره : « ولقد يَسَّرْنا القرآنَ للذِّكْرِ فهل من مُدَّكِر » .

يَسَّرنا قراءتَه على ألسنةِ الناسِ ، ويسَّرنا عِلْمه على قلوبِ قومٍ ، ويسَّرْنا فَهْمَه على قلوب قومٍ ، ويَسَّرْنا حِفْظَه على قلوبِ قومٍ ، وكلُّهم أهلُ القرآن ، وكلُّهم أهل الله وخاصته .

ويقال : كاشَفَ الأرواحَ من قومٍ — بالقرآن — قبل إدخالها فى الأجساد .

« فهل من مدكر » لهذا العهد الذى جرى لنا معه .

قوله جل ذكره : « كَذَّبَتْ عادٌ فكيف كان عذابى ونُذُر * إنَّا أَرْسلنا عليهم ريحاً صرْصراً فى يومِ نحسٍ مُسْتَمِرٍ * تنزعُ الناسَ كأنهم أعجازُ نَخْلٍ مُنقَعِر » .

كَذَّبوا هوداً ، فأرسلنا عليهم « ريحاً صرصراً » أى : باردةً شديدة الهُبوب ، يُسْمَعُ لها صوت .

« فى يوم نحس مستمر » أى : فى يوم شؤم استمرَّ فيه العذابُ بهم ، ودام ذلك فيهم ثمانيةَ أيام وسَبْعَ ليالٍ . وقيل : دائم الشؤم تنزع رياُحه الناسَ عن حُفَرِهم التى حفروها

حتى صاروا كأنهم أسافلُ نخلٍ مُنقَطِعٍ . وقيل : كانت الريح تقتلع رءوسهم عن مناكبهم ثم تُلقى بهم كأنهم أصول نخلٍ قطعت رءوسُها .

« ولقد يَسَّرْنا القرآنَ للذِّكْرِ فهل
من مُدَّكر ؟ » .

هَوَّنا قراءتَه وحِفظَه ؛ فليس كتابٌ من كُتُبِ الله تعالى يُقرَأُ ظاهراً إلاَّ القرآن .

قوله جل ذكره : « كَذَّبَتْ ثمودُ بالنُّذُرِ * فقالوا أَبَشراً
مِنّا واحداً نتَّبِعُه ؟ .. إنّا إذاً لفى
ضلالٍ وسُعُر » .

هم قوم صالح . وقد مضى القولُ فيه ، وما كان من عقرهم للناقـة . . إلى أن أرسل الله عليهم صيحةً واحدةً أوجبت هـذا الهلاك ، فَصيَّرَهم كالهشيم ، وهو اليابس من النبات ، « المحتظر » : أى : المجعول فى الحظيرة ، أو الحاصل فى الحظيرة[1] ..

قوله جل ذكره : « كَذَّبَتْ قومُ لوط بالنُّذُر *
إنّا أرسلنا عليهم حاصِباً إلاَّ آلَ لوطٍ
نَجَّيْناهُم بِسَحَر * نعمةً من عندنا
كذلك نجزى مَنْ شَكَرَ » .

فأرسلنا عليهم « حاصباً » : أى : حجارةً رُمُوا بها .

« كذلك نجزى مَنْ شكر » : أى : جعلنا إنجاءهم فى إهلاكِ أعدائهم .

وهكذا نجزى من شكر ؛ فمثل هذا نعامِلُ به مَن شَكَرَ نعمتنا .

والشُّكْرُ على نِعَم الدفع أتمُّ من الشكر على نِعَم النفع — ولا يَعْرِفُ ذلك إلا كلُّ مُوَفَّقٍ كَيِّس .

« فَطَمَسْنا أَعْيُنَهم فذوقوا عذابى ونُذُر »

---

(١) يقصد القشيرى أنها قد تقرأ بفتح الظاء وبكسرها .

جاء جبريلُ ومَسَحَ بجناحه عَلَى وجوههم فعَمُوا ، ولم يهتدوا[1] للخروج — وكذلك أجرى سُنَّتَه فى أوليائه أنْ يَطْمِسَ على قلوبِ أعدائهم حتى يلبس عليهم كيف يؤذون أولياءه ثم يُخَلِّصُهم من كيدهم .

قوله جل ذكره : « سَيُهْزَمُ الجمعُ ويولُّونَ الدُّبُرَ » .

أخبر أنه يفعل هذا بأعداء الرسول صلى الله عليه وسلم ، وحقَّق ذلك يومَ بدر ، فصار ذلك من معجزاته صلوات الله عليه وسلامه[2] .

قوله جل ذكره : « يومَ يُسْحَبون فى النارِ على وجوهِهم ذوقوا مَسَّ سَقَر » .

سَحْبُهم على الوجوهِ أمارةٌ لإذلالهم ، ولو كان ذلك مرةً واحدةً لـكانت عظيمة — فـكيف وهو التأبيد والتخليد ؟ ! .

وكما أنّ أمارةَ الذُّلِّ تظهر على وجوههم فعلامةُ إعزازِ المؤمنين وإكرامهم تظهر على وجوههم ، قال تعالى : « وجوه يومئذ ناضرة »[3] . وقال : « تعرف فى وجوههم نضرة النعيم[4] » .

قوله جل ذكره : « إنّا كلّ شىء خلقناه بِقَدَرٍ »

أى بِقَدَرٍ مكتوب فى اللوح المحفوظ .

ويقال : خلقنـــاه بقدر ما عَلِمْنا وأردْنا وأخبرْنا .

قوله جل ذكره : « وماأمْرُنا إلّاواحدةٌ كَلَمْحٍ بالبَصَر »

أى إذا أردنا خَلْقَ شىء لا يتعسَّرُ ولا يتعذَّرُ علينا ، نقول له : كُنْ — فيكون

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (لم يتمكنوا) .

(٢) عن ابن عباس أن رسول الله (ص) قال وهو فى قبة يوم بدر : اللهم إنى أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن تشأ لاتُعبد بعد اليوم — فأخذ أبو بكر بيده فقال : حسبك يا رسول الله ، ألححت على ربِّك فخرج وهو يقول : سيهزم الجمع ويولون الدبر (البخارى ج ٣ ص ١٣١) .

(٣) آية ٢٢ سورة القيامة .

(٤) آية ٢٤ سورة المطففين .

بقدرتنا . ولا يقتضى هذا استئناف[1] قولٍ فى ذلك الوقت ولكن استحقاق أن يقال لقوله القديم أن يكون أمراً لذلك المكون إنما يحصل فى ذلك الوقت .

« كلمح بالبصر » : أى كما أن هذا القَدْرَ عندكم (أى قَدْرَ مايلمح أحُدكم ببصره) لا تلحقكم به مشقةٌ — كذلك عندنا : إذا أردنا نخلق شيئاً — قلّ أو كَثُرَ ، صَغُرَ أو كَبُرَ — لا تلحقنا فيه مشقة .

قوله جل ذكره : « ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مُدَّكِر » .

أى أهلكنا القرونَ التى كانت قبلكم فكلُّهم أمثالكم من بنى آدم ...

« وكلُّ شىء فعلوه فى الزُّبُر » .

فى اللوح المحفوظ مكتوبٌ قبل أن يعمله[2] . وفى صحيفة الملائكة مكتوب . لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها ..

« وكلُّ صغيرٍ وكبيرٍ مُسْتَطَرٌ » .

كلُّ صغيرٍ من الخَلْق ، وكلُّ كبيرٍ من الخَلْقِ — تخترمه المنيَّةُ .

ويقال : كلُّ صغيرٍ من الأعمال وكبيرٍ مكتوبٌ فى اللوح المحفوظ ، وفى ديوان الملائكة .

وتعريفُ الناس عما يكتبه الملائكة هو على جهة التخويف ؛ لئلا يتجاسر العبدُ على الزَّلَّةِ إذا عرف المحاسبة عليها والمطالبة بها .

قوله جل ذكره : « إنَّ المُتَّقين فى جناتٍ ونَهَر * فى مَقْعَدِ صِدْقٍ عند مليكٍ مُقْتَدِر » .

---

(١) هكذا فى م — وهى — فى ص (استيفاء) وكلاهما يمكن أن يتقبله السياق . على معنى أن قوله القديم « كن » لا (يستأنف) عند خلْق الحدث . وعلى معنى أنه لايشترط أن يستوفى خلق الحدث الأمرَ بكن اكتفاء بقوله القديم — والله أعلم .

(٢) هكذا فى وهى ص أصوب فى السياق من (يعلمه) التى جاءت فى م لأن ما (فعلوه) التى فى الآية تؤدى إلى ذلك .

لهم بساتين وأنهار ، والجمعُ إذا قوبل بالجمع فالآحادُ تُقابَلُ بالآحاد .

فظاهرُ هذا الخطاب يقتضى أن يكون لكل واحدٍ من المتقين جنةٌ ونَهَرٌ .

« فى مقعد صدق » : أى فى مجلس صِدْقٍ .

« عند مليكٍ مقتدرٍ » : أراد به عِنْدِيَّةَ القُرْبة والزلفة .

ويقال : مقعد الصدق أى مكان الصدق ، والصادق فى عبادته مَنْ لا يتعبَّدُ على ملاحظة الأطماع ومطالبة الأعواض .

ويقال : مَنْ طلب الأعواض هَتَكَتْه الأطماع ، ومَنْ صَدَقَ فى العبودية تحرَّرَ عن المقاصد الدَّنيَّة .

ويقال : مَنْ اشتغل بالدنيا حَجَبَتْه الدنيا عن الآخرة ، ومَنْ أسَرَه نعيمُ الجنة حُجِبَ عن القيام بالحقيقة ، ومَنْ قام بالحقيقة شُغِلَ عن الكوْن بجملته(1) .

* * *

(1) أرباب الحقيقة لا تشغلهم فكرة الثواب والعقاب على النحو المألوف عند العابدين بنفوسهم . فجنّتُهم الكبرى هى رؤيتُهم لمحبوبهم ، ولهم فى ذلك أقوال كثيرة شعراً ونثراً .. من ذلك :

قول أبي على الروزبارى :

من لم يكن بك فانياً عن حبه ... وعن الهوى والأُنس بالأحباب

أو تيمة صبابة جمعت له ... ما كان مفترقاً من الأسباب

فكأنه بين المراتب واقف ... لمنال حظ أو لحسن مآب

ويقول الجنيد : كل محبة كانت لغرض إذا زال الغرض زالت تلك المحبة . ويقول يحيى بن معاذ :

إن ذا الحب لمن يفى لـه ... لا لدار ذات لهو وطُرَف

لا ولا الفردوس — لا يألفها — ... لا ولا الحوراء من فوق غُرَف

ويقول أحدهم :

كلهم يعبدون من خوف نارٍ ... ويرون الجنان حظاً جزيلاً

ليس لى فى الجنان النار رأى ... أنا لا أبتغى بحبى بديلا

(انظر كتابنا « نشأة التصوف الإسلامى» ط المعارف ص ١٩٥ ، ص ١٩٦) .

سُورَةُ الرَّحْمٰن

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » : إخبارٌ عن عِزِّه وعظمته .

« الرحمن الرحيم » : إخبارٌ عن فضله ورحمته .

فبشهود عظمته يكمل سرورُ الأرواح ، وبوجود رحمته يحصل نعيم الأشباح . ولولا عظمته لما عَبَدَ الرحمنَ عابدٌ ولولا رحمتُه لما أحبَّ الرحمنَ واحدٌ .

قوله جل ذكره : « الرحمنُ * عَلَّم القرآن »

أى الرحمن الذى عَرَفَه الموحِّدون وجَحدَه الكافرون هو الذى علَّم القرآن . ويقال : الرحمن الذى رحمهم ، وعن الشِّرك عَصَمَهم ، وبالإيمان أكرمهم ، وكلمةَ التقوى ألزمهم — هو الذى عرّفهم بالقرآن وعلَّمهم .

ويقال : انفرد الحقُّ بتعليم القرآن لِعباده .

ويقال : أجرى اللهُ تعالى سُنَّتَه أنه إذا أعطى نبينا صلى الله عليه وسلم شيئاً[1] أَشْرَكَ أُمَّتَه فيه[2] على ما يليق بصفاتهم ؛ فلمَّا قال له (صلعم) : « وعلَّمكَ ما لم تكن تعلم »[3] . قال لأمته : « الرحمن * علَّم القرآن » .

ويقال : علَّم اللهُ آدمَ الأسماء كلَّها ثم أمره بِعَرْضها على الملائكة وذكر آدمُ ذلك لهم — قال تعالى : « أنبئهم بأسماء هؤلاء » يا آدم ، وعلَّمَ (نبيَّنا صلى الله عليه وسلم)[4]

---

(١) (شيئاً) غير موجودة فى م . وموجودة فى ص — والسياق يقوى بها .

(٢) هكذا فى ص وهى فى م (فيه أمته) .

(٣) «وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك مالم تكن تعلم» آية ١١٣ سورة النساء .

(٤) ما بين القوسين إضافة من جانبنا ليتضح السياق .

المسلمين[1] القرآنَ فقال صلى الله عليه وسلم : « لاصلاة إلا بفاتحة الكتاب ، والمُصَلِّي مُناجٍ ربَّه » قال لآدم : أَذْكُرْ ما علَّمْتُكَ للملائكة . وقال لنا : ناجِني ياعبدى بما عَلَّمْتُكَ[2] . وقد يُلاطَفُ مع أولاد الخدم بما لا يُلاطَفُ به آباؤهم .

ويقال : لمَّا علَّم آدمَ أسماءَ المخلوقاتِ قال له : أَخْبِرْ الملائكة بذلك ، وعلَّمَنَا كلامَه وأسماءه فقال : إقْرَأوا علىَّ وخاطِبوا به معى .

ويقال : علَّم الأرواحَ القرآنَ — قَبْلَ تركيبها فى الأجساد بلا واسطة[3] ، والصبيانُ إنما يُعَلَّمُونَ القرآن — فى حالِ صِغَرِهم — قبل أنْ عَرَفَتْ أرواحُنا أحداً ، أو سَمِعْنا من أحدٍ شيئاً . علَّمَنَا أسماءه :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى فصادَفَ قلبى فارغــاً فتَمَكَّنَا

ويقال : سقياً لأيامٍ مضت — وهو يُعلِّمنا القرآن .

ويقال : برحمته علَّمَهم القرآن ؛ فبرحمته وصلوا إلى القرآن — لا بقراءة القرآن يَصِلُون إلى رحمته .

قوله جل ذكره : « خَلَقَ الإنسانَ * علَّمَهُ البيانَ » .

« الإنسان » : هاهنا جِنْسُ الناس ؛ عَلَّمَهم البيانَ حتى صاروا مُمَيِّزِين[4] — فانفصلوا بالبيان عن جميع الحيوان . وعَلَّمَ كُلَّ قومٍ لسانَهم الذى يتكلمون ويتخاطبون به .

والبيانُ ما به تبينُ المعانى — وشَرْحُه فى مسائل الأصول .

ويقال : لمَّا قال أهلُ مكة إنما يُعلِّمه بَشَرٌ ردَّ الله — سبحانه — عليهم وقال : بل عَلَّمَه اللهُ ؛ فالإنسانُ على هذا القول هو محمدٌ صلى الله عليه وسلَّم . وقيل هو آدم عليه السلام .

ويقال : البيان الذى خُصَّ به الإنسان (عموماً) يعرفُ به كيفيةَ مخاطبةِ الأغيار من الأمثال والأشكال . وأمَّا أهل الإيمان والمعرفة فبيانُهم هو عِلْمُهم كيفيةَ مخاطبةِ مولاهم — وبيانُ

---

(1) هكذا فى م وهى فى ص (المسلمون) وهى خطأ فى النسخ .

(2) أنظر كتابنا (البسملة بين أهل العبارة وأهل الإشارة) ورأينا فى معنى (الرحمن) .

(3) إشارة إلى يوم الذر .

(4) بتشديد الياء وفتحها على معنى أن البيان علامة تميزهم عن سائر الحيوان ، وبكسرها على معنى أن البيان وسيلة انفرد بها الإنسان للتعبير عمّا تكنه نفسه للتمييز بين الأشياء .

العبيدِ مع الحقِّ مختلفٌ : فقومٌ يخاطِبونه بلسانهم ، وقومٌ بأنفاسهم ، وقوم بدموعهم :

دموعُ الفتى عمَّا يحسُّ تترجمُ   وأشـــواقه تبدين ما هو يكتم

وقومُ بأنينهم وحنينهم :

قُلْ لى بألسنة التنفُّس كيف أنت وكيف حالك ؟

قوله جل ذكره : « الشمسُ والقمَرُ بِحُسْبان » .

يعنى يجرى أمرهما على حدٍّ معلومٍ من الحساب فى زيادة الليل والنهار ، وزيادة القمر ونقصانه ، وتُعْرَفُ بجريانهما الشهورُ والأيامُ والسنون والأعوام . وكذلك لهما حساب إذا انتهى ذلك الأَجَلُ . . فالشمسُ تُـكوَّرُ والقمرُ ينْـكَدِر .

وكذلك لشمسِ[1] المعارف وأقمارِ العلوم — فى طلوعها فى أوج[2] القلوبِ والأسرار — فى حكمة الله حسابٌ معلومٌ ، يُجْريها على ما سَبَق به الحُـكْمُ .

قوله جل ذكره : « والنَّجمُ والشَّجَرُ يسجدان » .

ويقال : النجم من الأشجار : ما ليس له ساق[3] ، والشجر : ما له ساق .

ويقال : النجومُ الطالعةُ والأشجارُ الثابتةُ « يسجدان » سجودَ دلالة على إثبات الصانع بنعت استحقاقه للجلال .

قوله جل ذكره : «والسماءَ رَفَعَها ووَضَعَ الميزان » .

سَمَكَ السماءَ وأعلاها ، وعلى وصفِ الإتقانِ والإحكام بناها ، والنجومَ فيها أجراها ، وبثَّ فيها كواكبَها ، وحفظ عن الاختلالِ مناكبَها ، وأثبت على ما شاء مشارقَها ومغاربَها . . وخَلَقَ الميزانَ بين الناس ليعتبروا الإنصافَ فى المعاملات بينهم .

ويقال : الميزانُ العَدْلُ .

« ألا تَطْغَوْا فى الميزان »

---

(١) هكذا بالمفرد فى م وهى فى ص بالجمع (شموس) ونرجح أنها بالمفرد حسبما نعرف من أسلوب القشيرى فشمس الحقائق واحدة إذا طلعت غطى نورها أقمار العلوم .

(٢) هكذا فى ص وهى أصوب مما جاء فى م (روح) فلا معنى لها هنا .

(٣) لأنه ينجم عن الأرض بلا ساق مثل البقول (النسفى حـ ٤ ص ٢٠٧) .

احفظوا العَدْل فى جميع الأمور ؛ فى حقوق الآدميين وفى حقوق الله ، فيعتبرُ العدلُ ، وتَرْكُ الحَيْفِ ومجاوزةُ الحدِّ فى كل شىء ؛ فى الأعمال يُعْتَبَرُ الإخلاصُ ، وفى الأحوال الصدقُ ، وفى الأنفاس الحقائقُ ومساواةُ الظاهرِ والباطنِ وتَرْكُ المداهنةِ والخداعِ والمكرِ ودقائق الشِّركِ وخفايا النفاق وغوامض الجنايات .

« وأقيموا الوَزْنَ بالقِسْطِ ولاتُخْسِروا

الميزان » .

(وأقيموا الوزن بالكيال الذى تحبون أن تُكَالوا به ، وعلى الوصف الذى ترجون أن تنالوا به مطعمكم ومشربكم دون تطفيف)[1] .

قوله جل ذكره : « والأرضَ وضعها للأنام * فيها

فاكهةٌ والنَّخْلُ ذاتُ الأكمام *

والحَبُّ ذو العَصْفِ والرَّيحان » .

خلق الأرض وَجَعلَها مهاداً ومثوى للأنام .

ويقال : وضعها على الماء وبسط أقطارها ، وأنبت أشجارها وأزهارها ، وأجرى أنهارها وأغطش ليلها وأوضح نهارَها .

« فيها فاكهة . . » يعنى ألوانُ الفاكهة المختلفة فى ألوانها وطعومها وروائحها ونفعها وضررها ، وحرارتها وبرودتها . . وغير ذلك من اختلافٍ فى حَبِّها وشجرها ، وورقها ونَوْرها .

« والنخل ذات الأكمام » وأكمام النخل ليفها وما يُغَطِّيها من السَّعف .

« والحَبُّ » : حَبُّ الحنطة والشعير والعدس وغير ذلك من الحُبوب .

« ذو العصف » : والعصف ورق الزرع[2]

---

(١) ما بين القوسين مضطرب فى النص حاولنا تنظيمه ليعطى معنًى .

(٢) قال الضحاك : العصف التبن ، وقال بعضهم العصف هو المأكول من الحب ، والريحان النضيج الذى لم يؤكل . وقال أبو مالك : العصف أول ما ينبت تسميه النبط هبوراً . وقال بعضهم : العصف ورق الحنطة . (البخارى حـ ٣ ص ١٣١) . وسميت الرياح عواصف لأنها تأتى بالعصف وهو ورق الزرع وحطامه .

« والريحان » الذى يُشَمُّ . . ويقال : الرزق لأن العرب تقول : خرجنا نطلب ريحانَ الله »
ذكَّرهم عظِمَ مِنَّتِهِ عليهم بما خَلَقَ من هذه الأشياء التى ينتفعون بها من مأكولاتٍ ومشمومات وغير ذلك .

قوله جل ذكره : « فبأىِّ آلاء ربِّكما تُكذِّبان »

فبأى آلاء ربكما تجحدان ؟ والآلاء النَّعماء .

والتثنيةُ فى الخطاب للمُكلَّفين من الجِنِّ والإنس .

ويقال : هى على عادة العرب فى قولهم : خليلىَّ ، وقِفَا ، وأرحلاها ياغلام ، وأزجراها يا غلام .

قوله جل ذكره : « خَلَقَ الإنسانَ من صلصالٍ كالفخَّار »

« الإنسان » : يعنى آدم ، والصلصالُ الطينُ اليابس الذى إذا حُرِّكَ صَوَّتَ كالفخار .
ويقال : طين مخلوط بالرمل .

ويقال : مُنَتِّنٌ ؛ من قولهم صَلَّ وأَصَلَّ إذا تَغيرَّ .

« وخَلَقَ الجانَّ من مارج من نار »

المارج : هو اللهب المختاط بسواد النار

« فبأىِّ آلاء ربكما تكذبان »

يُذَكِّرُ الخَلْقَ من الجن و الإنس كما سبق — وكرَّر اللهُ سبحانه هذه الآية فى غير موضع على جهة التقرير بالنعمة على التفصيل ، أى نعمةً بعد نعمة .

ووجُه النعمة فى خلق آدم من طين أنه رقاه إلى رتبته بعد أن خلقه من طين .

ويقال ذَكَّرَ آدمَ نِسبتَه وذكَّرنا نسبتَنا لئلا نعْجبَ بأحوالنا .

ويقال عرَّفه قدرَه لئلا يتعدَّى (1) طَوْرَه .

---

(1) هكذا فى ص وهى فى م (لا يعدو) .

قوله جل ذكره : « رَبُّ المشرقين وربُّ المغربين * فبأىِّ آلاء ربِّـكما تُـكَذبان » .

« المشرقين » : مشرق الصيف ومشرق الشتاء وكذلك مغربيهما .

ووجه النعمة فى ذلك جريانهما على ترتيب واحدٍ حتى يكمل انتفاع الخَلْقِ بهما .

ويقال : مشرق القلب ومغربه ، وشوارق القلب وغواربه إنما هى الأنوار والبصائر التى جرى ذِكْرُ بعضها فيما مضى .

قوله جل ذِكْرُه : مَرَجَ البحرين يلتقيان * بينهما بَرْزَخٌ لا يبغيان » .

« برزخ » أى حاجز بقدرته لئلا يغلب أحدهما الآخر ، أراد به البحر العذب والبحر الملح . ويقال : لا يبغيان على الناس ولا يغرقانهم .

« يخْرُجُ منهما اللؤلؤُ والمَرْجان »

اللؤلؤ : كبار الدُّرِّ ، والمَرجان : صغار الدُّرِّ . ويقال : المرجان النَّسْل .

وفى الإشارة : خَلَقَ فى القلوب بحرين : بحر الخوف وبحر الرجاء . ويقال القبض والبسط . وقيل الهيبة[1] والأُنس . يُخرج منها اللؤلؤ والجواهر وهى الأحوال الصافية واللطائف المتوالية .

ويقال : البحران . إشارة إلى النفس والقلب ، فالقلب هو البحر العَذْب والنفس هى البحر المالح . . فمن بحر القلب كلُّ جوهرٍ ثمين ، وكلُّ حالة لطيفة . . ومن النفس كل خلق ذميم[2] . والدرُّ من أحد البحرين يخرج ، ومن الثانى لا يكون إلا التمساح مما لا قَدْرَ له من سواكن القلب . « بينهما برزخ لا يبغيان » : يصون الحقُّ هذا عن هذا ، فلا يَبْغى هذا على هذا .

قوله جل ذكره : « وله الجَوارِ المُنْشَئَاتُ فى البحرِ كالأَعلامِ »

« الجوارى » : واحدها جارية ، وهى السفينة .

---

(١) هكذا فى م وهى الصواب أمَّا فى ص فهى (الهيبط) وهى خطأ فى النسخ .

(٢) النفس عند الصوفية محلّ المعلولات والقلب محل المحمودات .

« الأعلام » : الجبال

(له هذه السفن التى أنشئت وخلقت فى البحر كأنها الجبال العالية)[1] .

قوله جل ذكره : « كُلُّ مَنْ عليها فانٍ »

كل من على وجه الأرض فى حكم الفناء من حيث الجواز . ومن حيث الخبر : ستفنى الدنيا ومن عليها و يبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام . « والوجه » : صفة لله — سبحانه — لم يدلّ عليه العقل قطعاً ودلَّ عليه جَوازاً ، وورد الخبر بكونه قطعاً .

ويقال : فى بقاء الوجه بقاء الذات ، لأن الصفة لا تقوم بنفسها ، ولا محالة شَرطها قيامها بنفسه وذاته . وفائدة تخصيص الوجه[2] بالذكر أن ما عداه يُعْرَفُ بالعقل ، والوجه لا يُعْلَمُ بالعقل ، وإنما يُعْرَفُ بالنقل والأخبار . و « يبقى » : وفى بقائه . سبحانه خَلَفٌ عن كلِّ تالفٍ[3] ، وتسليةٌ للمسلمين عمَّا يصيبهم من المصائب ، و يفوتهم من المواهب .

قوله جل ذكره : يسأله مَنْ فى السمواتِ والأرضِ كُلَّ يومٍ هو فى شأن » .

أهلُ السمواتِ يسألون أبداً المغفرة ، وأهل الأرض يسألونه الرزق والمغفرَة ، أى لا بُدَّ لأحدٍ منه (سبحانه) .

وفى السموات والأرض مَنْ لا يسأله : وهم مَنْ قيل فيهم: مَنْ شَغَلَه ذِكْرِى عن مسألتى أعطيته أفضلَ ما أُعطى السائلين[4] .

و يقال: ليس كلُّ مَنْ فى السمواتِ والأرض يسألونه مِمَّا فى السموات والأرض ولكن :

بين المحبين سِرٌّ ليس يُفْشيه قَوْلٌ ولا قَلَمٌ للخَلْق يحكيه

---

(١) ما بين القوسين مستدرك فى هامش الورقة بالنسخة ص

(٢) سقطت لفظة (الوجه) من النسخة م .

(٣) هكذا فى م وهى فى ص (تالف) وهى صحيحة ولكن السياق والموسيقى الداخلية تتأكد بـ (تلف) .

(٤) « من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » رواه البخارى فى التاريخ ، والبزار فى المسند ، والبيهقى فى الشعب من حديث عمر بن الخطاب .

«كلَّ يوم هو فى شأن» مِنْ إحياء وإماتة، وقبض قومٍ وبَسْطِ قومٍ .. وغير ذلك من فنون أقسام المخلوقات، وما يُجْريه عليها من اختلاف الصفات.

وفى الآية ردٌّ على اليهود حيث قالوا: إنَّ اللهَ يستريح يومَ السبت لا يفعل شيئاً، فأخبر أنه كل يوم هو فى شأن، ولو أُخْلِيَ العالَم لحظةً من حِفْظِه لتلاشى وبَطُلَ.

(ومن شأنه أن يغفرَ ذنباً، ويَسْتُرَ عيباً، ويُذْهِبَ كرباً)[1]، ويُطَيِّبَ قلبًا، ويُقْصِي عَبْداً ويُدْنِي عبداً ... إلى غير ذلك من فنون الأفعال. وله مع عباده كلَّ ساعةٍ بِرٌّ جديدٌ، وسِرٌّ[2] بينه وبين عبده — عن الرقباء — بعيد.

ويقال: كل يوم هو فى شأنِ سَوْقِ المقادير إلى أوقاتها.

ويقال: كل يوم هو فى شأنِ إظهارِ مستورٍ وسَتْرِ ظاهرٍ، وإحضارِ غائبٍ وتغييبِ حاضرٍ.

قوله جل ذكره: «سَنَفْرُغُ لكم أَيُّهَ الثَّقَلَانِ[3]».

أى للحسابِ يومَ القيامة — وليس به اشتغالٌ ... تعالى اللهُ عن ذلك.

ومعنى الآية: سنقصد لحسابكم.

قوله جل ذكره: «يا مَعْشَرَ الجِنِّ والإِنْسِ إنِ استطعتم أَنْ تَنفُذُوا من أقطارِ السمواتِ والأرضِ فانفُذُوا لا تَنفُذُون إلا بسُلْطان».

أقطارُ السمواتِ والأرضِ نواحيها. أى إنْ قدرتم أن تخرجوا من مُلْكِهِ فاخرجوا.

---

(١) هذا الرأى أيضاً لأبى الدرداء (البخارى حـ٣ ص ١٣١).
(٢) هكذا فى م، أما فى ص فهى (يُسْر) وقد رجحنا الأولى لأن (السر) يكون بعيداً عن الرقباء.
(٣) (الثقلان) = الإنس والجن سُمِّيا بذلك لأنهما ثقلا الأرض.

ثم قال : «لاتنفذون إلا بسلطان» . أى لا تَصِلون إلى موضعٍ إلَّا وهناك سلطانى ومُلْكى ولا تنفذون فى قُطْرٍ إلا وهناك عليكم حجة[1] .

قوله جل ذكره : « يُرْسَلُ عليكما شُوَاظٌ من نارٍ ونُحَاسٌ فلا تنتصران » .

أى فلا تنتقمان . والشواظُ : اللَّهَبُ من النار لا دخانَ معه . والنحاس : الصُّفْرُ[2] المذاب

قوله جل ذكره : « فإذا انشقَّتْ السماء فكانت وردةً كالدِّهان » .

ينفكُّ بعضها عن بعض وتصير فى لون الورد الأحمر . ويقال : بها الفُرُش الموردة كالدهان وهو جمع دهن . أى كدهن الزيت وهو دردى الزيت .

ويقال : كما أن الوردة يتلَّون لونُها ، إذ تكون فى الربيع إلى الصُّفْرة ، فإذا اشتدت الوردة كانت حمراء ، وبعد ذلك إلى الغبرة — فكذلك حالُ السماء تتلون من وصفٍ إلى وصفٍ فى القيامة .

قوله جل ذكره : « فيومئذٍ لا يُسْأَلُ عن ذَنْبِهِ إنْسٌ ولا جان » .

أراد فى بعض أحوال[3] القيامة لا يُسألون ، ويُسْألون فى البعض . . . فيومُ القيامة طويلٌ .

ويقال : لمَّا كانت لهم يومئذٍ علامات : فللكفارِ سوادُ الوجه وزُرْقَةُ العين ، وللمسلمين بياض الوجه وغيرُ ذلك من العلامات — فالملائكة لا يحتاجون إلى سؤالهم : من أنتم ؟ لأنهم يعرفون كُلَّاً بسيماهم .

---

(1) هكذا فى م وهى فى ص (وجهه) . فإذا قبلنا (حجة) فيكون المعنى أنكم أينما توجهتم فى بقاع السموات والأرض فستجدون دائما برهاناً على وحدانية الله ، وشاهداً على ربوبيته . وإذا قبلنا (وجهه) فهى على معنى : «فأينما تولوا فثم (وجه) الله» .

(2) الصفر = النحاس الأصفر .

(3) أحوال القيامة هنا بمعنى مواطن القيامة فى ذلك اليوم الطويل . وربما كانت (أهوال) .

ويقال : لا يُسْألون سؤالاً يكون لهم ويُسْألون[1] سؤالا يكون عليهم[2] .

قوله جل ذكره : « يُعْرَفُ المُجْرِمون بسيماهم فيُؤخَذُ بالنواصى والأقدام » .

المؤمنون غُرٌّ مُحَجَّلُون ، والكفّارُ سود الوجوهِ زُرْقُ العيون ، فيعرف الملائكة هؤلاء فيأخذون بنواصيهم ، ويَجُرُّونهم مرة بها ومرةً بأقدامهم ثم يلقونهم فى النار ، ويطرحونهم فى جهنم :

« هذه جَهَنَّمُ التى يُكذّب بها المجرمون * يطوفون بينها وبين حميمٍ آنٍ » .

يقال لهم : هذه جهنم التى كنتم بها تكذبون !

« حميم » : ماء حارٌّ . « آن » تناهى فى النضج

قوله جل ذكره : «ولِمَنْ خافَ مَقَامَ ربِّه جَنَّتان »

يقال: لِمَنْ خاف قُرْبَ ربِّه منه واطلاعه عليه .

ويقال : لمن خاف وقوفَه غداً بين يدى الله — جنتان ، ولفظة التثنية هنا على العادة فى قولهم: خليليَّ ونحوه .

وقيل : بل جنتان على الحقيقة ، مُعَجَّلَة فى الدنيا من حلاوة الطاعة وروْح[3] الوقت ، ومؤجَّلة فى الآخرة وهى جنة الثواب . ثم هم مختلفون فى جنات الدنيا على مقادير أحوالهم كما يختلفون فى الآخرة على حسب درجاتهم .

« ذَوَاتا أفنانٍ * فبأى آلاء ربكما تكذبان فيهما عينان تجريان » .

دلَّ على أن الجنتين فى الآخرة . والأفنانِ الأغصان . وهى جمع فنن .

---

(1) سقطت (ويسألون) هذه من م وموجودة فى ص وهى ضرورية .

(2) هذه المحاولات التى بذلها القشيرى مقصود منها — حسبما نظن — التوفيق بين هذه الآية وبين آيات أخرى مثل : «فوربك لنسألنهم أجمعين » ومثل «وقفوهم إنهم مسئولون» .
ومن قبيل هذه المحاولات قول قتادة : ختَمَ الله على أفواه القوم وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون .

(3) هكذا فى م وهى فى ص (بروح) .

ويقال : ذواتا ألوانٍ من كلِّ صنفٍ ولونٍ تشتهيه النَّفْسُ والعينُ — وتكون جمع فن .

« فيهما عينان تجريان » إحداهما التسنيم ، والأخرى السلسبيل .

ويقال : عينان تجريان غداً لمن كان له — اليومَ — عينان تجريان بالدموع .

« فيهما من كلِّ فاكهةٍ زَوْجان » .

زوجان أي صِنْفان وضَرْبان ؛ كالرطب واليابس ، والعنب والزبيب .

ويقال : إنها في نهاية الحسن والجودة .

« مُتَّكئين على فُرُشٍ بطائنُها من
إستبرقٍ وجَنَى الجنتين دَانٍ » .

بطائنها من استبرق فكيف بظهائرها ؟ . « والبطائن » : مايلي الأرض . « والاستبرق »: الديباج الغليظ . وإنما خاطَبَهم على قَدْرِ فَهْمِهم ؛ إذ يقال إنه ليس في الجنة شيء مما يُشْبِه ما في الدنيا ، وإنما الخطاب مع الناس على قَدْرِ أفهامهم[1].

« وجنى الجنتين دان » : أي مايجتنى من ثمرها — إذا أرادوه — دنا إلى أفواههم فتناولوه من غير مَشَقَّةٍ تنالهم . وفي الخبر المسند : « مَنْ قال سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر غَرَسَ الله له شجرةً في الجنة أصلها الذهب وفرعها الدر وطلعها كثدى الأبكار ألين من الزبد وأحلى من العسل ، كلما أخذ منها شيئاً عاد كما كان » — وذلك قوله : ودنا الجنتين دان .

ويقال : ينالها القائم والقاعد والنائم .

قوله جل ذكره : « فيهن قاصِراتُ الطَّرْف لم يَطْمِثْهُنَّ
إنسٌ قبلَهم ولا جانٌّ » .

أي في الجنان حورٌ قَصَرْن عيونَهن عن غير أزواجهن .

وإذا كانت الزوجاتُ قاصراتِ الطَّرْفِ عن غير أزواجهن فأَوْلى بالعبد إذ رجا لقاءه — سبحانه — أن يقصر طَرْفَه ويَغُضَّه عن غير مُبَاحٍ .

---

(١) هذا رأى على جانب كبير من الأهمية يوضح مدى تصور القشيري لنعيم الجنة وابتعادها عن المحسات .

بل عن الكُلِّ . . إلى أن يلقاه .

ويقال : من الأولياء مَنْ لا يَنْظُرُ إليهن — وإنْ أُبيح له ذلك لتحرُّره عن الشهوات ، ولعلوِّ همته عن المخلوقات[1] — وأنشدوا :

جُنِنَّا بلَيْلَى وهى جُنَّتْ بغــــيرنا
وأخـــــرى بنـــا مجنونة لا نريدها

ويقال : هُنَّ لمن قصرت يدُه عن الحرام والشبهة ، وطرفُه عن الرِّيَبِ .

« لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان » : لم يصحبهن غيرُ الولىِّ ولم يَحْزُنَ غيرَه ، وفى الخبر : اشتاقت الجنة لثلاثة[2].

« كأنهنَّ الياقوتُ والمَرْجَان » .

أى : فى صفاء الياقوت ولون المرجان .

قوله جل ذكره : « هَلْ جَزاءُ الإحسانِ إلَّا الإحْسَانُ؟ » .

يقال : الإحسانُ الأول من الله والثانى من العبد ؛ أى : هل جزاء مَنْ أحسنَّا إليه بالنصرة إلَّا أن يُحْسِنَ لنا بالخدمة ؟ وهل جزاء مَنْ أحسنَّا إليه بالولاء إلا أن يحسن لنا بالوفاء ؟ .

ويصح أن يكون الإحسانُ الأول من العبد والثانى من الله ؛ أى : هل جزاء من أحسن من حيث الطاعة إلا أن يُحْسَنَ إليه من حيث القبول والثواب ؟ .

وهل جزاء من أحسن من حيث الخدمة إلا أن يُحْسَنَ إليه من حيث النعمة ؟

ويصح أن يكون الإحسانان من الحقِّ ؛ أى : هل جزاء مَنْ أحسنَّا إليه فى الابتداء إلا أن نُحْسِنَ إليه فى الانتهاء ؟ وهل جزاء مَنْ فاتحناه باللُّطف إلا أن نُرْبِيَ له فى الفضل والعطف ؟ .

---

(١) يضاف هذا الكلام إلى رأى القشيرى فى موضوع «الرخصة» .

(٢) إن الجنة تشتاق إلى ثلاثة : على وعمار وسلمان .

(الترمذى عن أنس ، ورواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح غير أبى ربيعة الأيادى . وقد حسَّن الترمذى حديثه . قاله الحافظ الهيثمى) ونرجح أن الموضع الصحيح للخبر هو بعد النص الشعرى السابق ، ونرجح أيضاً أن السبب فى استشهاد القشيرى بهذا الخبر هنا هو إثبات اشتياق الجنة لأهل الخصوص ، بينما هؤلاء الزهاد الثلاثة لا أَرَبَ لهم فى الدارين ، لأنهم باقون بربهم .

ويصحُّ أن يكون كلاهما من العبد ؛ أى : هل جزاء من آمن بنا إلَّا أن يَثْبت فى المستقبل على إيمانه ؟ وهل جزاء مَنْ عَقَدَ معنا عقد الوفاء إلا أَنْ يقوم بما يقتضيه بالتفصيل ؟ .

ويقال : هل جزاء مَنْ بَعُدَ عن نَفْسِه إلاَّ أَنْ نُقَرِّبَه منَّا ؟

وهل جزاء مَنْ فَنِيَ عَنْ نفسه إلاَّ أَنْ يبقى بنا ؟ .

وهل جزاء مَنْ رَفَع لنا خطوة إلاَّ أَن نـكافئَه بكل خطوة ألف حُظْوَة ؛

وهل جزاء من حفظ لنا طَرْفَه إلا أَن نُـكْرِمَه بلقائنا ؟ .

قوله جل ذكره : « ومِنْ دونِهما جَنَّتان » .

هما جنتان غير هاتين اللتين ذُكِرَتا ؛ جنتان أُخْرَيان . وليس يريد دونهما فى الفضل ، ولـكن يريد « جنتان » سواهما[1].

« مُدْهامَّتان » .

أى :خضراوان خُضْرةً تضرب إلى السواد . فالدهمة السواد[2] والفعل منه ادهامَّ والاسم منه مُدْهَامٌّ ، وللمؤنث مدهامَّة ، ولتثنية المؤنث مدهامتان .

« فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتان » :

والنَّضْخُ فَوَرانُ العين بالمـاء .

« فيهما فاكهةٌ ونَخْلٌ ورُمَّانٌ »

الأسماء متشابهة . . والعيون[3] فلا .

« فيهن خَيْرَاتٌ حِسانٌ » .

---

(١) قارن ذلك برأى النسفى الذى يقول : هما جنتان من دون تينك الجنتين الموعودتين للمقربين وهما لمن دونهم من أصحاب اليمين وفى موضع آخر من الصفحة ذاتها يقول النسفى : وإنما تقاصرت صفات هاتين الجنتين عن الأولين لأن مدهامتان دون (ذواتا أفنان) ونضاختان دون (تجريان) وفاكهة (دون كل فاكهة) (النسفى حـ ٤ ص ٢١٣) .

(٢) هذا رأى الخليل أيضاً .

(٣) ربما يقصد القشيرى (والأعيان) فهذا هو الاصطلاح المألوف استعماله فى علمى الفلسفة والكلام — بل إن القشيرى نفسه يستعمله فى مثل هذا الموضع . والمقصود أن القرآن يتحدث عن نعيم الجنة حسب أفهام الناس ، ولكن الأعيان غير الأسماء .

أى : حورٌ خَيِّرات الأخلاق حِسانُ الوجوه . واحدها خَيِّرة والجمع خَيِّرات وهذا هو الأصل ثم خُفِّف فصارت خيرات .

« حُورٌ مقصوراتٌ فى الخِيام » .

محبوسات على أزواجهن . وهُنَّ لِمَنْ هو مقصورٌ الجوارح عن الزَّلاَّت ، مقصورُ القلب عن الغفلات ، مقصور السِّرِّ عن مساكنة الأشكال والأعلال والأشباه والأمثال .

وفى بعض التفاسير : أن الخيمة من دُرَّةٍ مجوفة فرسخ فى فرسخ لها ألف باب[1] .

ويقال : قصرت أنفسهن وقلوبهن وأبصارهن على أزواجهن . وفى الخبر : أنهن يقلن : نحن الناعمات[2] . فلا نبؤس ، الخالدات فلا نبيد ، الراضيات فلا نسخط .

وفى خبر عن عائشة رضى الله عنها : أن المؤمنات أجْبَنَهُنَّ : نحن المصلياتُ وما صَلَّيْتُنَّ ، ونحن الصائماتُ وما صُمْتُنَّ ، ونحن المتصدِّقاتُ وما تَصَدَّقْتُنَّ ، قالت عائشة يغلبهن قولُه :
« لم يَطْمِثْهُنَّ[3] إنسٌ قَبْلَهُم ولا جَانٌّ » .

قوله جل ذكره : « مُتَّكِئين على رَفْرَفٍ خُضْر وعبقريٍّ حِسان » .

قيل : رياض الجنة ، وقيل : المجالس ، وقيل : الزرابىّ والوسائد — وهى خُضْرٌ « وعبقري حسان » : العبقرى عند العرب كلٌّ ثوبٍ مُوَشَّى .

قوله جل ذكره : « تَبَارَكَ اسمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ والإِكْرَامِ » .

مضى تفسيره .

---

(١) حدثنا محمد بن المثنى قال : حدثنا عبد العزيز بن عبد الصمد : حدثنا أبو عمران الجونى عن أبى بكر بن عبد الله ابن قيس عن أبيه : أن رسول الله (ص) قال : إن فى الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة عرضها ستون ميلا فى كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين يطوف عليهم المؤمنون .. البخارى ح٣ ص ١٣٢ . وذكر ابن جرير الطبرى أن الخيمة لؤلؤة أربعة فراسخ فى أربعة فراسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب (ح٢٧ ص ٨٤) .

(٢) «نحن الناعمات فلا نبؤس أبداً ، نحن الخالدات فلا نموت أبداً .. » رواه الترمذى عن على ، وقال : حديث غريب . ورواه البيهقى وأبو نعيم عن أبى أوفى فى صفة الجنة ، وذكره السراج فى اللمع ص ٣٤٥ .

(٣) الطمث : الجماع بالتدمية .

سُورَةُ الوَاقِعَة

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بِسْمِ الله » : إسم جبَّار مَنْ اعتنى بشأنه أحضره بإحسانه ، فإنْ أبَى إلاَّ تمادياً فى عصيانه حَالَ بينه وبين اختياره[1] بقَهْرِ سلطانه ، وإنْ لم يلازم هذه[2] الطاعة أَلْجأَه بالبلاء فيأتيها باضطراره .

إسمٌ عزيزٌ أزلىٌّ ، جبَّارٌ صَمَدِىٌّ ، قهَّارٌ أحدىٌّ ، للمؤمنين ولىٌّ ، وبالعاصين حَفِىٌّ ، ليس لجماله كَفِىٌّ ، ولا فى جلاله سمىٌّ ، لكنه[3] للعُصَاةِ من المؤمنين ولىٌّ .

قوله جل ذكره : « إذا وَقَعَتِ الواقعةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ » .

إذا قامت القيامة لا يردُّها شىء .

« كاذِبة » هاهنا مصدر : كالعافية ، والعاقبة ، أى : هى حقَّةٌ لا يردها شىء ، وليس فى وقوعها كذب .

ويقال : إذا وقعت الواقعة فَمَنْ سَلَكَ منهاج الصحة والاستقامة وَصَلَ إلى السلامة ولقى الكرامة ، ومَنْ حادَ عن نهج الاستقامة وَقَعَ فى الندامة والغرامة ، وعند وقوعها يتبين الصادق من الماذق :

إذا اشتبكت دموعٌ فى خدودٍ تبَيَّنَ مَنْ بكى مِمَّن تباكى

« خافِضَةٌ رافعة »

---

(١) هكذا فى ص وهى فى م (إحسانه) .

(٢) هكذا فى م وهى فى ص (شدة) الطاعة .

(٣) هكذا فى م ، وفى ص توجد كلمة غير واضحة الكتابة .

« خافضة » : لأهل الشقاوة ، « رافعة » : لأهل الوفاق .

« خافضة » : لأصحاب الدعاوى ، « رافعة » : لأرباب المعانى .

« خافضة » : للنفوس ، « رافعة » : للقلوب .

« خافضة » : لأهل الشهوة ، « رافعة » : لأهل الصفوة .

« خافضة » : لمن جَحَد ، « رافعة » : لمن وَحَدَ .

قوله جل ذكره : « إذا رُجَّت الأرضُ رجًّا » .

حُرِّكت حركةً شديدة .

قوله جل ذكره : « وبُسَّت الجبالُ بَسًّا * فكانت هباءً مُنْبَثًّا » .

فُتِّتَت فكانت كالهباء الذى يقع فى الكوَّة عند شعاع الشمس .

قوله جل ذكره : « وكُنْتُم أزواجًا ثلاثة * فَأَصْحَابُ المَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الميمنة * وأَصْحَابُ المَشْئَمَةِ ما أَصْحَابُ المَشْئَمَةِ * والسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ » .

« ما أصحاب الميمنة » ؟ على جهته التفخيم لشأنهم والتعظيم لِقَدْرِهم ، (وهم أصحاب اليُمْنْ والبركة والثواب) [1] .

« ماأصحاب المشأمة » : على جهة التعظيم والمبالغة فى ذَمِّهم ، وهم أصحاب الشؤم على أنفسهم ويقال : أصحاب الميمنة هم الذين كانوا فى جانب اليمين من آدم عليه السلام يومَ الذَّرِّ ، وأصحاب المشأمة هم الذين كانوا على شماله .

---

(١) موجود فى ص وغير موجود فى م .

ويقال : الذين يُعطَوْن الكتابَ بأيمانهم ، والذين يُعْطَوْن الكتاب بشمائلهم .

(ويقال : هم الذين يُؤْخَذُ بهم ذات اليمين .. إلى الجنة ، والذين يُؤْخَذُ بهم ذات الشمال .. إلى النار)[1] .

« والسَّابقون السَّابقون » : وهم الصف الثالث . وهم السابقون إلى الخصال الحميدة ، (والأفضال الجميلة)[2] .

ويقال : السابقون إلى الهجرة . ويقال : إلى الإسلام . ويقال : إلى الصلوات الخمس .

ويقال : السابقون بصدْق القَدَم . ويقال : السابقون بعُلُوِّ الهِمَم . ويقال : السابقون إلى كل خير . ويقال السابقون المتسارعون إلى التوبة من الذنوب فيتسارعون إلى النَّدمَ إن لم يتسارعوا بصدق القَدمَ .

ويقال : الذين سبقت لهم من الله الحسنى فسبقوا إلى ماسبق إليه :

« أولئك المقَرَّبون »

ولم يقل : المتَقَرِّبون ، بل قال : أولئك المُقَرَّبون — وهذا عين الجَمْع ، فعَلِمَ الكافة أنهم بتقريب ربهِّم سبقوا — لا بِتَقَرُّبهم[3]

« فى جنَّات النعيم »

أى : فى الجنة[4] . ويقال : مقربون إلا من الجنة فمحال أن يكونوا فى الجنة ثم يُقَرَّبون من الجنة ، وإنما يُقَرَّبون إلى غير الجنة : يُقَرَّبون من بِساط القربة . .

وأنَّى بالبساط ولا بساط ؟ ! مقربون . . ولكن من حيث الكرامة لا من حيث المسافة ؛ مُقَرَّبةٌ نفوسُهم من الجنة وقلوبهم إلى الحقِّ .

مُقَرَّبةٌ قلوبهُم من بساط المعرفة ، وأرواحهُم من ساحات الشهود — فالحقُّ عزيز . . لا قُرْبَ ولا بُعْدَ ، ولا فَصْلَ ولا وَصْلَ .

---

(١) موجودة فى م وغير موجود فى ص .

(٢) موجود فى م وغير موجود فى ص .

(٣) هذه إشارة إلى أن العمل الإنسانى — وحده — لا يعوَّل عليه إذا قيس بالفضل الإلهى .

(٤) يتحدث القشيرى هنا فى ضوء حالى الفرق والجمع .

ويقال : مقربون ولـكن من حظوظِهم ونصيبِهم . وأحوالُهم — وإنْ صَفَتْ — فالحقُّ وراء الوراء .

قوله جل ذكره : « ثُلَّةٌ مِنَ الأولين * وقليلٌ مِنَ الآخِرين » .

الثُّلَّة : الجماعة . ويقال : ثلة من الأولين الذين شاهدوا أنبياءهم وقليل من الآخرين الذين شاهدوا نبيَّنَا صلى الله عليه وسلم .

ويقال : ثُلَّةٌ من الأولين : من السلف وقليل من المتأخرين : من الأمة .

« على سُرُرٍ موضونة »[1] .

أى منسوجة نسيج الدرع من الذهب . جاء فى التفسير : طولُ كل سريرٍ ثلثمائة ذراع ، إنْ أراد الجلوسَ عليه تواضع ، وإن إستوى عليه ارتفع .

« مُتَّـكِئِينَ عليها متقابلين » .

أى لايرى بعضُهم قفا بعضٍ . وَصَفَهم بصفاء المودة وتَهَذُّب الأخلاق .

« يَطُوفُ عليهم وِلدانٌ مُخَلَّدون » .

يطوف عليهم وهم مقيمون لا يبرحون ولدانٌ فى سِنٍّ واحدة .. لا يهرمون .

وقيل : مُقَرَّطون (الخلدة . القُرْط)

« بأكوابٍ وأباريقَ وكأسٍ من مَّعِينٍ * لا يُصَدَّعون عنها ولا يُنْزِفون » .

« بأكواب » جمع كوب وهى آنية بلا عروة ولا خرطوم ، « وأباريق » : جمع إبريق وهو عكس الـكوب (أى له خرطوم وعروة) .

ولا صداع لهم فى شربهم إياها ، كما لا تذهب عقولهم بسببها .

ولهم كذلك فاكهة مما يتخيرون ، ولحم طيرٍ مما يشتهون ، وحُورٌ عين ، كأمثال اللؤلؤ المكنون ، أى : المصون ، جزاء بما كانوا يعملون .

---

(١) وَضَنَ الثوب نَسَجَه بالجوهر ، فهو واضن وهى واضنة والمفعول موضون .

قوله جل ذكره : « لا يَسْمَعون فيها لَغوًا ولا تأثيماً * إلّا قيلاً سلاماً سلاما » .

اللغو : الباطل من القول ، والتأثيم : الإثم والهذيان

ولا يسمعون إلا قيلاً سلاماً ، وسلاماً : نعت للقيل .

« وأصحابُ اليمين ما أصحاب اليمين * فى سِدْرٍ مخضود » : لا شوكَ فيه ، « وطلحٍ منضود » : والطلح شجر الموز ، متراكم نضيد بعضه على بعض .

« وظلٍ ممدود » كما بين الإسفار[1] إلى طلوع الشمس[2] . وقيل : ممدود أى دائم .

« وماء مسكوب » : جارٍ لا يتعبون فيه .

« وفاكهةٍ كثيرة » : لا مقطوعة عنهم ولا ممنوعة منهم .

« وفُرُشٍ مرفوعة » لهم .وقيل : أراد بها النساء[3] .

« إنّا أنشأناهن إنشاء * فجعلناهن أبكاراً » أى الحور العين .

« عُرُبا » : جمع عَرُوب[4] وهى الغَنِجَةُ المتحببةُ إلى زَوْجِها . ويقال عرباً : أى مُتَشَهّيات إلى أزواجهن .

« أتراباً » : جمع تِرْب ، أى : هُنّ على سِنٍّ واحدة .

« لأصحاب اليمين » : أى خلقناهن لأصحاب اليمين .

« ثُلّةٌ من الأولين * وثُلّةٌ من الآخِرين » : أى : ثلة من أُولَى هذه الأمة ، وثلة من أُخْراها .

« وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال * فى سَمُومٍ وحميم » : والسَّموم فيحُ جهنم وحَرُّها . والحميم : الماء الحار .

---

(١) طلوع الفجر أو الصبح .

(٢) سقطت (الشمس) من م .

(٣) لأن المرأة يكنى عنها بالفيراش .

(٤) جاء عند البخارى : عروب مثل : صبور يسميها أهل مكة : العَرِبة وأهل المدينة : الغَنِجة ، وأهل العراق : الشَّكِلة (البخارى حـ٣ ص ١٣٢) .

« وظلٍّ من يحموم » ، وهو الدُّخان الأسود .

« لا باردٍ ولا كريم » : لا بارد : أى لا راحةَ فيه . ولا كريمٍ : ولا حَسَنٍ لهم ؛ (حيث لا نفع فيه) .

« إنهم كانوا قبل ذلك مُتْرَفين »: أى : كانوا فى الدنيا مُمَتَّعين .

« وكانوا يُصِرُّون على الحِنْثِ العظيم » أى الذَّنْبِ العظيم .

« وكانوا يقولون أئذا مِتْنا وكُنَّا تراباً وعظاماً أئنا لمبعُوثُونَ ؟ » أى : أنهم يُكَذِّبون بالبعث .

ثم يقال لهم : « إنكم أيها الضالون المُكَذِّبون » اليومَ « لآكلون من شَجَرٍ من زَقُّوم » وجاء فى التفسير : أن الزقوم شجرة فى أسفل جهنم إذا طُرِحَ الكافرُ فى جهنم لا يصل إليها إلا بعد أربعين خريفاً .

« فمالِئون منها البطون * فشاربون عليه من الحَميم » شرابٌ لا تهنأون به « فشاربون شُرْبَ الهيم » : وهى الإبل العِطاش . ويقال : الهيم أى الرَّمْلُ ينضب فيه كلُّ ما يُصَبُّ عليه .

« هذا نُزُلهم يومَ الدِّين » : يوم القيامة .

قوله جل ذكره : « نحن خَلَقْنَاكُم فلولا تُصَدِّقون » .

نحن خلقناكم : يا أهلَ مكةَ — فهلاَّ آمَنْتُم لتتخاصوا ؟ توبِّخون وتُعَاتَبون .. واليومَ تَعتَذِرون ! ولكن لا ينفعكم ذلك ولا يُسْمَعُ منكم شيء .

وإن أشدَّ العقوبات عليهم يومئذٍ أنهم لا يتفرَّغون من آلامِ نفوسِهم وأوجاعِ أعضائهم إلى التَحسُّر على مافاتهم فى حقِّ الله .

ويقال : أشدُّ البلاء ـ اليومَ ـ على قلوب هذه الطائفة[1] خوفُهم من أنْ يَشْغَلَهم ـ غداً ـ بمقاساة آلامهم عن التحسُّر على ما تكدَّرَ عليهم من المشارب فى هذا الطريق . وهذه محنةٌ لا شىءَ أعظمُ على الأصحاب منها . وإنَّ أصحابَ القلوبِ — اليومَ — يبتهلون إليه ويقولون : إنْ

(١) يقصد الصوفية .

حَرَمْتَنا مشاهدَ الأُنْس فلا تَشْغَلْنا بلذَّاتٍ تشغلنا عن التحسُّر على ما فاتنا ، ولا بآلامٍ تشغلنا عن التأسُّف على ما عَدِمْنا منك .

قوله جل ذكره : « أفرأيتم ما تُمنون * ءأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟ » .

يقال : مَنَى الرجلُ وأَمْنَى . والمعنى : هل إذا باشَرْتُم وأنزلتم وانعقد الولد .. أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟ والخَلْقُ هاهنا : التصوير ؛ أى : أأنتم تجمعون صُوَرَ المولود وتُرَكِّبون أعضاءه .. أم نحن ؟ .

وهم كانوا يُقِرُّون بالنشأة الأولى فاحتجّ بهذا (على جواز النشأة الأخرى عند البعث الذى كانوا ينكرونه . وهذه الآية أصلٌ فى)[1] إثبات الصانع ؛ فإن أصلَ خِلْقةِ الإنسان من قطرتين : قطرة من صُلْبِ الأب وهو المنى وقطرة من تريبة الأم[2] ، وتجتمع القطرتان فى الرَّحِم فيصير الولد . وينقسم الماءان المختلطان إلى هذه الأجزاء التى هى أجزاء الإنسان من العَظْمِ والعَصَبِ والعرقِ والجلْدِ والشَّعْرِ .. ثم يركبها على هذه الصور فى الأعضاء الظاهرة وفى الأجزاء الباطنة حيث يُشَكَّلُ كلَ عضوٍ بشكلٍ خاص ، والعِظام بكيفية خاصة .. إلى غير ذلك .

وليس يخلو : إمَّا أنْ يكونَ الأبوان يصنعانه — وذلك التقديرُ محالٌ لتقاصر عِلْمِها وقُدْرتهما عن ذلك وتمنِّيهما الولَدَ ثم لا يكون ، وكراهتهما الولدَ ثم يكون !

والنُّطفة أو القَطْرةُ مُحَالٌ تقديرُ فِعْلها فى نَفْسِها على هذه الصورة لكونها من الأموات بَعْدُ ، ولا عِلْمَ لها ولا قدرة .

أو مِنْ غيرِ صانعٍ .. وبالضرورة يُعْلَمُ أنه لا يجوز .

فلم يَبْقَ إلاَّ أن الصانعَ القديمَ المَلِكَ العليمَ هو الخالق[3] .

قوله جل ذكره : « نحن قَدَّرْنا بينكم الموتَ وما نحْنُ بمسْبوقين * على أنْ نبدِّلَ أمثالَكم ونُنْشِئَكمْ فِيمَا لا تعلَمُون » .

---

(١) ما بين القوسين موجود فى م وغير موجود فى ص .

(٢) تريبة الأم عظمة الصدر والجمع ترائب .

(٣) هذا نموذج طيب يصور طريقة القشيرى متكلماً .

يكون الموتُ في الوقت الذي يريده ؛ منكم مَنْ يموت طفلا ومنكم من يموت شابًّا ، ومنكم من يموت كهلاً ، وبعللٍ مختلفه وبأسبابٍ متفاوتةٍ وفي أوقاتٍ مختلفة .

« وما نحن بمسبوقين » في تقديرنا فيفوتنا شيء ولسْنا بعاجزين عن أن نَخْلُقَ أمثالكم ، ولا بعاجزين عن تبديلَ صُوَركم التي تعلمون ؛ إن أردنا مَسْخَكُم وتبديلَ صُوَركم فلا يمنعنا عن ذلك أحدٌ .

ويقال : وننشئكم فيما لا تعلمون من حكم السعادة والشقاوة[1] .

قوله جل ذكره : « ولقد علِمْتم النشأةَ الأُولى فلولا تَذَكَّرون » .

أي : أنتم أقررتم بالنشأة الأولى .. فهلَّا تذكَّرون لتعلموا جَوَازَ الإعادة ؛ إذ هي في معناها[2] .

قوله جل ذكره : « أَفَرَأَيْتُم ما تَحْرُثُون * أأنتم تَزْرَعُونَه أم نحن الزّارِعُون ؟ »

أي : إذا ألقيتم الحَبَّ في الأرض . . أأنتم تُنْبِتُونه أم نحن المُنْبِتون ؟ وكذلك وُجوهُ الحكمة في إنبات الزَّرْع ، وانقسام الحَبَّةِ الواحدةِ على الشجرة النابتةِ منها (في قِشْرِها ولحائها وجِذْعِها وأغصانها وأوراقها وثمارها)[3] — كل هذا :

« لَوْ نشاءُ لجَعَلْناهُ حُطاماً فظَلْتُم تَفَكَّهون » .

لو نشاء لجعلناه حطاماً يابساً بعد خُضْرته ، فصِرْتُم تتعجبون وتندمون على تعبكم فيه ، وإنفاقكم عليه ، ثم تقولون :

« إنَّا لَمُغْرَمُون* بل نحن محرُومون »

أي : لَمُلْزَمون غرامةَ ما أنفقنا في الزَّرع ، وقد صار ذلك غُرْماً علينا — فالمغرم مَنْ ذَهَبَ إنفاقُه بغير عِوَضٍ .

---

(١) وضع هذا السطر في مكان تالٍ بعد (في معناها) فنقلناه إلى موضعه الصحيح .

(٢) أي أن الإعادة لا تفترق في شيء عن الخَلْق الأول .

(٣) ما بين القوسين موجود في م وغير موجود في ص .

« بل نحن محرومون » بل نحن محرومون بعد أن ضاع منَّا الرزق .

قوله جل ذكره : « أفرأيتم الماء الذى تشرَبون * أأنتم أنزلتُموهُ مِنَ المُزْنِ أم نحن المُنزِلون * لو نشاء جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فلولاَ تَشْكُرون » .

أأنتم أنزلتموه من السحاب.. أم نحن نُنزِلُهُ متى نشاء أنَّى نشاء كما نشاء على من نشاء وعلى ما نشاء ؟ ونحن الذين نجعله مختلفاً فى الوقت وفى المقدار وفى الكيفية ، فى القِلّةِ وفى الكثرة .

ولو نشاء لجعلناه ملحاً . . أفلا تشكرون عظيمَ نعمةِ اللهِ —سبحانه— عليكم فى تمكينكم من الانتفاع بهذه الأشياء التى خَلَقها لكم .

قوله جل ذكره : « أفرأيتم النَّار التى تورُون * أأنتم أنشأْتُم شَجَرَتَهَا أم نحن المُنْشِئون * نحن جعلْنَاها تَذْكِرةً ومتاعاً للمُقْوِين » .

وَرَى الزَّنْدَ يُرِى فهو وارٍ .. وأَوْراه يُورِيه أى يَقْدَحهُ .

يعنى : إذا قدحتم الزند .. أرأيتم كيف تظهر النار — فهل أنتم تخلقون ذلك ؟

أأنتم أنشأتم شجرتها — يعنى المَرْخَ والعَفَار[1] — أم نحن المنشئون ؟

« نحن جعلناها تذكرة » : أى يمكن الاستدلالُ بها .

« ومتاعاً للمُقْوِين » : يقال : أقوى الرجلُ إذا نزل بالقواء أى : الأرض الخالية .

فالمعنى : أن هذه النار « تذكرة » يتذكَّر بها الإنسان ما توعده به فى الآخرة من نار جهنم ، و « متاعا » : يستمتع بها المسافر فى سفره فى وجوه الانتفاع المختلفة .

---

(١) المرخ : شجر ينفرش ويطول فى السماء ليس له ورق ولا شوك ، سريع الورى يُقتدح به . والعفار : شجيرة من الفصيلة الأريكية لها ثمر لبنىٌّ أحمر ، ويتخذ منها الزناد فيسرع الورى . وفى أمثال العرب : «فى كل شجر نار واستمجد المرخُ والعفار» .

قوله جل ذكره : « فَسَبِّح باسم ربِّك العظيم »

أى : اسبحْ بفكرك فى بحار عقلك ، وغُصْ بقوة التوحيد فيها تَظْفَرْ بجواهر العلم ، وإيَّاك أَنْ تُقَصِّرَ فى الغوص لسببٍ أو لآخر ، وإياك أن تتداخَلَكَ الشُّبَهُ فيتلفَ رأسُ مالك ويخرجَ من يدك وهو دينُك واعتقادك . . وإلاَّ غرقتَ فى بحار الشُّبَه ، وضَلَلْتَ .

وهذه الآيات[1] التى عَدَّها الله — سبحانه — تُمَهِّدُ لسلوكِ طريقِ الاستدلالِ ، فكما فى الخبر « فِكْرُ ساعةٍ خيرٌ من عبادةِ سَنَةٍ » — وقد نبَّه الله سبحانه بهذا إلى ضرورة التفكير .

قوله جل ذكره : « فلا أُقْسِمُ بمواقِعِ النُّجومِ * وإنَّه لَقَسَمٌ لو تعلمون عظيم * إنه لَقُرْآنٌ كريمٌ * فى كتابٍ مكنونٍ * لايَمَسُّه إلا الْمُطَهَّرُون * تنزيلٌ من ربِّ العالَمين » .

قيل : هى مواقع نجوم السماء . ويقال : مواقع نجوم القرآن على قلب الرسول صلى الله عليه وسلم .

« إنه لقرآن كريمٌ »: والكَرَمُ نَفْىُ الدناءة — أى: أنه غير مخلوق[2] ويقال : هو « قرآن كريمٌ » : لأنه يدل على مكارم الأخلاق .

ويقال هو قرآن كريمٌ لأنه من عند ربٍّ كريم على رسولٍ كريمٍ ، على لسان مَلَكٍ كريم . « فى كتاب مكنون» : يقال : فى اللوح المحفوظ . ويقال : فى المصاحفَ . وهو محفوظ عن التبديل . « لايمسُّه إلا المطهرون » عن الأدناس والعيوب والمعاصى .

---

(١) إذا تدبَّرنا هذه الآيات ألفينا القرآن يخاطب العقل الإنسانى بالتدبر فى ثلاثة أشياء : الغذاء والماء والنار ، وبدون الثلاثة لا تقوم الحياة ولا تنتظم .

(٢) هذه إحدى الأفكار الخطيرة التى اشتجر حولها الخلاف بين الأشاعرة الذين يقولون : (القرآن غير مخلوق) وبين المعتزلة الذى يقولون : إنه مخلوق .

ويقال : هو خَبَرٌ فيه معنى الأمر : أى لا ينبغى أنْ يَمَسَّ المصحفَ إلا مَنْ كان مُتطهِّراً من الشِّرْكِ وعن الأحداث[1] .

ويقال : لا يجد طَعْمَه وبَرَكته إلَّا مَنْ آمَنَ به .

ويقال : لا يقربه إلاَّ الموَحِّدون ، فأمَّا الكفَّار فيكرهون سماعَه فلا يقربونه .

وقرئ المُطَهِّرون : أى الذين يُطَهِّرون نفوسَهم عن الذنوب والخُلُقِ الدَّنىّ .

ويقال : لا يَمَسُّ خيره إلاَّ من طُهِّر يومَ القسمة عن الشقاوة .

ويقال : لا يَفْهَم لطائفَة إلَّا مَنْ طَهَّر سِرَّه عن الكون[2].

ويقال : المطهَّرون سرائرَهم عن غيره .

ويقال : إلا المُحْتَرمون له القائمون بحقِّه .

ويقال : إلا مَنْ طُهِّرَ بماء السعادة ثم بماء الرحمة

« تنزيلٌ من ربِّ العالَمين » : أى مُنَزَّلٌ من قِبَلِهِ — سبحانه .

قوله جل ذكره : « أفبهذا الحديث أنتم مُدْهِنون * وتجعلون رِزْقَكم أنَّكم تُكَذِّبون ».

أبهذا القرآن أنتم تُنافِقون ، وبه تُكَذِّبون .

« وتجعلون رزقكم ... » : كانوا إذ أُمْطِروا يقولون : أُمْطِرْنا بِنَوْءِ كذا .

يقول : أتجعلون بَدَلَ إنعامِ اللهِ عليكم بالمطر الكفرانَ به ، وتتوهمون أن المطرَ — الذى هو نعمةٌ من الله — من الأنواء والكواكب ؟ ! .

ويقال : أتجعلون حظَّكم ونصيبَكم من القرآنِ التكذيبَ ؟ .

قوله جل ذكره : « فلولا إذا بَلَغَت الحُلْقوم * وأنْتُم حِينَئِذٍ تنظرون * ونحْنُ أقْرَبُ إليه مِنْكم ولَكِنْ لاَ تُبْصِرُون » .

---

(١) هى هنا جمع حَدَث أى النجاسة التى ترتفع بالوضوء أو الغسل أو التيمم .

(٢) لنتذكر أن هذا الكتاب الذى وضعه القشيرى هو لفهم (لطائف الإشارات) القرآنية ، ولندرك رأيه فى سمات هذا اللون من التفسير وأهله .

يخاطِبُ أولياءَ الميت[1] فيقول : هلّا إذا بَلَغتْ روحهُ الحلقوم ، وأنتم تنظرون إلى هذا المريض ، رجعتم إلى الله تعالى ، وتحققتم به ؟ فنحن أقرب إليه منكم بالعلم والرؤية والقدرة .. ولكن لا تبصرون !

ويقال : أقرب ما يكون العبدُ من الحقِّ عندما يتم استيلاء ذِكْرِه وشهودِه عليه ، فينتفي إحساسُ العبدِ بغيره ، وعلى حسب انتفاء العلمِ والإحساسِ بالأغيار — حتى عن نفسه — يكون تحقُّقُ العبد في سِرِّه حتى لا يرى غير الحقّ .

فالقرب والبعد معناهما : أنَّ العبدَ في أوان صحوه وأنه لم يُؤْخَذْ — بَعْدُ — عن نفسه ؛ فإذا أُخِذَ عنه فلا يكون إلا الحق . . لأنه حينئذٍ لا قُرْب ولا بُعْدَ .

قوله جل ذكره : « فلولا إنْ كنتم غيرَ مدينين * تَرْجِعونها إنْ كنتم صادقين » .

ليس لكم من أمر الموت شيء .

« ترجعونها » أي : تردُّون الروح إلى الجسد .

« إن كنتم صادقين » : في أنه لا بعث[2].

قوله جل ذكره : « فأمَّا إنْ كان من المُقَرَّبين * فرَوْحٌ وريْحانٌ وجَنَّتُ نعيم » .

المقَرَّبون هم الذين قرَّبهم اللهُ بفضله ، فلهم « رَوْح وريحان » .

ويقال : الرَّوْح الاستراحة ، والريحانُ الرزقُ .

وقيل : الرَّوْح في القبر ، والريحانُ : في الجنة .

---

(١) في م (البيت) وفي ص (الميت) وهذه هي الصواب .

(٢) نشعر أن تفسير القشيري هنا مقتضب ، ويلزم التوضيح : ترتيب الآية هو : فلولا ترجعونها إذا بلغت الحلقوم إن كنتم غير مدينين .. أمّا نحن فنحن أقرب إليه منكم يا أهل الميت بقدرتنا وعلمنا أو بملائكة الموت . أمّا أنتم . . فما لكم لا ترجعون الروح إلى البدن بعد بلوغه الحلقوم إن لم يكن ثمة قابض وكنتم صادقين في تعطيلكم وكفركم بالمحيي المميت والمبدىء المعيد ؟ !

ويقال : لا يخرج مؤمنٌ من الدنيا حتى يُؤْتَى بريحانٍ من رياحين الجنة فيشمه قبل خروج روحه ، فالرَّوْح راحةٌ عند الموت ، والريحان فى الآخرة .

وقيل : كانت قراءة النبى (ص) « الرُّوح » بضم الراء أى لهم فيها حياة دائمة .

ويقال : الرَّوْحُ لقلوبهم ، والريحان لنفوسهم ، والجنَّةُ لأبدانهم .

ويقال : رَوْحٌ فى الدنيا ، وريحانٌ فى الجنة ، وجنَّةُ نعيمٍ فى الآخرة .

ويقال : رَوْحٌ وريحان مُعَجَّلان ، وجنة نعيم مؤجلة .

ويقال : رَوْحٌ للعابدين ، وريحان للعارفين ، وجَنَّةُ نعيم لعوام المؤمنين .

ويقال : رَوْحٌ نسيم القرب ، وريحان كمال البسط ، وجنة نعيمٍ فى محل المناجاة .

ويقال : رَوْح رؤية الله ، وريحانُ سماع كلامه بلا واسطة ، وجنة نعيم أن يدوم هذا ولا ينقطع .

قوله جل ذكره : « وأَمَّا إنْ كَانَ من أصْحَابِ الْيَمين *

فسلامٌ لكَ من أصْحَاب اليَمين » .

أن نخبرك بسلامة أحوالِهم .

ويقال : سترى فيهم ما تحب من السلامة .

ويقال : أمانٌ لك فى بابهم ؛ فلهم السلامة . ولا تُشْغِلْ قلبَكَ بهم .

ويقال : فسلامٌ لك — أيها الإنسان — إنك من أصحاب اليمين ، أو أيها الإنسانُ الذى من أصحاب اليمين .

قوله جل ذكره : « وأمَّا إنْ كان من المُكَذِّبين الضالِّين * فَنُزُلٌ من حَميمٍ *

وتَصْلِيةُ جَحِيم » .

إن كان من المكذبين لله ، الضالّين عن دين الله فله إقامةٌ فى الجحيم .

قوله جل ذكره : « إِنَّ هذا لهو حَقُّ اليقين * فَسَبِّحْ باسمِ رِبِّكَ الْعَظِيم » .

هذا هو الحق اليقين الذى لا محالةَ حاصلٌ .

« فسبحّ باسْم ربِّك الْعَظِيم » أى قَدِّسْ اللهَ عمَّا لا يجوز فى وصفه .

ويقال : صلِّ لله . ويقال : اشكرْ اللهَ على عصمة أُمَّتِكَ من الضَّلال ، وعلى توفيقهم فى اتِّباعِ سُنَّتِكَ .

سُورَةُ الحَدِيد

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

سماعُ بسم الله الرحمن الرحيم شَرَابٌ يَسْقِي به الحقُّ — سبحانه وتعالى — قلوبَ أحبّائه ، فإذا شَرِبوا طَرِبُوا ، وإذا طَرِبوا انبسطوا[1] ، ثم لشهود حقِّه[2] تعرَّضوا ، وبنسيم قُرْبه استأنسوا[3] ، وعند الإحساس بهم غابوا . . فعقولُهم تُسْتَغرقُ[4] في لُطفه ، وقلوبهم تُسْتَهلَكُ في كَشْفه .

قوله جل ذكره : « سَبَّحَ للهِ ما في السّموات والأرضِ وهو العزيزُ الحكيمُ » .

التسبيحُ التقديسُ والتنزيه ، ويكون بمعنى سباحة الأسرار في بحار الإجلال ، فيظفرون بجواهر التوحيد ويَنْظِمونها في عقود الإيمان ، ويُرَصِّعونها في أطواق الوصلة :

وقوله « ما » في السموات والأرض المرادُ به « من » في السموات والأرض ، يسجدون لله طوعاً وكرهاً ؛ طوعاً تسبيحَ طاعةٍ وعبادة ، وكرهاً تسبيح علامة ودلالة .

وتُحْمَلُ « ما » على ظاهرها فيكون المعنى : ما من مخلوقٍ من عينٍ أو أثرٍ إلا ويَدُلُّ على الصانع ، وعلى إثبات جلاله ، وعلى استحقاقه لنعوت كبريائه .

---

(١) انبسطوا أي : ذاقوا حال البسط . ويصل العارف إلى القبض والبسط بعد حالى الرجاء والخوف . والمبسوط قد يكون فيه بسط يسع الخلق فلا يستوحش من أكثر الأشياء ، ويكون مبسوطاً لا يؤثر فيه شيء بحال من الأحوال (الرسالة ص ٣٥) .

(٢) شهود حق الله لا يتم إلا بعد اختفاء حظوظ العبد .

(٣) من الأنس . سئل الجنيد عنه فقال : هو ارتفاع الحشمة مع وجود الهيبة . وسئل ذو النون عنه فقال : هو انبساط المحب إلى المحبوب .

وسئل الشبلى عنه فقال : هو وحشتك منه (التعرف للكلاباذى ص ١٢٦ ، ١٢٧) .

(٤) ضبطناها هكذا مبنية للمجهول لأن المفروض أن شمس الحقيقة يستغرق نورها نجوم العقل .

ويقال : يُسبح لله ما فى السموات والأرض ، كلٌّ واقفٌ على الباب بشاهدِ الطَّلَبِ . . . ولكنه — سبحانه عزيزٌ[1].

ويقال : ما تَقَلَّبَ أحدٌ من جاحدٍ أو ساجدٍ إلا فى قبضة العزيز الواحد ، فما يُصَرِّفهم إلا مَنْ خَلَقَهم ؛ فمِنْ مُطيعٍ أَلْبَسَه نطاق وفاقه — وذلك فَضْلُه ، ومِنْ عاصٍ رَبَطَه بمثقلة الخذلان — وذلك عَدْلُه .

« وهوَ العزيزُ الحكيم » : العزيز : المُعِزُّ لِمَنْ طَلَبَ الوصول ، بل العزيز : المتقدِّسُ عن كل وصول . . فما وَصَلَ مَنْ وَصَلَ إلا حظِّه ونصيبه وصفته على ما يليق به .

قوله جل ذكره : « له مُلْكُ السمواتِ والأرضِ يُحْيِي ويُمِيتُ وهو على كل شىء قديرٌ » .

المُلْك مبالغةٌ من المِلْك ، وهو القدرة على الإبداع ، ولا مالكَ إلا الله . وإذا قيل لغيره : مالك فعلى سبيل المجاز ؛ فالأحكام المتعلقة فى الشريعة على مِلْكِ الناس صحيحةٌ فى الشرع ، ولكنَّ لفظَ المِلْك فيها توسُّعٌ كما أن لفظَ التيم فى استعمال التراب — عند عدم الماء — فى السفر مجازٌ ، فالمسائل الشرعية فى التيمم صحيحة ، ولكن لفظ التيم فى ذلك مجاز .

« يُحيي ويُميتُ » : يُحْيي النفوسَ ويميتها . ويُحْيِي القلوبَ بإقباله عليها ، ويميتها بإعراضه عنها .

ويقال : يحييها بنظره وتفضُّله ، ويميتها بقهره وتعزُّزه .

قوله جل ذكره : « هو الأوَّلُ والآخِرُ والظاهرُ والباطنُ وهو بكل شىء عليمٌ » .

« الأول » : لاستحقاقه صفة القِدَم ، و « الآخِر » لاستحالة نعت العَدَم .

و « الظاهر » بالعلو والرفعة ، و « الباطن » : بالعلم والحكمة .

ويقال : « الأول » فلا افتتاحَ لوجوده و « الآخِر » فلا انقطاعَ لثبوته .

« الظاهر » فلاخفاء فى جلال عِزِّه ، « الباطن » فلا سبيل إلى إدراك حقِّه .

ويقال « الأول » بلا ابتداء ، و « الآخِر » بلا انتهاء ، و « الظاهر » بلاخفاء ، و « الباطن » بنعت العلاء وعِزِّ الكبرياء .

---

(١) أي جلَّت الصمدية أن يستشرف من ذاتيها أحد .. فكلٌّ واقف بالباب على البساط .

ويقال « الأول » بالعناية ، و « الآخِر » بالهداية ، و « الظــــاهر » بالرعاية ، و « الباطن » بالولاية.

ويقال : « الأول » بالخَلْق، و « الآخِر » بالرزق ، و « الظاهر » بالإحياء ، و « الباطن » بالإماتة والإفناء .

قال تعالى : « اللهُ الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم »[1].

ويقال : « الأول » لا بزمان ، و « الآخر » لا بأوان ، و « الظاهر » بلا اقتراب ، و « الباطن » بلا احتجاب .

ويقال : « الأول » بالوصلة ، و « الآخر » بالخلّة، و « الظاهر » بالأدلة ، و « الباطن » بالبعد[2] عن مشابهة الجملة[3].

ويقال : « الأول » بالتعريف ، « والآخــــر » بالتكليف ، « والظاهر » بالتشريف « والباطن » بالتخفيف[4]

ويقال : « الأول » بالإعلام ، « والآخر » بالإلزام ، « والظاهر » بالإنعام « والباطن » بالاكرام .

ويقال : « الأول » بأن اصطفاك « والآخر » بأن هداك ، « والظاهر » بأن رعاك ، « والباطن » بأن كفاك .

ويقال[5] : مَنْ كان الغالبُ عليه اسمه « الأول » كانت فكرته فى حديثِ سابقته : بماذا سمّاه مولاه ؟ وما الذى أجرى له فى سابق حُكْمه ؟ أبسعادته أم بشقائه ؟ .

---

(١) آية ٤٠ سورة الروم .

(٢) سقط — (بالبعد) فى النسخة م وموجودة فى ص

(٣) المقصود (بالجملة) هنا جملة المخلوقات .

(٤) هكذا فى م وهى فى ص (بالتحقيق) وهذه وإن كانت — صحيحة إلا أن السياق الموسيقى الذى جرى عليه المصنف يرجح (بالتخفيف) على معنى أنه علم ضعف عباده فلم يكلفهم فوق طاقتهم .

(٥) هذه الفقرة هامة فى بيان أن الصوفية حينما يتصدون لدراسة الأسماء والصفات يهتمون بالآداب ؛ والسلوك وكيف يتخلّق الصوفى بأخلاق الله ويتأدب بأسمائه أنظر مقدمة كتاب ؛ التحبير فى التذكير تحقيق بسيونى) .

ومَنْ كان الغالبُ على قلبه اسمه « الآخِرِ » كانت فكرته فى : بماذا يختم له حالَه ؟ وإلامَ يصير مآله ؟ أعَلَى التوحيد يَخْرُجُ من دنياه أو — والعياذُ بالله — فى النارِ غداً — مثواه ؟

ومَن كان الغالبُ على قلبه اسمُه « الظاهر » فاشتغاله بشكر ما يجرى فى الحال من توفيق الإحسان وتحقيق الإيمان وجميل الكفاية وحُسْنِ الرعاية .

ومَنْ كان الغالبُ على قلبه اسمه « الباطن » كانت فكرتُه فى استبهام أمره عليه فيتعثّر ولا يدرى . . أَفَضْلٌ ما يعامله به ربُّه أم مَكْرٌ ما يستدرجه به ربُّه ؟

ويقال : « الأول » علم ما يفعله عبادُه ولم يمنعه عِلْمُه من تعريفهم ، « والآخِر » رأى ما عَمِلوا ولم يمنعه ذلك من غفرانهم « والظاهر » ليس يَخْفَى عليه شيءٌ من شأنهم ، وليس يَدَعُ شيئاً من إحسانهم « والباطن » يعلم ماليس لهم به عِلْمٌ من خسرانهم ونقصانهم فيدفع[1] عنهم فنونَ مِحَنِهم وأحزانهم .

قوله جل ذكره : « هُوَ الذى خَلَقَ السموات والأرضَ فى ستّةِ أيامٍ ثم استوى عَلَى العرْشِ ».

مضى الكلام فى ذلك .

« يعْلَمُ ما يَلِجُ فى الأرضِ وما يَخْرُجُ مِنْها » .

أى ما يدخل فيها من القَطْرِ ، والكنوزِ ، والبذورِ ، والأمواتِ الذين يُدْفَنون فيها ، « وما يخرج منها » من النبات وانفجار العيون وما يُسْتَخْرَجُ من المعادن .

« وما يَنْزِلُ من السَّماء » .

من المطر والأرزاق . أو ما يأتى به الملائكةُ من القضاء والوحى .

« وما يَعْرُجُ فيها » .

أى وما يصعد إليها من الملائكة ، وطاعاتِ العِباد ، ودعوات الخلْقِ ، وصحف المُكَلَّفين ، وأرواح المؤمنين .

---

(١) هنا إشارة لنعم الدفع أو المنع التى لا يفطن إليها الناس .

« وهو مَعَكم أينَ مَا كُنتم واللهُ
بمَا تعملون بَصيرٌ » .

« وهو معكم » بالعلم والقدرة .

ويقال[1] : « يعلم ما يلج فى الأرض » إذا دُفِنَ العَبْدُ فالله سبحانه يعلم ما الذى كان فى قلبه من إخلاصٍ فى توحيدِه ، ووجوهِ أحزانه خسرانه ، وشَكِّه وجحوده ، وأوصافه المحمودة والمذمومة . . ونحو ذلك مما يخفى عليكم .

« وما ينزل من السماء » على قلوب أوليائه من الألطاف والكشوفات وفنون الأحوال العزيزة .

« وما يعرج فيها » من أنفاس الأولياء إذا تصاعدت ، وحسراتهم إذا عَلَت .

قوله جل ذكره : « يُولِجُ اللَّيلَ فى النَّهارِ ويُولِجُ
النَّهارَ فى اللَّيل » .

مضى معناه .

قوله جل ذكره : « آمنوا باللهِ وَرسُولِه وأنفِقوا مِمَّا
جَعَلكم مُسْتَخْلَفِين فيه فالذين آمنوا
منكم وأنفقوا لهم أجْرٌ كبيرٌ » .

صَدِّقوا باللهِ ورسولِه ، وتَصَدَّقوا « مما جعلكم مستخلفين فيه» بتمليكم ذلك وتصييره إليكم . والذين آمنوا منكم وتصدَّقوا على الوجه الذى أُمروا به لهم ثوابٌ عظيمٌ ؛ فإنَّ ماتحويه الأيدى مُعَرَّضٌ للزوال ، فالسَّعيدُ مَنْ قَدَّمَ فى دنياه مالَه فى الآخرة عمارة حاله ، والشقىُّ من سار فيما له فى الآخرة وَبالُ مآله .

قوله جل ذكره : « وما لَكُمُ لاتُؤمنون باللهِ والرسولُ
يدعوكم لتؤمنوا بربِّكم وقد أخَذَ
ميثاقَكُمْ إنْ كنتم مُؤمنين » .

---

(1) هذه الفقرة استدراك أثبته القشيرى متأخراً عن موضعه الأصلى قليلا .

أى شىء لكم فى تَرْكِكُم الإيمان بالله وبرسوله ، وما أتاكم به من الحشر والنشر ، وقد أزاح العِلَّةَ بأنْ ألاحَ لكم الحجّةَ ، وقد أخَذَ ميثاقَكم وقتَ الذرِّ ، وأوجب عليكم ذلك بحُكم الشَّرْع .

قوله جل ذكره : « هُوَ الذى يُنَزِّلُ على عَبْدِهِ آياتٍ بَيِّناتٍ لِيُخْرِجَكم من الظُّلُماتِ إلى النورِ وإنَّ اللهَ بكم لرءوفٌ رحيمٌ » .

ليخرِجَكم من ظلماتِ الجهل إلى نور العلم ، ومن ظلمات الشكِّ إلى نور اليقين .

وكذلك يُريهم فى أنفسهم من الآياتِ بكشوفاتِ السِّرِّ وما يحصل به التعريف مما يجدون فيه النفعَ والخيرَ ؛ فيخرجهم من ظلمات التدبير[1] إلى سعة فضاء التفويض ، وملاحظة فنون جريان المقادير .

وكذلك إذا أرادت النَّفْسُ الجنوحَ إلى الرُّخَصِ والأخذ بالتخفيف[2] وما تكون عليه المطالبةُ بالأشَقِّ — فإن بادَرَ إلى ماتدعوه الحقيقةُ إليه وَجَدَ فى قلبه من النور مايَعْلَمُ به ظلمةَ هواجس النَّفْسِ[3] .

قوله جل ذكره : « وما لَكُمْ ألاَّ تُنفِقُوا فى سبيلِ اللهِ ولِلهِ ميراثُ السمواتِ والأرضِ » .

ما فى أيديكم ميراثُه لله ، وعن قريبٍ سيُنْقَلُ إلى غيركم ولا تبقون بتطاول أعمالكم . وهو بهذا يحثهم على الصدقةِ والبدارِ إلى الطاعة وتَرْكِ الإخلاد إلى الأمل . ثم قال :

« لا يَسْتَوِى منكم مَّنْ أنفق مِنْ قَبْلِ الفتحِ وقاتَلَ أولئكَ أعظمُ درجةً

---

(١) أى ظلمات التدبير الإنسانى ، والتعويل على النفس ، فاعتماد الإنسان على تدبيره مجلبة لشقائه . . وأنَّى للطين أن يكون ذا تدبير ؟ !

(٢) هكذا فى م وهى الصواب أما (التحقيق) التى فى ص فهى خطأ فى النسخ ؛ لأن الاسير خاص جنوحٌ إلى (التخفيف) كما نعلم .

(٣) يتفق هذا مع قول الرسول الكريم «استفت قلبك ولو أفتاك المفتون» .

من الذين أنفقوا من بَعْدُ وقاتلوا وكلاً وَعَدَ اللهُ الُحسْنَى واللهُ بما تعملُون خبيرٌ » .

لا يستوى منكم من أنفق قبل فتح مكة والحديبية والذين أنفقوا من بعد ذلك . بل أولئك أعظم ثواباً وأعلى درجةً من هؤلاء ؛ لأنَّ حاجةَ الناسِ كانت أكثر إلى ذلك وكان ذلك أشقّ على أصحابه[1] .

ثم قال : « وكلاً وَعَدَ الله الحسنى » إلاَّ أنَّ فضيلة السَّبْقِ لهم ، ولهذا قالوا :

السباقَ السباقَ قولاً وفعلاً حذِّرْ النَّفْسَ حَسْرَةَ المسبوقِ

قوله جل ذكره : « مَّنْ ذا الذى يُقرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فيُضاعِفَه له وله أجْرٌ كريمٌ » .

المراد بالقرض الصدقة ، وإنما ذكرها سبحانه كذلك تطييباً لقلوبهم ، فكأن المتصدِّق وهو يقرض شيئاً كالذى يقطع شيئاً من ماله ليدفعَه إلى المُسْتَقْرِض .

ويقال « يقرض » أى يفعل فعلاً حسناً ، وأراد بالقرض الحسن ها هنا ما يكون من وجهٍ حلالٍ ثم عن طِيبِ قلبٍ ، وصاحبُه مخلصٌ فيه ، بلا رياء يشوبه ، وبلا مَنٍّ على الفقير ، ولا يُكَدِّره تطويلُ الوعد ، ولا ينتظر عليه كثرة الأعواض .

ويقال : أن تقرضه وتقطع عن قلبك حُبَّ الدارين[2] ، فنى الخبر : « خير الصدقة ما كان عن ظهر غنًى »[3] ومَنْ لم يتحرَّرْ من شيء فخروجُه عنه تكلُّفٌ[4] .

---

(١) لأن الإسلام لم يكن بعد . قد عز واستمكن وانتشر فى الأرجاء .

(٢) أى دون أن يكون قصدك على ما تفعل عوضاً أو عرضاً سواء فى الدنيا أو فى الآخرة إذ يكفى أن تعلم أى شرفٍ لك أن : تُقْرِض الله !!

(٣) حدث الليث عن عبد الرحمن بن خالد بن مسافر عن ابن شهاب عن ابن المسيب عن أبى هريرة أن رسول الله (ص) قال : «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى وابدأ بمن تعول » البخارى حـ٣ ص ١٩١ (كتاب النفقات) .

(٤) هكذا فى ص وهى فى م «تكلف » كما أثبتنا لأن السياق يقتضى ذلك . وتوجد بعد (تكلف) عبارة مشتبهة فى الخط والمعنى ، تشبه أن تكون : (وهو على من يصل إليه ربى به) .

قوله جل ذكره : « يومَ ترى المؤمنينَ والمؤمناتِ يَسْعَى نُورُهم بين أيديهمْ وبأَيْمانِهم بُشْرَاكُم اليومَ جَنَّاتٌ تجرى مِنْ تحتها الأنهارُ خَالدين فيها ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعظيمُ » .

وهو نورٌ يُعْطَى للمؤمنين والمؤمنات بقَدْر أعمالهم الصالحة ، ويكون لذلك النور مطارحُ شعاع يمشون فيها والنورُ يسعى بين أيديهم ، ويحيط جميع جهاتهم .

ويقال : « وبأَيْمانهم » كتُبُهم .

« بشراكم اليومَ جنات » أى بشارتكم اليومَ — من الله جنات . وكما أن لهم فى العرصة هذا النور فاليومَ لهم فى قلوبهم وبواطنهم نورٌ يمشون فيه ، ويهتدون به فى جميع أحوالهم ، قال صلى الله عليه وسلم : « المؤمن ينظر بنور الله » وقال تعالى : « فهو على نورٍ من ربِّه[1] » .

وربما ينبسط ذلك النورُ على مَنْ يَقْربُ منهم . وربما يقع من ذلك على القلوب قَهْراً — ولأوليائه — لا محالةَ — هذه الخصوصية .

قوله جل ذكره : « يومَ يقولُ المنافقونَ والمنافقاتُ للذين آمنوا انظرونا نقتبِسْ من نُورِكم » .

انتظرونا فنلحق بكم لنقتبسَ من نوركم . وذلك لأن المؤمنين والمنافقين يُعطَوْنَ كتُبَهم وهم فى النور ، فإذا مَرُّوا . . . انطفأ النور أمام المنافقين وسَبَقَ المؤمنون ، فيقول المنافقون للمؤمنين : انتظرونا حتى نقتبسَ من نوركم . فيقول المؤمنون :

« قيل ارْجعوا وراءكُمْ فالتَمِسُوا نوراً »

أى إلى الدنيا وأَخلِصوا ! — تعريفاً لهم أنهم كانوا منافقين فى الدنيا .

ويقال : ارجعوا إلى حُكْم الأزلِ فاطلبوا[2] هذا من القِسْمة ! — وهذا على جهة ضربِ المَثل والاستبعاد .

---

(١) آية ٢٢ سورة الزمر .

(٢) هكذا فى ص وهى فى م (فاطلعوا) وقد آثرنا الأولى لأنها آكد فى الاستبعاد — وهو المقصود .

« فضُرب بينهم بِسُورٍ له بابٌ باطنه فيه الرحمةَ
وظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ العذابُ » .

« بسورٍ : وهو جَبَلُ أصحاب الأعراف ، يستر بينهم وبين المنافقين ، فالوجهُ الذى يلى المؤمن فيه الرحمة وفى الوجه الآخر العذابُ .

قوله جل ذكره : « ينادونَهُم ألم نكن مَّعكم ؟ قالوا : بلى ،
ولكنكم فتَنتمْ أنفُسكم ... » .

ألم نكن معكم فى الدنيا فى أحكام الإيمان فى المناكحة والمعاشرة ؟ .

قالوا : بلى ، ولكنكم فتنتم أنفسكم ..

« وتربصْتم ، وارتبتم ، وغرَّتكمُ الأمانىُّ حتى جاء أمرُاللهِ
وغرَّكم بالله الغَرورُ » .

تربصتم عن الإخلاص ، وشككتم ، وغرَّكم الشيطان ، وركنتم إلى الدنيا .

قوله جل ذكره : « فاليومَ لا يُؤخَذُ منكم فِدْيةٌ ولا مِنَ
الذين كفروا مأواكم النَّارُ هى موْلاكم
وبئسَ المصيرُ » .

النارُ مأواكم ومصيرُكم ومُتَقَلبُكم .

وهى « مولاكم » أى هى أوْلَى بكم ، وبئس المصير !

ويقال : مخالفةُ الضمائر والسرائر لاتنكتم بموافقة الظاهر[1] ، والأسرار لاتنكتم عند الاختبار

قوله جل ذكره : ألَمْ يَأْنِ للذين آمنوا أنْ تخشَعَ
قلوبُهُم لذِكْرِ الله وما نَزَلَ من الحقِّ
ولا يكونوا كالذين أُوتوا الكتابَ

---

(١) السياق حديث عن المنافقين وعن الكفار .. وأراد القشيرى أن ينقل هذا السياق إلى الجو الصوفى فوجه تحذيره لأرباب ؛ الرياء والدعوى ، أولئك الذين يظنون أنهم إن تصاهروا بالقيام بموافقة الشريعة وموافقة القوم فإن الأسِرَّة سريعاً ما تكشف السريرة — على حد تعبيره فى موضع مماثل .

مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عليهِمُ الأمَدُ فَقستْ
قلوبُهم وكثيرٌ منهم فاسقون » .

ألم يَحِنْ للذين آمنوا أن تتواضعَ قلوبُهم وتلين لذِكْر اللهِ وللقرآنِ وما فيه من العِبَرِ ؟ وألا يكونوا كالذين أوتوا الكتابَ من قبل ؟ وأراد بهم اليهودَ ، وكثيرٌ من اليهود فاسقون كافرون .

وأراد بطول الأمَدِ الفترةَ التى كانت بين موسى ونبيِّنا صلى الله عليه وسلم ، وفى الخبر : أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أصابتهم ملالةٌ فقالوا : لو حَدَّثْتَنا .

فأنزل اللهُ تعالى : « الله نَزَّل أحسَنَ الحديث .. » فبعد مُدَّةٍ قالوا :

لو قَصَصْتَ علينا !

فأنزل اللهُ تعالى : « نحن نقص عليك نبأهم بالحق ... » فبعد مدةٍ قالوا : لو ذَكَّرْتَنا ووَعَظْتَنا !

فأنزل الله تعالى هذه السورة .

وفى هذه الآية ما يشبه الاستبطاء .

وإن قسوة القلب تحصل من اتباع الشهوة ، والشهوة والصفوة لا تجتمعان ؛ فإذا حَصَلت الشهوةُ رَحَلت الصفوة . وموجِبُ القسوة هو انحرافُ القلب عن مراقبة الربِّ . ويقال : موجب القسوة أوَّلُه خَطْرة — فإلَّمْ تُتَدارَكْ صارت فكرة ، وإلَّم تُتَدارَكْ صارت عزيمة ، فإن لم تُتَدَارَكْ جرَت المخالفة ، فإن لم تُتدارَكْ بالتلافى صارت قسوةً وبعدئذ تصير طَبعاً ورَيْناً[1]

قوله جل ذكره : « اعلموا أنَّ اللهَ يُحْيِي الأرضَ بعد موتِها
قد بيَّنا لكم الآياتِ لعلَّكم تَعقِلُونَ » .

يُحْيِي الأرضَ بعد موتِها بإنزال المطرِ عليها وإخراج النَّبتِ منها .

---

(١) رَانَ الثوب ؛ رَيْنًا أى تطبَّع وتدنَّس ، ورانت النفس أى خبثت وغثت . (الوسيط) .

ويُحيي القلوبَ الميتةَ — بعد إعراضِ الحقِّ عنها — بحسن إقباله عليها[1] .

قوله جل ذكره : « إنَّ المُصدّقين والمصدقاتِ وأقرضوا
الله قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لهم وَلَهُمْ
أجْرٌ كريمٌ » .

أى المتصدقين والمتصدقات .

« وأقرضوا الله قرضاً حسناً » : يعنى فى النوافل .

« يضاعفُ لهم » فى الحسنات ، الحسنةُ بعَشْر أمثالها . . إلى ما شاء اللهُ

« ولهم أجر كريم » : ثوابٌ كبيرٌ حَسَنٌ . والثوابُ الكريمُ أَنَّه لا يضِن بأقصى الأجْرِ على الطاعةِ — وإنْ قَلَّتْ .

قوله جل ذكره : « والذين آمنوا باللهِ ورُسُلِهِ أولئكَ هُمْ
الصِّدِّيقون والشّهداء عند ربِّهم لهم
أجْرهم ونورُهم » .

الصدِّيقون : مبالغة فى الصدق ، والشهداء : الذين استشهدوا فى سبيل الله ، فالمؤمنون بمنزلة الصديقين والشهداء — لهم أجرهم فى الجنة ونورهم فى القيامة .

« والذين كفروا وكَذَّبوا بآياتنا
أولئك أصحابُ الجحيمِ » .

والصدِّيق مَنْ استوى ظاهرُه وباطنُه .

ويقال : هو الذى يحمل الأمرَ على الأشَقِّ ، ولا يَنْزلُ إلى الرُّخَصِ ، ولا يجنح للتأويلات .

والشهداءُ : الذين يشهدون بقلوبهم مواطن الوصلة ، ويعتكفون بأسرارهم فى أوطان القربة ، « ونورهم » : ما كحل الحقُّ به بصائرهم من أنوار التوحيد .

---

(1) كان المفروض أن تكون العبارة هكذا :
(ويحيى القلوب الميتة بعد إعراضه عنها) .
فاستعمال (الحق) فى الإضافة مسألة تهم أرباب القلوب المتحققين الفانين عن الخلق الباقين بالحق .

قوله جل ذكره: « اعلموا أنَّما الحياةُ الدُّنيا لَعِبٌ ولَهْوٌ وزينةٌ وتَفَاخُرٌ بينكم وتكاثُرٌ في الأموالِ والأولادِ » .

الحياةُ الدنيا مُعَرَّضَةٌ للزوال ، غيرُ لابثةٍ ولا ماكثة ، وهى فى الحالِ شاغلةٌ عن الله ، مُطْمِعةٌ[1] وغير مُشْبِعة ، وتجرى على غير سَنَن الاستقامة كجريان لَعِبَ[2] الصبيان ، فهى تُلْهى عن الصوابِ واستبصار الحقِّ ، وهى تفاخرٌ وتكاثرٌ فى الأموال والأولاد .

« كَمَثَلِ غَيْثٍ أعْجَبَ الكُفَّارَ نباتُه ثم يهيجُ فتراهُ مُصْفرًّا ثم يكونُ حُطاماً » .

الكفار : الزُّرَّاع .

هو فى غاية الحُسْنِ ثم يهيج فتراه يأخذ فى الجفاف ، ثم ينتهى إلى أنْ يتحطّمَ ويتكسَّر .

« وفى الآخرةِ عذابٌ شديدٌ » .

لأهله من الكفَّار .

« ومغفرةٌ من اللهِ ورِضْوانٌ » .

لأهله من المؤمنين .

« وما الحياةُ الدنيا إلا مَتَاعُ الغُرُورِ » .

الدنيا حقيرةٌ — وأحقرُ منها قَدْراً طالِبُها وأقلُّ منه خَطَراً المزاحم فيها ، فما هى إلا جيفة ؛ وطالِبُ الجيفةِ ليس له خطرٌ . وأخس أهل الدنيا مَنْ بَخِلَ بها .

وهذه الدنيا المذمومة هى التى تَشْغَلُ العبدَ عن الآخرة !

---

(١) ربما كانت — (مطعمة) فى الأصل ؛ فقد تبدو الدنيا ذات قيمة ولكنها فى الحقيقة عديمة القيمة .

(٢) فى النسختين (لعاب) الأطفال ، ومع ذلك فقد آثرنا أن نثبت هنا (لعب) بالرغم من تحمسنا لاستعمال (اللعاب) فى موضع سبق ؛ ذلك لأننا نرى إضافة اللعاب إلى الصبيان لا يزيد المعنى تأكيداً ، فاللعاب ظاهرة فسيولوجية تجرى على غير نظام — وهذا هو المطلوب — عند الكبار والصغار على حد سواء ، بينما إضافة اللعب إلى الصبيان تعطى المعنى المطلوب .

قوله جل ذكره : « سَابِقُوا إلى مَغْفِرةٍ من رَّبِّكم وَجنَّةٍ عَرْضُها كَعَرضِ السماءِ والأرضِ أُعِدَّتْ للذين آمنوا باللهِ ورُسُلِهِ » .

أى سارِعوا إلى عَمَلٍ يوجب لكم مغفرةً من ربِّكم ، وذلك العملُ هو التوبة .

« وجنة عرضها . . . » ذَكر عَرْضها ولم يذكرْ طولها ؛ فالطول على ما يوافيه العَرْضُ .

« أُعِدَّت للذين آمنوا بالله ورُسلِهِ » : وفى هذا دليلٌ على أنَّ الجنةَ مخلوقة[1] .

« ذلك فَضْلُ اللهِ يُؤْتيه مَنْ يشاء واللهُ ذو الفَضْلِ العظيم » .

وفى ذلك ردٌّ على من يقول : « إن الجنة مُسْتَحَقَّةٌ على الطاعات ، ويجب على الله إيصالُ العبدِ إليها »[2] .. لأنِ الفضلَ لا يكون واجباً .

ويقال : لمَّا سمعت أسرار المؤمنين[3] هذا الخطاب[4] ابتدرت الأرواحُ مُقْتَضِيةً المسارعة من الجوارح ، وصارت الجوارحُ مستجيبةً للـطالِبَةِ ، مُستبشرة برعاية حقوق الله ؛ لأنها علمت أن هذا الاستدعاءَ من جانب الحقِّ سبحانه .

قوله جل ذكره : « ما أَصَابَ من مُصيبةٍ فى الأرْضِ وَلَا فى أنفُسِكُم إلّا فى كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أن نَبْرأَها ، إنّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يسيرٌ » .

المصيبة حَصلْةٌ[5] تقع وتحصل . فيقول تعالى : لا يحصل فى الأرض ولا فى أنفسكم شىء

---

(١) هكذا أيضاً يرى ابن القيم فى (اجتماع الجيوش الإسلامية ص ٥٢) . والأشاعرة والسلف يرون ذلك ويرون أن الجنة والنار مخلوقتان الآن وأنهما باقيتان .

(٢) هذا رأى المعتزلة الذين اعتبروا ذلك من مقتضيات العدل الالهى .

(٣) هكذا فى م وهى فى ص (الموحدين) .

(٤) هكذا فى ص وهى فى م (الخطاة) وواضح فيها خطأ الناسخ لأن الأمر متعلق بالفعل (سابقوا ...)

(٥) بمعنى حادث يحصل ، وهى فى (خصلة) بالخاء والصواب حصلة . (انظر ما يقوله القشيرى فى سورة التغابن عند «ما أصاب من مصيبة» على معنى : (خصل الهم خصلا وخصلة) أى وقع بلزق الهدف أو أصابه .

إلا وهو مُثْبَتٌ فى اللوح المحفوظ على الوجه الذى سبق به العِلْم ، وحقَّ فيه الحكم ؛ فقبل أن نخلق ذلك أثبتناه فى اللوح المحفوظ .

فكلُّ ما حصل فى الأرض من خصبٍ أو جدبٍ ، من سعةٍ أو ضيق ، من فتنة أو استقامة وما حصل فى النفوس من حزن أو سرور ، من حياةٍ أو موت كلٌّ ذلك مُثبت فى اللوح المحفوظ قبل وقوعه بزمان طويل .

وفى قوله : « من قبل أن نبرأها » دليلٌ على أن أكساب العباد مخلوقة لله سبحانه . وللعبدِ فى العلم بأنَّ ما يصيبه : من بسطٍ وراحةٍ وغير ذلك من واردات القلوب من اللهِ — أشدُّ السرور وأتمُّ الأنْسِ ؛ حيث عَلِمَ أنه أُفْرِدَ بذلك بظهر غيبٍ منــــه ، بل وهو فى كنز العَدَم ، ولهذا قالوا :

سقياً لمهدك الذى لو لم يكن ما كان قلبى للصبابة معهداً[1]

قوله جل ذكره : « لكيلا تَأْسَوْا على ما فاتكم ولا تفرحُوا بما آتاكم » .

عَدَمُ الفرحة بما آتاهم هو من صفات المتحررين من رِقِّ النَّفْس، فقيمةُ الرجالِ تتبين بتغيُّرِهم — فَمَنْ لم يتغيرْ بما يَرِدُ عليه — مما لا يريده — من جفاء أو مكروهٍ أو محنة فهو كاملٌ ، ومَنْ لم يتغيَّرْ بالمســــارِّ كما لا يتغير بالمضارِّ ، ولا يَسُرُّه الوجودُ كما لا يُحْزِنه العَدَمُ — فهو سَيِّد وقته[2].

ويقال : إذا أردْتَ أن تعرفَ الرجلَ فاطلبْه عند الموارد ؛ فالتغيُّرُ علامةُ بقاء النَّفْس بأىّ وجهٍ كان :

« واللهُ لا يحبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فخورٍ » .

---

(١) وهكذا نرى أن الجبرية عند الصوفية ترتبط بالمحبة القديمة ، فالله البارىء الخالق للعبد من العدم .. لن يريد به إلا الخير .. وحتى لو أصاب العبد تلف .. فمرحباً به فهو تالف فى سبيل المحبوب .

(٢) التغير من علامات التلوين، والثبات فى المسار والمضار — عند تقلب الأحوال على العارف — من علامات التمكين . فسادات الوقت هم أهل التمكين .

فالاختيال من علامات بقاء النفس ورؤيتها[1]، والفخرُ (ناتجٌ)[2] عن رؤيةِ مابه يفتخر .

قوله جل ذكره : « الذين يبخلون ويأمُرُونَ الناسَ بالبخلِ ، ومَنْ يتَوَلَّ فإنَّ اللهَ هو الغنيُّ الحميدُ » .

بخلوا بكتمان صفة نبيِّنا صلى الله عليه وسلم وأمَروا أتْباعَهم بذلك ، وذلك لمَّا خافوا من كسادِ سُوقِهم وبطلان رياستهم .

« ومن يتولَّ . . عن الإيمان ، أو إعطاءِ الصَّدَقَة « فإن الله هو الغنى الحميد » .

والبخلُ — على لسان العلم — مَنْعُ الواجب[3] ، فأمّا على بيان هذه الطائفة[4] فقد قالوا : البخلُ رؤية قَدْرٍ للأشياء ، والبخيلُ الذى يُعْطِى عند السؤال[5] ، وقيل : مَنْ كَتَبَ على خاتمه اسمَه فهو بخيل[6] .

قوله جل ذكره : « لقد أرسلنا رُسُلَنا بالبيِّنات وأنزلنا معهم الكتابَ والميزانَ ليقومَ الناسُ بالقِسْطِ » .

أى أرسلناهم مُؤيَّدين بالحُجَجِ اللائحة والبراهين الواضحة ، وأزَحْنا العِلَّةَ لِمَنْ أراد سلوكَ الحُجَّةِ المُثْلَى ، ويَسَّرْنا السبيل على مَنْ آثرَ اتِّباعَ الهُدَى . وأنزلنا معهم الكُتُبَ المُنَزَّلَة ، و « الميزانَ » : أى الحُكْمَ بالقرآن ، واعتبار العَدْلِ والتسويةِ بين الناس .

« ليقومَ الناسُ بالقسط » : فلا يَظْلِمُ أحدٌ أحداً .

---

(١) هكذا فى ص وهى أصوب من (زينتها) التى فى م ، فرؤية النفس آفة يحذر منها أرباب الطريق — خاصة أهل الملامة .

(٢) إضافة من عندنا حتى يتضح السياق .

(٣) يقصد منع الزكاة المفروضة حسب علوم الشريعة .

(٤) يقصد طائفة الصوفية .

(٥) أى لاينتظر حتى يسأله سائل ، وإنما هو يعطى دائماً دون انتظار لدعوة داعٍ أو سؤال سائل .

(٦) لأنه ينبغى أن يكون مستعداً لاعطائه لغيره عند أى ظرفٍ من الظروف ، والمقصود أن يكون فى العبد إيثار الفتيان (راجع فصل الفتوة فى رسالة القشيرى) .

قوله جل ذكره : « وأنزلنا الحديدَ فيه بأسٌ شـــديدٌ ومنافِـعُ للناسِ ولِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُه ورُسُلَه بالغيبِ إنَّ اللهَ قويٌّ عزيزٌ ».

« أنزلنا الحديد » : أي خلقنا الحديد.

ونصرة اللهِ هي نصرةُ دينه ، ونصرةُ الرسولِ باتِّباعِ سُنَّتِه.

« إن الله قوى عزيز » : أقوى من أنْ يُنازِعَه شريكٌ ، أو يضارِعَه فى المُلْكِ مليك ، وأعزُّ من أنْ يحتاج إلى ناصر.

قوله جل ذكره : « ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيمَ وجَعَلْنا فى ذُرِّيَتِهِما النُّبُوَّةَ والكتابَ ».

أى : أرسلنا نوحاً ، ومن بعده إبراهيمَ ، وجعلنا فى نَسْلِهما النبوَّةَ والكتاب.

« فمنهم مهتدٍ ».

أى : مستجيبٌ.

« وكثيرٌ منهم فاسقون ».

خرجوا عن الطاعة.

قوله جل ذكره : « ثم قفَّيْنَا على آثارهم برُسُلِنا وقفَّيْنَا بعيسى ابن مريمَ وآتيناه الإنجيلَ وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفةً ورحمةً ».

أى : أرسلنا بعدهم عيسى ابن مريم.

« ورَهْبانيَّةً ابْتدَعُوها مَا كتبْناهَا عليهم ».

بَيَّنَ أنَّه لم يأمرهم بالرهبانيَّة[1] بل هم الذين ابتدعوها

---

(١) الرهبانية هى : الفعلة المنسوبة إلى الرُّهْبان وهو الخائف - صيغة فعلان من رهب مثل خشيان من خشى ؛ وكانوا يفرون إلى الجبال والصحراوات ليخلصوا من الفتنة في دينهم ، ويقطعون أنفسهم عن الزواج والنسل.

ثم قال :

« إلّا ابتغاءَ رِضْوانِ اللهِ » .

هم الذين انفردوا بما عقدوه معنا (أن يقوموا بحقِّنا)[1]

« فآتَيْنا الذين آمنوا منهم أجرَهم
وكثيرٌ منهم فاسقون » .

قوله جل ذكره : « يا أيها الذين آمنوا اتَّقُوا اللهَ
وآمِنوا برسولِهِ يُؤْتِكُم كِفْلَيْنِ
من رَّحمته ويجعل لكم نوراً تَمْشُون
به ويغفرْ لكم والله غفورٌ رحيم » .

نزلت فى قومٍ من أهل الكتاب أسلموا .

« كفلين » : أى نَصِيبَيْنِ ؛ نصيباً على الإيمانِ بالله ، وآخَرَ على تصديقهم وإيمانهم بالرُّسُل .

قوله جل ذكره : « لِئَلَّا يَعْلَمَ أهلُ الكتابِ
ألاَّ يَقْدِرون عَلَى شىء من فَضْلِ اللهِ
وأَنَّ الفَضْلَ بيدِ اللهِ يُؤْتيه مَن يشاء
واللهُ ذو الفَضْلِ العظيم » .

ومعناه : يعلم أهل الكتاب ، و «لا» صلة . أى : ليعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على شىء من فضل الله[2] ، فإن الفضل بيد الله . و « اليد » هنا بمعنى : القدرة ، فالفضلُ بقدرة الله .

---

(١) ما بين القوسين موجود فى ص وغير موجود فى م .

(٢) ونظيره قول ابن جنى فى « لئلا يعلم أهل الكتاب» أى ليعلموا فهى مؤكدة قائمة مقام إعادة الجملة مرة أخرى . (الإتقان للسيوطى ح١ ص ١٧١) ط الحلبى .

والإشارة فى هذا : اتَّقُوا اللهَ بِحِفْظِ الأدبِ معه ، ولاتأمنوا مَكْرَه أن يَسْلبَكم ماوَهَبَكم من أوقاتكم . وكونوا على حذرٍ من بَغَتَاتِ تقديره فى تغيير ما أذاقكم من أُنْسِ محبته .

واتَّبِعوا السُّفَرَاء والرُّسُلَ ، وحافظوا على اتِّباعِهم حتى يُؤتِيَكُم نصيبيْن من فضله : عصمةً ونعمةً ؛ فالعصمة من البقاء عنه ، والنعمة هى البقاء به .

ويقال : يؤتكم نصيبين : نصيباً من التوفيق فى طَلَبِه ، ونصيباً من التحقيق فى وجوده[1] .

---

(١) (الوجود) هنا ليس معناه (ضد العَدَم) بل هو أعلى درجات الشهود ، فالتواجد بداية ، والوجد واسطة والوجود نهاية (انظر الرسالة ص ٣٧) .

سُورَةُ المجَادلة

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمةٌ مَنْ عرَفها بَذَلَ الرُّوحَ في طلبها — وإن لم يَحْظَ بوصولها ، كلمةٌ مَنْ طلبها اكتفى بالطلب من[1] قبولها .

كلمة جبَّارة لا تنظر إلى كلِّ أَحَد ، كلمة قهّارةٌ لا يُوجَدُ من دونها مُلْتَحَد .

كلمةٌ منها بلاء الأحباب — لكن بها شفاء الأحباب .

قوله جل ذكره : « قد سَمِعَ اللهُ قولَ التى تجادِلُكَ في زوجِها وتشتكى إلى اللهِ » .

لمَّا صَدَقَتْ[2] في شكواها إلى اللهِ وأَيِسَتْ من استكشاف ضُرِّها من غير الله — أنزلَ اللهُ في شأنها : « قد سمِع الله ... » .

تَضَرَّعَتْ إلى الله ، ورَفعتْ قِصتَّها إلى الله ، ونَشَرَتْ غُصَّتَها[3] بين يدى الله — فَنَظَرَ إليها الله ، وقال : « قد سَمِعَ الله » .

ويقال : صارت فرجةً[4] ورخصةً للمسلمين إلى القيامة في مسألة الظِّهار[5] ، وليعلم العالِمون أَنَّ أَحداً لا يخسر عَلَى الله .

وفي الخبر : أنها قالت : يارسولَ الله ، إنَّ أَوْساً تزوَّجني شابَّةً غنيةً ذات أهلٍ ،

---

(١) وتقدير الكلام : اكتفى من القبول بالطلب ، أى اكتفى أن يشرف بطلبها وعلى الله إتمام الفضل بالقبول — وهذا أساس هام في منهج الطالبين والسالكين .

(٢) هى خولة بنت ثعلبة امرأة أوس بن الصامت أخى عبادة .

(٣) هكذا في ص وهى في م (قصتها) وقد آثرنا ما جاء في م لتلوين الكلام وخدمة السياق .

(٤) في النسختين (فرحة) ولا بأس بها في المعنى ولكننا نشعر أن (فرجة) تدعم السياق على نحوٍ آكد .

(٥) ظاهَرَ امرأته ظهاراً أى قال لها : أنتِ علىَّ كظهر أمى ؛ أى أنتِ حرام .

ومالٍ كثير، فلما كبرت سِنِّي[1] ، وذَهَبَ مالى، وتفرّق أهلى جعلنى عليه كظَهْرِ أُمِّه، وقد ندِم وندِمت، وإنَّ لى منه صبيةً صِغاراً إنْ ضَمَمْتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إلىّ جاعوا .

فقال لها الرسول صلى الله عليه وسلم — فى رواية — : ما أُمِرْتُ بشىء فى شأنك .

وفى رواية أخرى أنه قال لها : بِنْتِ عنه (أى حرمت عليه) .

فترددت إلى رسول الله (ص) فى ذلك، وشكتْ .. إلى أن أنزل الله حُكْم الظِّهار .

قوله جل ذكره : « الذين يُظاهِرُون مِنكم من نسائهم ماهُنّ أمهاتِهم إنْ أمَّهاتُهم إلّا اللائى ولَدْنَهُم وإنهم لَيقولون مُنْكَراً من القولِ وزُوراً وَإنَّ اللهَ لعفوٌّ غفور » .

قَوْلُ الذين يقولون لنسائهم — جرياً على عادة أهل الشِّرْكِ — أنتِ علىَّ كظهر أمى .. هذا شىء لم يَحْكُمْ اللهُ به ؛ ولا هذا الكلامُ فى نَفْسِه صِدْقٌ، ولم يثبتْ فيه شَرْعٌ، وإنما هو زورٌ مَحْضٌ وكَذِبٌ صِرْفٌ .

فَعَلِمَ الكافةُ أن الحقائق بالتلبيسِ لا تتعزّز[2] ؛ والسَّبَبُ إذا لم يكن صحيحاً فبالمعاودةِ لا يثبت ؛ فالمرأةُ لمّا سمعت من رسول الله (ص) قولَه : بِنْتِ عنه — كان واجباً عليها السكونُ والصبرُ ؛ ولكنّ الضرورةَ أنطقَتْهَا وَحَمَلَتْهَا على المعاودة، وحصلت من ذلك مسألة : وهى أن كثيراً من الأشياء يحكم فيها ظاهرُ العلمِ بشىء ؛ ثم تُغَيِّرُ الضرورة ذلك الحكْمَ لصاحبها[3] .

قوله جل ذكره : « والذين يُظَاهرون من نسائهم ثم

(١) وفى رواية : خلا سنّى ونثرت بطنى — أى كثر ولدى .

(٢) ربما كانت فى الأصل (لاتتقرر) ومع ذلك فالمعنى هكذا مقبول .

(٣) هذه غمزة رقيقة بأولئك المتشبثين بالظواهر، ودعوة إلى التريث .

يعودون لما قالوا فتحريرُ رَقَبةٍ مِنْ
قَبلِ أن يتماسَّا * ذلِكم تُوعَظَون بهِ
واللهُ بما تعملون خبير . . » .

الظِّهار — وإن لم يكن له فى الحقيقة أصل ، ولا بتصحيحه نطق أو دلالة شرع ، فإنه بعد ما رُفِعَ أمرُه إلى الرسول (ص) ولوَّح بشىء ما ، وقال فيه حُكمه ، لم يُخْلِ الله ذلك من بيانٍ ساق به شَرْعه ؛ فقضى فيه بما انتظم جوانب الأمر كلِّه .

فارتفاعُ الأمر حتى وصوله إلى مجلس النبى صلى الله عليه وسلم ، والتحاكُم لديه حَمَّل المتعدِّى عناء فعلته ، وأعاد للمرأة حقَّها ، وكان سَبَيلاً لتحديد المسألة برُمَّتها . . وهكذا فإنَّ كلَّ صعبٍ إلى زوالٍ . . وكلُّ ليلةٍ — وإنْ طالَتْ — فإلى إسفار[1] .

قوله جل ذكره : « إنَّ الذين يحادُّون اللهَ ورسولَه كُبِتوا
كما كُبِتَ الذين من قَبْلِهم وقد
أنزلنا آياتٍ بيِّناتٍ وللكافرين
عذابٌ مُهين » .

الذين يُخالِفون أمرَ اللهِ ويتركون طاعةَ رسولِ الله أُذِلُّوا وخُذِلوا ، كما أُذِلَّ الذين من قَبْلهم من الكفَّار والعُصاة .

وقد أجرى اللهُ سُنَّتَه بالانتقام من أهل الإجرام ؛ فمَنْ ضيَّعَ للرسولِ سُنَّةً ، وأحْدَثَ فى دينه بِدْعةً انخرط فى هذا السلك ، ووقع فى هذا الذُّلِّ .

قوله جل ذكره : « يومَ يَبْعَثُهُم اللهُ جميعاً فيُنَبِّئُهم بما
عَمِلوا أحصاه اللهُ ونَسُوهُ واللهُ على
كل شىء شهيدٌ » .

يقال : إذا حُوسِبَ أحدٌ فى القيامة على عمله تصور له مافعله وتذكَّره ، حتى كأنه قائمٌ فى تلك الحالة عن بِساط الزَّلَّةِ ، فيقع عليه من الخَجَلِ والنَّدَم ما يَنْسى فى جَنْبِه كُلَّ عقوبة .

---

(١) حدث تدخل من جانبنا فى ترميم هذه الفقرة التى جاءت فى النسختين منبهمة الكتابة والمعنى .

فسبيلُ المسلم ألا يحومَ حول مخالفة أمر مولاه ، فإنْ جَرَى المقدورُ ووقَعَ في هجنة التقصير فلتكنْ زَلَّتُه على بال ، وليتضرعْ إلى الله بحُسْن الابتهال .

قوله جل ذكره : « ألم تَرَ أنَّ الله يعلمُ ما في السموات وما في الأرضِ ما يكون من نجوى ثلاثةٍ إلاَّ هو رابعهم ولا خمسةٍ إلا هو سادِسُهم ولا أدْنى من ذلك ولا أكثَر إلا هو مَعهُم أينما كانوا ثم ينبئُهم بما عَمِلُوا يوْمَ القيامةِ إنّ اللهَ بكل شيء عليمٌ » .

مَعِيَّةُ الحقِّ — سبحانه — وإن كانت على العموم بالعلم والرواية ، وعلى الخصوص بالفضل والنصرة — فلهذا الخطاب في قلوب أهل المعرفة أثرٌ عظيمٌ ، ولهم إلى أنْ ينتهيَ الأمرُ بهم إلى التولُّه[1] فالوَلَهِ فالهيمان في غمار سماع هذا عيش راغد .

ويقال : أصحابُ الكهف — وإنْ جَلَّتْ رتبتُهم واختصت من بين الناس مرتبتهم — فالحقُّ سبحانه يقول : « سيقولون ثلاثةٌ رابعهم كلبُهم »[2] ولمَّا انتهى إلى هذه الآية قال : « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة . . . » فشتَّان بين مَنْ رابعهُ كَلبُهُ وبين من رابِعهُ ربُّه ! !

ويقال: أهلُ التوحيد ، وأصحابُ العقولِ من أهل الأصولِ يقولون : اللهُ واحدٌ لا من طريق العدد[3] ، والحقُّ يقول : « مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم... » ويقال : حيثما كنتَ فأنا معكَ ؛ إنْ كنتَ في المسجد فأنا معك ، وإن كنت في المصطبة فأنا معكَ ، إنْ طَلَبَ العلماء

---

(١) وردت التأويل في ص والتأول في م والصحيح — في نظرنا — أن تكون التولُّه ؛ فهو المنزلة التي تسبق الوَلَه والهيمان .

(٢) آية ٢٢ سورة الكهف .

(٣) الواحد على الحقيقة ليس عدداً لأن العدد هو ما بلغ نصف مجموع حاشيتيه ، وليس قبل الواحد شيء .

التأويل[1] وشوَّشوا قلوبَ أولى المواجيد فلا بأس — فأنا معهم .

إنْ حضرْتَ المسجد فأنا معك بإسباغ النعمة ولـكن وَعْداً ، وإنْ أَتيْتَ المصطبة فأنا معك بالرحمةِ وإسبالِ ستر المغفرة ولـكن نَقْداً .

هَبْكَ تباعَدْتَ وخالَفْتَنى تقدرُ أنْ تخرجَ عن لُطْفى ؟!

قوله جل ذكره : « أَلَمْ تَرَ إلى الذين نُهوا عن النجوى ثم يعودون لما نُهوا عنه ويتناجَون بالإثمِ والعدوانِ ومعصيةِ الرسولِ ، وإذا جاءوكَ حَيَّوْكَ بما لم يُحَيِّكَ به اللهُ » .

آذَوْا قلوبَ المسلمين بما كانوا يتناجون به فيما بينهم[2] ، ولم تـكن فى تناجيهم فائدةٌ إلا قصدهم بذلك شغْلَ قلوبِ المؤمنين ، ولم ينتهوا عنه لمَّا نهوُا عنه ، وأَصَرُّوا على ذلك ولم يَنْزَجِروا ، فتوعَّدهم اللهُ على ذلك ، وتـكون عقوبتُهم بأنْ تتغامز الملائـكةُ فى بابهم فيما بينهم ، وحين يشاهدون ذلك تَتَرَجَّمُ ظنونُهم ، ويتعذَّبون بتَقَسُّم قلوبهم ، ثم لا ينكشف الحالُ لهم إلَّا بما يزيدهم حزناً على حزنٍ ، وأسَفاً على أسفٍ .

قوله جل ذكره : « يا أيها الذين آمنوا إذا تَنَاجَيْتُمْ فلا تتناجوا بالإثمِ والعُدوانِ ومعصيةِ الرسولِ وتناجوا بالبرِّ والتقوى واتقوا اللهَ الذى إليه تُحْشَرون » .

إنما قَبُحَ ذلك منهم وعَظُمَ الخطرُ لأنه تضمَّن إفسادَ ذات البَيْن ، وخيرُ الأمورِ ما عاد بإصلاح ذات البَيْن ، وبعكسه إذا كان الأمر بضدِّه :

---

(1) «فإن حجج أهل هذه الطائفة أظهر من حجج كل أحد ، وقواعد مذهبهم أقوى من قواعد كل مذهب . والناس : إما أصحاب النقل والأثر ، وإما أرباب العقل والفكر .. وشيوخ هذه الطائفة ارتقوا عن هذه الجملة ؛ فالذى للناس غيب فهو لهم ظهور ، والذى للخَلْق من المعارف مقصود فلهم من الحق سبحانه موجود ، فهم من أهل الوصال والناس أهل الاستدلال» الرسالة القشيرية ص ١٩٨ وانظر تذكرة الحفاظ للذهبى حـ٤ ص ١٥ .

(2) كان اليهود والمنافقون يتغامزون فيما بينهم وبأعينهم إغاظةً للمؤمنين ، وكانوا إذا أقبلوا على الرسول قالوا له : السام عليك يا محمد .. والسام هو الموت .

قوله جل ذكره : « إنما النّجوى من الشيطانِ ليَحْزُنَ الذين آمنوا وليس بِضَارِّهم شيئاً إلاّ بإذنِ اللهِ وعلى اللهِ فليتوكل المؤمنون » .

النجوى من تزيين الشيطان ليحزن الذين آمنوا . وإذا كانت المشاهدةُ غالبةً ، والقلوبُ حاضرةً ، والتوكلُ صحيحاً ؛ والنظرُ من موضعه صائباً فلا تأثيرَ لمثل هذه الحالات ، وإنما هذا للضعفاء .

قوله جل ذكره : « يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تَفَسَّحوا فى المجالِس فافسحوا يَفْسَحِ اللهُ لكم وإذا قيل انشُزُوا فانشُزُوا »[1].

لكمال رحمته بهم وتمام رأفته عليهم ، عَلَّمَهم مراعاةَ حُسْنِ الأدب بينهم فيما كان من أمور العادة (دون أحكام العبادة)[2] فى التفسُّح فى المجالس والنظام فى حال الزَّحمة والكثرة . . وأعْزِزْ بأقوامٍ أَمْرَهم بدقائق الأشياء بعد قيامهم بأصول الدين وتحقُّقهم بأركانه !

قوله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا إذا ناجَيْتُم الرسولَ فَقَدِّموا بين يَدَىْ نجواكم صدقةً ذلك خيرٌ لكم وأطهرُ فإنْ لم تجدوا فإنَّ اللهَ غفورٌ رحيم »[3].

لمَّا كان الإذنُ فى النجوى مقروناً ببذْلِ المالِ امتنعوا وتركوا ، وبذلك ظَهَرَت جواهر

(١) (انشزوا) أى : انهضوا للتوسعة على المقبلين ، أو انهضوا من مجلسه صلى الله عليه وسلم إذا أُمِرْتم بالنهوض عنه ، أو انهضوا إلى الصلاة ، أو إلى الجهاد ، أو إلى أعمال الخير .

(٢) هذه موجودة فى م وغير موجودة فى ص .

(٣) رُخِّصَ بعدئذ فى المناجاة من غير صدقة . وقيل : كان ذلك عشر ليال ثم نُسِخَ . وقيل : ما كان إلا ساعة من نهار ثم نُسِخَ . . ويحكى : أن علياً كرَّم الله وجهه كان يتصدَّق بدرهم كلَّما ناجى الرسول — فى بداية الأمر ثم توقَّف لمَّا نسخت الآية ، وأزيلت المؤاخذة .

الأخلاق وتفاوتُ الرجال ــ ولقد قال تعالى : « ولا يَسْألكم أمْوالكم * إن يسألكموها فيحْفكم تبْخلوا و يخْرج أضغَانكُم »[1] .

قوله جل ذكره : « ألم ترَ إلى الذين تولَّوْا قوماً غَضِبَ الله عليهم مَّا هُم منكم ولا منهم » .

مَنْ وافقَ مغضوباً عليه أشْرَكَ نفْسَه فى استحقاقِ غضبِ مَنْ هو الغضبان ؛ فمَنْ تَوَلَّ مغضوباً عليه مِنْ قِبَلِ اللهِ استوجبَ غَضبَ اللهِ وكفى بذلك هواناً وخسراناً .

«ويَحْلِفون على الكذبِ وهم يَعْلَمون *
أَعَدَّ اللهُ لهم عذاباً شديداً إنهم ساءَ
ما كانوا يعملون * اتخذوا أيْمَانَهم
جُنَّةً فَصَدُّوا عن سبيلِ اللهِ فلهم
عذابٌ مُّهِين » .

هذا وصفٌ للمنافقين .

« اتخذوا أيمانهم جُنَّة » أى وقايةً وستراً ؛ ومَنْ استتر بجُنَّةِ طاعته لتَسْلَمَ له دنياه فإنَّ سهامَ التقديرِ مِنْ ورائه تكشفه من حيث لا يشعر .. فلا دِينُه يبقى ، ولا دنياه تَسْلَم ، ولقد قال تعالى : « لن تُغْنِيَ عنهم أموالهم ولا أوْلاَدُهم من الله شيئاً »[2] .

قوله جل ذكره : « يومَ يَبْعَثُهم اللهُ جميعاً فيَحْلِفون له كما يَحْلِفون لكم ويحْسَبون أنَّهم على شيء ألَا إنَّهم هم الكاذبون » .

عقوبتُهم الكبرى ظَنُّهم أنَّ ما عَمِلوا مع الخَلْقِ يتمشَّى أيضاً فى مُعَامَلةِ الحقِّ ، ففَرْطُ الأجنبيةِ وغايةُ الجهلِ أكَبَّتهم على مناخرهم فى وَهْدَةِ نَدَمِهم .

(١) آية ٣٧ سورة محمد .
(٢) آية ١٠ سورة آل عمران .

قوله جل ذكره : « اسْتَحْوَذَ عليهم الشيطانُ فأنْسَاهم ذِكْرَ اللهِ أولئك حِزْبُ الشيطانِ ألاَ إنَّ حِزْبَ الشيطان هم الخاسرون » .

إذا استحوذ الشيطانُ على عَبْدٍ أنْسَاه ذِكْرَ اللهِ .
والنَّفْسُ إذا استولَتْ على إنسان أنْسَتْهُ اللهَ .

ولقد خَسِرَ حزبُ الشيطان ، وأَخْسَرُ منه مَنْ أعان نَفْسَهَ — التى هى أعدى عدوِّه ، إلَّا بأنْ يسعى فى قَهْرِها لَعَلَّه ينجو مِنْ شَرِّها .

قوله جل ذكره : « إن الذين يُحَادُّون اللهَ ورسولَه أولئك فى الأذَلِّين » .

مَنْ أرْمَتَهُ شِقْوَتُه لم تُنْعِشْهُ قُوَّتُه ، ومَنْ قَصَمَهُ التقديرُ لم يَعْصِمْهُ التدبير ، ومَنْ استهانَ بالدِّين انخرطَ فى سِلْكِ الأذَلِّين .

قوله جل ذكره : « كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أنا ورُسُلِى إنَّ اللهَ قوىٌّ عزيزٌ » .

الذى ليس له إلا التدبير . . كيف تكون له مقاومة مع التقدير ؟ (١) .

قوله جل ذكره : « لا تَجِدُ قوماً يُؤْمِنون باللهِ واليومِ الآخِرِ يُوَادُّون مَنْ حادَّ اللهَ ورسولَه » .

مَنْ جَنَحَ إلى منحرفٍ عن دينه ، أو داهَنَ مُبْتَدِعاً فى عهده نَزَعَ اللهُ نورَ التوحيدِ من قلبه فهو فى خيانته جائرٌ على عقيدته ، وسيذوق قريباً وَبَالَ أمره .

« أولئك كَتَبَ فى قلوبهم الإيمانَ وأَيَّدهم بروحٍ منه » .

خلق اللهُ الإيمان فى قلوب أوليائه وأثبته ، ويقال : جعل قلوبَهم مُطَرَّزَةً باسمه .. وأعْزِزْ بِحُلَّةٍ لأسرار قومٍ طرازُها اسمُ « الله » ! !

---

(١) التدبير للخلق والتقديرُ للحقِّ .

سُورَةُ الحَشْر [1]

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » اسمٌ عزيزٌ — الكونُ بجملته فى طلبه . . وهو عزيز .

الشموسُ والأقمارُ والنجومُ ، والليلُ والنهارُ ، وجميع ما خَلَقَ اللهُ من الأعيان والآثار متنادية على أنفُسِها : نحن عبيدُه . . نحن عبيدُ مَنْ لَمْ يَزَلْ . . نريد مَنْ لم يَزَلْ .

قوله جل ذكره : « سَبَّحَ لِلَّهِ ما فى السَّمٰواتِ ومَا فِى الأَرْضِ وهو الْعزِيزُ الحَكِيمُ » .

قدَّسَ اللهَ ونَزَّهَهُ كُلُّ شيء خَلَقَه ؛ فكلُّ ما خَلَقَه جَعَلَه على وحدانيته دليلاً ، ولِمَنْ أراد أنْ يَعْرِفَ إلهيتَه طريقًا وسبيلاً .

أتقن[2] كلَّ شيء وذلك دليلُ عِلْمِه وحكمته ، ورَتَّبَ كُلَّ شيء ، وذلك شاهِدٌ على مشيئته وإرداته .

« وهو العزيز » فلا شبيه يساويه ، ولا شريكِ له فى المُلْكِ ينازِعُه ويُضاهيه .

« الحكيم » الحاكم الذى لا يُوجَدُ فى حُكْمِه عَيْبٌ ، ولا يتوجَّه عليه عَتْبٌ[3] .

قوله جل ذكره : « هو الَّذِى أخْرَجَ الَّذِين كَفرُوا مِن أهْلِ الكِتابِ من دِيَارِهم لأولِ الحَشْرِ » .

هم أهل النضير ، وكانوا قد عاهدوا النبيَّ (ص) ألاَّ يكونوا عليه ، ثم بعد أُحُد نقضوا

---

(١) ويسميها ابن عباس سورة النضير (البخارى حـ٣ ص ١٣٣) .

(٢) هكذا فى ص وهى فى م (أيقن) وهى خطأ فى النسخ .

(٣) هكذا فى ص وهى فى م (عيب) وهى خطأ فى النسخ .

العَهْدَ ، وبايعوا أبا سفيان وأهلَ مكة ، فأخبر اللهُ تعالى رسولَه بذلك ، فبعثَ صلوات الله عليه إليهم محمد بن مسلمة ، فأوهم أنه يشكو من الرسول فى أخذ الصَّدَقَة . وكان رئيسهم كعب ابن الأشرف فقتله محمد بن مسلمة (غيلةً) ، وغزاهم[1] رسول الله (ص) وأجلاهم عن حصونهم المنيعة وأخرجهم إلى الشام ، وما كان المسلمون يَتَوَقَّعون الظَّفَرَ عليهم لكثرتهم ، ولِمَنَعَةِ حصونهم .

وظلُّوا يهدمون دورَهم بأيديهم ينقبون ليخرجوا ، ويقطعون أشجارهم ليسدوا النقب ، فَسُمُّوا أولَ الحشر ، لأنهم أول من أُخْرِجَ من جزيرة العرب وحُشِرَ إلى الشام .

قال جل ذكره : « فاعتبروا يا أُولِى الأبصارِ » .

كيف نَصرَ المسلمين — مع قِلَّتِهِم — عليهم — مع كثرتهم . وكيف لم تمنعهم حصونُهم إذا كانت الدائرةُ عليهم . وإذا أراد اللهُ قَهْرَ عدوٍّ استنوقَ[2] أَسَدُه .

ومن مواضع العِبْرةِ فى ذلك ما قاله : « ما ظننتم أن يخرجوا » بحيث داخلتكم الرِّيبةُ فى ذلك لِفَرْطِ قُوَّتِهم — فصَانَهُم بذلك عن الإعجاب .

ومن مواضع العبرة فى ذلك أيضاً ما قاله « وظنُّوا أنهم مانِعَتُهُم حصونُهم من الله » فلم يكن كما ظنُّوه — ومَنْ تَقَوَّى بمخلوقٍ أسْلَمَهَ ذلك إلى صَغارِه[3] ومذَلَّتِه .

ومن الدلائل الناطقة ما أُلْقِى فى قلوبهم من الخوفِ والرُّعب ، ثم تخريبُهم بيوتَهم بأيديهم علامةُ ضعفْ أحوالهم ، وبأيدى المؤمنين لقوة أحوالهم ، فتمت لهم الغَلَبةُ عليهم والاستيلاء على ديارهم وإجلاؤهم .

هذا كلُّه لا بُدَّ أن يحصل به الاعتبارُ — والاعتبارُ أحَدُ قوانين الشَّرْع .

ومَنْ لم يَعْتَبِرْ بغيره اعتَبَرَ به غيرُه .

---

(١) حاصرهم إحدى وعشرين ليلة وأمر بقطع نخيلهم وأبى عليهم إلا الجلاء على أن يحمل كل ثلاثة أبيات على بعير واحد ما شاءوا من متاعهم فجلوا إلى أريحا وأذرعات بأرض الشام .

(٢) الألف والسين والتاء فيها للصيرورة أى صار ناقة والمقصود : تخاذل المتجبر وصغر شأنه .

(٣) الصَّغار = الرضى بالمذلة والهوان .

ويقال : يُخَرِّبون بيوتَهم بأيديهم ، وقلوبَهم باتِّباع شهواتِ نفوسِهم ، ودِينَهم بما يمزجونه به من البِدَع .

قوله جل ذكره : « ولولا أنْ كَتَبَ اللهُ عليهم الجلاءَ لَعَذَّبَهم فى الدنيا ولهم فى الآخِـرَةِ عذابُ النار » .

لولا أنْ قضى اللهُ عليهم أنْ يخرجوا لعذَّبهم اللهُ بالقتل والاستئصال[1] ، ثم فى الآخرة لهم عذابُ النار .

« ذلك بأنهم شَاقُّوا اللهَ ورسولَهَ ومَنْ يُشَاقِّ اللهَ فإنَّ اللهَ شديدُ العقاب » .

ذلك بأنهم خالفوا أمرَ الله . والمشاقّة أن يتحول المرء إلى شِقٍّ آخر .

فالعاصى إذا انتقل من المطيعين إلى العاصين فقد شاقَّ الله ، ولِمَنْ شاقَّ اللهَ عذابُ النار .

قوله جل ذكره : « ما قَطَعْتُم من لِّينَةٍ أو تركتموها قائمةً على أصولها فبإذنِ اللهِ وليُخْزِىَ الفاسقين » .

اللِّينة : كلُّ نوعٍ من النخيل ماعدا العجوة والبَرْنِيّ[2] .

لمَّا أمر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بقَطْعِ بعض نخيل بنى النضير قالت اليهود : ما فائدة هذا ؟ ! .

فبقى المسلمون عن الجواب ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ليوضِّح أن ذلك بإذن الله . . فانقطعَ الكلامُ .

وفى هذا دليلٌ على أن الشريعةَ غيرُ مُعَلَّلَةٍ ، وأنَّ الأمرَ الشرعىَّ إذا جاء بَطَلَ التعليلُ ،

---

(١) هكذا فى ص وهى فى م (الاستبصار) وهى خطأ فى النسخ .

(٢) واحدته البَرْنِيَّة ، وهو نوع جيد من التمر مدوَّر أحمرُ مُشْرَبٌ بصفرة . (الوسيط) .

وسَكتَتْ الألسنةُ عن المطالبة بـ « لِمَ ؟ » وخُطُورُ الاعتراضِ أو الاستقباحِ خروجٌ عن حَدِّ العرفان . والشيوخُ .

قالوا : مَنْ قال لأستاذِه وشيخه[1] : « لِمَ ؟ » لا يفلح . وكلُّ مريدٍ يكون لأمثالِ هذه الخواطر فى قلبِه جَوَلان لا يجيءُ منه شيء . ومَنْ لم يتجرَّدْ قلبُه من طَلَبِ التعليل ، ولم يباشِرْ حُسْنَ الرضا بكلِّ ما يجرى واستحسانَ ما يبدو من الغيب لِسِرِّه وقلبِه — فليس من اللهِ فى شيء .

قوله جل ذكره : « وما أفاءَ اللهُ على رسولِه منهم فما
أوجفتم عليـه من خيلٍ ولا رِكابٍ
ولـكنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَه على مَنْ يشاء
واللهُ على كل شيء قدير » .

يريد بذلك أموالَ بنى النضير[2] ، فقد كانت من جملة الفَيْء لا من الغنيمة ؛ فالفيْء ما صار إلى المسلمين من أموالِ الـكفَّارِ من غيرِ قتالٍ ولا إيجافِ خَيْلٍ ورِكابٍ ، وتدخل فى جملته أموالُهم إذا ماتوا وصارت إلى بيت المال . والغنيمة ما كانت بقتالٍ وإيجافِ خيلٍ وركابٍ . وقد خَصَّ رسولُ الله (ص) بأموالِ هؤلاء فقراءَ المهاجرين ، واستأثر لنفسه بما شاء ، فطابت نفوسُ الأنصارِ بذلك ، وشكَرَ اللهُ لهم . ذلك لأن تحرُّرَ القلب من الأعواضِ والأملاكِ صِفَةُ السادة[3] والأكابر . ومَنْ أَسَرَتْهُ الأخطارُ وبقى فى شُحِّ نَفْسِه فهو فى تضييقه وتدنيقه ، وهو فى مصادقته ومعاملته ومطالبته مع الناس دائماً يبحث فى استيفاء حظوظه — وهذا ليس له من مذاقات هذه الطريقة[4] شيء .

---

(١) لاحظ كيف يوجِّه القشيرى إشارته إلى المريدين ، وما ينبغى أن تكون عليه علاقتهم بشيوخهم .

(٢) عن الزهرى عن مالك بن أوس عن عمر رضى الله عنه قال : كانت أموال بنى النضير مما أفاء الله على رسوله (ص) مما لم يوجف المسلمون عليه بخيلٍ ولا ركاب ، فكانت لرسول الله (ص) خاصةً ينفق على أهله منها نفقة سنته ثم يجعل ما بقى فى السلاح والكراع عدة فى سبيل الله (البخارى حـ٣ ص ١٣٣) .

(٣) هكذا فى ص وهى فى م (السعادة) وهى خطأ من الناسخ .

(٤) يقصد طريقة الصوفية .

وأهلُ الصفاء لم تبقَ عليهم من هذه الأشـــياء بقيةٌ ، وأمَّا مَنْ بَقِيَ عليه منها شيءٌ فمُتَرَسِّمٌ[1] سُوقِيٌّ . . لا مُتَحَقِّقٌ صوفيٌّ .

قوله جل ذكره : « وما آتاكُم الرسولُ فَخُـذُوهُ ،
وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتقوا اللهَ
إنّ اللهَ شديدُ العقاب » .

هذا أصل من أصولِ وجوبِ متابعتِه ، ولزومِ طريقته وسيرته — وفى العِلْم تفصيلُه .

والواجبُ على العبدِ عَرْضُ ما وقع له من الخواطر وما يُكاشَفُ به من الأحوالِ على العلم — فما لا يقبله الكتابُ والسُّنَّة فهو فى ضلال[2].

قوله جل ذكره : « للفقراء المهاجرين الذين أُخْرِجوا من
ديارِهم وأموالِهم يبتغون فَضْلاً من اللهِ
ورضواناً ويَنْصُرُون اللهَ ورسـولَه
أولئك هم الصادقون » .

يريد أن هذا الفيء لهؤلاء الفقراء الذين كانوا مقدارَ مائةِ رجلٍ .

« يبتغون فضلاً من الله » وهو الرزق « ورضواناً » بالثواب فى الآخرة .

وينصرون دين الله ، « أولئك هم الصادقون » : والفقيرُ الصادقُ هو الذى يترك كلَّ سببٍ وعلاقة ، ويفرغ أوقاته لعبادة الله ، ولا يعطف[3] بقلبه على شيء سوى الله ، ويقفُ مع الحقِّ راضياً بجَرَيَانِ حُكْمِه فيه .

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (متوسّم) . وعلى الأول يكون المعنى أنه شخص تهمه الرسوم والأشكال ، أما باطنه وحقيقته فغير رسمه ، وعلى الثانى يكون المعنى أنه يكتفى من التصوف بالسِّمة أى العلامة ؛ كالثوب مثلا .. وباطنه غير سليم . والربط بين الصفاء والتصوف — كما يتضح من العبارة — عنصر أساسى فى مذهب القشيرى . (انظر الرسالة باب التصوف) .

(٢) نحسب أنه ليس بعد هذا مجال للتخرص بأن الصوفية يجانبون الشريعة أو يقلِّلون من قَدْرها . فمحصول خواطرهم ، ومكاشفاتهم من خلال أحوالهم .. كل ذلك ينبغى ألا يكون مرفوضاً من الشرع . ومحاولة عقد لقاء بين الحقيقة والشريعة عنصر أساسى آخر فى مذهب القشيرى — رحمه الله .

(٣) عطف يعطف هنا بمعنى مال وانحنى تجاه ناحية تاركاً ناحية أخرى — وهذا هو أصل معنى اللفظة قبل أن تأخذ معانيها التوسعية .

قوله جل ذكره : « والذين تَبَوَّءُوا الدارَ والإيمانَ من قَبْلِهم يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إليهم ولا يَجِدون فى صدورهم حاجةً مِمَّا أُوتوا ويُؤْثِرون على أنفسِهم ولو كان بهم خصاصةٌ » .

نزلت هذه الآية فى الأنصار . « تبوءوا الدار » أى سكنوا المدينة قبل المهاجرين ..

« يحبون من هاجر إليهم » من أهل مكة .

« ولا يجدون فى صدورهم حاجة » مما خُصِّصَ به المهاجرون من الفىء ، ولا يحسدونهم على ذلك ، ولا يَعْتَرِضون بقلوبهم على حُكْمِ الله بتخصيص المهاجرين ، حتى لو كانت بهم حاجةٌ أو اختلالُ أحوالٍ .

« ومَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فأولئك هم المُفْلِحون » .

قيل نزلت الآية[1] فى رجلٍ منهم أُهْدِيَتْ له رأسُ شاةٍ فطاف على سبعة أبيات حتى انتهى إلى الأول .

وقيل نزلت فى رجلٍ منهم نزل به ضيفٌ فقرَّب منه الطعامَ وأطفأ السراجَ ليُوهِمَ ضيفه أنه يأكل ، حتى يؤثِرَ به الضيفَ عَلَى نفسه وعَلَى عياله ، فأنزل اللهُ الآية فى شأنه[2].

ويقال : الكريمُ مَنْ بنى الدار لضيفانه وإخوانه (واللئيمُ من بناها لنفسه)[3].

وقيل : لم يقل اللهُ : ومَنْ يتَّقِ شحَّ نفسه بل قال : ومن يوقَ شحَّ نَفْسه[4] .

ويقال : صاحبُ الإيثارِ يُؤْثِر الشبعانَ على نفسه — وهو جائع .

---

(١) حديث القشيرى هنا وفيما بعد عن الإيثار يصلح أن يكون متمماً للفصل الذى عقده فى رسالته عن الفتوة ص ١١٣ .

(٢) هكذا فى رواية أبى هريرة (البخارى حـ٣ ص ١١٣) .

(٣) ما بين القوسين موجود فى ص وغير موجود فى م .

(٤) فتقاه من الله لا من نفسه .

ويقال : مَنْ مَيَّزَ بين شخصٍ وشخصٍ فليس بصاحبِ إيثـارٍ حتى يؤثِرَ الجميع دون تمييز .

ويقال : الإيثار أنْ تَرَى أنَّ ما بأيدى الناسِ لهم ، وأن ما يحصل فى يدك ليس إلا كالوديعة والأمانة عندك تنتظر الإذنَ فيها .

ويقال : مَنْ رأى لنفسه مِلْـكاً فليس من أهل الإيثار .

ويقال : العابدُ يؤثِر بدنياه غيرَه ، والعارفُ يؤثِر بالجنةِ غيرَه [1] .

وعزيزٌ مَنْ لا يطلبُ مِنَ الحقِّ لنفْسِه شيئاً : لافى الدنيا من جاهٍ أو مالٍ ، ولا فى الجنَّة من الأفضال ، ولا منه أيضاً ذَرَّةً من الإقبال والوصال وغير ذلك من الأحوال [2] .

. . . وهكذا وصفُ الفقير ؛ يكون بسقوطِ كلِّ أَرَبٍ .

قوله جل ذكره : « والذين جاءوا مِنْ بَعْدِهِمْ يقولون :
رَبَّنا اغفِرْ لنا ولإخوانِنا الذين سَبَقُونا
بالإيمـانِ ، ولا تجعلْ فى قُلوبِنَا غِلًّا
للذينآمنوا، ربَّنا إنكَ رءوفٌ رحيم » .

أى والذين هاجروا من بعدهم ، ثم أجيالُ المؤمنين من بعد هؤلاء إلى يوم القيامة . . كلُّهُم يَتَرَحَّمون على السلف من المؤمنين الذين سبقوهم ، ويسلـكون طريقَ الشفقة على جميع المسلمين ، ويستغفرون لهم ، ويستجيرون مِنَ اللهِ أنْ يجعلَ لأحدٍ من المسلمين فى قلوبهم غِلًّا أى حِقْداً . ومَنْ [3] لا شفقةَ له على جميع المسلمين فليس له نصيبٌ من الدِّين .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ تَرَ إلى الذين نافقوا يقولونَ

---

(١) ومن قبيل ذلك ما يقوله الحسين النورى (ت ٢٩٥ هـ) :
« اللهم إن يكن قد سبق فى مشيئتك التى لاتتخلف أن تملأ النار من الناس أجمعين فإنك قادر على أن تملأها بى وحدى وأن تذهب بهم إلى الجنة » .

(٢) لأن الأحوال من الله ، فهى من عين الجود ، كما أن المقامات ببذل المجهود .

(٣) سقطت (ومن) من م وهى موجودة فى ص ، وهى ضرورية للسياق .

لإخوانِهم الذين كفروا من أهلِ
الكتابِ لئنْ أُخرِجْتمْ لَنَخْرُجَنَّ
مَعَكم ولا نُطيع فيكم أحداً أبداً ،
وإنْ قُوتِلْتمْ لَنَنْصُرَنَّكمْ ، واللهُ
يَشْهَدُ إنَّهم لكاذبون » .

يريد بهم منافقى المدينة ؛ ظاهَروا بنى النضير وقريظة ، وعاهَدوهم على الموافقة بكلِّ وَجْهٍ ، فأخبر اللهُ — سبحانه — أنهم ليسوا كما قالوا وعاهدوا عليه ، وأخبرَ أنَّهم لا يتناصرون ، وأنَّهم يتخاذلون ، ولَئِنْ ساعدوهم فى بعضِ الحروب فإنهم يتخاذلون إنْ رَأَوْهم ينهزمون أمام مَنْ يجاهدونهم .

قوله جل ذكره : « لَأَنتم أشَدُّ رهبةً فى صدورِهم من اللهِ
ذلك بأنهم قومٌ لا يفقهون » .

أخبر — سبحانه — أن المسلمين أشدُّ رهبةً فى صدورهم من الله[1] ، وذلك لقِلَّةِ يقينهم ، وإعراضِ قلوبِهم عن الله .

قوله جل ذكره : « لا يُقاتلونكم جميعاً إلَّا فى قُرًى مُحصَّنَةٍ
أو مِنْ وراء جُدُرٍ بَأْسُهم بينهم شديدٌ » .

أخبر أنهم لا يجسرون على مقاتلة المسلمين إلَّا مُخاتَلةً ، أو من وراء جدرانٍ . وإنما يشتدُّ بأسُهم فيما بينهم ، أى إذا حارب بعضُهم بعضاً ، فأمّا معكم ... فلا .

« تحْسَبُهم جميعًا وقلوبُهم شتَّى ذلك بأنهم
قومٌ لا يَعْقلون » .

إجتماعُ النفوسِ — مع تنافرِ القلوب واختلافها — أصلُ كلِّ فساد ، وموجِبُ كُلِّ تخاذُل ، ومقتضى تجاسُرِ العدوِّ .

---

(١) والمعنى أنهم بنفاقهم يقولون : نحن نخاف الله ، ولكنهم فى الحقيقة يخافون منكم خوفاً أشدَّ من خوفهم من الله ، وذلك لقلة يقينهم ... الخ .

واتفاقُ القلوبِ؛ والاشتراكُ في الهِمَّةِ؛ والتساوي في القَصْدِ يُوجِبُ كُلَّ ظَفَرٍ وكلَّ سعادة . . ولا يكون ذلك للأعداء قطّ؛ فليس فيهم إلا اختلالُ كلِّ حالٍ، وانتقاضُ كلِّ شَمْلٍ .

قوله جل ذكره: «كَمَثَلِ الذين مِنْ قَبْلِهِم قريباً ذاقوا وَبَالَ أَمْرِهِم ولهم عذابٌ أليم» .

مَثَلُ بني قُرَيظة كمثل بني النضير[1] ؛ ذاق النضير وَبَالَ أمرهم قبل قريظة بِسَنَةٍ[2] ؛ وذاق قريظة بعْدَهم وبال أمرهم .

قوله جل ذكره: «كَمَثَلِ الشيطانِ إذا قال للإنسانِ اكْفُرْ؛ فلمَّا كَفَرَ قال إني بريءٌ منك إنِّي أخافُ اللهَ ربَّ العالَمين» .

أي مَثَلُ هؤلاء المنافقين مع النضير — في وَعْدِهم بعضهم لبعض بالتناصر — كَمَثل الشيطان «إذ قال للإنسان . . . .» .

وكذلك أربابُ الفترة وأصحاب الزَّلَّة وأصحاب الدعاوى . . هؤلاء كلُّهم في درجة واحدة في هذا الباب — وإنْ كان بينهم تفاوت — لا تنفع صُحْبَتُهم في الله؛ قال تعالى: «الأخلاءُ يومئذٍ بعضُهم لبعض عدوٌّ إلا المتقين»[3] وكلُّ أحدٍ — اليومَ — يألَفُ شَكْلَه؛ فصاحبُ الدعوى إلى صاحب الدعوى، وصاحبُ المعنى إلى صاحب المعنى .

قوله جل ذكره: «يأيها الذين آمنوا اتقوا اللهَ ولتَنْظُرْ نَفْسٌ ماقَدَّمَتْ لِغَدٍ واتقوا اللهَ إنَّ اللهَ خبيرٌ بما تعملون» .

---

(١) يرى النسفي أن: «مثلَهم كمثل أهل بدر» (النسفي حـ ٤ ص ٢٤٣) .

(٢) وكان ذلك عقب مرجع النبي (ص) من الأحزاب؛ .ففي رواية عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما رجع النبي (ص) من الخندق، ووضع السلاح واغتسل أتاه جبريل فقال: قد وضعت السلاح والله ما وضعناه فاخرُجْ إليهم قال: فإلى أين؟ قال: ههنا — وأشار إلى بني قريظة (البخاري حـ٣ ص ٢٣) .

(٣) آية ٦٧ سورة الزخرف .

التقوى الأولى على ذكر العقوبة فى الحال والفكرِ فى العملِ خَيْرِه وشَرِّه[1] .

والتقوى الثانية تقوى المراقبة والمحاسبة ، ومَنْ لا محاسبةَ له فى أعماله ولا مراقبة له فى أحواله .. فعَنْ قريب سيفتضح[2] .

وعلامةُ مَنْ نَظَرَ لِغدِه أن يُحْسِنَ مراعاةَ يومِه ؛ ولا يكون كذلك إلَّا إذا فَكَّرَ فيما عَمِلَه فى أَمْسِه والناس فى هذا على أقسام : مُفَكِّرٌ فى أمْسِه : ما الذى قُسِمَ له فى الأزل ؟ وآخر مفكِّرٌ فى غَدِه : ما الذى يلقاه ؟ ؟ وثالثٌ مُسْتَقِلٌّ بوقته فيما يلزمه فى هذا الوقت فهو مُصْطَلَمٌ عن شاهده موصولٌ بربِّه ، مُنْدَرَجٌ فى مذكوره[3] ؛ لا يتطلَّعْ لماضيه ولا لمستقبله ، فتوقيتُ الوقتِ يشغله عن وقته[4] .

قوله جل ذكره : « ولا تكونوا كالذين نسُوا اللهُ فأنساهم أنفُسَهم أولئك هم الفاسقون » .

تركوا طاعتَه فتَرَكَهم فى العذاب ؛ وهو الخذلان حتى لم يتوبوا .. أولئك هم الفاسقون[5] .

قوله جل ذكره : « لا يستوى أصحابُ النارِ وأصحابُ الجنَّةِ أصحابُ الجنَّةِ هم الفائزون » .

لايستوى أهلُ الغَفلةِ مع أهل الوصلة .

وأصلُ كلِّ آفةٍ نسيانُ الربِّ ، ولولا النسيان لما حَصَلَ العصيان ، والذى نسِىَ أمرَ نَفْسِه فهو الذى لايجتهد فى تحصيل توبته ، ويُسَوِّفُ فيما يُلْزِمُه به الوقتُ من طاعتِه .

---

(١) ويكون العبد فيها فى مرحلة الغيبة (أى قبل الشُّكْر) : فما دام هناك وارد لثواب أو عقاب أو فكر فى حالٍ أو مآل — فهذه فى منازل السالكين دون المرحلة التالية .

(٢) تفيد هذه الإشارة فى توضيح الفرق فى الاصطلاح بين : المراقبة والمحاسبة .

(٣) لأن أقصى درجات الذكر أن يفنى الذاكر فى المذكور ، وقد اعتبرنا الأوصافَ أسماءَ مفعول تعبيراً عن فناء الإرادة الإنسانية ، وتجرد العبد من كل فعل فى نفسه ولنفسه .

(٤) ولهذا يقولون : الصوفىُّ ابن وقته ؛ ومعناه أنه مشتغل بما هو أولى به فى الحال ؛ قائم بما هو مُطَالَبٌ به فى الحين ، مستسلمٌ لما يبدو له من الغيب من غير اختيارٍ له . ومن ساعده الوقت فالوقت له وقت ، ومن ناكده الوقت فالوقت عليه مقت . (الرسالة ص ٣٤) .

(٥) سيعود القشيرى لإتمام إشارة هذه الآية بعد الآية التالية .

قوله جل ذكره : « لوأنزلنا هذا القرآنَ على جَبَلٍ لَرَأَيتَهُ خاشعاً مُتَصَدِّعاً من خشيةِ اللهِ وتلك الأمثالُ نَضرِبها للناس لعلَّهم يتفكَّرون » .

أى لو كان للجبلِ عقلٌ وصلاحُ فِكْرٍ وسِرٍّ ، وأنزلنا عليه هذا القرآنَ لخضعَ وخشعَ . ويجوز أن يكون على جهة ضرب المثل كما قال : تكاد السمواتُ يتفطرْنَ منه »[1] ويدل عليه أيضاً قوله :

« وتلك الأمثالُ نضربها للناس» : ليعقلوا ويهتدوا ، أى بذلك أمَرْناهم ، والمقصود بيان قسوة قلوبهم عند سماع القرآن .

ويقال : ليس هذا الخطابُ على وَجْهِ العتابِ معهم ، بل هو على سبيل المدح وبيانِ تخصيصه إيَّاهم بالقوة ؛ فقال : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل » لم يُطِقْ ولَخشَعَ — وهؤلاء خَصَصْتُهم بهذه القوة حتى أطاقوا سماع خطابى[2].

قوله جل ذكره : « هو اللهُ الذى لا إله إلَّاهُوَ عالِمُ الغيبِ والشهادة هو الرحمن الرحيم » .

« الغيب » : مالا يُعْرَفُ بالضرورة ، ولا يُعْرَف بالقياس من المعلومات[3] . ويقال : هو ما استأثر الحقُّ بعِلْمِه ، ولم يجعل لأحدٍ سبيلًا إليه .

« والشهادة » : ما يَعْرِفُه الخَلْقُ .

وفى الجملة : لا يَعزُبُ عن عِلْمِه معلومٌ .

---

(١) آية ٩٠ سورة مريم .

(٢) يتصل هذا بموضوع السماع عند الصوفية ، وقد عقد السراج له فصلاً ممتعاً فى «اللمع» ، ومن أقواله المتصلة بهذه النقطة التى أثارها القشيرى يقول السراج : ألا ترى أحدهم يكون ساكنا فيتحرك ويظهر منه الزفير والشهيق ، وقد يكون من هو أقوى منه ساكناً فى وجده لا يظهر منه شىء من ذلك (اللمع ص ٢٧٥) ويجيب الجنيد حين سئل عن سكونه وقلة اضطرابه عند السماع : وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب) .

(٣) أى لايعرف بالضرورة العقلية ولابالقياس العقلى لأن العقل يستمد أحكامه من المحسات ، والغيب بعيد عن المحسات ، فلا سبيل للخلق إليه بوسائلهم المحدودة وحدها .

قوله جل ذكره : « هو اللهُ الذى لا إله إلا هو المَلِكُ
القُدُّوسُ السلامُ المُؤمِنُ المُهَيْمِنُ العزيزُ
الجبَّارُ المُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا
يُشْرِكون » .

المَلِكُ : ذو القدرة على الإيجاد .

القدوس : المُنَزَّهُ عن الآفة والنقص .

السلام : ذو السلامة من النقائص ، الذى يُسَلِّمُ على أوليائه ، والذى سَلِمَ المؤمنون من عذابه .

المؤمن : الذى يُصَدق عَبْدَهُ فى توحيده فيقول له : صَدَقْتَ يا عبدى .

والذى يُصَدِّق نَفسَه فى إخباره أى يعلم أنه صادق .

ويكون بمعنى المصدق لوعده . ويكون بمعنى المخبر لعباده بأنه يُؤَمِّنهم من عقوبته .

المهيمن : الشاهد ، وبمعنى الأمين ، ويقال مؤيمن (مُفَيْعِل) من الأمن قلبت همزته هاء وهو من الأمان ، ويقال بمعنى المؤمِن .

العزيز : الغالبُ الذى لا يُغْلَب ، والذى لا مثيلَ له ، والمستحق لأوصاف الجلال ، وبمعنى : المُعِزّ لعباده . والمَنِيعَ الذى لا يَقْدِرُ عليه أحد .

الجبَّار : الذى لاتصل إليه الأيدى . أو بمعنى المُصْلِح لأمورهم من: جَبَرَ الكَسْرَ . أو بمعنى القادر على تحصيل مراده[1] مِنْ خَلْقِه على الوجه الذى يريده من : جَبَرْتُه على الأمر وأجبرته .

المتكبر : المتقدِّس عن الآفات .

قوله جل ذكره : « هو اللهُ الخالِقُ البارىء المُصَوِّرُ له الأسماء
الحُسْنَى يُسَبِّحُ له ما فى السمواتِ والأرضِ
وهو العزيزُ الحكيم » .

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (مرات) .

هو المنشىء للأعيان والآثار .

« له الأسماء الحسنى » : المُسَمَّيات الحِسَان .

« وهو العزيز الحكيم » : مضى معناهما ، وقد استقصينا الكلام فى معانى هذه الأسماء (فى كتابنا المسمَّى : « البيان والأدلة فى معانى أسماء الله تعالى »)[1] .

(١) ما بين القوسين غير موجود فى م وهو موجود فى ص . وهذه أول مرة نعرف للقشيرى كتاباً بهذا الاسم فلم يرد ذكره فى كتب الفهارس والتراجم . وكنا نعلم حتى هذه اللحظة أن القشيرى قد عالج دراسة الأسماء والصفات فى كتابين فقط أولها : التحبير فى التذكير تحقيق بسيونى . والثانى : شرح أسماء الله الحسنى تحقيق الحلوانى .

سُورَةُ المُمتَحنة

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » اسم مَلِكٍ لا أصلَ لمُلْكِه عند حَدَث ولا نَسْلَ له ، فَمَنْهُ يَرِث . مالكٍ لا يَسْتَظهِرُ بجيشٍ وعُدَد ، ولا يتعزَّزُ بقَوْمٍ وعَدَد . مالكٍ للخَلْقِ[1] بأجمعِهِم — لكنه اختار قوماً — لا لينتفِعَ بهم — بل لِنَفْعِهِم ، وردَّ آخرين وأذَلَّهم بمَنْعِهِم ووَضْعِهِم :

قوله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عَدُوِّى وعَدُوَّكم أولياءَ تُلْقُونَ إليهم بالمودَّةِ وقد كفروا بما جاءكم من الحقِّ يُخْرِجون الرسولَ وإيَّاكم أنْ تُؤْمِنوا بالله ربِّكم إنْ كنتم خَرَجْتُمْ جِهاداً فى سبيلى وابتغاءَ مَرْضاتى »[2] .

قال صلى الله عليه وسلم : « أعدى عدوِّك نَفْسُك التى بين جنبيك[3] وأوحى الله سبحانه إلى داود عليه السلام : « عادِ نَفْسَك فليس لى فى المملكة مُنَازِعٌ غيرها » . فمَنْ عادَى نَفْسَه فقد قام بحقِّ الله ، ومَنْ لم يعادِ نفسه لَحِقَتْهُ هذه الوصمةُ . وأصلُ الإيمانِ الموالاةُ والمعاداةُ فى الله ومَنْ جَنَحَ إلى الكفار أو إلى الخارجين عن دائرة الإسلام انحاز إلى جانبهم .

---

(١) هكذا فى م وهى الصواب أما فى ص فهى (الحق) وهى خطأ من الناسخ .

(٢) نزلت الآية فى حاطب بن أبى بلتعة الذى بعث فى السرِّ بكتاب مع امرأة يقال لها سارة إلى أهل مكة يحذِّرهم فيه من استعداد النبى لهم والتهيؤ لقتالهم ، فوضعت الكتاب فى عقاص شعرها . ونزل جبريل عليه الرسول ليخبره بالأمر ، فأرسل فى إثرها فرسانه ، فانتزعوا الكتاب منها .

وحينما همَّ عمر رضى الله عنه بضرب عنق حاطب قال الرسول : وما يدريك يا عمر لعلَّ الله قد اطلع على أهل بدر فقال لهم : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ؟ ففاضت عينا عمر ، ونزلت الآية .

(٣) ينظر الصوفية إلى النفس على أنها محلُّ المعلولات (الرسالة ص ٤٨) .

قوله جل ذكره : « وأنا أَعْلَمُ بما أَخْفَيْتم وما أَعْلَنْتم
ومَنْ يَفعَلْهُ منكم فقد ضَلَّ سَوَاءَ
السبيلِ » .

أنا أعلم « بما أخفيتم » من دقائقِ التصنُّع وخَفِيَّات الرياء .

« وما أعلنتم » من التزيُّن للناس .

« ما أخفيتم » من الاستسرار بالزَّلة ، « وما أعلنتم » ، من الطاعة والبِرِّ .

« ماأخفيتم » من الخيانة « وما أعلنتم » من الأمانة .

« ما أخفيتم » من الغِلِّ والغِشِّ للناس ، « وما أعلنتم » من الفضيحةِ للناس .

« ما أخفيتم » من ارتكابِ المحظورات ، « وما أعلنتم » من الأمرِ بالمعروف .

« ما أخفيتم » من تَرْكِ الحشمة منى وقلة المبالاةِ باطِّلاعى ، وما أعلنتم من تعليم الناسِ ووَعْظِهِمْ .

« ومن يفعله منكم فقد ضلَّ سواء السبيل » فقد حادَ عن طريق الدين ، ووَقَعَ فى الكفر .

قوله جل ذكره : « إنْ يَثْقَفُوكم يكونوا لكم أعداءً
ويَبْسُطوا إليكم أَيْدِيَهُم وأَلْسِنَتَهُم
بالسُّوءِ ووَدُّوا لو تَكْفُرُون * لَنْ
تنفعَكم أرحامُكم ولا أولادُكم » .

إنْ يَظْفَروا بكم وصادَفوكم يكونوا لكم أعداء ، ولن تَسْلَموا من أيديهم بالسوء ولا من ألسنتهم بالذمِّ وذِكْرِ القبيح .

« ووَدُّوا لو تكفرون » : ولن يَنفَعَكم تَوَدُّدُكم وَتَقَرُّبُكم إليهم ، ولا ما بينكم وبينهم من الأرحام . ثم عقوبة الآخرة تُدْرِكُكُم [1] .

---

(١) لأنكم حينئذ تكونون قد آثرتم قرابتكم بأعدائكم على حقوق الله .

وكذلك صفة المخالف ، ولا ينبغى للمرء أنْ يتعطَّش إلى عشيرته — وإنْ داهَنَتْه فى قالةٍ ، ولا أنْ ينخدعَ بتغريرها — وإنْ لايَنَتْه فى حالة .

قوله جل ذكره : « قد كانت لكم أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فى إبراهيم والَّذِينَ معه إذ قالوا لقومهم إنَّا بُرَءَاءُ منكم ومما تَعْبُدُون من دون الله ، كَفَرْنا بكم ، وبَدَا بَيْنَنَا وبَيْنَكُم العداوةُ والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وَحْدَه إلَّا قَوْلَ إبراهيمَ لأبيه لَأَستغفِرَنَّ لَكَ وماأَمْلِكُ لَكَ مِنَ الله مِنْ شىءٍ » .

أى لكم قُدْوَةٌ حسنة بإبراهيم ومَنْ قبله من الأنبياء حيث تبَّرءوا من الكفار من أقوامهم ؛ فاقْتَدُوا بهم .. إلَّا استغفار إبراهيم لأبيه — وهو كافر — فلا تقتدوا به .

ولا تَسْتَغْفِروا للكفار . وكان ابراهيمُ قد وعده أبوه أنه يُؤْمِن فلذلك كان يستغفر له ، فلَمَّا تَبَيَّنَ له أنه لن يُؤْمِنَ تَبَرَّأ منه .

ويقال : كان منافقاً . . ولم يَعْلَمْ إبراهيم ذلك وقتَ استغفاره له .

ويقال : يجوز أنه لم يعلم فى ذلك الوقت أنَّ اللهَ لا يغفر للكفار .

والفائدةُ فى هذه الآية تخفيفُ الأمرِ على قلبِ الرسولِ صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بتعريفهم أنَّ مَنْ كانوا قبلهم حين كَذَّبوا بأنبيائهم أهلكهم اللهُ ، وأنهم صبروا ، وأنه ينبغى لذلك أنْ يكونَ بالصبرِ أمرُهم .

قوله جل ذكره : « ربَّنَا عليكَ تَوَكَّلْنا وإليكَ أَنَبْنَا وإليكَ المصير » .

أخبر أنهم قالوا ذلك .

ويصحُّ أن يكون معناه : قولوا : « ربَّنا عليكَ توكلنا » .

وقد مضى القولُ فى معنى التوكل والإنابةُ .

قوله جل ذكره : « رَبَّنَا لا تَجْعَلْنا فِتنَةً للذين كفروا واغفِرْ لنا رَبَّنَا إِنَّكَ أنت العزيزُ الحكيمُ ».

ربَّنا لا تُظْفِرْهم بنا ، ولا تُقَوِّهم علينا .

والإشارة فى الآية : إلى الأمرِ بِسُنَّةِ إبراهيم فى السخاء وحُسْنِ الخُلُقِ والإخلاصِ والصدقِ والصبرِ وكلِّ خصلةٍ له ذَكَرَها لنا .

قوله جل ذكره : « عَسَى اللهُ أن يجعلَ بينكم وبين الذين عَادَيْتُم منهم مَوَدَّةً واللهُ قديرٌ واللهُ غفورٌ رحيمٌ » .

وقفهم فى مقتضى قوله تعالى : « عسى الله » عند حدِّ التجويز . . لا حُكْماً بالقَطْعِ ، ولا دَفْعَ قلبٍ باليأس . . ثم أمَرَهم بالاقتصاد فى العداوة والولاية معهم بقلوبهم ، وَعرَّفهم بوقوع الأمر حسب تقديره وقدرته ، وجَرَيانِ كلِّ شىء على ما يريد لهم ، وصَدَّق هذه الترجية بإيمانِ مَنْ آمَنَ منهم عند فتح مكة ، وكيف أسلم كثيرون ، وحصل بينهم وبين المسلمين مودةٌ أكيدة .

قوله جل ذكره : « لا ينهاكم اللهُ عن الذين لم يُقَاتِلوكم فى الدِّينِ ولم يُخْرِجوكم من ديارِكم أَنْ تَبَرُّوهم وتُقْسِطوا إليهم إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقْسِطين * إنَّما ينهاكم اللهُ عن الذين قاتلوكم فى الدِّينِ وأخرجوكم من ديارِكم وظَاهَروا على إخراجِكم أَنْ تَوَلَّوْهم ، ومَنْ يتَوَلَّهُم فأولئك هم الظالمون » .

أَمَرَهُم بشدة العداوة مع أعدائهم على الوجه الذى يفعلونه ، وأمَّا من كان فيهم ذا خُلُقٍ حَسَنٍ ،

أو كان منه للمسلمين وجهُ نَفْعٍ أو رِفْقٍ — فقد أمَرَهم بالملاينة معه . والمُؤَلَّفَةُ قلوبهم شاهدٌ لهذه الجملة ، فإنَّ اللهَ يحب الرِّفق فى جميع الأمور[1] .

قوله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا إذا جاءَكُم المؤمناتُ مهاجراتٍ فامْتَحِنُوهنَّ اللهُ أَعْلَمُ بإيمانهنَّ فإنْ علمتُموهنَّ مؤمناتٍ فلا تَرْجِعوهُنَّ إلى الكفَّارِ ..... » .

كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يمتحنهن باليمين ، فيَحْلِفْنَ إنّهن لم يخرجن إلَّا للهِ ، ولم يخرجن مغايظةً لأزواجهن ، ولم يخرجن طمعاً فى مالٍ .

وفى الجملة : الامتحانُ طريقٌ إلى المعرفة ، وجواهرُ[2] الناس تتبيَّن بالتجربة[3] . ومَنْ أَقْدَمَ على شىء من غير تجربة تَحَسَّى كأسَ الندمَ .

« ولا تُمْسِكوا بِعِصَمِ الكوافِرِ »[4].

لا توافِقوا مَنْ خَالَفَ الحقَّ فى قليل أو كثير .

قوله جل ذكره : « يأيها النبيُّ إذا جاءَكَ المُؤْمِنَاتُ يُبَايِعنكَ عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ باللهِ شيئاً ولا يَسْرِقْنَ ولا يَزْنِين ولا يَقْتُلْنَ أولادهُن ولا يأتين بِبُهْتانٍ يفترينه بين أيديهنَّ وأَرْجُلِهِنَّ ولا يَعْصِينك فى معروفٍ فبايِعْهُنَّ واستغفِرْ لَهُنَّ اللهَ إنَّ اللهَ غفورٌ رحيم » .

---

(١) قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله رفيق يحب الرفق ، ويعطى على الرفق مالا يعطى على العنف » .

(٢) هكذا فى ص وهى فى م (وجوابه) وهى خطأ فى النسخ .

(٣) هكذا فى ص وهى فى م (المعرفة) .

(٤) العصمة : ما يعتصم به من عقد وسبب ، والكوافر : جمع كافرة وهى التى بقيت فى دار الحرب أو لحقت بدار الحرب مرتدة . أى لا يكن بينكم وبينهن عصمة ولا علقة زوجية .

إذا جاءك النساء يبايعنك على الإسلام فطالِبْهُنَّ وشارِطْهُنَّ بهذه الأشياء :

تَرْكُ الشِّرك ، وترك السرقة والزنا وقتل الأولاد والافتراء فى إلحاق النَّسبِ ، وألا يعصينك فى معروفٍ ؛ فلا يخالفنك فيما تأمرهن به ، ويدخل فى ذلك تَرْكُ النياحةِ وشقُّ الجيوب ونَتْفُ الشَّعْرِ عند المصيبة وتخميشُ[1] الوجوه والتبرُّجُ وإظهارُ الزينة . . . وغير ذلك مما هو من شعائر الدِّين فى الجملة .

قوله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا لا تَتَوَلَّوْا قوماً غَضِبَ اللهُ عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يَئِسَ الكفَّارُ من أصحابِ القُبور » .

الذين غضب الله عليهم هم الكفار . يئسوا من الآخرة كما يئِسَ أصحاب القبور أن يعودوا إلى الدنيا ويُبْعثوا (بعد ما تبينوا سوء منقلبهم) .

ويقال : كما يئس الكفار حين اعتقدوا أن الخَلْقَ لا يُبْعَثُون فى القيامة[2].

---

(١) خمش : أى جرح بشرته .

(٢) هكذا فى م وهى فى ص (الآخرة) وكلاهما صحيح فى السياق .

سُورَةُ الصَّف

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمة مَنْ وفقه اللهُ لعرفانها لم يَصْبِرْ عن ذكرها بلسانه ثم لا يفتر حتى يصلَ إلى المُسَمَّى بها بِجَنَانِه : فى البداية بتأمُّل برهانه لمعرفة سلطانه ، ثم لا يزال يزيده فى إحسانه حتى ينتهى فى شأنه بالتحقق مما هو كعيانِه .

قوله جل ذكره : « سَبَّحَ لِلَّهِ ما فى السمواتِ وما فى الأرضِ وهو العزيزُ الحكيم » .

مَنْ أراد أنْ يصفوَ له تسبيحُه فَلْيُصَفِّ قلبَه من آثار نَفْسِه ، ومَنْ أراد أن يَصْفُوَ له فى الجنَّةِ عَيْشُه فَلْيُصَفِّ من أوضارِ ذَنْبِه نَفْسَه .

قوله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا لِمَ تقُولون ما لا تفعلون * كَبُرَ مَقْتاً عند اللهِ أَنْ تقولوا ما لا تفعلون » .

جاء فى التفاسير أنهم قالوا : لو عَلِمْنا ما فيه رضا الله لَفَعَلْنا ولو فيه كل جهد . . ثم لمَّا كان يومُ أُحُد لم يثبتوا ، فنزلت هذه الآية فى العتاب[1] .

وفى الجملة : خلفُ الوعدِ مع كلِّ أحَدٍ قبيحٌ ، ومع اللهِ أقبح .

ويقال إظهارُ التجلُّدِ من غير شهود مواضع الفقر إلى الحقِّ فى كلِّ نَفَسٍ يؤذِنُ بالبقاء عمَّا حصل بالدعوى[2] . . . واللهُ يحب التبرِّى من الحوْلِ والقوة .

---

(١) قال محمد بن كعب : لما أخبر الله تعالى نبيَّه (ص) بثواب شهداء بدر قال بعض الصحابة : اللهم اشهد لئن لقينا قتالاً لَنُفْرِغَنَّ فيه وُسْعَنَا .. ففروا يوم أحد ، فعيرهم الله بذلك .

(٢) أى بدعوى النَّفْس : تسوِّل له نفسه أن له فى الأمر شيئاً ، وأن تدبيره هو الذى مكَّنَ له .

ويقال : لم يتوعَّد — سبحانه — زَلَّةٍ بِمِثْلِ ما على هذا حين قال : « كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون »[1] .

قوله جل ذكره : « إنَّ اللهَ يُحب الذين يقَاتِلون فى سبيلهِ صَفًّا كأنهم بُنْيَانٌ مَرْصوصٌ » .

المحبةُ توجِبُ الإيثارَ ، وتقديم مُرَادِ حبيبك عَلَى مُرَادِ نَفْسِك ، وتقديم محبوب حبيبك على محبوبِ نَفْسِك . فإذا كان الحقُّ تعالى يحبُّ من العبدِ أنْ يُقاتِلَ على الوجه الذى ذكره فَمَنْ لم يُؤْثِرْ محبوبَ اللهِ على محبوبِ نَفْسِهِ — أى على سلامته — انسلخ من محبته لربِّه ، ومَنْ خلا من محبةِ اللهِ وَقَعَ فى الشّقِّ الآخر ، فى خسرانه .

قوله جل ذكره : « وإذا قال موسى لقومه يا قوم لِمَ تُؤْذُونى وقد تعلمون أنِّى رسولَ اللهِ إليكم ؟ فلمَّا زاغوا أزاغَ اللهُ قلوبَهم واللهُ لا يَهْدِى القومَ الفاسقين » .

لمَّا زاغوا بِتَرْكِ الحدِّ أزاغ اللهُ قلوبهم بنقض العهد .

ويقال : لمَّا زاغوا عن طريق الرُّشْدِ أزاغ الله قلوبَهم بالصدِّ والردِّ والبُعْدِ عن الوُدِّ .

ويقال : لما زاغوا بظواهرهم أزاغ اللهُ سرائرَهم .

ويقال : لمَّا زغوا عن خدمة الباب أزاغ اللهُ قلوبَهم عن التشوُّق إلى البساط .

ويقال : لمَّا زاغوا عن العبادة أزاغ اللهُ قلوبَهم عن الإرادة .

قوله جل ذكره : « وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيلَ إنِّى رسولُ اللهِ إليكم مُصَدِّقاً لِمَا بين يَدَىَّ من التوراةِ ومُبَشِّراً برسولٍ يأتى من بَعْدِى

---

(١) عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله (ص) : « أتيتُ ليلة أُسْرِيَ بى على قومٍ تُقْرَضُ شفاههم بمقاريض من نار كلما قُرِضَتْ وَفَتْ (= تمت وطالت) قلت : مَنْ هؤلاء يا جبريل ؟ قال : « هؤلاء خطباء أمتك الذين يقولون ولا يفعلون ، ويقرءون كتاب الله ولا يعملون » . (ابو نعيم من حديث مالك بن دينار عن ثمامة) .

اسْمُهُ أحمدُ ، فلمَّـا جاءهم بالبيِّنات قالوا
هذا سِحْرٌ مبين » .

بَشَّرَ كلُّ نبيٍّ قومَه بنَبِيِّنا صلى الله عليه وسلم ، وأفرد الله ـــ سبحانه ـــ عيسى بالذِّكْرِ فى هذا الموضع لأنه آخِرُ نبيٍّ قبل نبيِّنا صلى الله عليه وسلم : فبيَّن بذلك أن البشارة به عَمَّتْ جميعَ الأنبياء واحداً بعد واحد حتى انتهت بعيسى عليه السلام .

قوله جل ذكره : « يُريدون لِيُطفِئوا نورَ اللهِ
بأفواهِهِم واللهُ مُتِمٌّ نورِه ولو كَرِهَ
الكافرون[1] » .

فمَنْ احتال لِوَهَنه ، أو رامَ وهْيَه انعكس عليه كَيْدُه ، وانتقض عليه تدبيرُه .

« ويأبى الله إلَّا أن يتم نوره » : كما قالوا :

ولله سِرٌّ فى عُلاهُ وإنمـــا كلامُ العِدَى ضَرْبٌ من الهَذَيانِ

كأنه قال : مَنْ تمنَّى أَنْ يُطفِئَ نورَ الإسلامِ بكيده كمن يحتال ويزاول إطفاء شعاعِ الشمس بنَفْثِه ونَفْخِه فيه ـــ وذلك من المُحَال .

قوله جل ذكره : « هو الذى أَرْسَلَ رسولَه بالهُدَى
ودِينِ الحقِّ لِيُظهِرَه على الدِّينِ كُلِّه
ولو كَرِهَ المُشْرِكون » .

لمَّا تقاعد قومُه عن نصرته ، وانبرى أعداؤه لتكذيبه ، وجحدوا ما شاهدوه من صِدْقِه قَيَّضَ الله له أنصاراً من أمته هم : نُزَّاعُ القبائل ، والآحادُ الأفاضل ، والساداتُ الأماثل ،وأفرادُ المناقب ـــ فبذلوا فى إعانته ونصرة دينه مُهَجَهم ، ولم يُؤْثِروا عليه شيئاً من كرائمهم ، ووقوه

---

(1) حكى عطاء عن ابن عباس : أن الوحى حين أبطأ على رسول الله (ص) أربعين يوماً قال كعب بن الأشرف : يا معشر اليهود : أبشروا ! فقد أطفأ اللهُ نورَ محمد فيما كان ينزل عليه ، وما كان ليتم أمره ؛ فحزن النبى (ص) — فأنزل الله تعالى هذه الآية واتصل الوحىُ بعدها .

بأرواحهم، (وأمدّهم اللهُ سبحانه بتوفيقه كى ينصروا دينه، أولئك أقوامٌ عَجَنَ الله بماء السعادة طِينَتَهم، وخَلَقَ من نور التوحيد أرواحَهم[1]) وأهَلَّهم يومَ القيامة للسيادة على أضرابهم.

ولقد أرسل اللهُ نبيَّه لدينه مُوَضِّحاً، وبالحقِّ مُفْصِحاً، ولتوحيده مُعْلِناً، ولجهده فى الدعاء إليه مستفرِغاً . . . فأَقْرَعَ بنُصْحِه قلوباً نُكْراً، وبصَّرَ بنور تبليغه عيوناً عُمْياً.

قوله جل ذكره: « يأيها الذين آمنوا هل أَدُلُّكُم على
تجارَةٍ تُنْجيكُم من عذابٍ أليم *
تُؤْمِنون باللهِ ورسولِه وتجاهِدون فى
سبيلِ اللهِ بأموالِكم وأَنْفُسِكُم
ذلِكُمْ خيرٌ لكم إنْ كنتم تعلمون ».

سَمَّى الإيمانَ والجهادَ تجارةً لِمَا فى التجارة من الرِّبح والخسران ونوعِ تَكَسُّبٍ من التاجر — وكذلك: فى الإيمان والجهاد رِبْحُ الجنَّة وفى ذلك يجتهد العبد، وخسرانها إذا كان الأمرُ بالضِّدِّ.

وقوله: « تؤمنون بالله . . . » أى فى ذلك جهادُكم وإيمانُكم واجتهادُكم، وهو خيرٌ لكم.

ثم بَيَّن الربحَ على تلك التجارة ماهو فقال:

« يَغْفِرْ لكم ذُنُوبَكُمْ ويُدْخِلْكُم
جناتٍ تجرى مِنْ تحتِها الأنهارُ

---

(١) ما بين القوسين ورد فى م وسقط فى ص.

ومساكِنَ طَيِّبَةً فى جنات عَدْنٍ ذلك الفوزُ العظيمُ » .

قدَّم ذِكْرَ أهمِّ الأشياء — وهو المغفرة . ثم إذا فَرغَتْ القلوبُ عن العقوبة قال :

« ويدخلكم جناتٍ . . . » فبعد ما ذَكَرَ الجَنَّةَ ونعيمَها قال : « ومساكن طيبة » ، وبماذا تطيب تلك المساكن ؟ لا تطيب إلَّا برؤية الحقِّ سبحانه ، ولذلك قالوا :

أجيرانَنَا ما أوحشَ الدارَ بعدكم إذا غِبْتُمو عنها ونحن حضورُ !

نحن فى أكملِ السرورِ ولكنْ ليس إلا بكم يتمُّ السرورُ

عيبُ مانحن فيه يا أهلَ ودِّى أنكم غُيَّبٌ ونحن حضورُ

قوله جل ذكره : « وأُخْرى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ من اللهِ وفَتْحٌ قريبٌ وبَشِّرِ المؤمنينَ » .

أى ولكم نعمة أخرى تحبونها : نصرٌ من الله ؛ اليومَ حِفْظُ الإيمان وتثبيتُ الأقدام على صراط الاستقامة ، وغداً على صراط القيامة .

« وفتح قريب » : الرؤية والزلفة . ويقال الشهود . ويقال : الوجود[1] أبدَ الأَبَد .

« وبشر المؤمنين » : بأنهم لا يبقون عنك فى هذا التواصل .

قوله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا كونوا أنصارَ اللهِ كما قال عيسى ابْنُ مريمَ للحواريين مَنْ أنصارى إلى اللهِ ؟ قال الحواريونَ : نحنُ أنصارُ اللهِ فآمنت

(١) لفظة (الوجود) بالمعنى الصوفى مقبولة هنا ، ولكننا فى ذات الوقت لا نستبعد أن تكون (الخلود) إشارة إلى قوله تعالى : « خالدين فيها أبداً » .

طائفةٌ من بنى إسرائيلَ وكَفَرت

طائفةٌ فأيَّدْنا الذين آمنوا على عدُوِّهم

فأصبحوا ظاهرين » .

أى كونوا أنصاراً لدينه ورسوله كما أنَّ عيسى لمَّا استعانَ واستنصرَ الحواريين نصروه .. فانصروا محمداً إذا استنصركم .

ثم أخبر أنَّ طائفةً من بنى إسرائيل آمنوا بعيسى فأُكْرِموا ، وطائفةً كفروا فأُذِلُّوا ، وأظهرَ أولياءه على أعدائه ... لكى يعرف الرسولُ صلى الله عليه وسلم أنَّ اللهَ سبحانه يُظفِرُ أولياءه على أعدائه .

سُورَةُ الجُمعَة

قوله جل ذكره : « بسم اللهِ الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » اسم عزيز إذا تجلّى لقلبِ عَبْدٍ بوصفِ جمالِه تجمعت أفكارُه على بساط جُودِه فلم يتفرّق بسواه[1] .

ومَنْ تجلَّى لِسِرِّه بنعت جلالِه اندرجت جملتُه ، واستُهْلِكَ فى وجوده فلم يشعرْ بكرائم دُنْياه ولا بعظائم عُقْباه . .

وكم له من إنعام ! وكم له من إحسان ! وكما فى أمثالهم :« جرىالوادى فطمَّ علىالقَرِىِّ[2] »

قوله جل ذكره : « يُسَبِّحُ للهِ ما فى السمواتِ وما فى الأرضِ » .

تَسْبَحُ فى بحارِ توحيد الحقِّ أسرارُ أهلِ التحقيق ، وبَحْرُهم بلا شاطىء ؛ فبعد ما حصلوا فيها فلا خروجَ ولا براحَ ، فحازت أيديهم جواهرَ التفريد فرصَّعوها فى تاج العرفان كى يَلْبَسُوه يومَ اللِّقاء .

« المَلِكِ القُدُّوسِ العزيزِ الحكيم » .

« الملك » : الملك المتفرِّد باستحقاق الجبروت .

« القدوس » : المُنَزَّهُ عن الدرك والوصول : فليس بيد الخَلْقِ إلاَّ عرفان الحقائق بنعت التعالى ، والتأمل فى شهود أفعاله ، فأمَّا الوقوف على حقيقة أَنِّيته — فقد جَلَّتْ الصمديةُ عن

---

(١) لاحظ هنا دقة استعمال الاصطلاحين (الجمع والفرق) .

(٢) القَرِىّ = مجرى الماء فى الروضة والجمع : أقرية وأقراء وقريان ، ويضرب المثل عند تجاوز الشىء حدّه .

إشرافٍ عليه ، أو طمعِ إدراكٍ فى حالِ رؤيته ، أو جوازِ إحاطةٍ فى العِلْم به . . فليس إلا قالة بلسانٍ مُستَنْطقٍ ، وحالة بشهودِ حقٍّ مستغرق[1] :

وقُلْنَ لنا : نحـــــن الأَهِلَّة إنما نُضيء لِمَنْ يَسْرِى بليلٍ ولا نَقْرِى[2]

قوله جل ذكره : « هو الذى بَعَثَ فى الأُمِّيينَ رسولاً منهم يتلوا عليهم آياتِه ويزكيهم ويُعَلِّمُهم الكتابَ والحكمةَ وإنْ كانوا مِنْ قبلُ لَفِى ضلالٍ مبين » .

جرَّده عن كلِّ تكلُّفٍ لِتَعَلُّمٍ ، وعن الاتصافِ بتطلُّبٍ[3] . ثم بَعَثَه فيهم وأَظْهَرَ عليه من الأوصاف ما فاق الجميع .

فكما أَيْتَمَهُ فى الابتداء عن أبيه وأمِّه ، ثم آواه بلُطْفِه — وكان ذلك أبلغَ وأتمَّ — فإنه كذلك أفرده عن تكلُّفِهِ العلم — ولكن قال : « وعلَّمك مالم تكن تعلم »[4] .

وقال : « ما كنت تدرى ما الكتابُ ولا الإيمانُ ولكن جعلناه نوراً »[5] ألبسه لباسَ العِزَّة ، وتَوَّجَه بتاجِ الكرامة ، وخَلَعَ عليه حُسْنَ التولِّى . لتكونَ آثارُ البشرية عنه مندرجة[6] ، وأنوارُ الحقائقِ عليه لائحة .

« وآخَرِين منهم لمَّا يَلْحَقُوا بهم وهو العزيزُ الحكيم » .

---

(١) هذه الفقرة التى كتبها القشيرى عن (القدوس) على جانب كبير من الأهمية ؛ إذ هى توضح : أن الصوفى مهما ارتفع فى معراجه الروحى لا يستشرف من (الذات) فقدجلَّت الصمدية عن ذلك ، وإنما هو يتحقق من شهود (الفعل) .. ولا شكَّ أن أهل السنة المتشددين سيجدون فى هذا النصِّ مايعطفهم نحو التصوف وأهله .

(٢) أى ولا نستضيف .. والمقصود أن السالكين طريق الله دائماً على الدرب سائرون وأن الحق سبحانه لا وقوف على كنهه .

(٣) حتى ينتفى عنه سوء الظن فى تعلُّمه شيئاً من الكتب السابقة ، وأن ما يدعو إليه ثمرة قراءته .

(٤) آية ١١٣ سورة النساء .

(٥) آية ٥٢ سورة الشورى .

(٦) هى هكذا فى ص وفى م مشتبهة ، والمقصود لتنطوى عنه آثار البشرية — لا البشرية نفسها — وتلوح عليه أنوار الحقائق.

أى بعثه فى الأميين ، وفى آخرين منهم وهم العجم ، ومن يأتى .. إلى يوم القيامة ؛ فهو صلى الله عليه وسلم مبعوثٌ إلى الناسِ كافَّة .

قوله جل ذكره : « ذلكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيه مَنْ يشاءُ والله ذو الفَضْلِ العظيم » .

يقصد به هنا النبوة ، يؤتيها « من يشاء » ؛ وفى ذلك ردٌّ على مَنْ قال : إنها تُسْتَحَقُّ لكثرة طاعة الرسول — وردٌّ على من قال : إنها لتخصيصهم بطينتهم ؛ فالفضل ما لا يكون مُسْتَحَقًّا ، والاستحقاق فَرضٌ[1] لا فضل .

ويقال : « فضل الله » هنا هو التوفيق حتى يؤمنوا به .

ويقال : هو الأُنْسُ بالله ، والعبدُ يَنْسَى كلَّ شيء إذا وَجَدَ الأُنْسَ.

ويقال : قطَعَ الأسبابَ ، — بالجملة — فى استحقاق الفضل ، إذ أحالَه على المشيئة .

قوله جل ذكره : « مَثَلُ الذين حُمِّلوا التوراةَ ثم لم يَحْمِلوها كَمَثَلِ الحمارِ يَحْمِلُ أسفاراً بِئْسَ مَثَلُ القومِ الذين كذَّبوا بآياتِ اللهِ ، واللهُ لا يَهْدِى القومَ الظالمين ».

« ثم لم يحملوها » : ثم لم يعملوا بها .

ويُلْحَقُ بهؤلاء[2] فى الوعيد — من حيث الإشارة — الموسومون[3] بالتقليد فى أى

(١) هكذا فى ص وهى فى م (فرد) وهى خطأ فى النسخ ؛ إذ المقصود أنه منحه الاستحقاق فضلاً منه لا (فرضاً) عليه ؛ فلا وجوبَ على الله — كما نعرف من مذهب القشيرى .

(٢) أى باليهود الذين لا فائدة لهم فيما يحملون من الكتب ، فهى تبشر بمحمد ، وهم يجحدون به .

(٣) هكذا فى ص وهى فى م (المؤمنون) .

معنىً شِئْتَ : فى علم الأصول، وممَّا طريقُه أدلةُ العقول، وفى هذه الطريقة[1] ممَّا طريقُه المنازلات .

قوله جل ذكره : « قُلْ يأيها الذين هادوا[2] إنْ زَعَمْتُمْ أنكم أولياءُ لله من دونِ الناسِ فَتَمَنَّوُا الموتَ إنْ كُنْتُمْ صادقين * ولا يتمنَّونَهُ أبداً بما قَدَّمَتْ أَيْدِيهم واللهُ عليمٌ بالظالمين » .

هذا من جملة معجزاته صلى الله عليه وسلم ، فَصَرْفُ قلوبِهم عن تمنِّى الموتِ إلى هذه المدة دَلَّ على صِدْقِه صلوات الله عليه[3] .

ويقال : من علامات المحبة الاشتياقُ إلى المحبوب ؛ فإذا كان لا يَصِلُ إلى لقائه إلا بالموتِ فتَمنِّيه — لا محالة — شرطٌ ، فأخبر أنهم لا يتمنونه أبداً . . وكان كما أخبر .

قوله جل ذكره : « قُلْ إنَّ الموتَ الذى تفرون منه فإنه مُلاقيكُم ثم تُرَدُّون إلى عالِمِ الغيبِ والشهادةِ فَيُنَبِّئُكُم بما كنتم تعملون » .

الموتُ حَتْمٌ مَقْضِىٌّ . وفى الخبر : « مَنْ كَرِهَ لقاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لقاءه » . والموتُ جِسْرٌ والمقصدُ عند الله . . ومَنْ لم يَعِشْ عفيفاً فَلْيَمُتْ ظريفاً[4] .

---

(1) يقصد طريقة الصوفية .

(2) أخطأ الناسخ فى م وجعلها (آمنوا) .

(3) والآية تؤكد هذا مرتين باستعمال أسلوب إنشائى (فتمنوا) وأسلوب خبرى (ولا يتمنونه أبداً) .

(4) سئل الجنيد عن الظرف فقال : « اجتناب كل خُلُق دنيى واستعمال كل خلق سَنِىّ وأن تعمل لله ثم لا ترى أنك عملت » (اللمع للسراج ص ٢٦٩).

قوله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا إذا نُودِىَ للصلاةِ
من يومِ الجمعة فاسْعَوْا إلى ذِكْرِ اللهِ
وذَرُوا البَيْعَ ذلكم خيرٌ لكم إنْ
كُنْتُم تعلمون » .

أَوْجَبَ السَّعْىَ يومَ الجمعة إذا نودِىَ لها ، وأَمَرَ بِتَرْكِ البيع[1] .

ومنهم من يحمله على الظاهر ؛ أى تَرْكُ المعاملة مع الخَلْق[2] ، ومنهم من يحمله عليه وعلى معنًى آخر : هو تَرْكُ الاشتغالِ بملاحظة الأعراض[3] ، والتناسى عن جميع الأغراض إلا معانقة الأمر ؛ فمنهم مَنْ يسعى إلى ذِكْرِ الله ، ومنهم من يسعى إلى الله ، بل يسعون إلى ذِكْرِ الله جَهْراً بِجَهْرٍ ، ويسعون إلى الله تعالى سِرًّا بسِرٍّ .

قوله جل ذكره : « فإذا قُضِيَتِ الصلاةُ فانتشروا
فى الأرض وابتغوا من فَضْلِ اللهِ
واذكروا اللهَ كثيراً لعلَّكم تُفلحون»

إنما ينصرف مَنْ كان له جَمْعٌ يرجع إليه ، أو شغلٌ يقصده و يشتغل به — ولكن .. مَنْ لا شُغْلَ له ولا مأوى .. فإلى أين يرجع ؟ وإنما يقال : « وابتغوا من فضل الله » إذا كان له أَرَبٌ .. فأمَّا مَنْ سَكَنَ عن المطالبات ، وكُفِىَ داءَ الطَّلَبِ .. فما لَه وابتغاء ما ليس يريده ولا هو فى رِقِّه ؟ !

قوله جل ذكره : « وإذا رأوْا تجارةً أوْ لَهْواً انفضُّوا
إليها وتركُوكَ قائما .. قُلْ ما عند اللهِ

---

(١) هكذا فى ص وهى الصواب حسب الآية ، ولكنها فى م (الجميع) .
(٢) هكذا فى ص وهى فى م (الحق) وهى خطأ فى النسخ .
(٣) جمع (عَرَض) الحياة الدنيا.

خَيْرٌ من اللَّهْوِ ومن التجارة واللهُ خيرُ
الرَّازقين » .

مَنْ أَسَرَتْهُ أخطارُ الأشياء استجاب لـكلِّ داعٍ جرَّه إليه لَهْوٌ أو حَمَلَه عليه سَهوٌ ومَنْ مَلَكَه سلطانُ الحقيقة لم ينحرف عن الحضور ، ولم يلتفت فى حال الشهود . « قل ماعند الله خير من اللهو ومن التجارة » وما عندالله للعُبَّاد والزُّهَّاد — غداً[1] — خيرٌ مما[2] نالوه فى الدنيا نقداً . وما عند الله للعارفين — نقداً — من واردات القلوب وبواده[3] الحقيقة خيرٌ مما يُؤمِّل المستأنِف[4] فى الدنيا والعُقْبى .

---

(١) ويجوز أنها فى الأصل « وعداً » لتقابل « نقداً » فهذا نمط فى تعبير القشيرى مألوف ، ومع ذلك فالوعد (غداً) .

(٢) هكذا فى ص وهى فى م (ممن) والصواب (مما)

(٣) البواده ما يفجأ قلبك من الغيب على سبيل الوهلة ، وهى إما موجبات فرح أو موجبات ترح ، وسادات الوقت لا تغيِّرهم البواده ، لأنهم فوق مايفجؤهم حالاً وقوة (الرسالة – ص ٤٤) .

(٤) موجودة فى ص وغير موجودة فى م وهى ضرورية للسياق ، والمستأنف : هوالمريد المبتدىء الذى مازال يفكِّر فى الثواب الآجل والثواب العاجل .

سُورَةُ المُنَافِقُون

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » اسم مَنْ تحقَّق به صَدَقَ فى أقوالِه ، ثم صَدَقَ فى أعمالِه ، ثم صدق فى أخلاقِه ثم صَدَقَ فى أحوالِه ، ثم صَدَقَ فى أنفاسه[1] .. فصِدْقُه فى القول ألّا يقولَ إلّا عن برهان ، وصِدْقُه فى العمل ألا يكونَ للبِدْعةِ عليه سلطانٌ ، وصِدْقُه فى الأخلاقِ ألّا يُلاحِظَ إحسانَه مع الكافَّة بعينِ النقصان ، وصِدْقُه فى الأحوالِ أنْ يكونَ على كَشْفٍ وبيان ، وصِدْقُه فى الأنفاس ألا يتنفَّسَ إلا على وجودٍ كالعيان[2] .

قوله جل ذكره : « إذا جاءكَ المنافِقُون قالوا : نَشْهَدُ إنَّكَ لرسُولُ اللهِ ، واللهُ يَعْلَمُ إنَّك لَرَسُولُهُ واللهُ يَشْهَدُ إنَّ المنافقين لَكَاذِبون » .

كَذَّبَهم فيما قالوا وأظهروا ، ولكنهم لم يشهدوا عن بصيرة ولم يعتقدوا تصديقك ، فهم لم يكذبوا فى الشهادة[3] ولكنَّ كذِبَهم فى قولهم : إنَّهم مخلصون لك ، مُصَدِّقون لك . فصِدْقُ القالة لا ينفع مع قُبْحِ الحالة .

---

(١) هكذا فى ص وهى فى م (انعامه) والصواب ما أثبتنا بدليل ما بعده .

(٢) لاحظ هنا كيف تتفق إشارة البسملة مع السياق العام للسورة .

(٣) أى تقريرهم بأن محمداً رسول الله حقيقة ليس فيها كذب ، فمن حيث الظاهر فقد نطقت ألسنتهم بالصدق ، ولكن الكذب كامن فى القلب .

ويقال : الإيمان ما يوجِبُ الأَمان ؛ فالإيمانُ يوجِبُ للمؤمن إذا كان عاصياً خلاصَه من العذاب أكثره وأقلّه . . إلّا ما ينقله من (أعلى)[1] جهنم إلى أسفلها .

قوله جل ذكره : « اتَّخَـذوا أيْمَانَهم جُنَّةً فَصَدُّوا عن سبيلِ اللهِ إنَّهم ساء ما كانوا يعملُون » .

تَستَّرُوا بإقرارِهم ، وتكَشَّفوا بنفاقهم عن أسْتارِهم فافتضحوا ، وذاقوا وبالَ أحوالهم .

قوله جل ذكره : « ذلك بأنَّهم آمنوا ثم كفروا فَطُبِـعَ على قُلوبِهم فَهُم لا يفقهُون » .

استضاءوا بنورِ الإجابة فلم يَنْبَسِطْ عليهم شعاعُ السعادة ، فانطفأ نورُهم بقَهْرِ الحرمان ، وبقوا فى ظلمات القسمة السابقة بحُـكْم الشقاوة .

قوله جل ذكره : « وإذا رَأيْتَهم تُعْجِبُكَ أجسامُهم وإنْ يقولوا تَسْمَعْ لقولِهم كأنَّهم خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُون كُلَّ صيحةٍ عليهم هم العدُوُّ فاحْذَرْهُم ، قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّىٰ يُؤْفَـكُون » .

أى هم أشباحٌ وقوالبٌ وليس وراءهم ألبابٌ وحقائق — فالجوزُ[2] الفارغُ مُزَيَّنٌ ظاهِرُه ولـكنه للعب الصبيان[3] .

« يحسبون كل صيحة عليهم .. » وذلك لِجُبْنِهم ؛ إذ ليس لهم انتعـاشٌ بربِّهم ، ولا استقلالٌ بغيرهم .

---

(١) سقطت (أعلى) من الناسخ فى م وهى موجودة فى ص .

(٢) هكذا فى م وهى فى ص « الحوض » وقد رجحنا الأولى .

(٣) فى هذه الإشارة تنبيه إلى قاعدة صوفية : أن العبرة بحقائق الأرواح لا بمظاهر الأشباح (أى الاجساد) .

« هم العدوُّ فاحذرهم » هم عدوٌّ لك — يا محمد — فاحْذَرْهم ، ولا يَغُرَّنْكَ تَبَسُّطُهم في الكلام على وجهِ التودُّدِ والتقرُّب .

قوله جل ذكره : « وإذا قيل لهم تَعَالَوْا يَسْتَغفِرْ لَكم
رسولُ اللهِ لَوَّوْا رُءوسَهم ورأَيْتَهُم
يَصُدُّون وهم مُسْتَكْبِرون » .

سموا إلى ما يُقال لهم على وجه التكبُّر ، وإظهار الاستغناء عن استغفارك لهم . . فَخَلِّ سبيلَهم ؛ فليس للنُّصح فيهم مساغٌ ، ولن يُصْحِيَهم من سَكْرَتِهم إلَّا حَرُّ ما سيلقونه من العقوبة ، فما دام الإصرارُ من جانبهم فإنهم :

« سواءٌ عليهم أستغفَرْتَ لهم أمْ لم
تستَغْفِرْ لهم لن يَغفِرَ اللهُ لهم إنَّ اللهَ
لا يَهْدِى القومَ الفاسقين » .

فقد سبق العِلْمُ بذلك :

قوله جل ذكره : « هم الذين يقولون لا تُنفِقوا على مَنْ
عِنْدَ رسولِ اللهِ حتى يَنفَضُّوا ولله
خزائنُ[1] السمواتِ والأرضِ ولكنَّ
المنافقين لا يفقهُون » .

كأنهم مربوطون بالأسباب ، محجوبون عن شهود التقدير ، غيرُ متحققين بتصريفِ الأيام ، فأنطقَهُم بما خَامَرَ قلوبَهم مِنْ تَمَنِّى انطفاءِ نورِ رسول الله ، وانتكاث شَمْلِهم ، فتواصَوْا فيما بينهم بقولهم : « لا تنفقوا على من عند رسول الله » فقال تعالى « ولله خزائنُ السمواتِ . . . » .

وليس استقلالُك — يا محمد — ولا استقلالُ أصحابك بالمرزوقين . . بل بالرازق ؛ فهو الذى يمسككم .

---

(١) « ولله خزائن السموات والأرض» بهذا أجاب كثيرون من أرباب الطريق كحاتم الأصم والجنيد والشبلى عندما كانوا يسأل أحدهم : من أين تأكل ؟

قوله جل ذكره : « يقولون لئِنْ رَجَعْنا إلى المدينةِ
لَيُخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأَذَلَّ ولله العِزَّةُ
ولرسولِه وللمؤمنين ولكنَّ المنافقين
لا يعلمُون » .

إنما وقع لهم الغَلَطُ فى تعيين الأَعزِّ والأَذَلِّ ؛ فتوهَّموا أنَّ الأعزَّ هم المنافقون ، والأذلَّ هم المسلمون ، ولكن الأمر بالعكس ، فلا جَرَمَ غَلَبَ الرسولُ صلى الله عليه وسلم والمسلمون ، وأُذِلَّ المنافقون بقوله : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » : لله عِزُّ الإلهية ، وللرسولِ عِزُّ النبوَّة ، وللمؤمنين عِزُّ الولاية . . وجميعُ ذلك لله ؛ فعِزُّه القديم صِفَتُه ، وعِزُّ الرسولِ وعِزُّ المؤمنين له فِعْلاً ومِنَّةً وفَضْلاً ، فإذاً لله العِزَّةُ جميعاً .

ويقال : كما أنَّ عِزَّةَ اللهِ — سبحانه — لا زوالَ لها فعِزَّةُ الأنبياء بأنْ لا عَزْلَ لهم ، وعِزَّةُ المؤمنين بألا يَبْقَى منهم مُخَلَّدٌ فى النار .

ويقال : مَنْ كان إيمانُه حقيقياً فلا زوالَ له .

ويقال : مَنْ تعزَّزَ بالله لم يلحقه تَغَيُّرٌ عن حاله بغير الله .

ويقال : لا عِزَّ إلَّا فى طاعةِ الله ، ولا ذُلَّ إلَّا فى معصيةِ الله . . وما سوى هذا فلا أصلَ له .

قوله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا لا تُلْهِكُم
أموالُكم ولا أولادُكم عن ذِكْرِ اللهِ
ومَنْ يفعلْ ذلك فأولئك هم
الخاسرون » .

لا تُضَيِّعوا أمورَ دينكم بسبب أموالكم وأولادِكم بل آثِروا حقَّ الله ، واشْتَغِلوا به يَكْفِكُم أمورَ دنياكم وأولادكم ؛ فإذا كُنْتَ لله كان اللهُ لك[1] .

---

(١) لنتذكر ما قلناه فى مدخل هذا الكتاب بأن القشيرى نفسه قد ضرب المثل على ذلك حين هاجر من بلده تاركاً أهله فى رعاية الله حينما تعرضت عقيدته للمحنة .

ويقال : حقُّ اللهِ مما ألزمكَ القيامَ به ، وحقُّك ضمن لك القيام به ؛ فاشتغِلْ بما كُلِّفْتَ لا بما كُفِيت .

قوله جل ذكره : « وأنفِقُوا من مَّا رزقنٰكُم مِّن قبل
أَنْ يأتِيَ أَحَدَكم الموتُ فيقولَ ربِّ
لولا أَخَّرْتنى إلى أجلٍ قريبٍ فأصَّدَّقَ
وأكُن مِّن الصالحين » .

لا تَغْتَرُّوا بسلامةِ أوقاتِكم ، وتَرَقَّبوا بَغَتاتِ آجالِكم ، وتأَهَّبوا لما بين أيديكم من الرحيل ، ولا تُعَرِّجوا فى أوطان التسويف .

سُورَةُ التَّغَابُن

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله . . » كلمةٌ عزيزةٌ مَنْ ذَكَرَها يحتاج إلى لسانٍ عزيزٍ فى الغيبة لا يُبْتَذَلُ ، وفى ذِكْرِ الأغيار لا يُسْتَعْمَل . ومَنْ عَرَفَها يحتاج إلى قلبٍ عزيزٍ ليس فى كلِّ ناحية منه خايط ، ولا فى كلِّ زاوية زبيط .

قوله جل ذكره : « يُسَبِّحُ لِلَّهِ ما فى السمواتِ وما فى الأرضِ له المُلْكُ وله الحمدُ وهو على كُلِّ شيء قدير » .

المخلوقاتُ كلُّها بجملتها لله سبحانه مُسَبِّحةٌ . . ولكن لا يَسْمَعُ تسبيحَها مَنْ به طَرَشُ النكرة .

ويقال : الذى طَرَأَ صَمَمُه فقد يُرْجَى زواله بنوعِ معالجة ، أمَّا مَنْ يُولَدُ أَصَمَّ فلا حيلةَ فى تحصيلِ سماعِه . قال تعالى : « فإنك لا تُسْمِعُ الموتى »[1] وقال تعالى : « ولو عَلِمَ اللهُ فيهم خيراً لأسمعَهُم »[2].

قوله جل ذكره : « هو الذى خَلَقَكُم فمِنْكُم كافِرٌ ومنكم مُّؤمِنٌ واللهُ بما تعملون بصير » .

منكم كافرٌ فى سابق حُكْمِه سَمَّاه كافراً ، وعَلِمَ أنه يكفر وأراد به الكفر ... وكذلك

---

(١) آية ٥٢ سورة الروم .

(٢) آية ٢٣ سورة الأنفال .

كانوا . ومنكم مؤمنٌ فى سابق حُكْمِه سَمَّاه مؤمِناً ، وعَلِمَ فى آزاله أنه يُؤمِن وخَلَقَه مؤمناً ، وأراده مؤمناً . . والله بما تعملون بصير .

قوله جل ذكره : « خَلَقَ السمواتِ والأرضَ بالحقِّ
وصَوَّرَكم فأحْسَنَ صُوَرَكُم وإليه
المصير » .

« خلق السموات والأرض بالحق » : أى وهو مُحِقٌّ فى خَلْقِه .

« وصوَّركم فأحسن صوركم » لم يَقُلْ لشىء من المخلوقات هذا الذى قال لنا ، صوَّر الظاهرَ وصوَّر الباطنَ ؛ فالظاهر شاهدٌ على كمال قدرته ، والباطن شاهدٌ على جلال قربته[1] .

قوله جل ذكره : « يعلم مافى السمواتِ والأرضِ ويعلمُ
ما تُسِرُّون وما تُعْلِنون واللهُ عليمٌ
بذاتِ الصدورِ » .

قَصِّروا حِيَلَكُم عن مطلوبكم ، فهو تتقاصر عنه علومُكم ، وأنا أعلمُ ذلك دونَكم . . فاطلبوا منِّى ، فأنا بذلك أعلم ، وعليه أقدر .

ويقال : « ويعلم ماتسرِّون » . فاحذروا دقيقَ الرياء ، وخَفِيَّ ذات الصدور « وماتعلنون »: فاحذروا أن يخالِفَ ظاهرُكم باطنَكم .

فى قوله « ما تسرُّون » أمرٌ بالمراقبة بين العبد وربه .

وفى قوله « ما تعلنون » أمرٌ بالصدق فى المعاملة والمحاسبة مع الخَلْق[2] .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ يأتِكُم نَبَأُ الذين كفروا مِنْ
قَبْلُ فذاقوا وبالَ أمرِهم ولهم عذابٌ

(١) القربة هنا إشارة إلى تميز الإنسان من بين المخلوقات بتيام المحبة بمعناها الخاص بينه وبين الحق سبحانه ، وقد سبق بيان ذلك فى مواضع مختلفة .

(٢) مرة أخرى ننبه إلى ضرورة فهم الفرق بين اصطلاحى: المراقبة والمحاسبة – حسب المنهج القشيرى .

أليم * ذلك بأنه كانت تأتيهم رُسُلُهم
بالبيِّنـاتِ فقالوا أبَشَرٌ يَهْدُونـنـا
فـكفروا وتولَّوا وأستغنى اللهُ واللهُ
غنيٌّ حميد » .

المراد من ذلك هو الاعتبار بِمَنْ سَلَفَ ، ومَنْ لم يعتبرْ عَثَرَ فى مَهْوَاةٍ من الأَمَلِ ، ثم لا يَنْتَعِشُ إلّا بعد فواتِ الأمرِ من يده .

« ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم . . » . شاهدوا الأمرَ من حيث الخَلْقِ فتَطَوَّحوا فى متاهاتِ الإشكالِ المختلفةِ الأحوال . ولو نظروا بعين الحقيقة لتخلَّصوا من تفرقة الأباطيل ، واستراحوا بشهود[1] التقدير من اختلافِ الأحوالِ ذات[2] التغيير .

قوله جل ذكره : « زَعَمَ الذين كفروا أنْ لَنْ يُبْعَثُوا
قُلْ : بلى وربِّى لَتُبْعَثُنَّ ثم لَتُنَبَّؤُنَّ
بما عَمِلْتُم ، وذلك على اللهِ يسير » .

الموتُ نوعان : موتُ نَفْسٍ ، وموتُ قلبٍ ؛ ففى القيامة يُبْعَثُون من موت النَّفْس ، وأمَّا موتُ القلبِ فلا بَعْثَ منه — عند كثيرٍ من مخلصى هذه الطائفة ، قال تعالى مُخْبِراً عنهم : « قالوا يا ويلنا مَنْ بَعَثَنا من مرقَدِنا ؟ »[3] فلو عرفوه لَمَا قالوا ذلك ؛ فموتُ قلوبِهم مُسْتَمِرٌّ إلى أنْ تصيرَ معارفُهم ضرورية ، فهذا الوقتُ وقتُ موتِ قلوبهم .

قوله جل ذكره : « فآمِنوا باللهِ ورسولهِ والنورِ الذى
أنزلنا واللهُ بمـا تعملون خبيرٌ » .

« النور الذى أنزلنا » : القرآن . ويجوز أنْ يكونَ ما أنزل فى قلوب أوليائه من السكينة وفنون الألطاف .

---

(١) هكذا فى ص وهى فى م (من شهود) وهى خطأ من الناسخ .
(٢) فى النسختين (ذوى) وقد رأينا أن تكون (ذات) أو (ذوات) .
(٣) آية ٥٢ سورة يس ، والفرق واضحٌ بين هذه المقالة وبين ما قاله أصحاب الكهف المؤمنون .

قوله جل ذكره: « يومَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الجَمْعِ ذلكَ
يومُ التغابُنِ ومَنْ يُؤْمِنْ باللهِ ويَعْمَلْ
صَالحًا يُكَفِّرْ عنه سيئاتِه ويُدْخِلْهُ
جنَّاتٍ تجرى من تحتها الأنهارُ خالدين
فيها أبداً ذلك الفوزُ العظيم » .

المطيعُ — يومئذٍ — فى غبن لأنه لم يستكثر من الطاعة، والعاصى فى غبن لأنه استكثر من الزلَّة[1] .

وليسَ كلُّ الغبنِ فى تفاوت الدرجات قلَّةً وكثرة، فالغبن فى الأحوال أكثر .

قوله جل ذكره: « ما أصابَ من مصيبةٍ إلَّا بإذنِ اللهِ
ومَنْ يُؤْمِنْ باللهِ يَهْدِ قلبَهُ واللهُ بكل
شىءٍ عليم » .

أىُّ حَصْلةٍ حَصَلَت فمِنْ قِبَلِه خَلْقاً، وبعلمه وإرادته حُكْماً .

ومَنْ يؤمنْ باللهِ يهدِ قلبَه حتى يهتدى إلى الله فى السَّراء والضَّراء — اليومَ — وفى الآخرة يهديه إلى الجنة .

ويقال: « يهدِ قلبه » للأخلاق السنيَّة، والتنقِّى من شُحِّ النَّفْس .

ويقال: « يهدِ قلبه » لاتِّباع السُّنَّةِ واجتنابِ البِدْعة .

قوله جل ذكره: « وأَطيعوا اللهَ وأَطيعوا الرسولَ
فإنْ تَوَلَّيْتُم فإنَّما على رسولِنا
البلاغُ المبينُ » .

---

(1) قال بعض الصوفية: إن الله كتب الغبن على الخَلْقِ أجمعين، فلا يلقى أحدٌ ربَّه إلا مغبوناً؛ لأنه لا يمكنه الاستيفاء للعمل حتى يحصل له استيفاء الثواب، وفى الأثر قال النبى (ص): «لا يلقى اللهَ أحدٌ إلا نادماً إن كان مسيئاً إن لم يحْسِن، وإن كان محسناً إن لم يزدد» القرطبى ح ١٨ ص ١٣٨ .

طاعةُ اللهِ واجبةٌ ، وطاعةُ الرُّسُلِ — الذين هم سفراءٌ بينه وبين الخَلْقِ — واجبةٌ كذلك . والأنوار التى تظهر عليك[1] وتطالَبُ بمقتضياتها كلُّها حقٌّ ، ومن الحقِّ . فتجب طاعتُها أيضاً .

قوله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا إنَّ مِنْ أزواجِكُمْ وأولادِكم عَدُوًّا لكم فاحذروهم ، وإنْ تعفوا وتصفحوا وتغفِروا فإنَّ اللهَ غفورٌ رحيم » .

إذا دَعَوْكَ لتجمعَ لهم الدنيا فهم عدوٌّ لك ، أمَّا إذا أخذتم منها على وجه العفاف[2] فليسوا لكم أعداء

قوله جل ذكره : « إنَّما أموالُكم وأولادُكم فتنةٌ واللهُ عنده أجرٌ عظيم » .

« فتنة » : لأنهم يشغلونكم عن أداء حقِّ الله ؛ فما تَبْقَ عن الله مشغولاً بجمعه فهو غيرُ ميمونٍ عليك .

ويقال : إذا جمعتم الدنيا لغير وَجْهِه فإنكم تُشغَلُون بذلك عن أداء حقِّ مولاكم ، وتشغلكم أولادُكم ، فتبقون بهم عن طاعة الله — وتلك فتنةٌ لكم . . ترومون إصلاحَهم . فتفسدون أنتم وهم لايَصْلُحون ! .

قوله جل ذكره : «فاتقوا اللهَ ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفِقوا خيراً لأنفسِكُم ومَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِه فأولئك هم المُفلِحون » .

---

(١) الخطاب هنا موجَّهٌ إلى صاحب الأحوال والكشوفات .

(٢) عفَّ عفةً وعفافاً أى كفَّ عما لايحل ولايجمل . ويقال : هم أعفَّة الفقر ، أى : إذا افتقروا لايسألون . (الوسيط) .

أى ما دمتم فى الجملة مستطيعين ويتوجه عليكم التكليف فاتقوا اللهَ . والتقوى عن شهود التقوى بعد ألا يكونَ تقصيرٌ فى التقوى غايةُ التقوى .

« ومن يوقَ شُحَّ نَفْسِه » حتى ترتفعَ الأخطارُ[1] عن قلبه ، ويتحرَّر من رِقِّ المكونات ، فأولئك هم المفلحون .

قوله جل ذكره : « إِنْ تُقْرِضوا اللهَ قرضاً حَسَنًا يُضاعِفْهُ لكم ويغفِرْ لكم واللهُ شكورٌ حليم ».

يتوجَّه بهذا الخطاب إلى الأغنياء لِبَذْلِ أموالهم ، وللفقراءِ فى إخلاء أيامهم وأوقاتهم من مراداتهم وإيثارِ مرادِ الحقِّ على مرادِ أنفسِهم .

فالغنىُّ يُقال له : آثِرْ حُكمى على مرادك فى مالِك ، والفقيرُ يقال له : آثِرْ حُكمى فى نَفْسِك وقلبك ووقتك وزمانك .

« عالِمُ الغيبِ والشهادةِ العزيزُ الحكيم » .

جلَّ شأنه .

(١) المقصود بالأخطار هنا : حسبان أن للشىء أهميةً وشأناً .

سُورَةُ الطَّلَاقِ

قوله جل ذكره : « بسم اللهِ الرحمن الرحيم »

« بسم الله » اسمُ مَنْ لاسبيلَ إلى وِصاله ، ولا غُنْيةَ — فى غيره — عن فِعاله ، اسمُ مَنْ عَلِمَه وقع فى كل سكونٍ وراحة ، اسمُ مَنْ عَرَفَه وقع فى كل اضطراب وإطاحة[1]، العلماء بسراب علمهم استقلوا فاستراحوا ، والعارفون بسلطانِ حُكمِه اصْطُلِموا عن شواهدِهم .. فبادوا وطاحوا .

قوله جل ذكره : « يأيها النبيُّ إذا طَلَّقْتُمُ النساءَ
فطلِّقوهن لعدَّتِهِنَّ وأحصوا العِدَّةَ
واتقوا اللهَ ربَّكم ... » .

الطلاقُ — وإنْ كان فراقًا — فلم يجعله الحقُّ محظوراً ... وإن كان من وجهٍ مكروها .

وللطلاق وقتية[2] : سُنِّية وبِدْعية ، ومباحة ، لا سنية ولا بدعية ؛ فالسنية : أَنْ تطلِّقَ فى طُهْرٍ لم تُباشَر فيه طلقةً واحدة ، والبدعية : فى حال الحيض وطُهْرٍ جُومعت فيه ، والمباحة : فى طهر بعد حيض ثم يطلقها من قبل أن يجامعها[3] — والطلاق أكثر من واحدة .

---

(١) أطاحه إطاحةً أى أفناه وأذهبه .

(٢) أى وجوه مرتبطة بأوقات خاصة . روى الدارقطنى عن ابن عباس قال : الطلاق على أربعة وجوه : وجهان حلالان ووجهان حرامان : فأما الحلال فأن يطلقها طاهرًا من غير جماع ، وأن يطلقها حاملا مستبيناً حَمْلَها . وأما الحرام فأن يطلقها وهى حائض ، أو يطلقها حين يجامعها لا تدرى اشتمل الرَّحِم على ولدٍ أم لا .

(٣) قال السُّدِّى : نزلت فى عبد الله بن عمر طلَّق امرأته حائضاً تطليقةً واحدة ، فأمره رسول الله (ص) بأن يراجعها ثم يمسكها حتى تطهر وتحيض ثم تطهر ، فإذا أراد أنْ يطلقها فليطلقها حين تطهر — من قبل أن يجامعها .
ويقال : إنها نزلت فى أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية .. فلم يكن قبلها للمطلقة عدّة ، وحين طلقت على عهد النبى (ص) طلقت بالعدة (هكذا فى كتاب أبى داود) .

والعِدَّةُ — وإن كانت فى الشريعة لتحصين ماء الزوج (محاماةً على الأنساب)(١) لئلا يدخل على ماء الزوج ماءٌ آخر — فالغالبُ والأقوى فى معناها أنها للوفاء للصحبة الماضية فى وصلة النكاح (٢).

والإشارة فى الآيات التالية إلى أنه بعد أن انتهت الوصلة فلا أقلَّ من الوفاء مدةً لهذه الصغيرة التى لم تحِضْ ، وهذه الآيسة من الحيض ، وتلك التى انقطع حَيْضُهَا ، والحُبلَى حتى تلد . . . كل ذلك مراعاةً للحرمة : وعِدَّةُ الوفاة تشهد على هذه الجملة فى كونها أطول؛ لأن حُرْمَة الميت أعظم (٣) وكذلك الإمداد فى أيام العِدَّة . . . المعنى فيه ما ذكرنا من مراعاة الوفاء والحرمة .

قوله جل ذكره : « وتِلْكَ حدودُ اللهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حدودَ اللهِ فقد ظَلَمَ نَفْسَه » .

العبوديةُ : الوقوف عند الحدِّ ، لا بالنقصان عنه ولا بالزيادة عليه ، ومَنْ راعى مع اللهِ حَدَّه أخلص اللهُ له عَهْدَه . .

« لا تدرى لعلَّ اللهَ يُحْدِثُ بعد ذلك أمراً » .

قالوا : أراد نَدَماً ، وقيل : وَلَداً ، وقيل : مَيْلاً إليها ، أولها إليه ؛ فإن القلوبَ تتقلب :

والإشارة فى إباحة الطلاق إلى أنه إذا كان الصبرُ مع الأشكال حقًّا للحرمة المتقدمة فالخلاصُ من مُسَاكنة الأمثال ، والتجرُّدُ لعبادة الله تعالى أَوْلَى وأحَقُّ .

قوله جل ذكره : « ومَنْ يتَّقِ اللهَ يجعل لَهُ مَخْرَجاً * ويَرْزُقْهُ من حيث لا يَحْتَسِبْ » .

---

(١) موجودة فى ص وغير موجودة فى م .

(٢) القشيرى يركز جهده فى استخراج إشارات فى الصحبة والصاحب وغير ذلك من المعانى من آيات الطلاق — غير مهتم بتفاصيل هذا الموضوع الواسع الذى تعنى به كتب الفقه المتخصصة .

(٣) يقول القشيرى فى الصفحة ٢٠٠ من المجلد الأول من هذا الكتاب : كانت عِدَّةُ الوفاة فى ابتداء الإسلام سنة مستديمة كقول العرب ؛ وفعلهم ، ثم نُسِخَ ذلك إلى أربعة أشهر وعشرة أيام ؛ إذ لابدَّ من انتهاء مدة الحداد . « وللمطلقات متاعٌ بالمعروف » والإشارة فيه ألا تجمعوا عليهن الفراق والحرمان فيتضاعف عليهن البلاء .

إذا صَدَقَ العبدُ فى تقواه أخرجه من بين أشغاله كالشعرة تُخْرَجُ من بين العجين لا يَعْلَقُ بها شىء . ويضربُ الله تعالى على المُتَّقِى سرادقاتِ عنايته ، ويُدْخِله فى كنف الإيواء ، ويَصْرِفُ الأشغال عن قلبه ، ويُخْرِجُه من ظلمات تدبيره ، ويُجَرِّدُه من كل أمر ، وينقله إلى شهود فضاء تقديره .

قوله جل ذكره : « ومَنْ يتوكلْ على اللهِ فهو حَسْبُه ».

لم يقل : ومَنْ يتوكل على الله فتوكُّلُه حَسْبُه ، بل قال : فهو حسبه ؛ أى فاللهُ حَسْبُه أى كافيه .

« إنَّ اللهَ بالغُ أمرِه قد جعل اللهُ لكلِّ شىء قَدْراً » .

إذا سَبَقَ له شىء من التقدير فلا محالةَ يكون ، وبتوكُّله لا يتغير المقدور ولا يستأخر ، ولكنَّ التوكُّلَ بنيانه على أنْ يكونَ العبدُ مُرَوَّحَ القلب غيرَ كارهٍ .. وهذا من أَجَلِّ النِّعم .

قوله : « واللائى يئِسْنَ من المحيض » . . . إلى قوله :

« يجعل لَهُ من أمره يُسْرًا » .

التوكلُ : شهود نَفْسِك خارجًا عن المُنَّة[1] تجرى عليكَ أحكامُ التقديرِ من غير تدبيرٍ منك ولا اطِّلاعٍ لكَ على حُكمِه ، وسبيلُ العبدِ الجمودُ والرضا دونَ استعلامِ الأمر ، وفى الخبر : « أعوذ بك من عِلْمٍ لا ينفع » : ومن العلم الذى لا ينفع — ويجب أنْ تستعيذَ منه — أن يكون لك شُغْلٌ أو يستقبلك مُهِمٌّ من الأمر ويشتبه عليك وجهُ التدبيرِ فيه ، وتكون مُطَالَبًا بالتفويض — فطَلَبُكَ العلمِ وتمنِّيكَ أنْ تعرفَ متى يصلح هذا الأمرُ ؟ ولأى سببٍ ؟ ومِنْ أىِّ وجهٍ ؟ وعلى يد مَنْ ؟ . . . كل هذا تخليطٌ ، وغيرُ مُسَلَّمٍ شىء منه للأكابر .

فيجب عليك السكونُ ، وحُسْنُ الرضا . حتى إذا جاء وقتُ الكَشْفِ فسترى صورة الحال وتعرفه ، وربما ينتظر العبدُ فى هذه الحالة تعريفاً فى المنام أو ينظر فى (...)[2] من الجامع ،

---

(1) المُنَّة بضم الميم هى ما فى إمكان الإنسان وحيلته واستطاعته .

(2) مشتبهة فى النسختين .

أو يرجو بيان حاله بأن يجرى على لسان مستنطق فى الوقت . . كلُّ هذا تركُ الأدب ، والله لا يَرْضَى بذلك من أوليائه، بل الواجبُ السكونُ .

قوله جل ذكره : «لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِه ، ومَنْ قُدِرَ عليه رِزْقُه فَلْيُنْفِقْ ممَّا آتاه اللهُ لا يُكلِّفُ اللهُ نَفْسًا إلا ما آتاها » .

إذا اتسع رزقُ العبد فعلى قَدْرِ المُكنَةِ يُطَالَبُ بالإعطاء والنفقة فمن قدر عليه رزقه — أى ضيِّق — فلينفق مما آتاه الله أى من متاع البيت ، ومن رأسِ المال — إن لم يكن من الربح ، ومن ثمنِ الضيعة — إن لم يكن من الغَلّة .

ومَنْ ملك ما يكفيه للوقت ، ثم اهتمّ بالزيادة للغد فذلك اهتمامٌ غيرُ مرضيٍّ[(١)] عنه ، وصاحبُه غير مُعَان . فأمّا إذا حصل العجزُ بكلِّ وجهٍ ، فإن الله تعالى : لا يكلف نفسًا إلّا ما آتاها ، وسيجعل الله بعد عسرٍ يسرًا . هذا من أصحاب المواعيد — وتصديقه على حسب الإيمان ، وذاك على قَدْرِ اليقين — ويقينه على حسب القِسْمة . وانتظارُ اليُسْرِ[(٢)] من اللهِ صفةُ المتوسطين فى الأحوال ، الذين انحطُّوا عن حدِّ[(٣)] الرضا واستواء وجودِ السبب وفَقْدِه ، وارتقوا عن حد اليأس والقنوط ، وعاشوا فى أفياء[(٤)] الرجال يُعَلِّلون[(٥)] بحُسْنِ المواعيد . . وأبداً هذه حالتهم وهى كما قلنا[(٦)] :

إنْ نَابَكَ الدهرُ بمكروهِه ... فعِشْ بتهوين تصانيفه

فعَنْ قريبٍ ينجلى غَيْمُه ... وتنقضى كلُّ تصاريفه

---

(١) هكذا فى ص وهى فى م (مرحوم) .

(٢) هكذا فى م وهى فى ص . (البرّ) وقد آثرنا الأولى نظراً لسياق الآية ذاتها .

(٣) هكذا فى م وهى فى ص (درجة) وقد آثرنا الأولى بدليل ورودها فيما بعد .

(٤) هكذا فى ص ولكنها فى م (افناء) والصواب الأولى .

(٥) أى يُعَلِّلون النفس .

(٦) أى أن النص الشعرى للقشيرى نفسه . (انظر القشيرى الشاعر فى كتابنا : الإمام القشيرى)

قوله جل ذكره : « وكأيِّن من قريةٍ عَتَتْ عن أمرِ ربِّها ورُسُلِه فحاسَبْنـــاها حِسابًا شديدًا وعَذَّبْناها عذابًا نُـكْرًا * فذاقت وبالَ أمرِها وكان عاقبـــةُ أمرِها خُسْرًا » .

مَنْ زرع الشوكَ لم يَجْنِ الوردَ ، ومَنْ أضاع حقَّ اللهِ لا يُطَاع فى حظِّ نَفْسه[1] . ومن اجترأ[2] بمخالفةِ أمرِ الله فليصبِرْ على مقاساة عقوبة الله .

قوله جل ذكره : « قد أنزلَ اللهُ إليــكم ذِكْراً * رسولاً يتلوا عليــكم آياتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ من الظلماتِ إلى النُّورِ » .

إنَّ كتابَ اللهِ فيه تبيانٌ لـكلِّ شيء . . فَمَنْ استضاءَ بنوره اهتدى ، ومَنْ لجأ إلى سعة فنائه وَصَلَ من داءِ الجهل إلى شِفائه[3] .

ومَنْ يؤمِنْ بالله ، ويعملْ صالحًا لله ، وفى الله ، فله دوامُ النُّعمى من الله . . قال تعالى : « قد أحسن اللهُ له رِزْقًا » .

والرزقُ الحسنُ ما كان على حدِّ الـكفاية ؛ لا نقصانَ فيه تتعطَّلُ الأمورُ بسببِه ، ولا زيادةَ فيه تَشْغَلُه عن الاستمتاع بما رُزِق لحِرْصِه .

كذلك أرزاقُ القلوبِ . أحسنُها أن يكون له من الأحوال ما يشتغل به فى الوقت ؛ من غير

---

(١) هكذا فى ص وهى أصوب مما فى م (حق نفسه) فالحقوق لله والحظوظ للعبد .

(٢) هكذا فى ص وهى أصوب مما فى م (احترق) فسياق الآية يوحى بذلك .

(٣) أصل الجملة (وصل إلى شفائه من داء الجهل) .. ولكن حرص القشيرى على التركيب الموسيقى دفعه إلى هذه الصياغة .

نقصان يجعله يتعذَّب بتعطُّشه ، ولا تكون فيه زيادة فيكون على خَطَرٍ من مغاليطَ لا يَخْرُجُ منها إلّا بتأييدٍ سماويٍّ من الله[1] .

قوله جل ذكره : « اللهُ الذى خَلَقَ سَبْعَ سمواتٍ ومن
الأرضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأمرُ بينهنَّ
لتعلموا أنَّ اللهَ على كل شىء قديرٌ
وأن اللهَ قد أحاط بكلِّ شىء علمًا » .

خَلَقَ سبعَ سمواتٍ ، وخَلَقَ ما خَلَقَ وهو مُحِقٌّ فيما خَلَقَ وأمر ، حتى نعلم استحقاقَ جلالِه وكمالَ صفاته ، وأنه أمضى فيما قضى حُكماً ، وأنه أحاط بكل شيء علماً .

(١) رأى القشيرى فى « الرزق الحسن » مفيد فى دراسة الجانب النفسى عند الصوفية ، والحدود التى يبدأ عندها الصراع الداخلى ، وآفات ذلك ، وعلاجه .

سُورَةُ التَّحْرِيم

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » . اسمٌ عزيزٌ يُمْهِل مَنْ عصاه ، فإذا رجع وناداه . . أجابه ولبَّاه[1] فإنْ لم يتوسَّل بِصِدْق قَدَمِه فى ابتداء أمره ثم تَنَصَّلَ بصِدْقِ نَدَمِه فى آخر عمره أوْسَعَه غفراً[2] ، وقبل منه عُذْرًا ، وأَكْمَلَ له ذُخْراً ، وأجْزَلَ له بِرًّا .

قوله جل ذكره : « يٰأيها النبىُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أحَلَّ اللهُ لَكَ تبتغى مرْضاتَ أزواجِكَ واللهُ غفورٌ رَّحيم » .

جاء فى القصة : أن النبي صلى الله عليه وسلم حَرَّم على نفسه مارية القبطية ، وفى الحال حَلَفَ ألاّ يطأها شهراً مراعاةً لقلب حفصة حيث رأت النبى صلى الله عليه وسلم معها فى يومها[3] .

وقيل : حرَّمَ على نَفْسِه شرْبَ العسل لمَّا قالت له زوجاته ، إنَّا نشم منك ريح المغافير ! — والمغافير صمغ فى البادية كريه الرائحة ، ويقال : بقلة كريهة الرائحة . . . فعاتبَه اللهُ على ذلك .

وهى صغيرةٌ منه على مذهب مَنْ جوَّزَ الصغائر عليه ، وتَرْكٌ للأَوْلَى على مذهب مَنْ لم يجوِّز .

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (أبكاه) وهى خطأ فى النسخ .

(٢) هكذا فى م وهى فى ص (عفواً) وهى وإن كانت مقبولة إلا أن التركيب الموسيقى يجعلنا نؤثر (غفراً).

(٣) الدارقطنى عن ابن عباس عن عمر قال : دخل الرسول (ص) بأم ولده مارية فى بيت حفصة وكانت حفصة غائبت إلى بيت أبيها فقالت : تدخلها بيتى ! ما صنعت بى هذا من بين نسائك إلا من هوانى عليك فقال لها : لا تذكرى هذا لعائشة فهى حرام علىَّ إن قربتها .

وقيل : إنه طَلَّقَ حفصة طلقةً واحدة ، فأمره الله بمراجعتها ، وقال له جبريل : إنها صوّامَةٌ قوّامَة .

وقيل : لم يطلقها ولكن هَمَّ بتطليقها فمَنَعَه اللهُ عن ذلك .

وقيل : لمّا رأته حفصة مع مارية في يومها قال لها : إنِّى مُسِرٌّ إليك سِرًّا فلا تخبرى أحداً : إنَّ هذا الأمر يكون بعدى لأبى بكر ولأبيك .

ولكن حفصة ذكرت هذا لعائشة ، وأوحى الله له بذلك ، فسأل النبيُّ حفصة : لِمَ أخبرتِ عائشة بما قلت ؟ .

فقالت له : ومَنْ أخبرك بذلك ؟ قال أخبرنى الله ، وعَرَّفَ حفصةَ بعضَ ما قالت ، ولم يصرِّحْ لها بجميع ما قالت ، قال تعالى : « عرّف[1] بعضه وأعرض عن بعض » ، فعاتبها على بعضٍ وأعْرَضَ عن بعض — على عادة الكِرام .

ويقال : إن النبي — صلى الله عليه وسلم — لمَّا نزلت هذه الآية كان كثيراً ما يقول : « اللهم إنى أعوذ بك من كل قاطعٍ يقطعنى عنك » .

وظاهرُ هـذا الخطاب[2] عتابٌ على أنَّه مراعاةً لقلب امرأته حَرَّمَ على نفسه ما أحلَّ اللهُ له .

والإشارةُ فيه : وجوبُ تقديم حقِّ الله — سبحانه — على كل شيء فى كل وقت .

قوله جل ذكره : « قد فَرَضَ اللهُ لكم تَحِلَّةَ أيمانِكمْ والله مولاكم وهو العليمُ الحكيم » .

أنزل الله ذلك عنايةً بأمره عليه السلام ، وتجاوزاً عنه . وقيل : إنه كَفَّرَ بعتق رقبة ، وعاوَدَ مارية .

---

(١) وفى قراءة «عَرَفَ» بدون التشديد : أى غضب فيه وجازى عليه ، وهو كقولك لمن أساء إليك : لأعرفن لك ما فعلت أى : لأجازينَّك عليه ، وجازاها النبى بأن طلقها طلقة واحدة . وكان أبو عبد الرحمن السلمى يحصب بالحجارة من يقرأها مشددة .

(٢) أى « يأيها النبى لم تُحرِّم ما أحلَّ الله لك .. »

واللهُ — سبحانه — أجرى سُنَّتَه بأنه إذا ساكَن عَبْدٌ بقلبه إلى أحدٍ شَوَّش على خواصه محلَّ مساكنته غَيْرَةً على قلبه إلى أنْ يُعَاوِدَ ربَّه ، ثم يكفيه ذلك — ولكن بعد تطويل مدةٍ ، وأنشدوا فى معناه :

إذا عُلِّقَت روحى حبيباً تعلَّقت   به غِيَرُ الأيام كى تَسْلُبَنِّيَهْ

وقد ألقى الله فى قلبِ رسوله صلى الله عليه وسلم تناسياً بينه وبين زوجاته فاعتزلهن[1] ، وما كان من حديث طلاق حفصة ، وما عاد إلى قلب أبيها ، وحديث الكفاية ، وإمساكه عن وطء مارية تسعاً وعشرين ليلة . . . كل ذلك غَيْرَةً من الحق عليه ، وإرادتُه — سبحانه — تشويشُ قلوبهم حتى يكون رجوعُهم كلُّهم إلى الله تعالى بقلوبهم .

قوله جل ذكره : « إنْ تتوبا إلى اللهِ فقد صَغَتْ قلوبُكُما وإنْ تظاهرا عليه فإنَّ اللهَ هو مولاهُ وجبريلُ وصالِحُ المؤمنينَ والملائكةُ بعد ذلك ظهير » .

عاتبهما على السير من خَطَراتِ القلب ، ثم قال : « وإن تظاهرا عليه . . . » .

« صالح المؤمنين » مَنْ لم يكن منهم فى قلبه نفاق ، مثل أبى بكر وعمر رضى الله عنهما .

وجاء : أن عمر بن الخطاب لما سمعَ شيئاً من ذلك قال لرسول الله :

لو أمرتنى لأضربنَّ عُنُقَهَا ! [2]

---

(١) دخل عليه عمر فى المشربة فإذا هو مضطجعٌ على حصير قد أثَّر فى جنبه ، وبجواره قبضة من شعير وتكاد خزانته تخلو من كل شيء فبكى عمر وقال : يانبىَّ الله .. أنت رسول الله .. وذاك قيصر وكسرى فى الثمار والأنهار ، فقال النبى : يابن الخطاب ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا ؟ فقال عمر : إن كان يشق عليك من أمر النساء .. فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته ، وأنا وأبو بكر والمؤمنون ! ولم يزل يحدثه حتى تبسَّم صلوات الله عليه وخرجا إلى الناس .

(٢) لما سمع عمر الناس بالمسجد يقولون : لقد طلق الرسول نساءه ! غضب وذهب إلى بيت النبى ليعلم الأمر فذهب أولاً إلى عائشة وقال : يابنة أبى بكر أقد بلغ من شأنك أن تؤذى رسول الله ؟ فقالت : يابن الخطاب عليك بعيبتك ، فاتجه إلى حفصة وقال : والله لقد علمت أن رسول الله لايحبك ولولا أنا لطلقك.. فبكت بكاءً شديداً . وذهب إلى رسول الله قائلا : والله لئن أمرنى رسول الله بضرب عنق ابنتى لفعلت .

والعتاب فى الآية مع عائشة وحفصة رضى الله عنهما إذ تكلمتا فى أمر مارية .

ثم قال تعالى زيادةً فى العتاب وبيان القصة :

« عسى رَبُّه إنْ طَلَّقَكُنَّ أنْ يُبْدِلَهُ أزواجًا خيراً مِّنكُنَّ مسلمات مُؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيِّبات وأبْكاراً » .

قوله جل ذكره : « يٰأيها الذين آمنوا قُوا أنْفُسَكُم وأهايكُم ناراً وَقُودُها النـاسُ والحجارةُ » .

أى : فَقِّهوهم ، وأَدِّبوهم ، وادعوهم إلى طاعة الله ، وامنعوهم عن استحقاق العقوبة بإرشادهم وتعليمهم .

ودلَّت الآيةُ : على وجوبِ الأمرِ بالمعروف فى الدِّين للأقرب فالأقرب .

وقيل : أظْهِرُوا من أنفسكم العبادات ليتعلَّموا منكم ، ويعتادوا كعادتكم .

ويقال : دلُّوهم على السُّنَّةِ والجماعة .

ويقال : عَلِّموهم الأخلاقَ الحِسان .

ويقال : مُرُوهم بقبول النصيحة .

« وقودها الناس والحجارة » : الوقود : الحطب .

ويقال : أمر الناس يصلح بحجرة أو مَدَرَة ، فإن أصل الإنسان مدرة ، ولو أنه أقام حَجَرَةً مقامَ مَدَرة فلا غروَ من فَضْلِ الله .

اللهمَّ فألْقِ فيها بَدَلنا حَجَراً وخلِّصْنا منها .

قوله جل ذكره : « يٰأيها الذين كفروا لا تَعْتَذِروا اليومَ إنَّما تُجْزَوْنَ ما كنتم تعملون » .

إذا فاتَ الوقتُ استفحل الأمرُ ، وانغلق البابُ ، وسقطت الحِيَلُ . . فالواجبُ البِدارُ والفِرارُ لتصل إلى رَوْحِ القَرار .

قوله جل ذكره : « يـٰأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبةً نصوحاً عسى رَبُّكُم أنْ يُكَفِّر عنكم سيئاتِكم ويُدْخِلَكُم جنَّات تجرى من تحتها الأنهارُ »

التوبةُ النصوحُ : هى التى لا يَعقُبها نَقْضٌ .

و يقال : هى التى لا تراها من نَفْسِك ، ولا ترى نجاتَكَ بها ، وإنما تراها بربِّك .

و يقال : هى أنْ تجدَ المرارةَ فى قلبك عند ذكر الزَّلَّة كما كُنْتَ تجد الراحةَ لنفسك عند فعلها .

قوله جل ذكره : « يومَ لا يُخْزِى اللهُ النبيَّ والذين آمنوا معه نُورُهم يسعى بين أيديهم وبأيْمانِهم يقولون : رَبَّنا أتْمِمْ لنا نُورَنا واغفِرْ لنا إنَّك على كل شىء قدير » .

لا يُخزِى اللهُ النبيَّ بِتَرْكِ شفاعته ، والذين آمنوا معه بافتضاحِهم بعد ما قَبِلَ فيهم شفاعته .

« نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم » عبَّر بذلك عن أنَّ الإيمانَ من جميع جهاتهم .

ويقال : بأيمانهم كتابُ نجاتهم : أراد نور توحيدهم ونور معرفتهم ونور إيمانهم ، وما يخصُّهم اللهُ به من الأنوارِ فى ذلك اليوم .

« يقولون : ربنا أتمم لنا نورنا » : يستديمون التضرُّعَ والابتهالَ فى السؤال[1] .

قوله جل ذكره : « يـٰأيها النبيُّ جاهِدِ الكفَّارَ والمنافقين واغلُظْ عليهم ومأواهم جهنَّمُ وبئس المصير » .

أمرَه بالمُلاينَةِ فى وقت الدعوة ، وقال : « وجادلهم بالتى هى أحسنُ »[2] ثم لمَّا أصرُّوا — بعد بيان الحُجَّةِ — قال : « واغْلُظْ عليهم » : لأن هذا فى حالِ إصرارهم ، وزوالِ أعذارهم .

---

(١) هذه الإشارة موجهة إلى الصوفية من بعيد كى لا يكفوا عن التضرع والابتهال قط فإن خير العمل أدومه ؛ فالاستدامة شرط أساسى لأن الطريق الصوفى طويل وشاق .

(٢) آية ١٢٥ سورة النحل .

قوله جل ذكره : « ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً للذين كفروا امْرَأَةَ نوحٍ وامرأةَ لوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ من عبادنا صالحَيْن فخَانَتَاهُمَا فلم يُغْنِيا عَنْهُمَا من الله شيئاً ، وقيل : ادْخُلا النارَ مع الداخلين » .

لمَّا سَبَقَتْ لهما الفُرْقةُ يومَ القِسْمة لم تنفعْهما القربةُ يومَ العقوبةِ .

قوله جل ذكره : « وضَربَ اللهُ مثلاً للذين آمنوا امرأةَ فِرْعَونَ إذ قالت ربِّ ابْنِ لى عندكَ بيتاً فى الجنة ونَجِّنى من فرعونَ وعَمَله ونَجِّنى من القومِ الظالمين » .

قالوا : صغرت هِمَّتُها حيث طلبت بيتاً فى الجنة ، وكان من حقِّها أنْ تطلب الكثير .. ولا كما تَوهَّموا : فإنها قالت : ربِّ ابن لى عندك ، فطلبَتْ جوارَ القربة ، ولَبيْتٌ فى الجوار أفضلُ من ألف قصرٍ فى غير الجوار . ومن المعلوم أنَّ العِنديَّةَ هنا عِنديَّةُ القربة والكرامة .. ولكنه على كل حال بيت له مزية على غيره ، وله خصوصية . وفى معناه أنشدوا :

إنى لأَحْسُد جارَكم لجواركم ... طُوبى لِمَن أضحى لدارِكَ جاراً
يا ليت جارَكَ باعنى من داره ... شِبْرًا لِأُعطيه بِشِبْر داراً

قوله جل ذكره : « ومَريَمَ ابنَةَ عِمْرَان التى أَحْصنَتْ فَرْجَهَا فنفَخْنا فيه من رُوحِنَا وصَدَّقَت بكلمات ربِّها وكُتُبه وكانت من القانتين » .

خَتَم السورة بذِكْرها بعد ما ذكر امرأةُ فرعون ، وهما من جملة النساء ، ولمَّا كثُر فى هذه السورة ذكْرُ النساء أراد الله سبحانه ألَّا يُخْلِىَ السورة من ذكرها تخصيصا لقدْرِها[1] .

---

(١) هكذا فى ص وهى فى م (لذكرها) والصواب ما أثبتنا . وجميل من القشيرى أن يلفت نظرنا إلى هذا الملحظ — الذى نظن — والله أعلم — أن فيه تنبيهاً لنساء النبى بعرض نموذجين لامرأتين صالحتين عزفتا عن الدنيا .

سُورَةُ المُلْك (1)

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » اسمُ مَنْ لم تَتَعَطَّرْ القلوبُ إلّا بنسيمِ إقبالِهِ ، ولم تتقطَّرْ الدموعُ إلّا للوعة فراقه أو روْحِ وصاله ؛ فدموعُهم فى كلتا الحالتين مُنْسكِبة ، وقلوبُهم فى عموم أحوالهم مُلْتَهِبة وعقولُهم فى غالب أوقاتهم مُنْتَهَبَة .

قوله جل ذكره : « تبارَكَ الذى بيدِهِ المُلْكُ وهو عَلَى كلِّ شىءٍ قدير » .

تَقَدَّسَ وتعالَى ، مَنْ إحسانُهُ تَواتَرَ وتَوالَى ، فهو المتكبِّرُ فى جلالِ كبريائه ، المتجرِّد فى علاءِ بهائه ودوامِ سنائه .

« بيده المُلْك » : بقدرته إظهارُ مايريد ، وهو على كل شىء قدير .

« الذى خَلَقَ الموتَ والحياةَ لِيَبْلُوَكُم أيُّكم أحْسَنُ عملاً وهو العزيزُ الغفور » .

خَلَقَ الموتَ والحياةَ ، ابتلاءً للخَلْق ، يختبرهم ليَظْهَرَ له شكرانُهم وكفرانُهم ، كيف يكونان عند المحنة فى الصبر وعند النعمة فى الشكر — وهو العزيز الغفور .

« الذى خَلَقَ سَبْعَ سَمٰواتٍ طِباقاً مَّا تَرَى فى خَلْقِ الرحمنِ مِنْ تفاوت فارجِعْ البصرَ هل ترى من فُطُور؟ »

---

(1) قال صلى الله عليه وسلم بشأن هذه السورة : « هى المانعة هى المنجية تنجيكم من عذاب القبر » .

عَرَّفَهم كمالَ قدرتِه بدلالات خَلْقِه ، فسَمَكَ السماءَ وأمسكها بلا عَمَد ، ورَكَّبَ أجزاءها غيرَ مُسْتعينٍ بأحدٍ فى خَلْقِها ، وبالنجومِ زَيَّنَها ، ومِنَ استراقِ سمعِ الشياطين حَصَّنَها ، وبغيرِ تعليمِ مُعَلِّمٍ أحكمها وأتقنها .

« ما ترى فى خَلْقِ الرحمن من تَفَاوُتٍ ، فارْجِعْ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى من فُطُور ؟ » : لا ترى فيما خَلَقَ تفاوتاً ينافى آثارَ الحكمة ولا يدل على كمال القدرة .

ويقال : ما ترى فيها تفاوتاً ، فى استغنائه عن الجميع . . ماترى فيها تفاوتاً فى الخَلْق ؛ فخَلْقُ الكثير واليسير عنده سيَّان ، فلا يَسْهُلُ عنده القليلُ ولا يَشُقُّ عليه الكثير ؛ لأنه مُتَنَزِّهٌ عن السهولة عليه ولحوقِ المشقة به .

فأنعِمْ النظرَ ، وكَرِّرِ السَّبْرَ والفِكْرَ . . فلن تجد فيها عيباً[1] ولا فى عِزِّه قصوراً .

قوله جل ذكره : « ولقد زَيَّنَّا السماءَ الدنيا بمصابيحَ
وجعلناها رُجوماً للشياطينِ وأعْتَدْنا
لهم عذابَ السعير » .

زَيَّنَ السماءَ بالكواكب والنجوم ، وزَيَّنَ قلوبَ أوليائه بأنواعٍ من الأنوار والنجوم ؛ فالمؤمنون قلوبُهم مُزَيَّنَةٌ بالتصديق والإيمان ثم بالتحقيق بتأَمُّل البرهان ، ثم بالتوفيق لطلب البيان . والعارفون قلوبهم مُزَيَّنَةٌ بشمسِ التوحيد ، وأرواحُهم مُزَيَّنَةٌ بأنوار التفريد ، وأسرارُهم مزينةٌ بآثارِ التجريد[2] . . وعلى القياس : لكلِّ طائفةٍ أنوارٌ .

« وجعلناها رُجوماً للشياطين » : فمن النجوم ما هو للشياطين رجوم ، ومنها ما هو للاهتداء به معلوم . . فأخبر أن هذا القَدْرَ من العقوبة بواسطة الرجوم لا يكفى ، وإنما يُعَذِّبهم مؤبَّدين فى السعير .

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (عبثاً) .

(٢) يميز الكلاباذى بين التفريد والتجريد فيقول (ملخصاً) :

التجريد : أن يتجرد بظاهره عن الأعراض وبباطنه عن الأعواض ، يفعل ذلك لوجوب حقِّ الله تعالى لا لعلة غيره ولا لسبب سواه ، ويتجرد بسره عن المقامات والأحوال التى ينازلها .

والتفريد : أن ينفرد عن الأشكال ، وينفرد فى الأحوال ، ويتوحد فى الأفعال ويغيب عن رؤية أحواله برؤية محوِّلها ولا يأنس بأشكاله ولا يستوحش (التعرف ص ١٣٣) .

قوله جل ذكره : « وللذين كفروا بربِّهم عذابُ جهنَّم وبِئْسَ المصير * إذا أُلْقُوا فيها سَمِعوا لها شهيقاً وهى تَفُور * تكادُ تَمَيَّزُ من الغيظِ كُلَّمَا أُلْقِىَ فيها فَوْجٌ سَأَلهمْ خَزَنَتُها أَلَمْ يأْتِكُم نذير ؟ » .

أخبر : أنهم يُحْتَجُّ عليهم بإرسال الرسل ، فتقول لهم الملائكة : ألم يأتكم نذير ؟

« قالوا : بلى قد جآءنا نذيرٌ فكذَّبنا وقُلنا ما نَزَّلَ اللهُ من شىءٍ إنْ أنتم إلا فى ضلالٍ كبير * وقالوا لو كُنَّا نسمعُ أو نعقِلُ ما كُنَّا فى أصْحَابِ السَّعير » .

« وقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ . . » فأخبر أنهم لم يكن لهم سمع قبول ، فاستوجبوا العقوبة لأَجْلِه[1] ، لم يسمعوا نصيحةَ الناصحين ولا وَعْظَ الواعظين ، ولا ما فيه لقلوبهم حياة .

وفى الآية للمؤمنين بشارة ؛ لأنهم يسمعون ويعقلون ما يسمعون ؛ فإنَّ مَنْ سَمِعَ بالحقِّ سمع كل ما يقال عن الحق مِنْ كل مَنْ يقول عن الحق ، فيحصل له الفهم لما يسمع ، لأنه إذا كان من أهل الحقائق يكون سَمْعُه من الله وبالله وفى الله .

قوله جل ذكره : « فاعترفوا بِذَنْبِهم فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السعير » .

اعترفوا بذنبهم ولكن فى غير وقت الاعتراف . . فلا جَرَمَ يقال لهم : « فسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعير » .

---

(١) من الآية ومن إشارتها يتضح : أن العقوبة لا تكون إلا بعد إرسال الرسل الذين يَبْسُطون الحجة ويسقطون العذر .

قوله جل ذكره : « إنَّ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهم بِالْغَيْبِ
لهم مَّغفِرةٌ وأجْرٌ كبير » .

الخشيةُ توجِب عدمَ القرار[1] فيكون العبدُ أبداً — لانزعاجه — كالحَبِّ على المَقْلَى ؛ لا يَقرُّ ليلَه أو نهارَه ، يتوقَّعُ العقوباتِ مع مجارى الأنفاس ، وكلَّما ازداد فى الله طاعةً ازداد لله خشيةً .

قوله جل ذكره : « وأسِرُّوا قولَكم أوِ اجْهَروا به
إنَّه عليمٌ بذاتِ الصُّدور » .

خوَّفهم بعِلْمِه ، وندَبَهم إلى مراقبته ، لأنه يعلم السِّرَّ وأخفى ، ويسمع الجَهْرَ والنجوى . . ثم قال مُبَيِّناً :

« ألاَ يعلمُ مَنْ خَلَقَ وهو اللَّطيفُ
الخبير » .

وفى كل جُزْء مِنْ خَلْقِه — من الأعيانِ والآثارِ — أدِلةٌ على علمه وحكمته .

قوله جل ذكره : « هو الذى جَعَلَ لكم الأرضَ ذَلُولاً
فامْشُوا فى مناكِبها وكُلُوا مِنْ رِزْقِه
وإليه النُّشُور » .

أى إذا أردتم أن تضربوا فى الأرضِ سَهَّلَ عليكم ذلك .

كذلك جعل النَّفْس ذلولاً ؛ فلو طَالَبْتَها بالوفاقِ وَجَدْتَها مُسَاعِدةً مُوَافقة ، مُتَابِعةً مُسَابِقة . . وقد قيل فى صفتها :

هى النَّفْسُ ماعَوَّدْتَها تتعودُ   وللدهرِ أيامٌ تُذَمُّ وتُحْمَدُ

قوله جل ذكره : « ءأَمِنْتُم مَّنْ فى السماء أنْ يَخْسِفَ بكم
الأرضَ فإذا هى تمورُ * أمْ أمِنْتُم مَّنْ

---

(1) هكذا فى ص وهى فى م (الفراق) والصواب ما أثبتنا — بدليل ما بعدها .

في السماء أنْ يُرْسِلَ عليكم حاصِباً
فستعلمون كيف نذِير » .

« من في السماء » أراد بهم الملائكة الذين يسكنون السماء ، فهم مُوَكَّلون بالعذاب .

وخوَّفهم بالملائكة أن يُنْزِلوا عليهم العقوبةَ من السماء ، أو يخسفوا بهم الأرض ، وكذلك خَوَّفَهم أنْ يُرْسِلوا عليهم حجارةً كما أرسلوا على قوم لوط . وبيَّن أنَّ مَنْ كذَّب قَبْلَ هؤلاء رُسُلَهم كيف كانت عقوبتهم ، ثم زاد في البيان وقال :

« أوَلم يَرَوْا إلى الطير فوقَهم صافَّاتٍ
ويَقْبِضْنَ ما يُمْسِكُهُنَّ إلَّا الرحمنُ
إنَّه بكلِّ شيءٍ بصيرٌ » .

أولم يروا كيف خَلَقَ الطيور على اختلاف أجناسها ، واختصاصها بالطيران لأن لها أجنحة — بخلاف الأجسام[1] الأخر . . . مَنْ الذي يمسكهن ويحفظهن وهن يقبضن ويبسطن أجنحتهن في الفضاء ؟ وما الذي يوجبه العقل حفظ هذه الطيور أم بقية الأجسام الأُخر ؟ .

« أمَّنْ هذا الذي هو جُنْدٌ لَّكم
ينصرُكُم من دونِ الرحمنِ إنِ
الكافرون إلا في غُرور » .

إنْ أراد الرحمنُ بك سوءًا . فَمَنْ الذي يُوَسِّعُ عليكم ما قَبَضَه ، أو يمحو ما أثبته ، أو يُقَدِّمُ ما أَخَّرَه ، أو يُؤَخِّرُ ما قدَّمَه ؟ .

قوله جل ذكره : « أفَمَنْ يمشي مُكِبًّا على وَجْهِهِ
أَهْدَى أَمَّنْ يمشي سوياً على صراطٍ
مُّستقيم * قُلْ هو الذي أنْشأ كم » .

---

(١) هكذا في م وهي في ص (الأصنام) والصواب ما أثبتناه ، لأن المقصود المقارنة بين الطيور وغيرها من (الأجسام) بصفة عامة .

وخَصَّكم بالسمع والبصر والأفئدة ، وأنتم لا تشكرون عظيمَ نِعَمه .

« ويَقُولونَ مَتَى هَذَا الوعْدُ إنْ
كُنْتُمْ صادقين ؟ » .

وأجاب عنه حيث قال : لا تستعجلوا العذاب ، وبيّن أنهم إذا رأوه كيف يخافون وكيف يندمون .

قوله جل ذكره : « قل أرأيتم إنْ أَهْلَكَنِيَ اللهُ ومَنْ
معيَ أو رَحِمَنا فَمَنْ يُجِيرُ الكافرين
من عذابٍ أليم * قُلْ هو الرحمنُ
آمَنَّا به وعليه توكلنا . . . . »

وإليه أمورنَا — جملةً — فوّضْنَا .

« قُلْ أرأيتم إنْ أصبح ماؤُكم غَوْراً
فَمَنْ يأتيكم بماء مَّعِين » .

مَنْ الذى يأتيكم بالماء إذا صار غائراً فى الأرض لا تناله الأيدى .

وهذه الآيات جميعها على وجه الاحتجاج عليهم . . ولم يكن لواحدٍ عن ذلك جواب .

سُورَةُ القَلَم [1]

قوله جل ذكره : « بسم اللهِ الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » اسمُ كريمٌ مَنْ شهد لُطْفَه لم يتذلَّلْ بعده لمخلوق ، ولم يَسْتَعِنْ فيما نابَه مِن ضُرٍّ أصابه أو خيرٍ أراده بمُحْدَثٍ مرزوق .

إنْ أعطاه قابله بالشُّكرِ ، وإن منعه استجابَهُ بجميل الحمد[2] .

قوله جل ذكره : « نَ والقلمِ وما يَسْطُرون » .

« ن » قيل : الحوت الذى على ظهره الكون ، ويقال : هى الدواة .

ويقال : مفتاح اسمه ناصر واسمه نور .

ويقال : إنه أقسم بنُصْرَة الله تعالى لعبادِه المؤمنين .

وأقسم بالقلم — وجوابُ القسم قولُه :

« ما أنتَ بنعمةِ ربِّكَ بِمَجْنُون * وإنَّ لك لأجْراً غير ممنون » .

ما أوجب لصدره من الوحشة من قول الأعداء عنه :

إنه مجنون ، أزاله عنه بنفيه ، ومحقِّقاً ذلك بالقَسَم عليه .. وهذه سُنَّةُ الله تعالى مع رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ فما يقوله الأعداءُ فيه يردُّه — سبحانه — عليهم بخطابه وعنه ينفيه .

---

(١) هكذا فى ص ، وفى م سورة ن والقلم .

(٢) يمكن أن يفيد ذلك فى التمييز بين الشكر والحمد — كما يرى القشيرى .

« وإنَّ لك لأجراً غير مَمْنُون » : أى غير منقوص .. لمَّا سَمَتْ هِمَّته صلى الله عليه وسلم عن طلبِ الأعواض أثبت اللهُ له الأجر ، فقال له : إن لك لأجراً غير منقوص — وإنْ كُنْتَ لاتريده .

ومن ذلك الأَجْر العظيم هـذا الْخُلُق ، فأنت لستَ تريدُ الأجْرَ — وبِنَا لَسْتَ تريد ؛ فلولا أنْ خَصَصْناكَ بهذا التحرُّر لكنتَ كأمثالِك فى أنهم فى أسْرِ الأعواض .

قوله جل ذكره : « وإنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عظيم » .

كما عرَّفَه اللهُ سبحانه أخبارَ مَنْ قَبْلَه من الأنبياء عرَّفه أنه اجتمعت فيه متفرقاتُ أخلاقهم فقال له : إنك لعلى خلق عظيم .

ويقال : إنه عَرَضَ عليه مفاتيحَ الأرضِ فلم يقبلْها ، ورقّاه ليلةَ المعراج ، وأراه جميع الملكة والجنة فلم يلتفت إليها ، قال تعالى : « مازَاغَ البصرُ وما طَغَى » فما التفت يميناً ولا شمالاً ، ولهذا قال تعالى : « وإنك لعلى خُلُقٍ عظيم » . . ويقال : « على خلق عظيم » : لابالبلاء تنحرف ، ولا بالعطاء تنصرف ؛ احتمل صلوات الله عليه فى الأذى شَجَّ رأسِه وثَغْرِه ، وكان يقول :

« اللهم اغفر لقومى فإنهم لايعلمون » . وغداً كلٌّ يقول : نفسى نفسى وهو صلوات الله عليه يقول : أمتى أمتى .

ويقال : عَلّمه محاسنَ الأخلاق بقوله : « خُذِ العفوَ وأْمُرْ بالعرف وأعْرِضْ عن الجاهلين »[1] .

سأل صلواتُ الله عليه جبريلَ : بماذا يأمرنى ربى ؟ قال : يأمرك بمحاسن الأخلاق ؛ يقول لك : صِلْ مَنْ قَطَعَكَ وأعْطِ مَنْ حَرَمك واعفُ عَمَّن ظَلَمَك ، فتأدَّبَ بهذا ؛ فأثنى عليه وقال : « وإنك لعلى خلق عظيم » .

قوله جل ذكره : « فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بأيِّكُمُ الْمفْتُونُ *

(١) آية ١٩٩ سورة الأعراف .

« إنَّ رَبَّكَ هو أعلمُ بِمَنْ ضَلَّ عن سبيلِهِ وهو أعلمُ بالمهتَدِين » .

المفتون : المجنون لأنه فُتِنَ أى مُحِنَ بالجنون .

« فلا تُطِع الْمُكَذِّبين » .

معبودُكَ واحدٌ فليكن مقصودُك واحداً . . وإذا شهدت مقصودك واحداً فليكنْ مشهودك واحداً .

« ودُّوا لو تُدْهِنُ فيُدْهِنون » .

مَنْ أصبح عليلا تمنَّى أَنْ يكونَ الناسُ كلُّهم مَرْضَى . . وكذا مَنْ وُسِمَ بكيِّ الهجران ودَّ أَنْ يُشارِكه فيه مَنْ عاداه .

« ولا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِين »

وهو الذى سقط من عيننا ، وأقميناه بالبعد عنا .

« همَّازٍ مشَّاء بنميمٍ »

محجوبٍ عنَّا مُعَذَّبٍ بخذلان الوقيعة فى أوليائنا .

« مَنَّاعٍ للخيرِ[1] »

مُهانٍ بالشُّحِّ ، مسلوب التوفيق .

« مُعْتَدٍ أثيم »

ممنوعِ الحياء ، مُشَتَّتٍ فى أودية الحرمان .

« عُتُلٍّ بعد ذلك زَنيم »

لئيم الأصل ، عديم الفضل ، شديد الخصومة بباطله ، غير راجعٍ فى شىء من الخير إلى حاصله .

« أَن كان ذا مالٍ وبنين * إذا تُتْلَى عليه آياتُنا قال أساطيرُ الأوَّلين »

---

(١) عند الجمهور — هو الوليد بن المغيرة ، وكان يقول لبنيه العشرة : من أسلم منكم منعته رفدى .

(أى : لا تطعه لأن كان ذا مالٍ وبنين.. ثم استأنف الكلام فقال)[1] : إذا تتلى .. قابَلَها بالتكذيب ، وحَكَمَ أنَّ القرآن من الأساطير .

« سَنَسِمُهُ على الُخرطوم »

أى سنجعل له فى القيامة على أنفِهِ تشويهاً لصورته كى يُعْرَفَ بها .

قوله جل ذكره : « إنَّا بلَوْنَاهُم كما بَلَوْنا أصحابَ الجنَّةِ إذْ أقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّها مُصْبِحِين » .

أى امتحنَّاهم[2] . . حين دعا عليهم النبى صلى الله عليه وسلم ، فابتلاهم الله بالجوع ، حتى أكلوا الجِيَفَ — كما بلونا أصحاب الجنة ، قيل: إن رجلاً من أهل اليمن كانت له جنة مثمرة وكان له ثلاثة بنين ، وكان للمساكين كل ما تعدّاه المِنْجل فلم يجذه من الكَرْم ، فإذا طُرح على البساط فكل شىء سقط عن البساط فهو أيضاً للمساكين ، فما أخطأه القطافُ من نخله وكَرْمه يَدَعه للمساكين ، وكان يجتمع منه مال ، فلما مات هو قال وَرَثَتُهُ : إنَّ هذا المالَ تفرَّق فينا ، وليس يمكننا أن نفعلَ ما كان يفعله أبونا ، وأقسموا ألا يُعْطُوا للفقراء شيئاً ، فأهلكَ اللهُ جَنَّتَهم ؛ فندموا وتابوا .

وقيل : أَبْدَلَهم اللهُ جنةً حسنة ، فأقسموا ليصرمُنَّ جنّتهم وقت الصبح قبلَ أَنْ تفطِنَ المساكينُ ، ولم يقولوا : إن شاء الله :

« فطاف عليها طائفٌ من ربِّك وَهُمْ نائمون * فأصبحت كالصَّرِيم » .

أرسل عليها من السماء آفةً فأحرقت ثمارهم . وأصبحت « كالصريم » أى كالليل المسودّ ، فنادى بعضُهم بعضاً وقت الصبح : أن اغدوا على حرثكم إن أردتم الصرام ، فانطلقوا

---

(١) مابين القوسين موجود فى ص وغير موجود فى م .. والمعنى : لاتطعه — مع هذه النقائص والمثالب — ليساره وحظه من الدنيا وكثرة أولاده .

(٢) يقصد أهل مكة حين دعا عليهم الرسول : اللهم اشدد وطأتك على مضر ، واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف .

لا يرفعون أصواتهم فيما بينهم لئلا يسمعهم أحدٌ . وقصدوا إلى الصرام «على حَرْدٍ » أى : قادرين عند أنفسهم ، ويقال : على غضبٍ منهم على المساكين .

فلمّا رأوا الجنةَ وقد استؤصِلَتْ قالوا : ليست هذه جنتنا ! !

ثم قالوا : بل هذه جَنّتُنا . . ولـكنّا حُرِمْنا خيرَها .

قال أوسطُهم : أى أعدلُهم طريقةً وأحسنُهم قولاً :

« أَلَمْ أَقُل لَّـكم لولا تُسَبِّحون ؟ »

أى : تستثنون وتقولون : إن شاء الله[1] .

« قالوا سبحان ربنا إنّا كنّا ظالمين »

ثم أقبل بعضُهم على بعض يتلاومون ، ويقولون :

« عسى ربُّنا أَنْ يُبْدِلَنَا خيراً منها
إنَّا إلى ربِّنا راغِبون » .

قال تعالى : « كذلك العذاب » لأهل مكة « ولَعَذابُ الآخرة أكبر » :

وهكذا[2] تكون حالُ مَنْ له بدايةٌ حسنةٌ ويجدُ التوفيق على التوالى ، ويجتنبُ المعاصى ، فيُعَوِّضه اللهُ فى الوقتِ نشاطا ، وتلوحُ فى باطنه الأحوالُ . فإذا بَدَرَ منه سوء دعوى أو تَرْكَ أدبٍ من آداب الخدمة تَنْسَدُّ عليه تلك الأحوالُ ويقع فى قُرْهٍ[3] من الأعمال . فإذا حَصَلَ منه بالعبادات إخلالٌ ، ولبعض الفرائض إهمالٌ — انقلب حالُه ، ورُدَّ من الوصال إلى البعاد ، ومن الإقتراب إلى الاغتراب عن الباب ، فصارت صفوتُه قسوةً . . وإن كان له بعد ذلك توبة ، وعلى مَا سَلَفَ منه ندامة — فقد فات الأمْرُ من يده ، وقلّما يصل إلى حاله .

(١) هذا أيضاً رأى مجاهد ، فجعل قول : إن شاء الله من التسبيح ، وهذه هى حقيقة تقديم المشيئة ، فهى تنزيه لله بأن لا شىء إلا بمشيئته .

(٢) هذه الإشارة موجهة إلى أرباب السلوك يقصد بها إلى التوضيح أن العبرة بالخواتيم ، وينبغى الاهتمام بهذه الفقرة كلها عند بحثنا عن « وصايا القشيرى للمريدين » .

(٣) جمع أقره وهو ما اسودّ من الجلد وتقشّر .

ولا يبعد أن ينظر إليه الحقُّ بأفضاله ، فيقبله بعد ذلك رعايةً لما سَلَفَ فى بدايته من أحواله . . . فإنَّ الله تعالى رءوفٌ بعباده .

قوله جل ذكره : « إنَّ للمتقين عند ربِّهم جناتِ النَّعيم » .

الذين يتقون الشِّرْكَ والكُفْر ، ثم المعاصىَ والفِسْقَ ، لهم عند الله الثوابُ والأجْر .

قوله جل ذكره : « أفنجعلُ المسلمين كالمجرمين ؟ * ما لكم كيف تحكمون ؟ ! * أَمْ لكم كتابٌ فيه تَدْرُسُون ؟ »

كيف تحكمون ؟ هل لديكم حجة ؟ أم لكم كتاب فيه تدرسون ؟ أم لكم منا عهود فيها تحكمون ؟ والمقصود من هذه الأسئلة نفى ذلك .

قوله جل ذكره : « يومَ يُكْشَفُ عن ساقٍ ويُدْعَوْن إلى السجودِ فلا يستطيعون » .

« عن ساقٍ » : أى عن شِدَّةٍ يومَ القيامة .

ويقال فى التفسير : عن ساقِ العرش .

يُؤْمَرون بالسجود ؛ فأمَّا المؤمنون فيسجدون ، وأمَّا الكفار فتُشَدُّ أصلابُهم فلا تنحنى .

وقيل : يكشف المريضُ عن ساقه — وقت التوفِّى — ليُبْصِرَ ضعفَه ، ويقول المؤذِّنُ : حىِّ على الصلاة — فلا يستطيع .

وعلى الجملة فقد خوَّفهم بهذه القالة : إمَّا عند انتهائهم فى الدنيا أو ابتدائهم فى الآخرة .

« . . . . وقد كانوا يُدْعَوْن إلى السجود وهم سالِمون » .

يُذَكِّرهم بذلك ليزدادوا حسرةً ، ولتكونَ الحجةُ عليهم أبلغَ .

قوله جل ذكره : « فَذَرْنى ومَنْ يُكَذِّبُ بهذا الحديثِ سَنَسْتَدرِجُهم من حيثُ لا يعلمون » .

سنقرِّبهم من العقوبة بحيث لا يشعرون .

والاستدراجُ : أنْ يريد الشيء ويَطْوِى عن صاحبه وَجْهَ القَصْدِ فيه ، ويُدْرِجُه إليه شيئاً بعد شيء ، حتى يأخذه بغتةً .

ويقال : الاستدراج : التمكين من النِّعم مقروناً بنسيان الشكر (١) .

ويقال : الاستدراجُ : أنهم كلما ازدادوا معصيةً زادهم نعمةً .

ويقال : ألّا يُعاقِبَه فى حالِ الزَّلَّة ، وإنما يؤخِّر العقوبةَ إلى ما بعدها .

ويقال : هو الاشتغال بالنعمة مع نسيان المنعم .

ويقال : الاغترارُ بطول الإمهال .

ويقال : ظاهرٌ مغبوط وباطنٌ مُشَوَّش .

قوله جل ذكره : « وأُمْلِى لهم إنَّ كَيْدى متينٌ » .

أُمْهِلُهم .. ثم إذا أَخَذْتُهم فأَخْذِى أَليمٌ شديدٌ .

قوله جل ذكره : « أم تسألهم أجْراً فهم من مَغْرَمٍ مُثْقَلون » .

أى : ليس عليهم كُلْفة مقابلَ ما تدعوهم إليه ، وليست عليهم غرامة إنْ هم اتبعوك .. فأنت لا تسأل أجراً . . فما موجِباتُ التأخُّرِ وتركُ الاستجابة ؟

« أم عِندهم الغيبُ فهم يكتبون ؟ » .

أم عندهم شىء من الغيب انفردوا به وأوجب لهم ألا يستجيبوا ؟ » .

---

(١) فى النسختين (بلسان) وهى خطأ قطعا ، فقد اشتبهت على كلا الناسخين . ويؤيد رأينا قول سفيان الثورى فى « سنستدرجهم » نسبغ عليهم النعم وننسيهم الشكر (القرطبى حـ١٨ ص ٢٥١) .

قوله جل ذكره : « فاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ولا تَكُن كصاحب الحوتِ إذ نادى وهومكظوم » .

صاحب الحوت : هو يونس عليه السلام ، نادى وهو مكظوم : مملوء بالغيظ على قومه . فلا تستعجلْ — يا محمد — بعقوبة قومك كما استعجل يونس فلقى ما لقى ، وتَثَبَّتْ عند جريان حكمنا ، ولا تُعارِضْ تقديرنا .

« لولا أن تدارَكَه نعمةٌ من رَّبِّه لَنُبِذَ بالعراء وهو مذموم » .

أى : لولا أنَّ اللهَ رَحِمَه بفضْلِه لَطُرِحَ بالفضاء وهو مذموم ولكن :

« فاجْتباه ربُّه فجعله من الصالحين » .

فاصطفاه واختاره ، وجعله من الصالحين بأن أَرسله إلى مائة أَلف أَو يزيدون .

قوله جل ذكره : « وإنْ يكادُ الذين كفروا لَيُزْلِقونَكَ بأبصارهم » .

كانوا إذا أرادوا أنْ يُصيبوا شيئًا بأعينهم جاءوا ثلاثةَ أيامٍ ، ثم جاءوا ونظروا إلى ذلك الشيء قائلين : ما أَحسنه من شيء ! فكان يسقط المنظور فى الوقت . وقد فعلوا ذلك بالنبى صلوات الله عليه ، فقالوا : ما أَفصحه من رجـــل ! ولكنَّ الله سبحانه حفظه ، ومَنَّ بذكره عليه[1] .

---

(١) ننبه إلى نقطة هامة .. وورود اسم القشيرى عند القرطبى لا يعنى أنه إمامنا عبد الكريم القشيرى صاحب هذا الكتاب ، بل ربما كان أحد أبنائه الستة .. فكلهم أئمة . وربما كان ابنه أبا نصر عبد الرحمن (انظر القرطبى الجزء العشرين ص ٥٤) وليس أدل على ذلك من المقارنة بين قول القشيرى هنا وما جاء عند القرطبى فى حـ ١٨ ص ٢٥٥ (قال القشيرى : وفى هذا نظر لأن الإصابة بالعين إنما تكون مع الاستحسان والإعجاب لا مع الكراهية والبغض ، ولهذا قال : ويقولون إنه لمجنون) أى ينسبونك إلى الجنون إذا رأوك تقرأ القرآن .

سُــورَةُ الحَــاقَّة

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » كلمةٌ عزيزةٌ تحتاج فى سماعها إلى سَمْعٍ عزيزٍ لم يُسْتعملْ فى سماع الغيبة ، وتحتاج فى معرفتها إلى قلبٍ عزيزٍ لم يَتَبذَّلْ فى الغفلة والغيبة ، لم ينظرْ صاحبُه بعينه إلى ما فيه رُتبة ، ولم تتبع نَفْسُه اللَّبْس[1] والطُّبَّة[2] .

قوله جل ذكره : « الحاقَّةُ * ما الحاقَّةُ * وما أدراكَ ما الحاقَّةُ » .

« الحاقة » : اسمٌ للقيامة لأنها تَحُقُّ[3] كلَّ إنسانٍ بعملِه خَيْرِه وشَرِّه .

« وما أدراك ما الحاقة ؟ » : استفهام يفيد التعظيمَ لأمرها ، والتفخيمَ لشأنها .

قوله جل ذكره : « كَذَّبَتْ ثمودُ وعادٌ بالقارعة » .

ذَكَرَ فى هذه السورة : الذين كَذَّبوا رُسُلَهم من الأمم ، وأصرُّوا على كُفْرِهم ، ولم يقبلوا النصيحةَ من أنبيائهم ، فأهلكهم ، وانتقم لأنبيائه منهم .

والفائدةُ فى ذِكْرِهم : الاعتبارُ بهم ، والتحرُّرُ عمَّا فعلوا لئلا يُصيبَهم ما أصابهم .

وعقوبةُ هذه الأمةِ مُؤَجَّلةٌ مُؤَخَّرَةٌ إلى القيامة ، ولكنَّ خواصَّهم عقوبتُهم مُعجَّلة ؛ فقومٌ

---

(١) هكذا فى ص أما فى م فهى (اللهو) .

(٢) هكذا فى ص وهى فى م (الطيبة) وقد رجحنا — وهو ترجيح بعيد — أنها قد تكون (الطُّبَّة) بمعنى الحذق والمهارة الناتجين عن الحيلة والتدبير ، وربما كانت (ولم يتبع مع نفسه اللين والطيبة فالنفس أعدى الأعداء) .

(٣) لأنها تحق كل محاق فى دين الله أى كل مخاصم (وهو قول الأزهرى) . وحاقَّه أى خاصمه وادعى كل واحد منهما الحق (الصحاح) .

من هذه الطائفة إذا أشاعوا سِرًّا ، أو أضاعوا أدباً يعاقبهم برياح الحجبة[1]، فلا يَبْقَى فى قلوبهم أثرٌ من الاحتشام للدِّين ، ولا تِمًّا كان لهم من الأوقات ، ويصيرون على خَطَرٍ فى أحوالهم بأنْ يُمْتَحنوا (بالاعتراض على التقدير)[2] والقِسْمة .

وأمَّا فرعون وقومُه فـكان عذابُهم بالغَرَق . . كذلك مَنْ كان له وقتٌ فارغٌ وهو بطاعة ربِّه مشتغِلٌ ، والحقُّ عليه مُقْبِلٌ — فإذا لم يشـكرْ النعمةَ ، وأساء أدبَه ، ولم يَعْرِفْ قَدْرَ ما أنعم اللهُ به عليه رَدَّه الحقُّ إلى أسباب التفرقة ، ثم أغرقه فى بحار الاشتغال فيتـكدر مَشْرَبُه ، ويصير على خَطَرٍ بأن يُدْرِكَه سُخْطُ الحقِّ وغضبُه .

قوله جل ذكره : « إنَّا لمَّا طَغَىَ المــــاءُ حملنـا كُمْ فى الجارية » .

وكذلك تكون مِنَّتُه على خواصِّ أوليائه حين يسلمهم فى سفينة العافية ، والـكون يتلاطم فى أمواج بحارِ الاشتغالِ على اختلاف أوصافها ، فيـكونون بوصف السلامة ، لا مُنَازَعَةَ ولا محاسبةَ لهم مع أحد ، ولا تَوَقُّعَ شىء من أحدٍ ؛ سالمون من الناسِ ، والناسُ منهم سالمون .

قوله جل ذكره : « فإذا نُفِـخَ فى الصُّــــورِ نَفْخَةٌ واحدةٌ . . . . .» .

بدأ فى وصف القيامة والحساب . .

« . . . . يومئذٍ تُعْرَضونَ لا تَخْفَى منكم خافيةٌ » .

وفى كلِّ نَفَسٍ مع هؤلاء القوم[3] محاسبَةٌ ومطالَبةٌ ، منهم مَنْ يستحق المعاتبة ، ومنهم من يستحق المعاقبة .

---

(١) فى الإشارة قياس على الرياح التى أهلكت عاداً .

(٢) موجود فى ص أما فى م فهى (الإعراض) فقط .

(٣) يقصد أهل المجاهدات والمذاقات .

قوله جل ذكره : « فأمَّا مَنْ أُوتِيَ كتابَه بيمينه فيقولُ هاؤمُ اقرءوا كتابِيَه * إنِّي ظَنَنْتُ أنِّي مُلَاقٍ حِسابِيَه » .

يسلم له السرورُ بنعمة الله ، ويأخذ فى الحمد والمدح .

« فهو فى عيشةٍ رَّاضيةٍ » .

القومُ — غداً — فى عيشةٍ راضية أى مَرْضِيَّةٍ لهم ، وهؤلاء القوم — اليومَ — فى عيشةٍ راضية ، والفرق بينهما أنهم — غداً — فى عيشة راضية لأنه قد قُضِيَتْ أوطارُهم ، وارتفعت مآربُهم ، وحصلت حاجاتُهم ، وهم — اليومَ — فى عيشةٍ راضية إذ كُفُّوا مآربَهم فدَفَعَ عن قلوبهم حوائجَهم ؛ فليس لهم إرادةُ شىء ، ولا تَمَسُّهم حاجةٌ . وإنما هم فى رَوْحِ الرضا . . فعَيْشُ أولئك فى العطاء ، وعَيْشُ هؤلاء فى الرضاء ؛ لأنه إذا بدا عِلْمٌ من الحقيقة أو معنًى من معانيها فلا يكون ثمة حاجة ولا سؤال . ويقال لأولئك غداً .

« كُلوا واشربوا هنيئاً بما أسْلَفْتُم فى الأيامِ الخالية » .

ويقال لهؤلاء : اسمعوا واشهدوا . . اسمعوا منَّا . . وانظروا إلينا ، واستأنِسوا بقُرْبنا ، وطالعوا جمالَنا وجلالَنا . . فأنتم بنا ولنا .

قوله جل ذكره : « وأمَّا من أُوتِيَ كتابَه بشمالِه فيقولُ : يا ليتنى لم أُوتَ كِتابِيَه * ولم أدرِ ما حِسابِيه * ياليتَها كانتِ القاضيةَ » .

هناك — اليومَ — أقوامٌ مهجورون تتصاعد حسراتُهم ، ويتضاعف أنينُهم — ليلَهم ونهارَهم — فليلُهم ويلٌ ونهارهم بُعَاد ؛ تكدَّرتْ مشاربُهم ، وخربت أوطانُ أُنْسِهم ، ولا بكاؤهم يُرْحَم ، ولا أنينُهم يُسْمَع . . فعِنْدَهم أنهم مُبْعَدون . . وهم فى الحقيقة من اللهِ مرحومون ، أسبلَ عليهم السترَ فَصَغَّرَهم فى أعينهم — وهم أكرمُ أهل القصة ! كما قالوا :

لا تُنْكِرنْ جحدى هواكَ فإنما ذاك الجحودُ عليك سترٌ مُسْبَلُ

قوله جل ذكره : « فلا أُقْسِمُ بما تُبْصِرون * وما لا تبْصِرون » .

« لا » : صلة والمعنى : أُقْسِم ؛ كأنه قال : أقسم بجميع الأشياء ، لأنه لا ثالثَ لما يبصرون وما لا يبصرون . وجوابُ القَسَم :

« إنَّه لقولُ رسولٍ كريمٍ » .

أى وجيهٍ عند الله . وقولُ الرسولِ الكريمِ هو القرآنُ أو قراءةُ القرآن .

وما هو بقول شاعر ولا بقول كاهن أى أن محمداً ليس شاعراً ولا كاهناً بل هو :

« تنزيلٌ من ربِّ العالَمِين » .

قوله جل ذكره : « ولو تقَوَّلَ علينا بعضَ الأقاويل * لَأَخَذْنا منه باليمين * ثم لقَطَعْنَا منه الوتين » .

أى لو كان محمدٌ يكذب علينا لمنعناه منه وعصمناه عنه ، ولو تعمَّد لعذَّبناه . والقول بعصمة الأنبياء واجب . ثم كان لا ناصرَ له منكم ولا من غيركم ، وهذا القرآن :

« وإنه لتذكِرةٌ للمتقين * وإنَّا لَنَعْلَمُ أنَّ منكم مُكذِّبين * وإنه لَحَسْرَةٌ على الكافرين * وإنه لَحَقُّ اليقين » .

حقُّ اليقين هو اليقين فالإضافة هكذا إلى نفس الشيء[1] .

وعلوم الناس تختلف فى الطرق إلى اليقين خفاءً وجلاءً ؛ فما يقال عن الفرق بين علم اليقين وعين اليقين وحقِّ اليقين يرجع إلى كثرة البراهين ، وخفاء الطريق وجلائه ، ثم إلى كون بعضه ضرورياً وإلى بعضه كسبياً ، ثم ما يكون مع الإدراكات[2] .

(١) لو كان اليقين نعتاً لم يجز أن يضاف إليه كما لا تقول : هذا ورد الأحمر ، فالإضافة هنا — كما يرى القشيرى — إلى الشيء نفسه . فإن القرآن حق يقينٌ ويقينٌ حقٌ .

(٢) انظر محاولة القشيرى التفرقة بين معانيها فى رسالته ص ٤٧ .

سُورَةُ المعَارج

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمةٌ من قالها وَجَدَ جمالَها ، ومَنْ شهدها شهد جلالَها .

وليس كلُّ مَنْ قالَها نالَها ، ولا كلُّ من احتالها[1] عَرَفَ جلالَها .

كلمةٌ رفيعة عن إدراكِ الألبابِ منيعة ، كلمةٌ على الحقيقة الصمدية دالَّة ، كلمة لابُدَّ للعبدِ من ذِكْرِها في كل حالة .

قوله جل ذكره : « سأل سائلٌ بعذابٍ واقع » .

الباء في « بعذاب » بمعنى عن ، أي سأل سائلٌ[2] عن هــذا العذاب لِمَنْ هو ؟ فقال تعالى :

« للـكافرين ليس له دافِعٌ * مِنْ اللهِ ذى المعارج » .

هذا العذاب للـكافرين ليس له دافع من الله ذى المعارج ؛ فهذا العذابُ من الله .

ومعنى « ذى المعارج » ذى الفضل ومعالى الدرجات التى يُبْلِغُ إليها أولياءه .

قوله جل ذكره : « تَعْرُجُ الملائـكةُ والرُّوحُ إليه فى يومٍ كان مِقْدارُه خمسين ألفَ سنةٍ » .

---

(١) هكذا فى النسختين ، ولو صحَّ أنها هكذا فى الأصل فربما كان المعنى : ليس كلُّ من ادَّعى أنه بحيلته وتدبيره ومهارته وحذقه وصل إليها قد عرف أسرارها .

(٢) هو النضر بن الحارث قال : إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم . وربما تكون سأل بمعنى دعا ، ويكون السائل هو النبى (ص) .

« الروح » أى جبريل ، فى يومٍ كان مقداره ألف سنة من أيام الدنيا يعنى به يوم القيامة .

ويقال : معناه يحاسِبُ الخَلْقَ فى يومٍ قصيرٍ ووقتٍ يسير ما لو كان الناسُ يشتغلون به لكان ذلك خمسين ألف سنة ، واللهُ يُجْرِى ذلك ويُمضيه فى يومٍ واحد .

ويقال : من أسفلِ المخلوقاتِ إلى أعلاها مسيرةُ خمسين ألف سنة للناس ؛ فالملائكة تعرج فيه من أسفله إلى أعلاه فى يومٍ واحد .

قوله جل ذكره : « فاْصبِرْ صبراً جميلاً » .

فاصبرْ — يامحمد[1] — على مقاساةِ أذاهم صبرًا جميلاً . والصبرُ الجميلُ ما لا شكوى فيه .

ويقال : الصبر الجميل ألا تَسْتَثْقِلَ الصبرَ بل تستعذبه .

ويقال : الصبرُ الجميلُ ما لا ينْتَظِرُ العبدُ الخروجَ منه ، ويكون ساكناً راضيًا .

ويقال : الصبرُ الجميل أن يكون على شهود المُبْلِى .

ويقال : الصبرُ الجميل ما تجرَّد عن الشكوى والدَّعْوى .

قوله جل ذكره : « إنَّهم يَرَوْنه بعيداً * ونراه قريباً »

إنَّ ما هو آتٍ فقريبٌ ، وما استَبْعَدَ مَنْ يستَبْعِد إلاَّ لأنَّه مُرْتابٌ ؛ فأمّا الواثِقُ بالشيء فهو غيرُ مُسْتَبْعِدٍ له .

قوله جل ذكره : « يومَ تكُون السماء كالمُهْلِ * وتكونُ الجبالُ كالعِهْنِ » .

الإشارة فيه أنه فى ذلك اليوم مَنْ كان فى سُمُوِّ نخوته ونُبُوِّ صولته يلين ويستكين ويَضْعُفُ مَنْ كان يَشْرُفُ ، ويَذَلُّ مَنْ كان يُذِلُّ .

قوله جل ذكره : « ولا يَسْأَلُ حميمٌ حميماً » .

لا يَتَفَرَّغُ قريبٌ إلى قريبٍ ؛ فلكلِّ امرئ منهم يومئذ شأنٌ يُغْنيه .

---

(١) هكذا فى ص وهى فى م (بالحمد) وواضح فيها أنها اشتبهت على الناسخ .

ولا يتعهَّدُ المساكينَ — فى ذلك اليوم — إلا الله .

« يُبَصَّرونَهم يَوَدُّ المُجْرِمُ لو يفتدى
مِنْ عذابِ يَوْمِئِذٍ ببنيه * وصاحِبَتِه
وأخيه * وفصيلتِه التى تُؤْوِيه * ومَنْ
فى الأرضِ جميعاً ثم يُنْجِيه » .

« يبصرونهم » أى يعرفون أقاربهم ، ولكن لا تَرِقُّ قلوبُ بعضهم على بعض .

ويتمنَّى المجرمُ يومئذٍ أَنْ يُفتدِىَ من عذاب جهنم بأعز مَنْ كان عليه فى الدنيا من قريبٍ ونسيب وحميمٍ وولدٍ ، وبكلِّ من فى الأرض حتى يخلص من العذاب .

« كَلاَّ إِنَّها لظَىٰ » .

اسم من أسماء جهنم .

« نَزَّاعةً للشَّوَى »[1] .

قَلاَّعةٌ للأطراف . تكشط الجِلْدَ عن الوجه وعن العَظْم .

قوله جل ذكره : « تدعو مَنْ أَدْبَرَ وتَوَلَّىٰ » .

تقول جهنمُ للكافرِ والمنافقِ : يافلان .. إلىَّ إلىَّ .

والإشارة فيه : أنَّ جهنمَ الدنيا تعلق بقلبِ المرء فتدعوه بكلابِ الحِرْصِ إلى نَفْسِه وتجرُّه إلى جمعها حتى يؤثرها على نفسه وكلِّ أحد له ؛ حتى لقد يَبْخَلُ بدنياه على أولاده وأعِزَّته ... وقليلٌ مَنْ نجا من مكر الدنيا وتسويلاتها .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الإنسانَ خُلِقَ هَلوعاً » .

---

(١) والشَّوى جمع شواة وهى جلدة الرأس ، قال الأعشى :

قالت قُتَيْلَةُ : ماله قد جُللت شيباً شواتُه

وجاء فى الصحاح : الشوى جمع شواة وهى جلدة الرأس . وهى اليدان والرجلان والرأس من الآدميين ، وكل ما ليس مقتلا . يقال : رماه فأشواه أى لم يصب المقتل .

وقال الضحاك : تفرى الجلد واللحم عن العظم حتى لا تترك منه شيئاً . ونرى أن المقصود — والله أعلم . أن العذاب لا يقضى عليهم ، حتى يستمر واقعاً بهم إلى الأبد .

وتفسيره ما يتلوه :

« إذا مَسَّه الشَّرُّ جَزوعاً * وإذا مَسَّه الخيرُ مَنوعًا » .

والهَلَعُ شِدَّةُ الْحِرصِ مع الجزع . ويقال هلوعا : متقلِّبًا فى غمرات الشهوات .

ويقال : يُرْضيه القليلُ ويُسْخِطه اليسير .

ويقال : عند المحنة يدعو ، وعند النعمة ينسى ويسهو .

« إلّا المُصَلِّينَ * الذين هم على صلاتِهم دائمونَ » .

استثنى منهم المصلين — وهم الذين يُلازِمون أبداً مواطنَ الافتقار ؛ مِنْ صَلِىَ بالمكان[1] .

« والذين فى أموالِهم حَقٌّ معلومٌ * للسائلِ والمحرومِ » .

وهو المُتَكفِّف والمُتَعَفِّف .

وهم على أقسام : منهم مَنْ يُؤْثِر بجميع مالِه ؛ فأموالُهم لكلِّ مَنْ قَصَدَ ، لا يخصُّون سائلاً من عائل . ومنهم مَن يعطى ويمسك — وهؤلاء[2] منهم — ومنهم مَنْ يرى يَدَه يَدَ الأمانة فلا يتكلَّف باختياره ، وإنما ينتظر ما يُشَار عليه به من الأمر ؛ إمَّا بالإمساك فيقف أو ببذلِ الكُلِّ أو البعضِ فيستجيب على ما يُطَالَبُ به وما يقتضيه حُكْمُ الوقت . . . . وهؤلاء أَتَمُّهم .

---

(١) صَلِيَتَ الناقة أو الحامل ونحوها استرخى صلاها لقرب نتاجها (الوسيط) .
(٢) أى الذين تتحدث عنهم الآية .

« والذين يُصَدِّقون بيوم الدِّين » .

وأمارتهم الاستعدادُ للموت قبل نزوله ، وأن يكونوا كما قيل :

مستوفِزون على رِجْلٍ كأنهمو فقد يريدون أن يمضوا فيرتحلوا

قوله جل ذكره : « والذين هم لفروجهم حافظون *
إلاَّ على أزواجهم أو ما مَلَكَتْ
أيْمَانُهم فإنَّهم غيرُ ملومين * فمَنِ ابتغى
وراء ذلك فأولئك هم العادون » .

وإنما تكون صحبتُهم مع أزواجهم للتَّعَفُّفِ وصَوْنِ النَّفْسِ ، ثم لابتغاء أن يكونَ له وَلَدٌ من صلبه يذكر الله . وشَرْطُ هذه الصحبة : أن يعيش معها على ما يهون ، وألا يجرَّها إلى هوَى نفسِه ويحملها على مرادِه وهواه .

قوله جل ذكره : « والذين هم لأماناتِهم وعَهْدِهم راعون »

يحفظون الأمانات التي عندهم للخَلْق ولا يخونون فيها . وأماناتُ الحق التي عندهم أعضاؤهم الظاهرة — فلا يُدَنِّسُونها بالخطايا ؛ فالمعرفة التي في قلوبهم أمانة عندهم من الحق ، والأسرارُ التي بينهم وبين الله أماناتٌ عندهم . والفرائضُ واللوازمُ والتوحيدُ .. كل ذلك أماناتٌ .

ويقال : من الأمانات إقرارُهم وقتَ الذَّرِّ . ويقال : من الأمانات عند العبد تلك المحبة التي أودعها اللهُ في قلبه .

قوله جل ذكره : « والذين هم بشهاداتِهم قائمون » .

شهادتهم لله بالوحدانية ، وفيما بينهم لبعضهم عند بعض — يقومون بحقوق ذلك كله .

قوله جل ذكره : « فمالِ الذين كفروا قِبَلَكَ مُهْطِعين *
عن اليمينِ وعن الشمالِ عِزِينَ » .

والإهطاع أن يُقْبِلَ ببصره إلى الشيء فلا يرفعه عنه ، وكذلك كانوا يفعلون عند النبي صلى الله عليه وسلم « وعزين » : أي خَلْقاً خَلْقاً ، وجماعةً جماعة .

« أَيَطْمَعُ كلُّ امرئٍ منهم أنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نعيم ؟ »

كلا .. إنك لا تدعو عن هذا ! وليس هذا بصوابٍ ؛ فإنهم ـ اليومَ ـ كفار ، وغدًا يعاملون بما يستوجبون .

« فلا أقسمُ بربِّ المشارق والمغارب . . » لا — هنا صلة ، والمعنى أقسم . وقد مضى القولُ في المشارق والمغارب ـ « إنا لقادرون » على ذلك .

« فذرهم يخوضوا ويلعبوا » غاية التهديد والتوبيخ لهم .

« يومَ يخرجون من الأجداث سِراعاً » كأَنهم يسرعون إلى أصنامهم ، شبَّه إسراعهم حين قاموا من القبور بإسراعهم إلى النُّصُبِ ـ اليومَ ـ كى يقوموا بعبادتهم إياها .

سُورَةُ نُوح

قوله جل ذكره: « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » اسمٌ لِمَنْ قامت السمواتُ والأرض بقدرته، واستقامت الأسرارُ والقلوبُ بنصرته.. دَلَّتْ الأفعالُ على جلالِ شانه، وذَلَّت الرِّقابُ عند شهودِ سلطانه. أشرقت الأقطارُ بنوره فى العُقبى، وأشرقت الأسرارُ بظهوره فى الدنيا، فهو المقدَّس بالوصف الأعلى.

قوله جل ذكره: « إنَّا أرسلنا نوحاً إلى قومِهِ أنْ أَنْذِرْ قومَكَ من قَبْلِ أنْ يأتيَهُم عذابٌ أليم »

أرسلنا نوحاً بالنبوَّةِ والرسالة. « أن أنذِر قومك » أى بأن أنذرهم وإرسالُ الرُّسُل من الله فضلٌ[1]، وله بحق مُلْكه أن يفعل ما أراد، ولم يجبْ عليه إرسالُ الرُّسُلِ لأن حقيقته لا تقبل الوجوب.

وإرسالُ الرسل إلى مَنْ عَلِمَ أنه لا يَقْبَل جائز[2]، وتكليفُهم من ناحية العقل جائز[3].

فنوحٌ — عَلِمَ منهم أنهم لا يقبلون.. ومع ذلك بَلَّغ الرسالة وقال لهم: إنى لكم نذير مبين:

« قال يا قومِ إنى لكم نذيرٌ مبين *
أنِ اعبدوا اللهَ واتقوهُ وأطيعونِ *

---

(1) فى النسختين (فعل) وهى صواب بدليل قوله فيما بعد: (أن يفعل) ما أراد ولكننا رجحنا (فضل) لأن القشيرى يستحسن استعمال (الفضل) عندما يتحدث عن نفى (الوجوب) على الله.

(2) كى يكون ذلك عليهم حجة، قال تعالى: «رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل».

(3) ولكن لا عقاب إلا بعد إرسال الرسل، لأن العقل وحده غير كافٍ فى قطع المعذرة (قارن ذلك بآراء المعتزلة).

« يَغْفِرْ لـكم من ذنوبِـكمْ ويُؤخِّرْكم
إلى أَجَلٍ مُسَمًّى إنَّ أَجَلَ اللهِ إذا جاءَ
لايُؤَخَّرُ لو كنتم تعلمون » .

يغفر لـكم « من » ذنوبكم : مِنْ هنا للجنس لا للتبعيض كقوله تعالى :

« فاجتنبوا الرجس من الأوثان » .

ويقال : ما عملوه دون ماهو معلوم أنهم سيفعلونه ؛ لأنه لو أخبرهم بأنه غفر لهم ذلك كان إغراءً لهم .. وذلك لا يجوز . فأبوا أن يَقْبَلوا منه ، فقال :

« قال ربِّ إنى دعوتُ قومى ليلاً
ونهاراً* فلم يزِدْهم دُعائى إلا فِراراً ».

بَيّنَ أَنّ الهداية ليست إليه ، وقال : إنْ أَرَدْتَ إيمانَهم فقلوبُهم بقدرتك — سبحانك .

قوله جل ذكره : « وأصرُّوا واستكبروا استكباراً »

وإنِّى ما ازدَدْتُ لهم دعاءً إلا ازدادوا إصراراً واستكباراً .

ويقال : لمَّا دام بينهم إصرارُهم تَولَّدَ من الإصرار استكبارُهم ، قال تعالى :

« فطال عليهم الأمدُ فَقَسَت قلوبهم »[1]

قوله جل ذكره : « ثم إنِّى دَعَوْتُهُم جهاراً * ثم إنِّى
أَعْلَنْتُ لهم وأسرَرْتُ لهم إسراراً *
فقلْتُ اُستغفِروا ربَّكم إنه كان
غفَّاراً * يُرْسِلِ السماءَ عليكم مدراراً *
ويُمْدِدْكُم بأموالٍ وبنين ويجعل لـكم
جنَّاتٍ ويجعل لـكم أنهاراً » .

(١) آية ١٦ سورة الحديد .

ليعلمَ العالِمون : أنَّ الاستغفار قَرْعُ أبوابِ النعمة ، فمن وقعت له إلى اللهِ حاجةٌ فان يَصِلَ إلى مرادِه إلّا بتقديم الاستغفار .

ويقال : مَنْ أراد التَّفَضُّل فعليه بالعُذْر والتنصُّل .

قوله : « يرسل السماء عليكم . . . . » : كان نوح عليه السلام كلمّا ازداد فى بيان وجوه الخير والإحسان زادوا هم فى الكفر والنسيان .

قوله جل ذكره : « ما لكم لا ترجُون للهِ وقاراً ؟ »

ما لَكُم لا تخافون للهِ عَظَمَةً ؟ وما لكم لا ترجون ولا تؤمِّلون على توقيركم للأمرِ من اللهِ لُطْفاً ونعمة ؟ .

« ألَم ترَوْا كيف خَلَقَ اللهُ سَبْعَ
سماواتٍ طباقاً * وجعل القمرَ فيهنَّ
نوراً وجعل الشمسَ سراجاً »

ثم نَبَّهَهُم إلى خَلْقِ السموات والأرض وما فيهما من الدلالات على أنها مخلوقة ، وعلى أنَّ خالقهَا يستحقُّ صفاتِ العُلُوِّ والعِزَّة .

ثم شكا نوحٌ إلى الله وقال :

« قال نوحٌ ربِّ إنَّهم عَصَوْنى
واتَّبعوا مَن لم يَزِدْه مالُه وَوَلَدُهُ
إلّا خساراً * ومكروا مكراً كُبّاراً »

يعنى كبراءهم وأغنياءهم الذين ضلُّوا فى الدنيا وهلكوا فى الآخرة .

« وقال نوحٌ ربِّ لا تَذَرْ على
الأرضِ من الكافرين ديَّاراً » .

وذلك بتعريفِ اللهِ تعالى إيَّاه أنَّه لن يؤمِنَ من قومك إلّا من قد آمن . فاستجاب الله فيهم دعاءه وأهلكهم .

سورة الجن (1)

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » اسم عزيز به أَقَرَّ مَنْ أَقَرَّ بربوبيته ، وبه أَصَرَّ مَنْ أَصَرَّ على معرفته ، وبه استقرَّ من استقرَّ من خليقته ، وبه ظَهَرَ ما ظَهَرَ من مقدوراته ، وبه بَطَنَ ما بَطَنَ من مخلوقاته[2] ، فَمَنْ جَحَدَ فبخذلانه[3] وحرمانه ، ومن وَحَدَ[4] فبإحسانه وامتنانه .

قوله جل ذكره : « قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّه ٱستمَعَ نَفَرٌ من الجنّ فقالوا : إنَّا سَمِعْنا قرآناً عجباً »

قيل : إن الجنَّ كانوا يأتون السماء فيستمعون إلى قول الملائكة ، فيحفظونه ، ثم يلقونه إلى الكهنة ، فيزيدون فيه وينقصون . . وكذلك كانوا فى الفترة التى بين نبيِّنا صلى الله عليه وسلم وبين عيسى عليه السلام . فلمَّا بُعِثَ نبيُّنا صلى الله عليه وسلم ورُجُموا بالشُّهُب عَلِمَ إبليس أنه وقع شىء[5] ففرَّ جنوده ، فأتى تسعةٌ منهم إلى بطن نخلة واستمعوا قراءته صلى الله عليه وسلم فآمنوا ، ثم آتوا قومهم وقالوا : إنَّا سمعنا قرآنا عجباً يهدى إلى الرشد فآمنا به . . . إلى آخر الآيات .

(وجاءه سبعون منهم وأسلموا وذلك قوله تعالى : «وإذا صرفنا إليك نفراً من الجن ..»[6])

---

(1) أخطأ الناسخ فى ص وجعلها (سورة المزمل) بينما التفسير جارٍ لسورة الجن .

(2) إشارة إلى الجن .. وهنا نوع من الترابط بين إيحاءات البسملة والسورة .

(3) الباء هنا معناها (بسبب) أى أن الجاحد جحد بسبب خذلان الله له فى القسمة .

(4) هكذا فى ص وهى الصواب بينما هى فى م (قصد) ونحن نعلم أن القشيرى يستعمل (جحد) و (وحد) متقابلين .

(5) «حدث شىء فى الأرض» (الترمذى) .

(6) ما بين القوسين ورد فى م ولم يرد فى ص ، والآية هى رقم ٢٩ سورة الأحقاف .

قوله جل ذكره : « وأنه تعالىٰ جَدُّ ربِّنا ما اتَّخَذَ صاحِبةً ولا ولداً » .

الجَدُّ العظمة ، والعظمةُ استحقاقُ نعوتِ الجلال .

« وأنَّه كان يقول سفيهُنا على الله شطَطاً » .

أراد بالسفيه الجاهل بالله يعنى إبليس . والشطط السَّرَف .

« وأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تقولَ الإنْسُ والجِنُّ على اللهِ كَذِباً » .

فى كفرهم وكلهم بالشِّرك .

« وأنَّه كان رجالٌ من الإنْس يعوذون برجالٍ من الجِنِّ فزادوهم رَهَقا » .

أى ذِلة وصغاراً ؛ فالجنُّ زادوا للانس ذِلَّةً ورهقا[1] (فكانوا إذا نزلوا يقولون : نعوذ بربِّ هذا الوادى فيتوهم الجنُّ أنهم على شئ فزادوهم رهقاً)[2] حيث استعاذوا بهم .

قوله جل ذكره : « وأنَّهم ظنُّوا كما ظَنَنْتُم أنْ لَّن يَبْعَثَ اللهُ أحداً » .

أى ظنُّوا كما ظنَّ الكفارُ من الجن ألّا بعثَ ولا نشور — كما ظننتم أيها الإنس .

« وأَنَّا لَمَسْنَا السماءَ فوجدناها مُلِئَتْ حَرَساً شديداً وشُهُباً » .

يعنى حين مُنِعوا عن الاستماع .

« وأنَّا كُنَّا نقعد منها مقاعِدَ للسَّمْعِ فَمَن يستمعِ الآن يَجِدْ لهُ شهاباً رَّصَداً » .

---

(١) أى أن الجن زادوا الإنس رهقاً وهو الخطيئة والإثم حين استعاذوا بغير الله .
وقال مجاهد : زاد الإنس الجنَّ رهقاً أى طغيانا بهذا التعوذ حتى قالت الجن : سُدْنا الإنس والجن .

(٢) ما بين القوسين موجود فى ص وغير موجود فى م .

فالآن قد مُنِعْنا .

« وأنَّا لا ندرى أشَرٌّ أُريد بِمَنْ فى الأرضِ أم أراد بهم ربُّهم رَشَدًا ؟ » .

« وألَّوِ استقاموا على الطريقـةِ لأسقيناهم ماءً غَدَقًا » .

الاستقامة على الطريقة تقتضى إكمالَ النعمةِ و إكثارَ الراحةِ . والإعراضُ عن الله يُوجِب تَنَغُّصَ العَيْشِ ودوامَ العقوبة .

قوله جل ذكره : « وأنَّ المساجدَ للهِ فلا تدعوا مع اللهِ أحداً » .

للمسجد فضيلة ، ولهذا خصَّه الله سبحانه وأفرده بالذكر من بين البقاع ؛ فهو محلُّ العبادة .. وكيف يُحلُّ العابد عنده إذا حلَّ محلَّ قَدَمِه[1] ؟ ! .

و يقال : أراد بالمساجد الأعضاء التى يسجد عليها ، أخبر أنها لله ، فلا تعبدوا بما للهِ غَيْرَ الله .

قوله جل ذكره : « وأنَّه لمَّا قامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعوه كادوا يكونون عليه لِبَدًا » .

لما قام عبد الله يعنى محمداً عليه السلام يدعو الخَلْقَ إلى الله كاد الجنُّ والإنس يكونون مجتمعين عليه ، يمنعونه عن التبليغ ، قل يامحمد :

« قُلْ إنى لا أمْلِك لكم ضَرًّا ولا رَشَداً * قُلْ إنى لن يُجِيرَنى من اللهِ أحدٌ ولن أجِدَ مِنْ دونه مُلْتَحَداً » .

لا أَقْدِر أن أَدْفعَ عنكم ضرًّا ، أو أسوقَ لكم خيراً .. فكلٌّ شىءٍ من الله . ولن أجدَ من دونه مُلْتجاً إلا :

---

(١) العبارة غامضة وتحتاج إلى توضيح .. وربما قصد القشيرى إلى أنه إذا كان المسجد وهو محل قدم العابد مكرماً .. فما بالك بالعابد نفسه ، ومحله عند الله ؟ .

« إلا بلاغاً من اللهِ ورسالاتهِ »

فلن ينَجّيني من الله إلا تبليغى رسالاته بأمره .

« ومَنْ يَعْصِ اللهَ ورسولَه فإنَّ له نار جَهَنَّمَ خالدين
فيها أبداً » .

قوله جل ذكره : « قُلْ إنْ أدْرِى أقريبٌ ما تُوعَدُون
أمْ يجعلُ له ربى أمَداً »

أى : لا أدْرى ما تُوعَدون من العقوبة ، ومن قيام الساعة أقريب أم بعيد ؟ فكونوا على حذرٍ . ويجب أنْ يتوقَّع العبدُ العقوبات أبداً مع مجارى الأنفاس ليَسلم من العقوبة .

قوله جل ذكره : « عالِمُ الغيبِ فلا يُظْهِرُ على غَيبِه
أحداً * إلا مَنِ ارتضى من رَّسولٍ »

فيطلعه بقَدْرِ ما يريده .

« ليَعْلَمَ [1] أن قد أُبلغوا رسالات
ربِّهم وأَحاط بما لديهم وأَحصىٰ كُلَّ
شىء عدداً » .

أرسل مع الوحى ملائكةً قُدَّامه وخَلْفه .. هم ملائكةٌ حَفَظَة ، يحفظون الوحىَ من الكهنة والشياطين ، حتى لا يزيدوا أو ينقصوا الرسالاتِ التى يحماها . . . والله يعلم ذلك ، وأحاط عِلْمُه به .

---

(١) قرأ ابن عباس (ليُعْلَم) أى ليعلم الناس أن الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم .

سُورَةُ المزَّمِّل

قوله جل ذكره: « بسم الله الرحمن الرحيم ».

« بسم الله »: الحادثاتُ بالله حصَلَت، فقلوبُ العارِفين بالله عرَفتْ ما عرَفَت وأرواحُ الصِّدِّيقين بالله أَلِفَتْ مَنْ أَلِفت وفُهُومُ الموحِّدين بساحاتِ جلاله وقَفَت، ونفوسُ العابدين بالعجز عن استحقاق عبادته اتَّصَفَت وعقولُ الأولين والآخرين بالعجز عن معرفة جلاله اعترفت.

قوله جل ذكره: « يأيها المُزَّمِّل * قُم ِ الليلَ إلاَّ قليلاً »

أي: المتزمل المتلفِّف فى ثيابه. وفى الخبر: أنه كان عند نزول هذه الآية عليه مِرْطٌ من شَعْرٍ ووَبَر، وقالت عائشة رضى الله عنها: كان نصفُه علىَّ وأنا نائمة، ونصفه على رسول الله وهو يُصَلِّى، وطولُ المِرْطِ أربعةَ عشر ذراعاً[1].

« نِصْفَه أوِ انقُصْ مِنه قليلاً * أو زِدْ عليه ورتِّلِ القرآن ترتيلاً ».

قم الليل إلا قليلاً، نصفَه بَدَلٌ منه؛ أى: قم نصف الليل، وأَنْقِصْ من النصف إلى الثلث أو زِدْ على الثلث، فكان عليه الصلاة والسلام فى وجوب قيام الليل مُخَيَّرًا ما بين ثلث الليل إلى النصف وما بين النصف إلى الثلث. وكان ذلك قبل فَرْضِ الصلوات الخمس، ثم نُسِخَ بعد وجوبها على الأمة — وإن كانت بقيت واجبة على الرسول صلى الله عليه وسلم.

ويقال: يأيها المتزمِّل بأعباء النبوَّة.. قم الليل.

(1) معنى هذا: أن السورة مدنية وليست مكية، لأن النبى لم يبْنِ بعائشه إلا فى المدينة.

ويقال : يأيها الذى يُخْفِى ما خصصناه به قُمْ فأنذِرْ . . فإنّا نصرناك[1] .

ويقال : قُمْ بنا . . يا مَنْ جعلنا الليل ليسكن فيه كلُّ الناس . . قُمْ أنت فليسكنْ الـكلُّ . . ولْتَقُمْ أنت .

ويقال : لمَّا فَرَضَ عليه القيام بالليل أخبر عن نَفْسِه لأجل أُمَّته وإ كراماً لشأنه وقدره .

وفى الخبر : « أنه ينزل كلَّ ليلة إلى السماء الدنيا ... » ولا يُدْرَى التأويل للخبر[2] ، أو أنَّ التأويل معلوم . . وإلى أن ينتهى إلى التأويل فللأحبابِ راحاتٌ كثيرة ، ووجوهٌ من الإحسان موفورة .

قوله جل ذكره : « ورَتِّلِ القُرآنَ ترتيلاً »

إرْتَعْ بِسِرِّك فى فَهْمِه ، وتَأَنَّ بلسانِك فى قراءته .

« إنَّا سَنُلْقِى عليكَ قولا ثقيلاً » .

قيل : هو القرآن . وقيل : كلة لا إلَـهَ إلا الله .

ويقال : الوحي ؛ وسَّماه ثقيلاً أى خفيفاً على اللسان ثقيلاً فى الميزان .

ويقال : ثقيل أى : له وزن وخطر . وفى الخبر : كان إذا نزل عليه القرآن — وهو على ناقته — وضعت جِرانها[3] ، ولا تكاد تتحرك حتى يُسرَّى عنه .

وروى ابن عباس : أنَّ سورة الأنعامِ نَزَلَتْ مرةَ واحدةً فبَرَكَت ناقةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم من ثقل القرآن وهيبته .

ويقال « ثقيلا » سماعه على مَنْ جحده .

---

(١) هذان تخريجان مجازيان للفظة (المزمل) .

(٢) هذا الخبر فعلا كان موضع نظر ؛ فقد روى عن طريقين عن أبى هريرة على الشك ، فى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله (ص) : إذا مضى شطر الليل—أو ثلثاه ينزل الله عز وجل إلى سماء الدنيا» وفى رواية أخرى : « ينزل الله عز وجل إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يمضى ثلث الليل الأول فيقول : أنا الملك ، أنا الملك من ذا الذى يدعونى فأستجيب له ؟ من ذا الذى يسألنى فأعطيه ؟ من ذا الذى يستغفرنى فأغفر له ؟فلا يزال كذلك حتى يضىء الفجر » . وخرجه ابن ماجه من حديث ابن شهاب عن أبى سلمة عن أبى هريرة أن الرسول (ص) قال : ينزل ربنا تبارك وتعالى حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول ... » وهكذا انتظم الحديث والقرآن .

(٣) أى : صدرها .

ويقال : « ثقيلاً بعِبْئِه — إلاَّ على من أُيِّدَ بقوةٍ سماوية ، ورُبِّىَ فى حِجْرِ التقريب »

قوله جل ذكره : « إنَّ ناشِئَةَ الليلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْئاً وأقوَمُ قِيلاً » .

أى : ساعات الليل ، فكلُّ ساعةٍ تحدث فهى ناشئة[1] ، وهى أشد وطئاً أى : مُوَطَّأة أى : هى أشدُّ موافقةً للسانِ والقلبِ ، وأشدُّ نشاطاً .

ويحتمل : هى أشدُّ وأغلظُ على الإنسان من القيام بالنهار .

« وأقوم قيلا » أى : أَبْيَنُ قولاً .

ويقال : هى أشدُّ مواطأةً للقلب وأقوم قيلًا لأنها أبعدُ من الرياء ، ويكون فيها حضورُ القلبِ وسكونُ السِّرِّ أبلغَ وأَتَمَّ .

قوله جل ذكره : « إنَّ لكَ فى النَّهارِ سَبْحاً طويلًا » .

أى : سبحًا فى أعمالك ، والسبح : الذهاب والسرعة ، ومنه السباحة فى الماء .

فالمعنى : مذاهبُك فى النهار فيما يَشْغَلُك كثيرةٌ — والليلُ أَخْلَى لك .

قوله جل ذكره : « واذْكُرِ اسمَ ربِّكَ وتبتَّلْ إليه تبتيلاً » .

أى : انقَطِعْ إليه انقطاعًا تامًا .

« ربُّ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ لا إلٰهَ إلَّا هُوَ فاتَّخِذْهُ وكيلاً » .

الوكيلُ مَنْ تُوكَلُ إليه الأمورُ ؛ أى : تَوَكَّلْ عليه وكِلْ أمورَك إليه ، وثِقْ به .

ويقال : إنك إذا اتخذْتَ من المخلوقين وكيلاً اختزلوا مالَكَ وطالبوك بالأجرة ، وإذا اتخذتنى وكيلاً أُوَفِّرُ عليكَ مَالَكَ وأُعطيكَ الأجر .

---

(١) قال ابن مسعود : الحبشة يقولون : نشأ أى قام .
فكأن ناشئة الليل مصدر بمعنى قيام الليل ... مثل خاطئة و كاذبة .. فإذا افترضنا أنها كلمة شائعة الاستعمال عند الحبشة بهذا المعنى فإنها ذات أصل عربى أيضاً .

ويقال : وكيلُك ينفق عليك من مالِك ، وأنا أرزقك وأنفق عليك من مالى .

ويقال : وكيلُك مَنْ هو فى القَدْرِ دونَك ، وأنت تترفَّعُ أن تكلِّمَهَ كثيراً . وأنا ربُّـكَ وسَيِّدُك وأحبُّ أَنْ تكلمنى وأُكلِّمَكَ .

قوله جل ذكره : « واَصبِرْ علىٰ ما يقُولونَ واُهجرهم هَجْراً جميلاً » .

الهَجْرُ الجميلُ : أن تعاشِرَهم بظاهرك وتُبايِنَهم بِسرِّك وقلبك .

ويقال : الهجرُ الجميل ما يكون لحقِّ ربِّـك لا لِحَظِّ نَفْسِك .

ويقال : الهجرُ الجميلُ ألا تُكلِّمَهم ، وتكلمنى لأجْلهم بالدعاء لهم .

وهذه الآية منسوخة بآية القتال[1].

قوله جل ذكره : « وذرنى والمكذِّبينَ أُولِى النَّعمـة ومَهِّلْهم قليلاً » .

أى : أُولِى التَّنَعُّم[2] ، وأنظِرْهم قليلاً ، ولا تَهتمْ بشأنهم ، فإنى أكفيكَ أمرَهم .

قوله جل ذكره : « إنَّ لَدينا أنكالاً وجَحيماً * وطَعَاماً ذا غُصَّةٍ وعذاباً أليماً » .

ثم ذكر وصف القيامة فقال :

« يومَ تَرْجُفُ الأرضُ والجبـالُ وكانتِ الجبالُ كثيباً مَّهيلاً » .

---

(١) قال قتادة : كان هذا قبل الأمر بالقتال ، ثم أمر بعد بقتالهم وقتلهم فنسخت آية القتال ما كان قبلها من الترك . (القرطبى) حـ١٩ ص ٤٥) .

(٢) هم صناديد قريش ، ورؤساء مكة من المستهزئين .
وقال يحيى بن سلام : إنهم بنو المغيرة .
وقالت عائشة : لما نزلت هذه الآية لم يكن إلا يسيراً حتى وقعت وقعة بدر .

ثم قال :

« إنَّا أرسلنا إليكمُ رسُولاً شَاهِداً
عليكُمْ كما أرْسلنا إلى فِرْعَونَ
رسُولاً » .

يعنى : أرسلنا إليكم محمداً صلى الله عليه وسلم شاهداً عليكم « كما أرسلنا إلى فرعون رسُولا » ، « فعصى فِرعونُ الرسُولَ فأخذنَاهُ أخذاً وبيلاً » ثقيلا .

« فكيف تتقون إن كفرتم يوماً » من هَوْلِه يصير الولدانُ شيباً — وهذا على ضَرْبِ المثل .

« السماء مُنْفَطِرٌ به » أى بذلك : اليوم لهوله[1] .

ويقال : مُنْفَطِرٌ بالله أى : بأمره .

« كان وعده مفعولا » : فما وَعَدَ اللهُ سيصدقه .

« إنَّ هذه تذكرةٌ » : يعنى : هذه السورة ، أو هـذه الآيات مَوْعِظَةٌ ؛ فَمَنْ اتعظ بها سَعِدَ .

« إنَّ ربَّك » يا محمد « يعلم أنك تقوم أدنى من ثُلُثَى الليلِ ونصفَهُ وثُلُثُه وطائفة من الذين معك » من المؤمنين .

« واللهُ يُقدِّرُ الليلَ والنهارَ » فهو خالقُهما « عَلِمَ أَنْ لَّن تُحْصُوه » وتطيعوه .

« فتَابَ عليكم » أى : خَفَّفَ عنكم[2] ، « فاقرءوا ما تَيَسَّرَ من القرآنِ » من خمس آيات إلى مازاد . ويقال : من عَشْرِ آيات إلى ما يزيد[3] .

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (لقوله) والصواب ما جاء فى م كما هو واضح من السياق .

(٢) كان الرجلُ لا يدرى متى نصف الليل من ثلثه فيقوم حتى يصبح مخافة أن يخطىء فانتفخت أقدامهم ، وانتقعت ألوانهم ، فرحمهم الله وخفف عنهم (مقاتل) .

(٣) قال الحسن : من قرأ مائة آية فى ليلة لم يحاجه القرآن ، وقال كعب : كُتِب من القانتين .
وفى حديث مسند عن عبد الله بن عمرو : أن النبى (ص) قال : «من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ، ومن قام بألف آية كتب من المقنْطِرين (= أعطى من الأجر قنطاراً) » خرَّجه أبو داود الطيالسى فى مسنده .

« عَلِمَ أَن سَيَكُونُ منكُم مَّرضى وآخَرونَ يضربُون فى الأرضِ » يسافرون ، ويعلم أصحاب الأعذار ، فَنَسخَ عنهم قيامَ الليل .

« وأَقِيمُوا الصلاةَ » المفروضة .

« وأَقرِضُوا اللهَ قرضاً حسناً » مضى معناه .

« وَمَا تُقَدِّموا لأنفسِكُمُ مِّن خيرٍ تجدُوه » أى : ما تقدِّموا من طاعة تجدوها عند الله ثواباً هو خيرٌ لكم من كلِّ متاع الدنيا .

سُورَةُ المُدَّثِّر

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » كلمةٌ سماعُها نزهةُ قلوبِ الفقراء ، كلمةٌ سماعُها بهجة أسرارِ الضعفاء ، راحةُ أرواحِ الأحبَّاء ، قوةُ قلوبِ الأولياء ، سَلْوَةُ صدورِ الأصفياء ، قُرَّةُ عيونِ أهلِ البلاء .

قوله جل ذكره : « يأيها المُدَّثِّر * قُمْ فَأَنْذِر » .

يأيها المتدثر بثوبه .

وهذه السورة من أول ما أُنْزِلَ من القرآن . قيل : إنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ذَهَبَ إلى حِرَاء قبل النُّبُوة ، فَبَدا له جبريلُ في الهواء ، فرجع الرسول إلى بيت خديجة وهو يقول « دثِّروني دثِّروني » فَدُثِّرَ بثوبٍ فنزل عليه جبريل وقال : « يأيها المدثر ، قم فأنذرْ »[1] .

وقيل : أيها الطالبُ صَرْفَ الأذى عنك بالدثار اطلبْه بالإنذار .

ويقال : قُمْ بنا ، وأَسْقِطْ عنك ما سوانا ، وأَنذِر عبادَنا ؛ فلقد أقمناك بأشرف المواقف ، ووقفناك بأعلى المقامات .

ويقال : لمَّا سَكَنَ إلى قوله : « قم » وقام قَطَعَ سِرَّه عن السُّكونِ إلى قيامِهِ ، ومن الطمأنينة في قيامه .

قوله جل ذكره : « وربَّكَ فَكَبِّرْ » .

---

(١) حدَّث جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله (ص) : جاورت بحراء شهراً ، فلما قضيت جواري نزلت فاستبطنت بطن الوادي ، فنوديت ، فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وعن شمالي فلم أر أحداً ، ثم نوديت فنظرت فلم أر أحداً ، ثم نوديت فرفعت رأسي فإذا جبريل على عرش في الهواء فأخذتني رجفة شديدة فأتيت خديجة فقلت : دثروني . فصبوا على ماء . رواه البخاري بهذه النهاية : دثروني وصبوا على ماء بارداً فدثروني وصبوا علىَّ ماء بارداً فنزلت : يأيها المدثر » .

كَبِّرْه عن كلِّ طَلَبٍ ، ووَصْلٍ وفَصْلٍ ، وعِلَّةٍ وخَلْقٍ .

« وثيابَكَ فطهِّرْ » .

طَهِّرْ قلبك عن الخلائق أجمع ، وعن كلِّ صفةٍ مذمومة .

وطَهِّرْ نَفْسَك عن الزَّلَّات ، وقلبَك عن المخالفات ، وسِرَّك عن الالتفاتات .

ويقال : أَهْلَكَ طَهِّرْهم بالوعظ ؛ قال تعالى : « هُنَّ لِباسٌ لكم »[1] ، فيعبر عنهن — أحيانًا — بالثياب واللِّباس .

قوله جل ذكره : « والرُّجْزَ فاهْجُرْ » .

أى : المعاصى . ويقال : الشيطان . ويقال : طَهِّرْ قلبَك من الخطايا وأشغال الدنيا .

ويقال : مَنْ لا يَصِحُّ جِسْمُه لا يجد شهوةَ الطعام كذلك مَنْ لا يَصِحُّ قلبُه لا يجد حلاوةَ الطاعة .

« ولا تَمْنُنْ تَسْتَكثِرْ » .

لا تُعْطِ عطاءً تطلب به زيادةً على ما تعطيه .

ويقال : لا تستكثِرْ الطاعةَ من نفسك .

ويقال : لا تَمْنُنْ بعملك تَسْتَكثِرَ عملك ، وتُعْجَبَ به .

« ولربِّكَ فاصبِرْ » .

أى : أنت تُؤْذَى فى اللهِ . . فاصبِرْ على مقاساةِ أذاهم .

قوله جل ذكره : « فإذا نُقِرَ فى النَّاقورِ * فذلك يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عسيرٌ * على الكافرين غيرُ يسيرٍ » .

يعنى : إذا قامت القيامةُ ، فذلك يومٌ عسيرٌ على الكافرين غيرُ هيِّنٍ .

قوله جل ذكره : « ذَرْنى وَمنْ خَلَقْتُ وحيداً » .

---

(١) آية ١٨٧ سورة البقرة .

أى : لا تهتمْ بشأنهم ، ولا تحتفلْ ؛ فإنِّى أ كفيكَ أمرَهم .

إنِّى خَلَقْتُه وحدى ؛ لم يشاركْنى فى خلقِ إيَّاه أحدٌ .

ويحتمل : خَلَقْتُه وَحْدَه لا ناصرَ له .

قوله جل ذكره : « وجَعَلْتُ له مالاً ممدُوداً * وَبنينَ شُهوداً » .

حضوراً معه لا يحتاجون إلى السَّفَرِ .

« ومَهَّدْتُ له تمهيداً » .

أراد : تسهيلَ التصرُّف ، أى : مكَّنتُه من التصرُّف فى الأمور[1] .

« ثُم يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ » .

يطمع أن أزيده فى النعمة :

« كَلَّا ، إنَّه كانَ لآياتِنا عَنيداً » .

جَحوداً .

« سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا » .

سأحمله على مشقَّةٍ من العذاب .

« إنَّه فَكَّرَ وقَدَّرَ * فقُتِلَ كيف قَدَّرَ * ثم قُتِلَ كيف قَدَّرَ » .

أى : لُعِنَ كيف فكَّر ، وكيف قَدَّر ، ويعنى به : الوليد بن المغيرة[2] الذى قال فى النبى صلى الله عليه وسلم : إنَّه ليس بشاعرٍ ولا بمجنونٍ ولا بكذَّاب ، وإنه ليس إلا ساحر ، وما يأتى به ليس إلا سحرٌ يُرْوَى :

---

(١) واضح من هذا أن القشيرى يؤمن بحرية الإنسان ، وأن الجبرية عنده ليست مطلقة .

(٢) كان الوليد يدعى ريحانة قريش فلما سمعت منه واصفاً القرآن : والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ... » قالت قريش : صبأ الوليد لتصبون قريش كلها ، فلما ذهب إليه أبو جهل ليتحرى . قال له بعد أن فند مزاعمهم : ما هو إلا ساحر ! أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ؟

« ثم نَظَرَ * ثم عَبَسَ وبَسَرَ[1] *
ثم أَدْبَرَ واستكبرَ * فقال :
إِنْ هذا إلا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هذا
إِلّا قولُ البَشَرِ * سأُصْلِيهِ سَقَرَ *
وَمَا أَدْراكَ مَا سَقَرُ * لا تُبْقِي ولا تَذَرُ *
لَوَّاحةٌ للبَشَرِ » .

لا تُبقِي لحماً ، ولا تَذَرُ عظْماً ، تحرق بشرة الوجه وتُسَوِّدها ، من لاحته الشمسُ ولوَّحته .

« عَلَيْهَا تِسعةَ عشرَ » .

قال المشركون : نحن جَمْعٌ كثير . . فما يفعل بنا تسعة عشر ؟ ! فأنزل الله سبحانه :

« وَمَا جعلْنا أصحابَ النَّارِ إِلَّا ملائكةً
ومَا جعلْنا عِدَّتَهُم إلاَّ فِتْنَةً للذينَ
كَفرُوا ليستَيْقِنَ الذينَ أوتُوا
الكتابَ ويزْدادَ الذينَ ءامنوا إيماناً
ولا يرْتابَ الذين أوتُوا الكتابَ
والمؤمنونَ » .

فيزداد المؤمنون إيمانًا ، ويقول هؤلاء : أي فائدة في هذا القَدْر ؟ فقال تعالى :

« كَذٰلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ يشاء
ويَهْدِي من يشاء » .

ثم قال :

« وَما يَعْلَمُ جُنودَ رَبِّك إِلَّا هُو
وَما هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ » .

أي : تقاصرت علومُ الخَلْقِ فلم تتعلَّقْ إلا بمقدار دون مقدار ، والذى أحاط بكل شيء علماً هو الله — سبحانه .

---

(١) بَسَر أي كَلَح وجهه وتغير لونه .

« كَلاَّ وَالْقَمرِ » .

كلاّ — حرفُ ردعٍ وتنبيه ؛ أى : ارتدعوا عما أنتم عليه ، وانتبهوا لغيره .

وأقسم بهذه الأشياء « كَلا والقمرِ » : أى بالقمر ، أو بقدرته على القمر .

وبالليل إذا أدْبرَ .. وقُرِئ « ودَبَرَ » أى : مضى ، «والصُّبحِ إذا أَسفر » أى : تجلّى

« إِنَّهَا لَإِحدَى الكُبَرِ » .

أى : النار لإحدى الدواهى الكُبَر .

ويقال فى « كلا والقمر » إشارةٌ إلى أقمار العلوم إذا أخذ هلالُها فى الزيادة بزيادة البراهين ، فإنها تزداد ، ثم إذا صارت إلى حدِّ التمام فى العلم وبلغت الغاية تبدو أعلام المعرفة ، فالعلم يأخذ فى النقصان ، وتطلع شمسُ المعرفة ، فكما أنه إذا قَرُبَ القمرُ من الشمس يزداد نقصانه حتى إذا قرب من الشمس تماماً صار محاقًا — كذلك إذا ظَهَرَ سلطانُ العرفانِ تأخذ أقمارُ العلوم فى النقصان لزيادة المعارف ؛ كالسراج فى ضوء الشمس وضياء النهار . « والليل إذا أدبر» أى إذا انكشفت ظُلَمُ البواطن ، « والصبح إذا أَسفر » وتجلَّت أنوار الحقائق فى السرائر . . إنها لإحدى العظائم ! وذلك من باب التخويف من عودة الظُّلَم إلى القلوب[1] .

« نَذيراً للبشرِ » فى هذا تحذيرٌ من الشواغل التى هى قواطع عن الحقيقة ، فيحذروا المساكنةَ والملاحظةَ إلى الطاعات والموافقات . . فإنّها — فى الحقيقة — لا خطرَ لها[2] .

« لِمَنْ شاءَ منكمُ أن يتقدَّم أَوْ يتأخَّرَ » عن الطاعات . . وهذا على جهة التهديد .

قوله جل ذكره : « كلُّ نَفْسٍ بما كَسَبَتْ رَهينَةٌ » .

أى : مرتهنة بما عملت ، ثم استثنى :

« إِلَّا أصحابَ اليَمين » .

---

(١) من خصائص أسلوب القشيرى — كما أوضحنا ذلك فى كتابنا عنه — أنه كثيراً ما يستعين بمظاهر الطبيعة : الليل والنهار — والقمر والشمس والجبال والمطر والبحار وغير ذلك كى يوضح عن طريق ذلك دقائق العلم الصوفى .

(٢) يقصد أن نظرة الإنسان إلى عمله ، وإعطاء هذا العمل قيمة .. من قبيل دعوى النفس .. المهم فى الطريق فضل الله واجتباء الله .

فقال : إنهم غير مرتهنين بأعمالهم ، ويقال : هم الذين قال الله تعالى فى شأنهم : « هؤلاء فى الجنة ولا أبالى » ! .

وقيل : أطفال المؤمنين[1].

« فى جنَّاتٍ يتساءلون * عن المجرمين * ما سَلَكَكُمْ فى سَقَرَ ؟ * قالوا لم نَكُ من المُصَلِّينَ * ولم نَكُ نُطْعِمُ المِسْكِينَ * وكُنَّا نخوضُ مع الخائضين * وكُنَّا نُكَذِّبُ بيومِ الدِّينِ » .

هؤلاء يتساءلون عن المجرمين ، ويقولون لأهل النار إذا حَصَلَ لهم إشرافٌ عليهم : ما سلككم فى سقر ؟ قالوا : ألم نَكُ من المصلين ؟ ألم نكُ نُطْعِمُ المسكين ؟ .

وهذا يدل على أنَّ الكفارَ مُخَاطَبون بتفصيل الشرائع .

« وكنا نخوض مع الخائضين » : نشرع فى الباطل ، ونكذِّب بيوم الدين .

« حَتَّى أتانا اليقينُ » .

وهو معاينة القيامة .

« فما تنفعهُم شفاعةُ الشافِعينَ » .

أى : لا تنالهم شفاعةُ مَنْ يشفع .

« فَمَا لهُم عَنِ ٱلتَّذْكِرةِ مُعْرِضينَ[2] »

والتذكرة : القرآن :

« كَأَنَّهُم حُمُرٌ مُّسْتَنْفِرةٌ * فَرَّتْ من قَسْوَرة » .

---

(١) قال ابن عباس : هم الملائكة . وقال على بن أبى طالب : هم أولاد المؤمنين لم يكتسبوا فيُرتهنوا بكسبهم . وقال الضحاك : الذين سبقت لهم من الله الحسنى . وقال مقاتل : هم الذين كانوا على يمين آدم يوم الذر . والله أعلم.

(٢) معرضين منصوب على الحال من الهاء والميم فى (لهم) ، وفى اللام معنى الفعل فانتصاب الحال على معنى الفعل.

كأنهم حُمُرٌ نافرة فرّت من أسَدٍ[1]

« بَلْ يُرِيدُ كُلُّ آمرِئٍ مِّنهم أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً » .

بل يريد كلٌّ منهم أن يُعْطَى كتاباً منشوراً .

« كلاَّ بل لَّا يَخافُونَ الآخرةَ » .

أي : كلاَّ لا يُعْطَوْن ما يتمنَّون لأنهم لا يخافون الآخرة .

« كلاَّ إنَّها تذكِرةٌ * فمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ » .

إلّا أنْ يشاء اللهُ — لا أنْ تشاءوا

« هُو أهْلُ التقوىٰ » .

أهلٌ لأنْ يُتَّقَىٰ .

« وَأهْلُ المغفِرةِ » .

وأهلٌ لأنْ يغفِرَ لمن يتّقِي — إن شاء .

---

(١) القسورة بلسان العرب : الأسد ، أو أول الليل ، أو الشديد . وبلسان الحبشة : الرماة .

سُورَةُ القِيَامَة

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمة عزيزة مَنْ سمعها بشاهد العِلْم استبصر ، ومن سمعها بشاهد المعرفة تحيَّر . . فالعلماء فى سكون برهانه ، والعارفون فى دَهَش سلطانه . . أولئك فى نجوم علومهم ، فأحوالُهم صَحْوٌ فى صَحْو ، وهؤلاء فى شموسِ معارفهم : فأوقاتُهم محوٌ فى محو .. فشتان ما هما ! !

قوله جل ذكره : « لا أُقْسِمُ بيومِ القيامةِ » .

أى : أقسم بيوم القيامة

« وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفسِ اللَّوَّامةِ » .

أى : أقسم بالنفس اللَّوَّامه ، وهى النَّفْسُ التى تلوم صاحبَها ، وتعرِف نقصانَ حالِها .

و يقال : غداً .. كلُّ نَفْسٍ تلوم نَفْسَها : إمَّا على كُفرِها ، وإمَّا على تقصيرها — وعلى هذا فالقَسَمُ يكون بإضمار « الرَّب » أى : أقسم بربِّ النفس اللوامة . وليس للوم النَّفْسِ فى القيامةِ خطرٌ — و إنْ حُمِلَ على الكُلِّ[1] ولكنَّ الفائدة فيه بيان أنَّ كلَّ النفوس غداً — ستكون على هذه الجملة . وجوابُ القسَم قولهُ : بلى...

قوله جل ذكره : « أَيَحسَبُ الإنسانُ أَلَّنْ نَّجْمَعَ عِظامَهُ ؟ »

أيظن أنَّا لن نبعثَه بعد موته ؟

« بلىٰ قادِرِينَ علىٰ أنْ نُّسوِّىَ بَنَانَهُ »

« قادرين » نصب على الحال ؛ أى بلى ، نسوى بنانه فى الوقت قادرين ، ونقدر أى نجعل

(١) هكذا فى م وهى الصواب أما فى ص فهى (الاكل) وهى خطأ قطعاً .

أصابع يديه ورجليه شيئاً واحداً كخُفِّ البعير وظلف الشاة .. فكيف لا نقدر على إعادته ؟ !

« بل يُرِيدُ الإنسانُ لِيَفْجُرَ أمامَهُ » .

يُقَدِّم الزّلّةَ ويؤخر التوبة . ويقول : سوف أتوب ، ثم يموت ولا يتوب . ويقال : يعزم[1] على ألا يستكثر من معاصيه فى مستأنف[2] وقته ، وبهذا لا تَنْحَلُّ — فى الوقت — عقدةُ الإصرار من قلبه ، وبذلك لا تصحُّ توبتُه ؛ لأن التوبة من شرطها العزم على ألا يعودَ إلى مثل ما عَمِلَ . فإذا كان استحلاء الزلّةِ فى قلبه ، ويفكر فى الرجوع إلى مثلها — فلا تصح ندامتُه .

قوله جل ذكره : « يَسألُ أيَّانَ يَومُ القيامةِ ؟ »

على جهة الاستبعاد ، فقال تعالى :

« فإذا بَرِقَ البصرُ * وَخَسَفَ القمرُ *
وجُمِعَ الشَّمْسُ والقمرُ * يقولُ
الإنسانُ يومئذٍ أيْنَ المفرُّ ؟ » .

« بَرِقَ بكسر الراء معناها تحَيَّرَ ، « وبَرَقَ » بفتح الراء شَخَصَ (فلا يَطْرِف) من البريق ، وذلك حين يُقَاد إلى جهنم بسبعين ألف سلسلة ، كل سلسلة بيد سبعين ألف مَلَك ، لها زفير وشهيق ، فلا يَبْقى مَلَكٌ ولا رسولٌ إلاَّ وهو يقول : نفسى نفسى !

« وَخَسَفَ القمر وجُمِعَ الشمس والقمر » كأنهما ثوران عقيران[3] .

ويقال : يجمع بينهما فى ألاَّ نورَ لهما .

---

(1) هكذا فى م وهى الصواب أما فى ص فهى (يزعم) وهى خطأ قطعاً بدليل ما بعدها... من شرطها (العزم) .

(2) أى : فى المستقبل .

(3) قال ابن عباس وابن مسعود : جمع بينهما أى قرن بينهما فى طلوعهما من المغرب أسودين مكورين مظلمين مقرنين كأنهما ثوران عقيران .

وفى مسند أبى داود الطيالسى عن يزيد الرقاشى عن أنس يرفعه إلى النبى (ص) قال : قال رسول الله ص : « إن الشمس والقمر ثوران عقيران فى النار » .

« يقول الإنسان يومئذ أين المفر ؟ » وللمفرّ موضع الفرار إليه ، فيُقال لهم :

« كلاَّ لا وَزَرَ »

اليومَ ، ولا مَهْربَ من قضاءِ الله[1] .

« إلىٰ ربِّك يومئذٍ المُسْتقرُّ » .

أي : لا مَحيدَ عن حُكْمِه .

« يُنَبَّؤُا الإنسانُ يومَئذ بما قدَّمَ
وأخَّرَ » .

أي : يَعْرِف ما أسْلَفَه[2] من ذنوب أحصاها اللهُ — وإن كان العبدُ نسيَها .

« بَلِ الإنسانُ على نَفْسِهِ بصيرةٌ *
ولوْ ألْقىٰ معاذِيرَهُ » .

للإنسان على نفسه دليل علامة وشاهد ؛ فأعضاؤه تشهد عليه بما عمِله .

ويقال : هو بصيرةٌ وحُجّةٌ على نفْسه في إنكار البعث .

و يقال : إنه يعلم أنه كان جاحداً كافراً ، ولو أتى بكلِّ حجةٍ فلن تُسْمع منه ولن تنفعه .

قوله جل ذكره : « لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ به *
إنَّ علينا جَمْعَهُ وقُرآنَه * فإذا قرأناهُ
فاتَّبِعْ قُرآنَهُ » .

لا تستعجِلْ في تَلَقُّفِ القرآنِ على جبريل ، فإنَّ علينا جَمْعَهَ في قلبك وحِفْظَه ، وكذلك علينا تيسيرُ قراءته على لسانك ، فإذا قرأناه أي : جمعناه في قلبك وحفظك فاتبع بإقرائك جَمْعَه .

« ثُمَّ إنَّ علينا بيانَهُ » .

نُبيِّنُ لك ما فيه من أحكام الحلال والحرام وغيرها . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعجل في التلقفِ مخافةَ النسيان ، فنُهِيَ عن ذلك ، وضمن اللهُ له التيسير والتسهيل .

---

(١) الوزر في اللغة ما يلجأ إليه من حصن أو جبل أو نحوها : قال الشاعر :

لعمرى ما للفتى من وزر   من الموت يدركه والكبر

(٢) هكذا في م وهي في ص (أسفله) وهي خطأ من الناسخ .

قوله جل ذكره : « كلاَّ بلْ تُحِبون العاجِلةَ * وتذَرون الآخِرة » .

أى : إنما يحملهم على التكذيب للقيامة والنشر أنهم يحبون العاجلة فى الدنيا ، أى : يحبون البقاء فى الدنيا .

« وتذرون الآخرة » : أى : تتركون العملَ للآخرة . ويقال : تكفرون بها .

قوله جل ذكره : « وجوهٌ يومئذٍ ناضِرةٌ * إلى ربِّها ناظرة » .

« ناضرة » : أى مشرقة حسنة ، وهى مشرقة لأنها إلى ربها « ناظرة » أى رائية لله .
والنظر المقرون بـ « إلى » مضافاً إلى الوجه[1] لا يكون إلاَّ الرؤية ، فالله تعالى يخلق الرؤية فى وجوههم فى الجنة على قَلْبِ العادة ، فالوجوه ناظرة إلى الله تعالى .

ويقال : العين من جملة الوجه (فاسم الوجه)[2] يتناوله .

ويقال : الوجهُ لاينظر ولكنَّ العينَ فى الوجهِ هى التى تنظر ؛ كما أنَّ النهرَ لا يجرى ولكنَّ الماء فى النهر هو الذى يجرى ، قال تعالى : « جنات تجرى من تحتها الأنهار » .

ويقال : فى قوله : « وجوه يومئذ ناضرة » دليل على أنهم بصفة الصحو ، ولا تتداخلهم حيرة ولا دَهَش ؛ فالنضرة من أمارات البسط لأن البقاء فى حال اللقاء أتمُّ من اللقاء .

والرؤية عند أهل التحقيق تقتضى بقاء الرائى ، وعندهم استهلاكُ العبدِ فى وجود الحقِّ أتمُّ ؛ فالذين أشاروا إلى الوجود رأوا الوجود أعلى من الرؤية .

قوله جل ذكره : « وَوُجوهٌ يومئذٍ باسِرةٌ * تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بها فاقِرة » .

---

(١) (مضافاً إلى) معناها (منسوباً إلى) .

(٢) ما بين القوسين وارد فى ص ولم يرد فى م وهو هام فى توضيح السياق .

« باسرة » : أى كالحةٌ عابسة . « فاقرة » أى : داهية[1] وهى بقاؤهم فى النار عَلَى التأييد .

(تظن أن يخلق فى وجوههم النظر[2]) .

ويحتمل أن يكون معنى « تظن » : أى يخلق ظنًّا فى قلوبهم يظهر أثَرُه على وجوههم .

« كلاَّ إذا بَلَغَتِ التَّراقِىَ * وقيل مَنْ راقٍ * وظنَّ أنَّه الفراقُ * والتفَّتِ السَّاقُ بالسَّاقِ * إلى ربِّكَ يومئذٍ المَسَاقُ » .

أى ليس الأمر على ما يظنون ؛ بل إذا بلغت نفوسُهم التراقىَ[3] ، وقيل : مَنْ راقٍ ؟ أى يقول مَنْ حولَه : هل أحدٌ يَرْقيه ؟ هل طبيبٌ يداويه ؟ هل دواء يشفيه ؟[4] .

ويقال : مَنْ حَوْله من الملائكة يقولون : مَنْ الذى يَرْقى برُوحه ؛ أملائكةُ الرحمة أو ملائكة العذاب ؟ .

« وظن أنه الفراق » : وعلم الميت أنه الموت ! .

« والتفت الساق بالساق » : ساقا الميت . فتقترنُ شدةُ آخرِ الدنيا بشدة أولِ الآخرة .

« إلى ربك يومئذٍ المساق » أى الملائكةُ يسوقون روحَه إلى الله حيث يأمرهم بأن يحملوها إليه : إمّا إلى عليين — ثم لها تفاوت درجات ، وإمّا إلى سجّين — ولها تفاوت دركات .

ويقال : الناسُ يُكفِّنون بَدنَ الميت ويغسلونه ويُصَلُّون عليه .. والحقُّ سبحانه يُلْبِسُ روحَه ما تستحق من الحُلَلِ ، ويغسله بماء الرحمة ، ويصلى عليه وملائكتُه .

قوله جل ذكره : « فلا صَدَّقَ ولا صلَّى * ولكن كذَّب وتَوَلَّى » .

---

(١) الفاقرة لها معان كثيرة منها : الداهية ، والأمر العظيم ، والشر ، والهلاك ، ودخول النار . وهى فى الأصل : الوسم على أنف البعير بحديدة أو نار حتى يخلص إلى العظم .

(٢) العبارة هكذا فى م أما فى ص فهى (..... الظن) بدلا من (النظر) ، ويمكن قبول عبارة م على أساس ن (النظر) أمرعظيم - وهو أحد معانى (الفاقرة) كما قلنا .. ولكننا نرجح — والله أعلم — أن العبارة ربما كانت فى الأصل على هذا النحو : [تظن : (أى) يخلق فى وجوههم (الظن)] فحتى هذا الظن مخلوق فى وجوههم من قبل الله .. وربما يتأيد ما ذهبنا إليه بما جاء بعدها مباشرة .

(٣) جمع (ترقوة) : العظام التى تكتنف مقدم الحلق من أعلى الصدر ، وهى موضع الحشرجة .

(٤) معروف ألا رقية ولادواء للموت . . ولكنهم يتساءلون هكذا على وجه التحير عند الإشفاء على الموت .

يعني : الـكافر ما صدَّق اللهَ ولا صلَّى له ، ولـكن كذَّب وتولَّى عن الإيمان . وتدل الآيةُ على أنَّ الـكفارَ مُخَاطَبون بتفصيل الشرائع .

« ثُمَّ ذَهَبَ إلى أهلِهِ يَتَمَطَّى » .

أي : يتبختر ويختال .

« أَوْلَىٰ لَكَ فأَوْلَىٰ » .

العَرَبُ إذا دَعَتْ على أحدٍ بالمكروه قالوا : أولى لك! وهنا أتبع اللفظَ اللفظَ على سبيل المبالغة .

ويقال : معناه الويلُ لَكَ يومَ تحيا ، والويلُ لكَ يوم تَموت ، والويلُ لكَ يومَ تُبْعَث ، والويل لكَ يوم تدخل النار[1] .

« أَيَحْسَبُ الإنسانُ أنْ يُتْرَكَ سدًى » .

مُهَمَلاً لا يُـكلَّفُ ! ؟ . ليس كذلك .

« أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ * ثم كان علقةً
فَخَلَقَ فسوَّى * فَجَعَلَ مِنهُ الزوجيْنِ
الذَّكَرَ والأنثى » .

« من مني يمنى » أي تُلْقَى في الرَّحم ، ثم كان علقة أي : دماً عبيطاً[2] ، فسوَّى أعضاءه في بطن أُمه ، ورَكَّبَ أجزاءَه على ما هو عليه في الخِلْقة ، وجعل منه الزوجين : إن شاء خَلَقَ الذَّكَرَ ، وإن شاء خَلَقَ الأنثى ، وإن شاء كليهما .

« أَليس ذلك بقادر على أَنْ يُحْيِيَ المَوْتَى ؟ » .

أَليس الذى قدر على هذا كلِّه بقادر على إحياء الموتى؟ فهو استفهام في معنى التقرير[3] .

---

(١) في معنى « الويل لك » تقول الخنساء :

همت بنفسي كل الهموم ... فأولى لنفسي أولى لها
سأحمل نفسي على آلة ... فإما عليها وإما لها

ويقال : إن الرسول هدد أبا جهل بهاتين الآيتين .. حتى إذا كان يوم بدر ، ضرب الله عنقه وقتل شر قتله .

(٢) اللحم العبيط : الطرى الذى لم ينضج (الوسيط) .

(٣) هكذا في م وهي الصواب أما في ص فهي (التقدير) بالدال وهي خطأ .

سُورَةُ الإنسَان

قوله جل ذكره: « بسم الله الرحمن الرحيم ».

« بسم الله » اسمٌ جبَّارٌ تَوَحَّد فى آزالِه بوصف جبروته، وتَفَرَّدَ فى آبادِه بنعت ملكوته؛ فأزَلُه أَبَدُه، وأَبَدُه أَزَلُه، وجبروتُه ملكوتُه، وملكوته جبروتُه.

أحديُّ الوصفِ، صَمَدِيُّ الذات، مُقَدَّسُ النَّعْتِ، واحدُ الجلالِ، فَرْدُ التعالى، دائمُ العِزِّ، قديمُ البقاء.

قوله جل ذكره: « هَل أَتَى على الإنسانِ حِينٌ من الدَّهرِ لم يَكُن شيئاً مذكوراً ».

فى التفسير: قد أتى على الإنسان حينٌ من الدهر لم يكن شيئاً له خَطَرٌ ومقدار. قيل: كان آدم عليه السلام أربعين سنة مطروحاً جَسَدُه بين مكة والطائف. ثم من صاصالٍ أربعين سنة، ثم من حمإٍ مسنون أربعين سنة، فتمَّ خَلْقُه بعد مائة وعشرين سنةٍ [1].

ويقال: « هل أتى على الإنسان حين من الدهر ... »: أى لم يأتِ عليه وقتٌ إلا كان مذكوراً إلىَّ.

ويقال: هل غَفَلْتُ ساعةً عن حِفْظِك؟ هل ألقيتُ — لحظةً — حبْلَكَ على غارِبك؟ هل أخليتُك — ساعةً — من رعاية جديدة وحمايةٍ مزيدة.

قوله جل ذكره: « إِنَّا خَلَقْنا الإنسانَ من نُّطفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً ».

---

(١) وزاد ابن مسعود أربعين سنة فقال: وأقام وهو من تراب أربعين سنة فتم خلقه بعد مائة وستين سنة ثم نفخ فيه الروح (حكاه الماوردى).

« من نطفة » : أى من قطرة ماء ، « أمشاج » : أخلاط من بين الرجل والمرأة .

ويقال : طوراً نطفة ، وطوراً عَلَقَة ، وطوراً عَظْماً ، وطوراً لَحْماً .

« نبتليه » : نمتحنه ونختبره . . وقد مضى معناه . « فجعلناه سميعاً بصيراً » .

« إنَّا هَدَيْنَاهُ السبيلَ إمَّا شاكِراً
وإمَّا كفوراً » .

أى : عَرَّفناه الطريقَ ؛ أى طريقَ الخيرِ والشرِّ .

وقيل : إمَّا للشقاوة ، وإمَّا للسعادة ، إمَّا شاكراً من أوليائنا ، وإما أن يكون كافراً من أعدائنا ؛ فإنْ شَكَرَ فبالتوفيق ، وإنْ كفَرَ فبالخذلان .

قوله جل ذكره : « إنَّا أعْتَدْنا لِلكافرين سَلاسِلاً
وأغْلالاً وسعيراً » .

أى : هَيَّأْنا لهم سلاسلَ يُسْحَبون فيها ، وأغلالاً لأعناقهم يُهانون بها ، « وسعيراً » : ناراً مستعرة .

« إنَّ الأبرارَ يشربُون من كأسٍ كان
مِزاجُها كافوراً » .

قيل : البَرُّ : الذى لايُضْمِرُ الشَّرَّ ، ولا يؤذى الذَّرّ .

وقيل : الأبرار : هم الذين سَمَتْ هِمَّتُهم عن المستحقرات ، وظهرت فى قلوبهم ينابيع الحكمة فاتقّوا عن مُسَاكنة الدنيا .

يشربون[1] من كأسٍ رائحتها كرائحة الكافور ، أو ممزوجة بالكافور .

ويقال : اختلفت مشاربُهم فى الآخرة ؛ فكلٌّ يُسْقَى ما يليق بحاله . . . وكذلك فى الدنيا مشاربُهم مختلفة ؛ فمنهم مَنْ يُسقَى مَزْجًا ، ومنهم من يُسقَى صِرْفاً ، ومنهم من يسقى على

---

(١) يتحدث القشيرى فى هذه السورة عن الشراب على نحو تفصيلى يستحق التأمل ، وينبغى أن يضاف إلى حديثه عنه فى رسالته عند بحث هذا الموضوع عند هذا الصوفى السُّنى الجليل .

النُّوَب ، ومنهم من يُسقى بالنُّجُب ومنهم من يُسْقى وحدَه ولا يُسقى مما يُسقى غيره ، ومنهم مَنْ يسقى هو والقوم شراباً واحداً . . وقالوا :

إن كنت من ندماى فبالأ كبر اسْقِنى ... ولا تَسْقِنى بالأصـــغر المتثـــلم

وفائدة الشرابِ — اليومَ — أن يشغلهم عن كل شيء فيرُيحهم عن الإحساس ، ويأخذهم عن قضايا العقل . . كذلك قضايا الشراب فى الآخرة ، فيها زوالُ الأَرَبِ ، وسقوطُ الطلبِ ، ودَوَامُ الطَّرَب ، وذَهَابُ الحَرَب ، والغفلة عن كلِّ سبب .

ولقد قالوا :

عاقِرْ عقارك واصْطِبِـحْ ... واقدَحْ سرورَك بالقَدَحَ

واخلع عذارك فى الهوى ... وأَرِحْ عذولَك واسترحْ

وافرَحْ بوقتِك إنما ... عُمْرُ الفتى وقتُ الفَرَح

قوله جل ذكره : « عيناً يشرب بها عبادُ اللهِ يُفَجِّرونها تفجيراً » .

يُشَقِّقونها تشقيقاً ، ومعناه أن تلك العيون تجرى فى منازلهم وقصورهم على ما يريدون . واليومَ — لهم عيونٌ فى أَسرارهم من عين المحبة ، وعين الصفاء ، وعين الوفاء ، وعين البسط ، وعين الروح .. وغير ذلك ، وغداً لهم عيون .

« يُوفون بالنَّذْرِ »

ثم ذكر أحوالهم فى الدنيا فقال : يوفون بالعهد القديم الذى بينهم وبين الله على وجهٍ مخصوص .

« ويَخافــونَ يوما كان شَرُّه
مُستطيراً » .

قاسياً ، منتشراً ، ممتداً .

« ويُطْعِمونَ الطعامَ على حُبِّهِ مِسْكيناً
وَيتيماً وأسيراً » .

أى : على حُبِّهم للطعام لحاجتهم إليه . ويقال : على حُبِّ الله ، ولذلك يُطْعِمون .

ويقال : على حُبِّ الإطعام .

وجاء فى التفسير : أن الأسير كان كافراً — لأنَّ المسلمَ ما كان يُستأسَرُ فى عهده — فطاف على بيت فاطمة رضى الله عنها[1] وقال : تأسروننا ولا تطعموننا[2] !

« إنَّمَا نُطْعِمُكُم لوجهِ اللهِ لا نُريدُ
مِنكُم جزاءً ولا شكوراً » .

إنما نطعمكم ابتغاءَ مرضاةِ الله ، لا نريد من قِبلكُم جزاءً ولا شكراً .

ويقال : إنهم لم يذكروا هذا بألسنتهم ، ولكن كان ذلك بضمائرهم .

« إنَّا نخافُ من رَّبِّنا يوماً عبُوساً
قَمْطَرِيراً » .

أى : يوم القيامة

« فوقَاهُم اللهُ شَرَّ ذلك اليومِ »

---

(١) هكذا فى م ، وفى ص (صلى الله عليها) .

(٢) قال الأسير وهو واقف بالباب : «السلام عليكم أهل بيت محمد ، تأسروننا وتشدوننا ولا تطعموننا ! أطعمونى فإنى أسير محمد » . فأعطوه الطعام ومكثوا ثلاثة أيام ولياليها لم يذوقوا شيئاً إلا الماء القراح .. حتى لصق بطن فاطمة بظهرها وغاورت عيناها من شدة الجوع » . فلما رآها النبى (ص) وعرف المجاعة فى وجهها بكى وقال : « واغوثاه يا ألله ! أهل بيت محمد يموتون جوعاً» فنزلت الآية . ولكن بعض رجال الحديث يطعنون فى هذا الخبر . يقول الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول : « هو حديث مزوق مزيف ، لأن الله تعالى يقول : يسألونك ماذا ينفقون قل العفو » ، والنبى يقول : « خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى » .

« ولقّاهُم » أى : أعطاهم « نضرةً وسرُوراً » .

« وجزاهم بِمَا صَبروا جَنَّةً وحريراً »

كافـأَهُم على ما صبروا من الجوع ومقاساته جنَّةً وحريراً

« متـكِئِين فيها على الأَرَائِكِ »

واحدها أريكة ، وهى السرير فى الحجال[1] .

« لا يرَوْنَ فيها شَمْساً ولا زمْهريراً »

أى : لا يَتأذّون فيها بِحَرٍّ ولا بَرْدٍ .

« ودانيةً عليهم ظِلالُها وذُلِّلَتْ
قُطوفُها تذْليلاً » .

يتمكنون من قطافها على الوجه الذى هم فيه من غير مشقة ؛ فإن كانوا قعوداً تُدَلَّى لهم ، وإن كانوا قياماً — وهى على الأرض — ارتقت إليهم .

« ويُطافُ عليهم بآنيةٍ من فِضَّة »

الاسم فضة ، والعين لا تشبه العين[2]

« وأكوابٍ كانت قواريرَاْ *
قواريرَاْ من فضَّةٍ قدَّروها تقديراً »

أى : فى صفاء القوارير وبياض الفضة .. قدَّرَ ذلك على مقدار إرادتهم .

« ويُسْقَوْن فيها كأساً كان مِزَاجُها
زَنْجبيلاً » .

المقصود منه الطِّيب ، فقد كانوا (أى العرب) يستطيبون الزنجبيل ، ويستلذون نكهته ،

---

(١) جمع حجلة وهى ستر يضرب على سرير العروس كالقبة .

(٢) من هذا يتضح أن القشيرى يرى أن الجنة وصفت بما يمكن أن يكون منتهى تصوراتهم الدنيوية لحالات النعمة .. فالألفاظ هى الألفاظ ولكن الحقائق شىء آخر .

وبه يشبّهون الفاكهة ، ولا يريدون به ما يقرص اللسان[1] .

« عيناً فيها تُسَمَّى سلسبيلاً » .

أى : يُسْقَوْنَ من عينٍ — أثبت المَسْقِيَّ وأَجْمَلَ مَنْ يسقيهم ؛ لأنَّ منهم من يسقيه الحقُّ — سبحانه — بلا واسطة .

قوله جل ذكره : « ويطوفُ عَليهم وِلْدانٌ مُخَلَّدونَ إذا رأيتَهم حَسِبْتَهم لُؤلُؤاً مَّنثوراً » .

أى : يخدمهم ولدان مخلدون (وصفا لا يجوز واحد منهم حدَّ الوصائف)[2] .

وجاء فى التفسير : لا يَهْرَمون ولا يموتون . وجاء مُقَرَّطون .

إذا رأيتهم حسبتهم من صفاء ألوانهم لؤلؤاً منثوراً[3] .

وفى التفسير : مامن إنسانٍ من أهل الجنة إلا ويخدمه ألف غلام .

قوله جل ذكره : « وإذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نعيماً ومُلْكا كبيراً » .

« ثَمَّ » : أى فى الجنة .

« مُلْكا كبيراً » : فى التفاسير أن الملائكة تستأذن عليهم بالدخول .

وقيل : هو قوله : « لهم ما يشاءون فيها »[4] ويقال : أى لا زوالَ له .

---

(١) من ذلك قول المسيب بن علس يصف ثغر المرأة :

وكأن طعم الزنجبيل به إذ ذقته وسلافة الخمر

وقال الأعشى :

كأن القرنفل والزنجبيـ ـل باتا بفيها وأريا مشورا

(والأرى = هو العسل) .

(٢) هكذا فى النسختين وفيها شيء من غموض .

(٣) قيل : إنما شبههم باللؤلؤ المنثور لأنهم سراع فى الخدمة ، بخلاف الحور العين إذ شبههن باللؤلؤ المكنون المخزون لأنهن لا يمتهنّ بالخدمة (القرطبى حـ ١٩ ص ١٤٤) .

(٤) آية ٣٥ سورة ق .

« عالِيَهُمْ ثيابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ
وإستبرقٌ وحُلُّوا أساوِرَ من فِضَّةٍ
وسَقَاهم ربُّهم شراباً طَهوراً » .

يحتمل أن يكون هذا الوصف للأبرار . ويصح أن يكون للولدان وهو أَوْلَى ، والاسم يوافق الاسم دون العين[1].

« شراباً طهوراً » : الشراب الطهورُ هو الطاهر فى نفسِه المُطَهِّرُ لغيره .

فالشراب يكون طهوراً فى الجنة — وإنْ لم يحصل به التطهيرُ لأن الجنة لا يُحتاجُ فيها إلى التطهير .

ولكنه — سبحانه — لَمَّا ذَكَرَ الشرابَ — وهو اليومَ فى الشاهد نَجَسٌ — أخبر أنَّ ذلك الشرابَ غداً طاهرٌ ، ومع ذلك مُطَهِّر ؛ يُطَهِّرُهم عن محبة الأغيار ، فمن يَحْتَسِ من ذلك الشرابِ شيئاً طَهَّرَه عن محبة جميع المخلوقين والمخلوقات .

ويقال : يُطَهِّرُ صدورهم من الغِلِّ والغِشِّ ، ولا يُبْقِى لبعضهم مع بعض خصيمة (ولاعداوة)[2] ولا دَعْوَى ولا شىء .

ويقال : يُطَهِّرُ قلوبهم عن محبة الحور العين .

ويقال : إن الملائكة تعرض عليهم الشرابَ فيأبون قبولَه منهم ، ويقولون : لقد طال أَخْذُنا مِنْ هؤلاء ، فإذا هم بكاساتٍ تُلاقِى أفواهَهم بغير أَكُفٍّ ؛ من غيبٍ إلى عَبْدٍ .

ويقال : اليومَ شرابٌ وغداً شراب .. اليوم شرابُ الإيناس[3] وغداً شرابُ الكاس ، اليوم شرابٌ من الُّلطْفِ وغداً شرابٌ يُدار على الكفّ .

---

(١) أرأيت كيف يلح القشيرى على هذا المعنى ؟
(٢) غير موجودة فى م وموجودة فى ص .
(٣) هكذا فى ص وهى فى م (الأنفاس) ، والصواب ما أثبتنا كما يتضح فيما بعد (آنسه) .

ويقال : مَنْ سقاه اليومَ شرابَ محبَّتِهِ آنَسَه وشَجَّعَه ؛ فلا يستوحِش فى وقته من شىء ، ولا يَضِنُّ بروحه عن بَذْل . ومن مقتضى شُرْبه بكأسِ محبته أن يجودَ على كلِّ أحدٍ بالكونين من غير تمييز ، ولا يَبْقَى على قلبه أثرٌ للأخطار .

ومن آثارِ شُرْبِهِ تذلُّلُه لكلِّ أحدٍ لأجل محبوبه ، فيكون لأصغرِ الخَدَم تُرَابَ القَدَم ، لا يتحرَّكُ فيه للتكبُّر عرْقٌ .

وقد يكون من مقتضى ذلك الشراب أيضاً فى بعض الأحايين أَنْ يَتِيهَ على أهل الدارين .

ومن مقتضى ذلك الشراب أيضاً أَنْ يمْلِكَه سرورٌ ولا يَتَمَالَكُ معه من خَلْعِ العذار وإلقاء قناع الحياء[1] ويظهر ما هو به من المواجيد :

يخلع فيك العذارَ قومٌ   فكيف مَنْ ما لَه عذارُ ؟

ومن موجبات ذلك الشراب سقوط الحشمة ، فيتكلم بمقتضى البسط ، أو بموجب لفظ الشكوى ، وبما لا يَستخرجُ منه — فى حال صَحْوه — سفيهٌ بالمناقيش[2] . . . وعلى هذا حَمَلُوا قول موسى : « ربِّ أرِنى أنظر إليك »[3]

فقالوا : سَكِرَ من سماع كلامه[4]، فنَطَقَ بذلك لسانُه . وأمَّا مَنْ يسقيهم شرابَ التوحيد فيَنْفِى عنهم شهودَ كلِّ غَيْرٍ فيَهيمون فى أودية العزِّ ، ويتيهون فى مفاوزِ الكبرياء ، وتتلاشى

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (الحياة) ، والملائم لخلع العذار إلقاء قناع (الحياء) . والمقصود بهما تجاوز حد الصبر على المكتوم من الحب ، ونطق العبد وهو فى غلبات الشهود بشطحات ظاهرها مستشنع وإن كان باطنها فى غاية السلامة (انظر تعريف السراج للشطح فى اللمع) .

(٢) المناقيش جمع منقاش ، ويقال فى المثل : استخرجت منه حقى بالمناقيش أى تعبت كثيراً حتى استخرجت منه حقى (الوسيط) .

(٣) آية ١٤٣ سورة الأعراف .

(٤) الضمير فى (كلامه) يعود على الرب ؛ سبحانه حينما قال : « إننى أنا الله » ، وفى موضع آخر يصف القشيرى موسى عليه السلام بأنه كان فى حال التلوين فظهر عليه ما ظهر ، بينما المصطفى (ص) ليلة المعراج كان فى حال التمكين فما زاغ بصره وما طغى .

جملتهم فى هواء الفردانية . . فلا عقلَ ولا تمييزَ ولا فَهْمَ ولا إدراك . . فكلُّ هذه المعانى ساقطة .

فالعبدُ يكون فى ابتداء الكَشْفِ مُستوْعَباً ثم يصير مستغرقًا ثم يصيرُ مُسْتَهْلَكا . . « وأن إلى ربك المنتهى »[1] .

قوله جل ذكره : « إنَّ هذا كان لكُمْ جزاءً وكان سَعْيُكُم مَّشكوراً » .

يقال لهم : هذا جزاءٌ لكم ، « مشكوراً » : وشُكْرُه لسعيهم تكثيرُ الثوابِ على القليل من العمل — هذا على طريقة العلماء ، وعند قومٍ شُكْرُهم جزاؤهم على شكرهم .

ويقال : شُكْرُه لهم ثناؤه عليهم بذكر إحسانهم على وجه الإكرام .

قوله جل ذكره : « إنَّا نحنُ نَزَّلْنا عليكَ القرآن تنزيلاً »

فى مُدَّةٍ[2] سنين .

« فاصبرْ لحُكمِ ربِّك ولا تُطِعْ منهم آثما أَوْ كفُورًا » .

أى : إرْضَ بقضائه ، واستسلمْ لِحُكْمِه .

« ولا تُطِعْ منهم آثماً أو كفوراً » : أى : ولا كفوراً ، وهذا أمرٌ له بإفرادِ ربِّه بطاعته .

« واذْكُرْ اسمَ ربِّكَ بُكْرَةً وأصيلًا * ومِنَ الَّيلِ فاسجُدْ له وسَبِّحْهُ ليلاً طويلاً » .

الفَرْضُ فى الأول ، ثم النَّفْلُ[3]

« إنَّ هؤلاء . . »

---

(١) آية ٤٢ سورة النجم .

(٢) هكذا فى النسختين ولا نستبعد أنها فى الأصل (عدة) وكلاهما صحيح فى السياق .

(٣) فالصلاة جاءت فى الأول (بكرة وأصيلاً) صلاة الصبح ثم الظهر والعصر (ومن الليل) المغرب والعشاء ثم من بعد ذلك النفل وهو(وسبحه ليلا طويلا) : لأنه تطوع ، قيل : هو منسوخ بالصلوات الخمس ، وقيل : هو خاص بالنبى (ص) وحده .

أى كفَّار قريش .

« يُحِبُّونَ العاجلةَ ويَذَرُون وراءهم
يوماً ثَقيلاً » .

أى : لا يعملون ليوم القيامة .

قوله جل ذكره : « نحن خلقناهُم وشَدَدْنا أَسْرَهم وإذا
شِئْنا بَدَّلنا أمثالَهم تَبْدِيلاً » .

أعدمناهم ، وخلقنا غيرَهم بدلاً عنهم . ويقال : أخذنا عنهم الميثاق[1].

« إنَّ هذه تذكِرةٌ . . . »

أى : القرآن تذكرة .

« فَمَنْ شاءَ اتَّخذَ إلى ربِّه سبيلاً » .

بطاعته .

« وما تشاءون إلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ إنَّ
الله كان عليماً حكيماً * يُدْخِلُ مَنْ
يشاء فى رحمتِهِ والظالمين أَعَدَّ لهم
عذاباً أليماً » .

أى : عذاباً أليما موجِعاً يخلص وَجَعُه إلى قلوبهم .

---

(١) تأخرت هذه العبارة عن موضعها ، فأرجعناها إلى مكانها .

سورة المرسلات

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمةٌ مَنْ سمعها بسمع الوَجْدِ أَوَفَى له فلم ينظرْ إلى أحد ، ومَنْ سمعها بسمع العِلْمِ جَادَ له فلم يبخلْ بروحه على أحد .

ومن سمعها بسمع التوحيد جَرَّدَ سِرَّه عن إيثارِ[1] ما سواه فى الدنيا والعقْبى عيناً وأثَراً فما كان هذا كله إلا حاصلاً به كائناً منه .

قوله جل ذكره : « والمُرْسَلَاتِ عُرْفاً » .

« المرسلات » : الملائكة ، « عرفاً » أى : أرسلوا بالمعروف من الأمر ، أو كثيرين كعُرْفِ الفَرس .

« فَالعاصِفاتِ عصْفاً » .

الرياحُ الشديدة (العواصف تأتى بالعصف وهو ورق الزرع وحطامه) .

« والنَّاشِراتِ نَشْراً » .

الأمطار (لأنها تنشر النبات . فالنشر بمعنى الإحياء) . ويقال : السُّحُبُ تنشر الغيث . ويقال : الملائكة .

« فالفارِقاتِ فَرْقاً » .

الملائكة ؛ تفرق بين الحلال والحرام .

« فالمُلْقياتِ ذِكْراً * عُذْراً أو نُذْراً » .

---

(١) هكذا فى ص وهى فى م (ثياب) وهى خطأ من الناسخ .

الملائكة : تُلقِي الوحىَ على الأنبياء عليهم السلام ؛ إعذاراً وإنذاراً . .

وجوابُ القَسَمِ :

« إنَّما تُوعَدُونَ لواقِـعٌ » .

فأقسم بهذه الاشياء : إنَّ القيامة لحقٌّ .

قوله جل ذكره : « فإذا النُّجومُ طُمِسَتْ » .

إنما تكون هذه القيامة . « وطمست » : ذهب ضوؤُها .

« وإذا الجِبالُ نُسِفَتْ » .

ذَهَبَ بها كلِّها بسرعة ، حتى لا يَبْقَى لها أَثَرٌ .

« وإذا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ * لِأَىِّ يومٍ أُجِّلَتْ * ليومِ الفَصْلِ » .

أى : جَعَلَ لها وقتاً وأَجَلاً لفَصْلِ القضاء يومَ القيامة .

ويقال : أُرْسِلَتْ لأوقاتٍ معلومة .

« وما أدْراكَ ما يومُ الفَصْلِ »

على جهة التعظيمِ له .

« ويلٌ يومئذٍ للمُكَذِّبين » .

مضى تفسيرُ معنى الويل .

ويقال فى الإشارات : فإذا نجومُ المعارف طمست بوقوع الغيبة .

وإذا الجبالُ نُسفت : القلوبُ الساكنة بيقين الشهود حُرِّكَتْ عقوبةً على ما هَمَّتْ بالذى لايجوز . فويلٌ يومئذٍ لأرباب الدعاوَى الباطلةِ الحاصلةِ من ذوى القلوب المُطبقة الخالية من المعانى .

قوله جل ذكره : « ألم نُهْلِكِ الْأوَّلينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُم الآخِرين » .

الذين كذَّبوا رُسُلَهم ، وجحدوا آياتنا ؛ فمثلما أهلكنا الأولين كذلك نفعل بالمجرمين إذا فعلوا مثلَ فِعْلِهم .

« ويلٌ يومئذٍ للمكذبين » الذين لا يستوى ظاهرُهم وباطنهم فى التصديق .

وهكذا كان المتقدمون من أهل الزَّلَّة والفترة فى الطريقة ، والخيانة فى أحكام المحبة فعُذِّبوا بالحرمان فى عاجلهم ، ولم يذوقوا من المعانى شيئاً .

قوله جل ذكره : « ألم نَخْلُقكم من ماءٍ مَّهين ؟ » .

أى : حقير . وإذ قد علمتم ذلك فلِمَ لم تقيسوا أمر البعث عليه ؟

ويقال : ذَكَّرَهم أصلَ خلقتهم لئلا يُعْجَبوا بأحوالهم ؛ فإنه لا جِنْسَ من المخلوقين والمخلوقاتِ أشدُّ دعوى من بنى آدم . فمن الواجبِ أنْ يتفكَّرَ الإنسانُ فى أصلِه . . . كان نطفةً وفى انتهائه يكون جيفة ، وفى وسائط حالِه كنيفٌ فى قميص ! ! فبالحرىِّ ألاَّ يُدِلَّ ولا يفتخر :

كيف يزهو مَنْ رجيعُهُ أبَدَ الدهرِ ضجيعُه

فهو منه وإليـــه وأَخـــوه ورضيعُه

وهو يدعوه إلى الحُـــشِّ[1] بصغر فيطيعه ؟ ! !

ويقال : يُذَكِّرهم أصلَهم .. كيف كان كذلك .. ومع ذلك فقد نقلهم إلى أحسن صورة ، قال تعالى :

« وصوركم فأحسن صوركم » ، والذى يفعل ذلك قادرٌ على أن يُرَقِّيَكَ من الأحوال الخسيسة إلى تلك المنازل الشريفة .

قوله جل ذكره : « ألم نجعلِ الأرضَ كِفَاتاً * أحياء وأمواتاً » .

« كفاتاً » أى : ذات جَمْعٍ ؛ فالأرض تضمهم وتجمعهم أحياء وأمواتا ؛ فهم يعيشون على ظهرها ، ويُودَعون بعد الموت فى بطنها ..

« وجَعلْنا فيها رواسىَ شامخاتٍ وأسقيناكُم ماءً فُراتاً » .

---

(١) الحش بفتح الحاء وضمها = الكنيف .

والمقصود : كيف تزهو أيها الإنسان ، وإن ما يقذفه جسمك من فضلات ملازم لك حياتك : ليلك ونهارك ، وأنت تطيعه صاغراً إذا أمرك ودعاك بالذهاب إلى الحش ؟

أى : جبالاً مرتفعات ، وجعلنا بهـا الماء سقياً لـكم . يُذكِّرهم عظيم مِنَّتِهِ بذلك عليهم .
والإشارةُ فيه إلى عظيم مِنّته أنَّه لم يخسف بكم الأرض — وإن عملتم ما عملتم .

« انْطلقوا إلى ما كنتم به تُـكَذِّبون » .

يقال لهم : انطلقوا إلى النار التى كذَّبتم بها .

« انطلِقوا إلى ظِلٍّ ذى ثلاثِ شُعَب * لاظليلٍ ولا يُغْنِى من اللّهب » .

كذلك إذا لم يعرفْ العبدُ قَدْرَ انفتاحِ طريقه إلى الله بقلْبه ، وتعزُّزِه بتوكله .. فإذا رجع إلى الخَلْقِ عند استيلاءِ الغفلة نَزَعَ اللهُ عن قلبه الرحمةَ ، وانسدَّت عليه طُرُقُ رُشْدِه ، فيتردد من هذا إلى هذا إلى هذا .

ويقال لهم : انطلقوا إلى ما كنتم به تـكذِّبون. والاستقلالُ بالله جنّة المأوى ، والرجوعُ إلى الخَلْقِ قَرْعُ باب جهنم .. وفى معناه أنشدوا :

ولم أرَ قبلى مَنْ يُفارِقُ جنَّةً ويقرع بالتطفيل بابَ جهنم

ثم يقال لهم إذا أخذوا فى التنصُّل والاعتذار :

« هذا يومُ لَا يَنطِقون * ولا يُؤْذَنُ لهم فَيَعْتَذِرون » .

فإلى أنْ تنتهىَ مُدّةُ العقوبة فحينئذ : انْ استأنَفْتَ وقتاً استؤنِفَ لك وقتٌ . فأمّا الآن.. فصبراً حتى تنقضِىَ أيامُ العقاب .

« هذا يومُ الفَصْلِ جمعنـاكم والأوّلين » .

فعلنا بكم ما فعلنا بهم فى الدنيا من الخذلان ، كذلك اليوم سنفعل بكم ما نفعل بهم من دخول النيران .

قوله جل ذكره : « إنّ المتقين فى ظلالٍ وعيونٍ » .

اليومَ .. فى ظلال العناية والحماية ، وغداً ... هم فى ظلال الرحمة والكلاءة .

اليومَ .. فى ظلال التوحيد ، وغداً .. فى ظلال حُسْن المزيد .

اليومَ .. فى ظلال المعارف ، وغداً .. فى ظلال اللطائف .

اليومَ .. فى ظلال التعريف ، وغداً .. فى ظلال التشريف .

« كلوا وأشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون » .

اليومَ تشربون على ذِكْره . . وغداً تشربون على شهوده ، اليوم تشربون بكاسات الصفاء وغداً تشربون بكاسات الولاء .

« إنّا كذلك نجزى المحسنين » .

والإحسانُ من العبد تَرْكُ الكلِّ لأجْله ! كذلك غداً : يجازيك بترك كلِّ الحاصل عليك لأجْلِك .

قوله جل ذكره : « كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون » .

هذا خطابٌ للكفار ، وهذا تهديد ووعيد ، والويل يومئذٍ لكم .

قوله جل ذكره : « وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون » .

كانوا يُصِرُّون على الإباء والاستكبار فسوف يقاسون البلاء العظيم[1] .

[ذكر فى التفسير : أن المتقين دائماً فى ظلال الأشجار ، وقصور الدرِّ مع الأبرار ، وعيون جارية وأنهار . ، وألوانٍ من الفاكهة والثمار . . من كل ما يريدون من الملِك الجبّار . ويقال لهم فى الجنة : كلوا من ثمار الجنات ، واشربوا شراباً سليماً من الآفات . « بما كنتم تعملون » من الطاعات . « كذلك نجزى المحسنين » من الكرامات . قيل : كلوا واشربوا « هنيئاً » : لا تبعة عليكم من جهة الخصومات ، ولا أذيَّة فى المأكولات والمشروبات .

وقيل : الهنىء الذى لا تَبِعَةَ فيه على صاحبه ، ولا أَذِيَّةَ فيه من مكروهٍ لغيره .]

(١) إلى هنا انتهى تفسير السورة فى م النسخة ص . وكل ما بين القوسين الكبيرين موجود فى النسخة م .

سورة النبأ [1]

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم ».

« بسم الله » اسمُ مَلِكٍ تجمَّلَ عِبادُه بطاعته ، وتَزَيَّنَ خَدَمُه بعبادته ، وهو سبحانه لا يتجمَّلُ بطاعة المطيعين ، ولا يتزيَّنُ بخدمة العابدين ؛ فزينة العابدين صُدار طاعتهم ، وزينة العارفينَ حُلَّةُ معرفتهم ، وزينة المحبِّين تاجُ ولايتهم .. وزينة المذنبين غَسْلُ وجوهِهم بصَوْبِ [2] عَبَرَاتهم .

قوله جل ذكره : «عَمَّ يتساءلون * عن النبأِ العظيم * الذى هم فيه مُخْتَلِفون ».

مختلفون بشدة إنكارهم أمرَ البعث ، ولالتباسِ ذلك عليهم ، وكثرةِ مُساءلتهم عنه ، وكثرة مراجعتهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فى معناه .

تكرَّر من الله إنزالُ أمرِ البعث ، وكم استدلَّ عليهم فى جوازِه بوجوهٍ من الأمثلة .. فهذا من ذلك ، يقول : « عمَّ يتساءلون . عن النبأ العظيم » : عن الخبر العظيم « الذى هم فيه مختلفون » قال الله تعالى على جهة الاحتجاج عليهم :

« ألَم نجعل الأرضَ مِهاداً ؟ »

ذَلَّلْناها لهم حتى سَكَنوها

« والجبالَ أَوْتاداً ؟ ».

---

(١) هذا هو اسم السورة كما جاء فى ص أما فى م فعنوانها (سورة عم يتساءلون) .

(٢) هى فى م (بضرب) وهى فى ص (بصوت) وكلاهما غير مقبول فى السياق ، وقد رجحنا أن تكون فى الأصل (بصوب) على أساس أن القشيرى يستعمل الفعل (تنقطر) مع (العبرة) فى مواضع مماثلة ، كما أنها أقرب فى الرسم .

أوتاداً للأرضِ حتى تَميدَ بِهِم .

« وخلقناكُم أزْوَاجًا »

ذَكَرًا وأنثى ، وحَسَنًا وقبيحاً . . وغير ذلك

« وجَعَلْنا نومَكم سُباتًا »

أي راحةً لكم ، لتَنقَطِعوا عن حركاتِكم التي تعبتم بها في نهاركم .

« وجَعَلْنا الليلَ لِباسًا »

تُغَطِّي ظُلْمتُهُ كلَّ شيء فتسكنوا فيه .

« وجعلنا النهارَ معاشاً »

أي وقتَ معاشِكم .

« وبَنَيْنا فوقَكم سَبعًا شِداداً »

أي سبع سموات .

« وجعلنا سِراجًا وهَّاجا »

أي الشمس ، جعلناها سراجاً وقَّاداً مشتعلا .

« وأنزلنا من المعصرات ماء ثَجَّاجا »

« المعصرات » الرياح التي تَعْصِرُ السحاب[1] .

« ماء ثجاجاً » مطراً صَبَّابا .

« لِنُخْـــرِجَ به حَبًّا ونباتًا *
وجَنَّاتٍ ألفافًا »

« حباً » كالحنطة والشعير ، « وجنات ألفافاً » بساتين يَلْتَفُّ بعضُها ببعض .

وإذا قد علمتم ذلك فهلاَّ علمتم أنِّي قادرٌ على أنْ أُعيدَ الخَلْقَ وأُقيمَ القيامة ؟

---

(١) والمعصرات أيضاً السحائب تعتصر بالمطر ، وأعصر القوم أي : أمطروا ، ومنه « وفيه يعصرون » والمعصر الجارية أول ما أدركت الحيض . فالمعصر السحابة التي حان لها أن تمطر (الصحاح) .

فبعدَ أن عَدَّ عليهم بعضَ وجوهِ إنعامه ، وتمكينهم من منافعهم .. قال :

« إنَّ يومَ الفصلِ كان ميقاتاً »

مضى معناه

« يومَ يُنْفَخُ فى الصُّورِ فتأتون أفواجاً » .

أى فى ذلك اليوم تأتون زُمراً وجماعاتٍ .

« وفتحت السماء فكانت أبواباً »

أى : تَشَقَّقَتْ وانفطرت .

« وسُيِّرَتِ الجبالُ فكانت سَراباً »

أى كالسراب .

« إنَّ جَهَنَّمَ كانت مِرْصاداً » .

أى ممراً . ويقال : ذات ارتقابٍ لأهلها .

« للطَّاغِين مآباً »

أى مرجعاً .

« لابثين فيها أحقاباً »

أى دهوراً ، والمعنى مُؤَبَّدين .

« لا يذوقون فيها بَرْداً ولا شرابا *
إلَّا حميًا وغسَّاقا »

مضى معناه . ثم يُعَذَّبون بعد ذلك بأنواعٍ أُخَرَ من العذاب .

« جزاءً وفاقا »

أى : جُوزُوا على وفق أعمالهم . ويقال : على وفق ما سَبَقَ به التقديرُ ، وجرى به الحُكم .

« إنَّهم كانوا لا يرجُون حِساباً »

لا يؤمنون فيرجون الثواب ويخافون العقاب .

« وكَذَّبوا بآياتنا كِذَّاباً »[1] .

أي : تكذيباً .

« وكُلَّ شيءٍ أحصيناه كتاباً »

أي : كتبناه كتاباً ، وعلمناه عِلْماً .

والمسبِّحُ الزاهدُ يحصى تسبيحَه ، والمهجورُ البائسُ يحصى أيامَ هجرانه ، والذى هو صاحب وصالٍ لا يتفرَّغ من وَصْلِه إلى تذكُّرِ أيامه فى العدد ، أو الطول والقصر .

والملائكة يُحصون زلاّت العاصين ، ويكتبونها فى صحائفهم . والحق سبحانه يقول : « وكل شى أحصيناه كتاباً » فكما أحصى زَلاَّتِ العاصين وطاعات المطيعين فكذلك أَحْصَى أيامَ هجرانِ المهجورين وأيامَ مِحَنِ المتحَنين ، وإنَّ لهم فى ذلك لَسَلْوَةً ونَفَساً :

ثمانٍ قد مضيْنَ بلا تلاقٍ وما فى الصبر فَضْلٌ عن ثمانٍ

وكم من أقوامٍ جاوزت أيامُ فترتِهم الحدَّ ! وأَرْبَتْ أوقاتُ هجرانهم على الحَصْر !

قوله جل ذكره : « فَذوقوا فَلَن نَزيدَكم إلاَّ عذاباً »

يأيها المُنَعَّمون فى الجنة . . إفرحوا وتمتعوا فلن نزيدكم إلا ثواباً .

أيها الكافرون .. احترقوا فى النار . . ولن نزيدكم إلا عذاباً[2]

ويأيها المطيعون . . إفرحوا وارتعوا فلن نزيدكم إلا فَضْلاً على فَضْل .

يأيها المساكين . . إبكوا واجزعوا فلن نزيدَكم إلَّا عَزْلاً على عَزْل .

قوله جل ذكره : « إنَّ للمتقين مفَازاً * حدائِقَ وأَعناباً * وكواعِبَ أَترابًا * وكأسا دِهَاقاً *

---

(1) فى «كذابا» يقول الفراء : هى لغة يمانية فصيحة ؛ يقولون : كذبت به كذاباً وخرقت القميص خِرَّاقاً. فكل فعل فى وزن (فعَّل) مصدره فِعال مشددة فى لغتهم .

(2) قال أبوبرزة : سألت النبى (ص) عن أشد آية فى القرآن فقال : قوله تعالى : «فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً » أى : «كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها » و« كلما خبت زدناهم سعيراً» .

« لا يسمعون فيها لَغْواً ولا كِذّابا *
جزاءً من ربِّك عطاءً حِساباً »

مُسَلَّمٌ المتقين ما وعدناهم به .. فهنيئا لهم ما أعددنا لهم من الفوزِ بالبُغْية والظَّفَرِ بالسُّؤْلِ والمُنْيَة : من حدائق وأعنابٍ ، ومن كواعبَ أترابٍ وغير ذلك .

فيأيها المُهَيَّمون المتيَّمون هنيئًا لـكم ما أنتم فيه اليومَ فى سبيل مولاكم من تجرُّدٍ وفقر ، وما كلَّفَـكم به من توكل وصبر ، وما تجرعتم من صَدٍّ وهجر .

أحرى الملابسِ ما تَلْقَى الحبيبَ به يومَ التزاورِ[1] فى الثوب الذى خَلَعا

قوله : « لا يسمعون فيها ... » آذانُهم مصونةٌ عن سماع الأغيار ، وأبصارهم محفوظةٌ عن ملاحظة الرسوم والآثار .

قوله جل ذكره : « ربِّ السمواتِ والأرضِ وما بينهما
الرحمنِ لا يملِـكون منه خطاباً »

وكيف تـكون للمُـكَوَّن المخلوقِ الفقيرِ المسكينِ مُـكْنَةٌ أنْ يملك منه خطاباً ؟ أو يتنفَّسَ بدونه نَفَسًا ؟ كلاّ .. بل هو اللهُ الواحدُ الجبَّار .

قوله جل ذكره : « يومَ يقومُ الروحُ والملائـكةُ صفًّا
لا يتـكلَّمون إلاّ مَنْ أَذِنَ له الرحمنُ
وقال صَوَابًا »

إنما تظهر الهيبةُ على العموم لأهل الجمع فى ذلك اليوم ، وأمَّا الخواص وأصحابُ الحضور فهُم أبداً بمشهدِ العزِّ بنعت الهيبة ، لا نَفَسَ[2] لهم ولا راحة ؛ أحاط بهم سرادُقها واستولت عليهم حقائقها .

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (التزاول) وهى خطأ من الناسخ ، والمقصود من النص الشعرى : أن الله يحب أن يرى على الفقراء ثياب التجرد لأنها الثياب التى خلعها عليهم بنفسه حينما آثروا حقه على حظوظهم .

(٢) هكذا فى ص وهى فى م (لانفر لهم ولا فرحة) وربما كانت (فرجة) بالجيم .

قوله جل ذكره : « ذلك اليومُ الحقُّ فمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إلى ربِّه مآباً » .

هم بمشهد الحقِّ ، والحكمُ عليهم الحقُّ ، حكم عليهم بالحق ، وهم مجذوبون بالحقِّ للحقِّ .

قوله جل ذكره : « إنَّا أنذرناكُم عذاباً قريباً » .

وهو عند أهلِ الغفلة بعيدٌ ، ولكنَّه فى التحقيق قريبٌ .

« يومَ ينظُرُ المرءُ ما قدَّمَتْ يداهُ

ويقـــولُ الـكافرُ[1] : يا ليتنى

كُنْتُ تُراباً » .

مضوا فى ذُلِّ الاختيار والتعنِّى[2] ، وبُعِثوا فى حسرة التمنِّى ، ولو أنهم رضوا بالتقدير لتخلَّصوا[3] عن التمنِّى .

---

(١) قيل : يراد بالكافر هنا أبى بن خلف أو عقبه بن أبى معيط . ويرى أبو نصر عبد الرحمن بن عبد الكريم القشيرى – صاحب هذا الكتاب : هو إبليس ، يقول : ياليتنى خلقت كآدم من تراب ولم أقل أنا خير منه لأنى من نار . (القرطبى حـ١٩ ص ١٨٩) .

(٢) وردت فى النسختين (التمنى) وهى مقبولة ، ولكننا نرجح أنها ربما كانت فى الأصل (التعنى) لأن الاختيار كان فى الدنيا ، واختيار المرء – حسب نظرية القشيرى – مجلبة لعنائه وشقائه .. هذا فضلا عن أن إثبات (التعنى) يزيد المعنى – نظراً لتلون الفاصلة – قوة وجمالا .

(٣) هكذا فى م وهى فى ص (لتحصلوا) وواضح فيها خطأ الناسخ .

سُورَةُ النَّازِعَات [1]

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » اسمٌ عزيزٌ لربٍّ عزيز ، سماعُه يحتاج إلى سَمْعٍ عزيز ، وذِكْرُه يحتاج إلى وقتٍ عزيز ، وفهمُه يحتاج إلى قلبٍ عزيز .

وأنَّى لصاحبِ سَمْعٍ بالغيبة مُبْتَذَل ، ووقتٍ مُعَطَّلٍ فى الخسائسِ مُسْتَغرق ، وقلبٍ فى الاشتغال بالأغيار مستعمل . . أَنَّى له أَنْ يَصْلُح لسماع هذا الإسم ؟ ! .

قوله جل ذكره : « والنَّازعاتِ غَرْقًا » .

أى الملائكة ؛ تنزعُ أرواحَ الكفَّارِ من أبدانهم .

« غرقًا » : أى إغراقًا كالمُغرِق فى قَوْسِه [2] .

ويقال : هى النجوم تنزع من مكانٍ إلى مكان .

« والنَّاشِطاتِ نَشْطًا » .

هى أنفس المؤمنين تَنْشَط للخروج عند الموت .

ويقال : هى الملائكة تنشِطُ أرواحَ الكفّار ، وتنزعها فيشتدُّ عليهم خروجُها .

ويقال : هى الوحوش تنشط من بلدٍ إلى بلدٍ .

ويقال : هى الأوهاق [3] .

---

(١) هكذا فى ص وهى فى م (سورة والنازعات) بإثبات الواو .

(٢) إغراق النازع فى القوس أن يبلغ مداها ويستوفى شدها .

(٣) هكذا فى م وهى فى (ص الارهاق) بالراء وهى خطأ فى النسخ ، والأوهاق جمع وهق بحركتين وقد يسكن : الحبل تشد به الإبل والخيل حتى تؤخذ وفى طرفه أنشوطة . وأوهق الدابة أى طرح فى عنقها الوهق ، وعن عكرمة وعطاء : الأوهاق تنشط السهام .

ويقال : هى النجوم تنشط من المشارق إلى المغارب ومن المغارب إلى المشارق .

« والسَّابِحات سَبْحاً » .

الملائكة تسبح فى نزولها .

ويقال : هى النجوم تسبح فى أفلاكها .

ويقال : هى السفن فى البحار .

ويقال : هى أرواح المؤمنين تخرج بسهولة لشوقها إلى الله .

« فالسَّابقاتِ سَبْقاً » .

الملائكة يسبقون إلى الخير والبركة ، أو لأنها تسبق الشياطين عند نزول الوحى ، أو لأنها تسبق بأرواح الكفار إلى النار .

ويقال : هى النجوم يسبق بعضها بعضاً فى الأفول .

« فالمُدَبِّراتِ أمْراً » .

الملائكة تنزل بالحرام والحلال .

ويقال : جبريل بالوحى ، وميكائيل بالقَطْرِ والنبات ، وإسرافيل بالصُّور ، ومَلَكُ الموت يَقْبضِ الأرواح . . عليهم السلام .

وجوابُ القَسم قوله : « إن فى ذلك لَعبرةً لمن يخشى »(١) .

قوله جل ذكره : « يومَ ترجُفُ الرَّاجِفةُ » .

تتحركُ الأرضُ حركةً شديدة .

« تتبعها الرَّادِفةُ » .

النفخة الأولى فى الصُّور . وقيل : الراجفة النفخة الأولى والرادفة النفخة الثانية .

---

(١) هذه هى الآية رقم ٢٦ بالسورة وهو اختيار الترمذى أيضاً . . وهى كما ترى متأخرة جداً . ويرى بعض المفسرين أن جواب القسم مضمر لأنه لا يخفى على السامع ، ويرى آخرون – كالفراء – أنه البعث بدليل « أئذا كنا عظاما نخرة » .

ويرى القرطبى : أنه قسم جوابه : إن القيامة حق .

« قلوبٌ يومئذٍ واجفةٌ » .

خائفـــة .

« يقــــولون أئِنَّا لمردودون في الحافِرة[1] » .

أي إلى أول أمرِ نا وحالنا ، يعني أئِذا متنا نبعث ونُرَدُّ إلى الدنيا (ونمشي على الأرض بأقدامنا) ؟ . قالوه على جهة الاستبعاد .

« أئِذا كُنَّا عِظاماً نَخِرةً » .

أي بالية .

« تلك إذاً كَرَّةٌ خاسِرةٌ » .

رَجْعَةٌ ذات خسران (ما دام المصيرُ إلى النار) .

قوله جل ذكره : « فإنَّما هي زَجْرَةٌ واحدةٌ * فإذا هم بالساهِرة[2] » .

جاء في التفسير إنها أرض المحشر ، ويقال : أنها أرضٌ بيضاء لم يُعْصَ الله فيها[3] .

ويقال : الساهرة نَفْخَةُ الصُّور تذهب بنومهم وتسهرهم .

قوله جل ذكره : « هـل أتاكَ حـديثُ مُوسى * إذ ناداهُ ربُّه بالوادِ المُقَـــدَّسِ طُوًى » .

أي الأرض المطهرة المباركة . « طوًى » اسم الوادي هناك .

« اذْهَبْ إلى فرعونَ إنه طَغَى * فَقُلْ هل لك إلى أنْ تَزَكَّى » .

---

(١) سميت الأرض الحافرة لأنها مستقر الحوافر .

(٢) سميت الأرض بالساهرة لأن فيها نوم الحيوان وسهره (الفراء) ، وقال أبو كبير الهذلي :

يرتدن ساهرة كأن جميمها وعميمها أسداف ليل مظلم

(٣) هذا رأي ابن عباس .

قلنا له : إذهب إلى فرعون إنه طغى ، فقل له : هل يقع لك أنْ تؤمِنَ وتتطهر من ذنوبك .

وفى التفسير : لو قُلْتَ لا إله إلا الله فَلَكَ مُلْكٌ لا يزول ، وشبابك لا يهرم ، وتعيش أربعمائة سنةٍ فى السرور والنعمة .. ثم لك الجنة فى الآخرة .

« وأَهْدِيَكَ إلى ربِّك فتخشى » .

أُقَرِّرُ لك بالآيات صِحَّةَ ما أقول ، وأعرفك صحة الدين . . فهل لك ذلك ؟ فلم يَقْبَلْ .

ويقال : أظهر له كل هذا التلطُّفَ ولكنه فى خَفِيِّ سِرِّه وواجبِ مَكْرِه به أنه صَرَفَ قلبَه عن إرادة هذه الأشياء ، وإيثار مرادِه على مراد ربِّه ، وألقى فى قلبه الامتناعَ ، وتَرْكَ قبولِ النُّصْح . . وأيُّ قلبٍ يسمع هذا الخطاب فلا ينقطع لعذوبة هذا اللفظ ؟ وأيُّ كَبِدٍ تعرف هذا فلا تَتَشَقَّقُ لصعوبة هذا المكر ؟

قوله جل ذكره : « فأراهُ الآيةَ الكُبرى » .

جاء فى التفسير : هى إخراجُ يده بيضاء لها شعاعٌ كشعاع الشمس . فقال فرعون : حتى أشاوِرَ هامانَ[1] ، فشاوَرَه ، فقال له هامان : أبعد ما كُنْتَ ربًّا تكون مربوبًا ؟ ! وبعد ما كنت مَلِكاً تكون مملوكاً ؟

فكذَّبَ فرعونُ عند ذلك ، وعَصَى ، وَجَمَعَ السَّحَرَة ، ونادى :

« فقال أنا ربُّكُمُ الأعلى » .

ويقال : إنَّ إبليس لمَّا سَمِع هذا الخطابَ فرَّ وقال : لا أطيق هذا !

ويقال قال : أنا ادَّعَيْتُ الخيرية على آدم فلقيت ما لقيت . . وهذا يقول : أنا ربُّكم الأعلى .

قوله جل ذكره : « إنَّ فى ذلك لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى » .

---

(١) يقصد القشيرى من بعيد إلى شيئين : أولهما أن فساد الملوك قد يكون بسبب وزرائهم وحاشيتهم .. ولعلنا نذكر ما قلناه فى المدخل عن أن أشد المحنة التى ألمت بالقشيرى كانت بسبب الكندرى وزير السلطان طغرل .
وثانيهما أن الصحبة السيئة قد تؤدى إلى هلاك الصاحب والمصحوب ، وفى هذا تحذير لأرباب الطريق (راجع باب الصحبة فى الرسالة ص ١٤٥) .

أى فى إهلاكنا فرعون لَعِبْرَةً لمن يخشى .

قوله جل ذكره : « ءأنتم أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السماء بناها * رَفَعَ سمْكَهَا فسوَّاها * وأَغْطَشَ ليلها وأخرجَ ضُحاها » .

« فسوّاها » جعلها مستوية . « وأغطش ليلها » أظلم ليلها . « ضحاها » ضوؤها ونهارها .

« دحاها » بَسَطها وَمدَّها .

« أخرجَ منها ماءها ومَرْعاها » .

أخرج من الأرض العيون المتفجرة بالماء ، وأخرج النبات ..

« والجبالَ أرساها » .

أثبتَهَا أوتاداً للأرض .

« متاعًا لَّكم ولأَنْعَامِكم » .

أى أخرجنا النبات ليكون لكم به استمتاع ، وكذلك لأنعامِكم .

« فإذا جاءتِ الطامَّةُ الكبرى » .

الداهية العُظمى .. وهى القيامة .

« يومَ يَتَذَكَّرُ الإنسانُ ماسعى » .

وبرزت الجحيم لمن يرى ، فأمَّا من طغى وكَفَرَ وآثر الحياة الدنيا فإنَّ الجحيمَ له المأوى والمُسْتَقَرُّ والمثوى .

« وأمَّا مَنْ خاف مقامَ ربِّه ونَهَى النَّفْسَ عن الهوى * فإنَّ الجنةَ هى المأوى » .

« مقام ربه » : وقوفه غداً فى محل الحساب . ويقال : إقبالُ الله عليه وأنَّه راء له . . وهذا عينُ المراقبة ، والآخَر محلُّ المحاسبة .

« ونهى النفس عن الهوى » أى لم يتابع هواه .

قوله جل ذكره : « يسألونَكَ عن الساعةِ أيَّانَ مُرْساها ؟ » .

أى متى تقوم ؟

« فِيمَ أنت مِنْ ذكراها » .

مِنْ أين لك عِلْمُها ولم نعلمك ذلك [1] .

« إلى رَبِّكَ مُنْتَهاها » .

أى إنما يعلم ذلك ربُّكَ .

« إنما أنت مُنْذِرُ مَنْ يخشاها » .

أى تخوِّف ، فيقبل تخويفَك مَنْ يخشاها ويؤمن .

« كأنهم يومَ يَرَوْنَها لم يَلْبثُوا إلا عَشِيَّةً أو ضُحاها » .

كأنهم يومَ يَرَوْن القيامة لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ؛ فلشدة ما يرون تقل عندهم كثرةُ ما لبثوا تحت الأرض .

---

(١) روى الإمام البخارى فى نهاية حديثه عن هذه السورة قال : حدثنا أحمد بن المقدام حدثنا الفضيل بن سليمان حدثنا أبو حازم حدثنا سهل بن سعد رضى الله عنه قال : رأيت رسول الله (ص) قال بأصبعيه هكذا بالوسطى والتى تلى الإبهام بعثت والساعة كهاتين . » (البخارى حـ٣ ص١٤٢) .

سُورَةُ عَبَسَ [1]

قوله جل ذكره « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » . . اسم كريم بَسَطَ للمؤمنين بساطَ جوده ، اسم عزيز انسدَّ على الأولين والآخرين طريقُ وُجُودِه . . وأنَّى بذلك ولا حَدَّ له ؟ مَنْ الذى يدركه بالزمانِ والزمانُ خَلْقُهُ ؟ ومن الذى يحسبه فى المكانِ والمكانُ فِعْلُه ؟ ومَنْ الذى يعرفه — إلَّا وبه يعرفه ؟ ومَنْ الذى يَذْكُره[2] — إلا وبه يذكره ؟

قوله جل ذكره : « عَبَسَ وتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الأعمىٰ » .

نَزَلَت فى ابن أمِّ مكتوم ، وكان ضريراً .. أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم وكان عنده العباس ابن عبد المطلب وأمية بن خلف الجُمَحِىّ[3] — يرجو الرسولُ صلى الله عليه وسلم إيمانَهما ، فَكَرِه أَنْ يَقْطَعَ حديثَه معهما ، فأعرض عن ابن أمِّ مكتوم ، وعَبَسَ وَجْهُهُ ، فأنزل اللهُ هذه الآية .

وجاء فى التفسير : أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم خرج على أثرِه ، وأَمَرَ بطلبِه ، وكان بعد ذلك يَبَرُّه ويُكْرِمُه ، فاستخلفه على المدينة مرتين .

وجاء فى التفسير : أنه صلى الله عليه وسلم لم يَعْبَسْ — بعد هذا — فى وجهِ فقيرٍ قط ، ولم يُعْرِضْ عنه .

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (سورة الأعمى)

(٢) هكذا فى ص . هى فى نظرنا أصوب من (يدركه) التى فى م لأن السياق بعدها سيكون : (إلا وبه يدركه) والله سبحانه منزه عن الدرك واللحوق كما نعرف من مذهب القشيرى . أما الذكر فهذا مقبول على حد تعبير ذى النون المصرى : (لا أعرفك إلا بك ولا أذكرك إلا بك) .

(٣) يقول ابن العربى : غير صحيح أن أمية هذا كان فى هذا المجلس ، فقد كان بمكة وابن أم مكتوم كان بالمدينة وكان موته كافرا ، ولم يقصد المدينة ، ولا اجتمع بالنبى .

ويقال : فى الخطاب لُطفٌ . . وهو أنه لم يواجهه بل قالَه على الكناية[1] ، ثم بعده قال :

« وما يُدْرِيكَ لعلّه يَزَّكَّىٰ » .

أى يتذكر بما يتعلم منك أو .

« أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ » .

قوله جل ذكره : « أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ * فأنت له تَصَدَّىٰ * وما عليكَ أَلّا يَزَّكَّىٰ » .

أمّا مَنْ استغنى عن نَفْسِه فإنه استغنى عن الله .

ويقال : استغنى بماله فأنت له تصدَّى ، أى تُقْبِلُ عليه بوجهك .

« وما عليك . . . » فأنت لا تُؤَاخَذُ بألا يتزكّى هو فإنما عليكَ البلاغ .

« وَأَمَّا مَنْ جاءك يسعىٰ » .

لطَلَبِ العِلْمِ ، ويخشى الله فأنت عنه تَتَلَهَّى ، وتتشاغل . . وهذا كله مِنْ قبيلِ العتاب معه لأَجْلِ الفقراء .

قوله جل ذكره : « كَلّا إِنَّها تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شاءَ ذَكَرَه » .

القرآن تذكرة ؛ فَمَنْ شاء الله أن يَذْكُرَه ذَكَرَه ، ومَنْ شاء الله ألا يَذْكُرَه لم يُذَكِّرْه ؛ أى بذلك جرى القضاء ، فلا يكون إلا ما شاء اللهُ .

ويقال : الكلامُ على جهة التهديد ؛ ومعناه : فَمَنْ أراد أن يذكره فليذكره ، ومن شاء ألا يذكره فلا يذكره ! كقوله « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر »[2] .

وقال سبحانه : « ذَكَرَه » ولم يقل « ذَكَرَها » لأنه أراد به القرآن .

قوله جل ذكره : « فى صُحُفٍ مُّكَرَّمَة » .

---

(١) أى تحدث عن عبوس الوجه بضمير الغائب ، ثم جاء العتاب بضمير الخطاب .

(٢) آية ٢٩ سورة الكهف .

أى صحف إبراهيم وموسى وما قبل ذلك، وفى اللوح المحفوظ.

« مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ».

مرفوعة فى القَدْر والرتبة، مطهرة من التناقض والكذب.

« بأيدى سَفَرَة ».

أى: الملائكة الكَتَبة.

« كِرَامٍ بَرَرَة ».

كرامٍ عند الله بَرَرَة.

قوله جل ذكره: « قُتِلَ الإنسانُ ما أَكْفَرَه ! ».

لُعِنَ الإنسان ما أعظم كُفْره !.

« مِنْ أىِّ شىءٍ خَلَقَهُ * من نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ».

خَلَقَه وصَوَّره وقَدَّره أطواراً: من نطفةٍ، ثم عَلَقَةٍ، ثم طوراً بعد طور.

قوله جل ذكره: « ثم السبيلَ يَسَّرَهُ ».

يَسَّرَ عليه السبيلَ فى الخير والشرِّ، وألهمه كيف التصرُّف.

ويقال: يَسَّرَ عليه الخروجَ من بطن أُمِّه يخرج أولاً رأسه منكوساً.

« ثم أماتَه فأَقْبَرَهُ ».

أى: جعل له قَبْراً لئلا تفترِسَه السِّباعُ والطيورُ ولئلا يفتضح.

« ثم إذا شَاء أَنْشَرَهُ ».

بَعَثَه من قبره.

« كَلَّا لَمَّا يَقْضِ ما أَمَرَهُ »

أى: عصى وخالَفَ ما أُمِرَ به.

ويقال : لم يقضِ الله له ما أمره به ، ولو قضى عليه وله ما أمره به لَمَا عصاه[1] .

قوله جل ذكره : « فلينظرِ الإنسانُ إلى طعامِه * أَنَّا صَبَبْنا الماءَ صَبًّا * ثم شَقَقْنا الأرضَ شَقًّا * فأنْبَتَنا فيها حَبًّا * وعِنَبًا وقضْبًا * وزيتونًا ونَخلاً * وحَدَائِقَ غُلْباً » .

فى الإشارة : صَبَبْنا ماءَ الرحمةِ على القلوب القاسية فَلانَتْ للتوبة ، وصببنا ماءَ التعريف على القلوب فنبتت فيها أزهارُ التوحيد وأنوارُ التجريد .

« وقضْبًا » أى القَتّ[2] .

« وحدائق غُلبًا » متكاثفةً غلاظاً .

« وفاكِهةً وأَبًّا » .

الفاكهة : جميع الفواكه ، و « أَبًّا » : المرعى .

« متاعاً لَّكُم ولأنعامِكُم . . . » .

«فإذا جاءتِ الصاخَّة » أى : القيامة ؛ فيومئذٍ يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، ثم بيَّن ما سبب ذلك فقال :

« لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم يومئذٍ شأنٌ يُغْنيه » .

لا يتفرَّغ إلى ذاك ، ولا ذاك إلى هذه . كذلك قالوا : الاستقامةُ أَنْ تشهدَ الوقتَ

---

(١) أى : كلاّ لم يقض الله لهذا الكافر ماأمره به من الإيمان ، بل أمره بمالم يقضه له ـــ وهذا الرأى للإمام ابن فورك شيخ القشيرى .

(٢) سمى القت قضباً لأنه يقضب ، أى يقطع بعد ظهوره مرة بعد مرة (الحسن) ويرى ابن عباس أنه الرطب لأنه يقضب من النخل ، ولأنه ذكر العنب قبله .

قيامةً ، فما من وليٍّ ولا عارفٍ إلّا وهو — اليومَ — بقلبه يَفِرُّ من أخيه وأمه وأبيه ، وصاحبتِه وبنيه .

فالعارفُ مع الخَلْق ولكنه يُفَارقهم بقلبه — قالوا :

فلقد جعلتك فى الفؤادِ مُحَدِّثى

وأبَحْتُ جسمى مَنْ أراد جلوسى[1]

قوله جل ذكره : « وُجوهٌ يومَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضاحِكَةٌ مُسْتَبشِرةٌ » .

وسببُ استبشارهم مختلفٌ ؛ فمنهم مَنْ استبشاره لوصوله إلى جنَّته ، ومنهم لوصوله إلى الحور العين من حظيته . . ومنهم ومنهم ، وبعضهم لأنه نظر إلى ربِّه فرآه .

« وَوُجوهٌ يومَئِذٍ عليها غَبَرَةٌ * تَرْهَقُها قَتَرَةٌ * أولئك هم الكَفَرَةُ الفَجَرَةُ » .

وهى غَبَرَةُ الفُسَّاق . « ترهقها قترة » . وهى ذُلُّ الحجاب .

(١) أحد بيتين ينسبان إلى رابعة العدوية ، والثانى :

فالجسم منى للجليس مؤانسٌ وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى

(نشأة التصوف الإسلامى ص ١٩١ ط المعارف تأليف بسيونى) .

سُورَةُ التَّكْوِير

قوله جل ذكره . « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » كلمةٌ أَثْلَجَتْ من قومٍ قلوبًا ، وأوهجت من آخرين قلوبًا ؛ من المطيعين أَثْلَجَتْها ، ومن العاصين أَوْهَجَتْها ، ومن المريدين أبهجتها ، ومن العارفين أزعجتها .

قوله جل ذكره . « إذا الشمسُ كُوِّرَتْ » .

ذَهَبَ ضَوْؤُها .

« وإذا النُّجومُ انْكَدَرَتْ » .

تناثرت وسقطت عَلَى الأرض .

قوله جل ذكره . « وإذا الجِبالُ سُيِّرَتْ »[1] .

أُزِيلَتْ عنها منا كبُها .

« وإذا العِشَارُ عُطِّلَتْ » .

وهى النُّوق الحواملُ التى أتى حَمْلُها عَشْرَةَ أشهر . أُهملت فى ذلك اليوم لشدة أهواله ، (واشتغال الناس بأنفسهم عنها) .

« وإذا الوحُوشُ حُشِرَتْ » .

أُحْيِيَتْ ، وجُمِعَتْ فى القيامة لِيُقْتَصَّ لبعضها من بعض ؛ فيقتصّ للجمّاء من القَرْناء[2] — وهذا على جهة ضَرْبِ المثل ؛ إذ لا تكليف عليها .

---

(١) تأخرت هذه الآية بعد آية (العشار) فى م فوضعناها فى مكانها الصحيح .

(٢) هذا رأى ابن عباس كما رواه عنه عكرمة ، والجماء : ماليس لها قَرْنٌ ، وفى أمثالهم « عند النطاح يُغْلَبُ الكبش الأجَمّ » .

ولا يبعد أن يكون بإيصال منافع إلى ما وصل إليه الألم — اليومَ — على العِوَضِ . . جوازاً لا وجوباً على ماقالَه أهلُ البِدَع .

« وإذا البحارُ سُجِّرَتْ » .

أُوقدت — مِنْ سَجَرْتُ التنور أَسْجُرُه سَجْراً ، أى : أَحْمَيْتُه .

« وإذا النُّفوسُ زُوِّجَتْ »[1] .

بالأزواج .

« وإذا المَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بأَىِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ * وإذا الصُّحُفُ نُشِرَتْ » .

نُشِرَتْ ، أى : بُسِطَت .

« وإذا السماءُ كُشِطَتْ » .

أى : نُزِعَتْ وطُوِيَتْ .

« وإذا الجحيمُ سُعِّرَتْ » .

أُوقِدَت .

« وإذا الجنَّةُ أُزْلِفَتْ » .

أى : قُرِّبَتْ من المتقين .

قوله جل ذكره : « عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ »

هو جوابٌ لهذه الأشياء ، وهذه الأشياء تحصل عند قيام القيامة .

وفى قيام قيامة هذه الطائفة (يقصد الصوفية) عند استيلاء هذه الأحوال عليهم ، وتجلِّى هذه المعانى لقلوبهم توجد هذه الأشياء .

---

(١) قرنت بأشكالها فى الجنة والنار ، قال تعالى : «احشروا الذين ظلموا وأزواجهم» . وقال صلى الله عليه وسلم : « يقرن كل رجل مع كلِّ قومٍ كانوا يعملون كعمله » .

فمن اختلاف أحوالهم : أنَّ لشموسهم فى بعض الأحيان كسوفًا وذلك عندما يُرَدُّون[1] .
ونجومُ علومِهم قد تنكدر لاستيلاء الهوى على المريدين فى بعض الأحوال ، فعند ذلك « علمت نفس ما أحضرت » .

قوله جل ذكره : « فلا أُقْسِمُ بالْخُنَّس * الجَوارِ الكُنَّس » .

أى : أُقْسِمُ ، والخُنَّس والكُنَّس هى النجوم إذا غربت[2] .

ويقال : البقر الوحشى[3] .

قوله جل ذكره : « واللَّيلِ إذا عَسْعَسَ * والصُّبحِ إذا تَنَفَّسَ » .

عسعس : أى جاء وأقبل .   « تنفَّس » : خرج من جوف الليل .

أقسم بهذه الأشياء ، وجواب القسم :

« إنَّه لقولُ رسُولٍ كريمٍ » .

إن هذا القرآنَ لقولُ رسولٍ كريمٍ ، يعنى به جبريل عليه السلام .

« ذى قُوَّةٍ عند ذى العَرْش مكينٍ » .

« مكين » من المكانة ، وقد بلغ من قوته أنه قلع قرية آلِ لوطٍ وقلَبَها .

« وما صاحِبُكم بمجنونٍ »

وهذا أيضاً من جواب القَسَم .

« ولقد رآه بالأُفُقِ المبينِ »

رأى محمدٌ جبريلَ عليه السلام بالأفق المبين ليلةَ المعراج .

---

(١) «عندما يُرَدُّون» فى أحوال القبض بعد البسط والهجر بعد الوصل ، والخوف بعد الرجاء والفرق بعد الجمع .. ونحو ذلك .

(٢) قيل هى الكواكب الخمسة الدرارى : زحل ، والمشترى ، وعطارد ، والمريخ ، والزُّهرة (فى رواية عن على ابن أبى طالب) .

(٣) فسرت هكذا فى رواية عن عبد الله بن مسعود ، وأخرى عن ابن عباس .

ويقال : رأى ربَّه وكان صلى الله عليه وسلم بالأفق المبين .

« وما هُو على الغيبِ بِضَنين » .

بمتَّهَمٍ[1]

قوله جل ذكره : « فأين تَذْهبُون ؟ » .

إلى متى تتطوحون فى أودية الظنون والحسبان ؟

وإلى أين تذهبون عن شهود مواضع الحقيقة ؟

وهلاَّ رجعتم إلى مولاكم فيما سَرَّكم أو أساءكم ؟

« إنْ هو إلَّا ذِكْرٌ للعالَمِين * لِمَن شاء منكم أن يستقيم » .

ما هذا القرآن إلَّا ذكرى لمن شاء منكم أن يستقيم . . . وقد مضى القولُ فى الاستقامة .

« وما تشاءون إلَّا أَن يشاءَ اللهُ ربُّ العالَمِينَ » .

أَنْ يشاءوا[2] .

---

(١) لا تكون بهذا المعنى إلا إذا قرئت (بظنين) بالظاء ، وهى قراءة ابن كثير ، وأبى عمرو والكسائى . والآخرين بالضاد فيكون المعنى (ببخيل) أى لا يبخل عليكم بما يعلم من أخبار السماء .

(٢) كنا ننتظر من القشيرى الذى ينادى بأن كل شىء من الله وإلى الله حتّى أكساب العباد أن يفيض فى توضيح هذه الآية أكثر من ذلك ؛ لأنها ناصعة صريحة فى نسبة المشيئة — كل المشيئة — لله ، وأن الإنسان إذا وصف بالمشيئة فهى مرتبطة بالمشيئة الإلهية .

سُورَةُ الانْفِطَارْ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمةٌ منيعةٌ ليس يسمو إلى فَهْمِها كلُّ خاطر ؛ فإذا كان الخاطِرُ غيرَ عاطرٍ فهو عن عِلْمِ حقيقتِها مُتقاصِر .

قوله جل ذكره : « إذا السماء انفطَرَتْ »

أي : انشقت .

« وإذا الكواكِبُ انتثرتْ » .

تساقطت وتهافتت .

« وإذا البحارُ فُجِّرَتْ » .

أي : فُتِحَ بعضها على بعض .

« وإذا القُبورُ بُعْثِرَتْ »

أي : قُلِبَ ترابُها ، وبُعِثَ الموتى الذين فيها ، وأُخْرِجَ ما فيها من كنوزٍ وموتى .

«عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وأَخَّرَتْ» .

جوابٌ لهذه الأمور ؛ أي إذا كانت هذه الأشياء : عَلِمَتْ كلُّ نَفْس ما قدَّمت من خيرها وشَرِّها .

قوله جل ذكره : « يأيها الإنسانُ ما غَرَّكَ بربِّكَ الكريمِ » .

أى : ما خدعك وما سوَّل لك حتى عملت[1] بمعاصيه ؟

ويقال : سأله وكأنما فى نفس السؤال لقَّنه الجواب يقول : غرَّنى كرمك بى ، ولولا كرمك لما فعلتُ ؛ لأنك رأيت فسترتَ ، وقدرتَ فأمهلتَ .

ويقال : إن المؤمن[2] وثق بحسن إفضاله فاغترَّ بطول إمهاله فلم يرتكب الزلة لاستحلاله ، ولكنَّ طول حلمه عنه حمله على سوء خصاله ، وكما قلت[3] :

يقول مولاى : أمَا تستحى مما أرى من سوء أفعالك
قلت : يا مولاى رفقًا فقد جرَّأنى[4] كثرةُ أفضالك

قوله جل ذكره : « الذى خلقك فسوَّاك فعدلك * فى أىِّ صورةٍ مَّا شاء ركَّبك » .

أى : ركَّب أعضاءك على الوجوه الحكميَّة[5] فى أى صورة ماشاء ، من الحسن والقبح ، والطول والقصر . ويصح أن تكون الصورة هنا بمعنى الصفة ، و « فى » بمعنى « على » ؛ فيكون معناه : على أى صفة شاء ركَّبك ؛ من السعادة أو الشقاوة ، والإيمان أو المعصية . .

قوله جل ذكره : « كلَّا بل تكذِّبون بالدِّين »

أى : القيامة[6] .

« وإنَّ عليكم لحافظين * كرامًا كاتبين * يعلمون ما تفعلون » .

هم الملائكة الذين يكتبون الأعمال . وقد خوَّفهم برؤية الملائكة وكتابتهم الأعمال لتقاصر

---

(١) هكذا فى ص وهى فى م (علمت) وهى خطأ فى النسخ .

(٢) يقصد القشيرى هنا (المؤمن العاصى) .. المنزلة بين المنزلتين (بين المؤمن والكافر) .

(٣) ينبغى ملاحظة ذلك إذا أردنا أن ندرس (القشيرى الشاعر) : أنظر هذه الدراسة فى كتابنا عن (الإمام القشيرى) .

(٤) هكذا فى م وهى فى ص (أفسدنى) وكلاهما صحيح .

(٥) هكذا فى النسختين ، وقد كنا نريد أن نظن أنها ربما كانت (الحكيمة) ، ولكن ارتباط السياق بالمشيئة (.. ما شاء ركَّبك) جعلنا نحجم عن هذا الظن .

(٦) بدليل قوله تعالى فيما بعد (يصلونها يوم الدين) .

حشمتهم من اطِّلاع الحق ، ولو علموا ذلك حقَّ العلم لَكانَ تَوَقِّيهم عن المخالفاتِ لرؤيته — سبحانه ، واستحياؤهم من اطّلاعه — أتَمَّ من رُؤْية الملائكة .

قوله جل ذكره : « إنَّ الأبرارَ لفى نَعيم * وإنَّ الفُجَّارَ لفى جَحيم » .

« الأبرار » : هم المؤمنون ؛ اليومَ فى نعمة العصمة ، وغداً هم فى الكرامة والنعمة « الفجار » : اليومَ فى جهنم باستحقاق اللعنة والإصرار على الشِّرْكِ الموجِبِ للفُرقة ، وغداً فى النارِ على وجه التخليد والتأبيد .

ويقال : « إن الأبرار لفى نعيم » . فى رَوْحِ الذِّكْر ، وفى الأُنْسِ فى أوان خَلْوَتِهم . « وإن الفجار لفى جحيم » . فى ضيق قلوبهم وتَسَخُّطِهم على التقدير ، وفى ظُلُمات تدبيرهم ، وضيق اختيارهم .

« يَصْلَوْنَها يومَ الدِّين * وما هُم عنها بغائبين » .

« يصلونها » أى النار . «يوم الدين» . يوم القيامة .

« وما هم عنها » عن النار . « وما أدراك ما يومُ الدين ؟ » قالها على جهة التهويل .

« يومَ لا تَملِك نَفْسٌ لِنَفْسٍ شيئاً والأمرُ يومئذٍ لله » .

الأمر لله يومئذٍ ، ولله من قبله ومن بعده ، ولكن « يومئذٍ » تنقطع الدعاوَى ، إذ يتضح الأمرُ وتصير المعارفُ ضرورية .

سُورَةُ المُطَفِّفِين

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » اسمٌ عزيزٌ رداؤه كبرياؤه ، وسناؤه علاؤه ، وعلاؤه بهاؤه ، وجلالُه جمالُه ، وجمالُه جلالُه . الوجودُ له غيرُ مُسْتَفْتَح ، والموجودُ منه غيرُ مُسْتَقْبَح . المعهودُ منه لُطْفُه ، المأمولُ منه لُطْفُه . كيفما قَسَمَ للعبدِ فالعبدُ عَبْدُه ؛ إنْ أقصاه فالحُكمُ حكمه ، وإنْ أدناه فالأمر أمرُه (1) .

قوله جل ذكره : « وَيْلٌ للمطفِّفِين * الّذين إذا اكتالوا على النـاسِ يستوفون * وإذا كَالُوهم أو وَزَنوهم يُخْسِرون » .

« ويلٌ » : الويلُ كلمةٌ تُذْكَر عند وقوع البلاء ، فيقال : ويلٌ لك ، وويلٌ عليك !

و « المطفِّف » . الذى يُنْقِصُ الكَيْلَ والوزنَ ، وأراد بهذا الذين يعامِلون الناس فإذا أخذوا لأنفسهم استوفوا ، وإذا دفعوا إلى من يعاملهم نقصوا ، ويتجلَّى ذلك فى : الوزن والكَيْلِ ، وفى إظهار العيب ، وفى القضاء والأداء والاقتضاء ؛ فَمَنْ لم يَرْضَ لأخيه المسلم ما لا يرضاه لنفسه

---

(1) هذا هو نص تفسير البسملة كما جاء فى م أمَّا فى ص فهى على النحو التالى : —

[بسم الله : اسم جليلٌ جلاله لا بالأشكال ، وجماله لا على احتذاء أمثال ، وأفعاله لا بأغراض وأعلال ، وقدرته لا باجتلابٍ ولا احتيال ، وعلمه لا بضرورة ولا استدلال ، فهو الذى لم يزل ولا يزال ، ولا يجوز عليه فناءٌ ولا زوال] .

وهذا هو تفسير بسملة سورة الانشقاق كما جاء فى م وكما سنرى ، ومعنى هذا أن اضطراباً حدث فى الأمر . وما دمنا نعرف أن القشيرى لا يستوحى إشارته من كل بسملة بطريقة عفوية ، ولكن على أساس المغزى العام للسورة .. فقد اخترنا أن تكون بسملة « المطففين » هى هذه على أساس أن قسمة الله للعبد قسمة عادلة ليس فيها (تطفيف) ، وأن ما أوجده الله من وجود (غير مستقبح) .

فليس بمنصف . وأمَّا الصِّدِّيقون فإنهم كما ينظرون للمسلمين فإنهم ينظرون لكلٍّ مَنْ لهم معهم معاملة — والصدقُ عزيزٌ ، وكذلك أحوالهم فى الصُّحْبَةِ والمعاشرة . . فالذى يرى عَيْبَ الناسِ ولا يرى عيبَ نَفْسِه فهو من هذه الجملة — جملة المطففين — كما قيل :

وتُبْصِرُ فى العينِ منِّى القَذَى
وفى عينِكَ الجِذْعَ لا تُبْصِرُ

ومَنْ اقتضى حقَّ نَفْسه — دون أن يَقْضِيَ حقوق غيره مثلما يقتضيها لنفسه — فهو من جملة المطففين .

والفتى مَنْ يقضى حقوق الناس ولا يقتضى من أحدٍ لنفسه حقًّا .

قوله جل ذكره : « أَلَا يَظُنُّ أولئك أنَّهم مَّبعُوثونَ * ليومٍ عظيم ؟ * يومَ يقومُ الناسُ لربِّ العالَمِين » .

أى : ألا يستيقن هؤلاء أنهم مُحاسَبون غداً ، وأنهم مُطَالَبون بحقوق الناس ؟ .

ويقال : مَنْ لم يَذْكُرْ — فى حال معاملةِ الناسِ — معاينة القيامة ومحاسبتها فهو فى خسرانٍ فى معاملته .

ويقال : مَنْ كان صاحبَ مراقبة لله ربِّ العالَمِين استشعر الهيبةَ فى عاجِلِهِ ، كما يكون حالُ الناسِ فى المحشر ؛ لأنَّ اطلاعَ الحقِّ اليومَ كاطلاعه غداً .

قوله جل ذكره : « كلَّا إنَّ كتابَ الفُجَّارِ لفى سِجِّين * وما أدْراكَ ما سجينٌ ؟ * كتابٌ مَرْقومٌ » .

« سجين [1] » قيل : هى الأرض السابعة ، وهى الأرض السفلى ، يُوضَع كتابُ أعمالِ الكفار هنالك إذلالاً لهم وإهانة ، ثم تُحْمَلُ أرواحُهم إلى ما هنالك .

---

(1) فى رواية عن أنس أنه قال : قال صلى الله عليه وسلم : «سجِّين أسفل الأرض السابعة» .

ويقال: « السِّجين » جُبٌّ فى جهنم . وقيل: صخرةٌ فى الأرض السفلى ، وفى اللغة السِّجين: فعيلٌ من السجن .

« وما أدراك ما سجين » . استفهامٌ على جهة التهويل .

« كتابٌ مرقوم » . أى مكتوب ؛ كَتَبَ اللهُ فيه ما هم عاملون ، وما هم إليه صائرون .

وإنما المكتوبُ على بنى آدم فى الخير والشر ، والشقاوة والسعادة فهو على ما تعلَّق به علمه وإرادته ، وإنما أخبر على الوجه الذى علم أن يكون أو لا يكون ، وكما علم أنه يكون أو لا يكون أراد أن يكون أو لا يكون . ثم إنه سبحانه لم يُطْلِعْ أحداً على أسرار خَلْقِهِ إلّا مَنْ شاء من المقربين بالقَدْرِ الذى أراده ؛ فإنه يُجْرِى عليهم فى دائم أوقاتهم ما سَبَقَ لهم به التقدير .

ثم قال: « وَيْلٌ يومَئذٍ للمُكَذِّبين * الذين يُكَذِّبون بيومِ الدِّين * وما يُكَذِّبُ به إلّا كُلُّ مُعْتَدٍ أثيمٍ » .

ويلٌ للذين لا يُصَدِّقون بيوم الدين ، وما يُكَذِّبُ به إلا كل مُجَاوِزٍ للحَدِّ الذى وُضِعَ له؛ إذا يُتْلَى عليه القرآن كَفَرَ به .

« كَلَّا بل رَانَ عَلَى قلوبهم مَّا كانوا يَكْسِبون * كَلَّا إنَّهم عن ربِّهم يومئذٍ لمحجوبُون » .

أى: غَطَّى على قلوبهم ما كانوا يكسبون من المعاصى . . وكما أنهم — اليومَ — ممنوعون عن معرفته فهم غداً ممنوعون عن رؤيته . ودليلُ الخطابِ يوجِبُ أن يكونَ المؤمنون يَرَوْنَه غداً كما يعرفونه اليوم .

قوله جل ذكره: « كَلَّا إنَّ كِتابَ الأبرارِ لَفِى علِّيينَ » .

« علِّيين » أعلى الأمكنة ، تحمل إليه أرواح الأبرار تشريفاً لهم وإجلالاً .

ويقال : إنها سِدْرة المنتهى . ويقال : فوق السماء السابعة . كتابٌ مرقوم فيه أعمالهم مكتوبة يشهده المقربون [1] من الملائكة .

« إنَّ الأبرارَ لفى نعيم » .

اليومَ وغداً : اليومَ فى رَوْحِ العرفان ، وراحةِ الطاعة والإحسان ، ونعمةِ الرضا وأُنْسِ القُربة وبَسْطِ الوصلة . وغداً — فى الجنة وما وُعِدوا به من فنون الزلفة والقربة .

قوله تعالى : « على الأرائك يَنظْرون » .

أثبتَ النظرَ ولم يُبَيِّنْ المنظور إليه لاختلافهم فى أحوالهم ؛ فمنهم من ينظر إلى قُصُوره . ومنهم من ينظر إلى حُوره ، ومنهم ومنهم .. ومنهم الخواصُّ فهم على دوامِ الأوقات إلى الله — سبحانه — يَنْظُرون .

قوله جل ذكره : « تَعْرِفُ فى وجُوهِهم نضْرَةَ النَّعيم » .

مَنْ نظر إليهم عَلِمَ أنَّ أثَرَ نَظَرِه إلى مولاه ما يلوح على وجهه من النعيم ؛ فأحوال المحبِّ شهودٌ عليه أبداً . فإنْ كان الوقتُ وقتَ وصالٍ فاختيالُه ودلالُه ، وسرورُه وحبورُه ، ونشاطُه وانبساطُه . وإنْ كان الوقتُ وقتَ غيبةٍ وفراقٍ فالشهودُ عليه نحولُه وذبولُه ، وحنينُه وأنينُه ، ودموعُه وهجوعُه .. وفى معناه قلت [2] .

يا مَنْ تَغَيُّرُ صورتى لَمَّا بدا — لجميع ما ظنوا بنا — تحقيقُ

---

(1) هكذا فى ص وفى م (يشهد) بدون ضمير غائب ، وحسب النسخة الأولى تكون عودة الضمير على الكتاب المرقوم ، وحسب النسخة الثانية يكون الكلام مستمراً خصوصاً ولم يبدأ كالعادة بعلامة تشعر ببدء الآية مثل : قوله تعالى أو قوله جل ذكره .. أى : يشهد المقربون أن الأبرار لفى نعيم ، ويتقوَّى الرأى الأول بما قاله القشيرى منذ قليل : إن الله يُطْلِع بعض المقربين على أسرار خلقه بالقدر الذى يريده سبحانه ، كذلك فإن السياق — على الفهم الثانى — يقتضى فتح همزة (إن الأبرار ...) ولكنها مكسورة مما يدل على أن الكلام مستأنف — اللهم إلا إذا كانت يشهد بمعنى يقسم — فالشهادة ترد بمعنى القَسَم — كما مرَّ من قبل .. وهمزة إن تكسر بعد القسم .

(2) نسعد كثيراً جداً بهذا الشعر الذى صاغه القشيرى ، فهو شاعر مُقِلٌّ ، ولكنه — كما هو واضح — رقيق دقيق .

وربما كان معنى النص الأول على هذا الترتيب : يامن تَغَيُّرُ صورتى — لمَّا بدا — تحقيقٌ لجميع ما ظنوا بنا ؛ أى أن ماظهر على أسرتى من أشياء حاولت كتمانها قد حقَّق ظنونَ الواشين والعاذلين .. فلا فائدة .. فالصب تفضحه عيونه ! ونحسب أنَّ ما قبل النص ، وما يقصده النص الثانى يؤيدان تذوقنا على هذا النحو .

وقلت :

ولمّا أتَى الواشـــين أنّى زُرتُها جَحَدتُ حِذاراً أنْ تَشِيعَ السرائرُ
فقالوا : نرى فى وجهك اليومَ نضرةً كَسَتْ مُحيّاكَ[1] . . وهاذاك ظاهِرُ !
وبُرْدُكَ لا ذاكَ الذى كان قبلَه به طِيبُ نَشْرٍ لم تُشِعْهُ المجامِرُ
فما كان منّى من بيانٍ أُقيمه وهيهات أن يخفى مُريبٌ مساتِرُ !

قوله جل ذكره : « يُسْقَوْنَ من رَحيقٍ مَّختومٍ * خِتامُه مِسْكٌ وفى ذلك فليتنافَسِ المتنافِسون ».

« مختوم » أى رحيقٌ لا غِشَّ فيه .

ويقال : عتيقٌ طَيِّبٌ .

ويقال : إنهم يشربون شراباً آخره مِسْكٌ .

ويقال : بل هو مختومٌ قبل حضورهم .

ويقال : « ختامه مسك » . ممنوعٌ من كلِّ أحدٍ ، مُعَدٌّ مُدَّخَرٌ لكلِّ أحدٍ باسمه .

« وفى ذلك فليتنافس المتنافسون » . وتنافُسهم فيه بالمبادرة إلى الأعمال الصالحة ، والسباقُ إلى القُرَب ، وتعليقُ القلبِ بالله ، والانسلاخُ عن الأخلاقِ الدَّنيَّة ، وجَوَلانُ الهِمَمِ فى الملكوت[2] ، واستدامةُ المناجاة .

قوله جل ذكره: « ومِزَاجُه من تسنيم * عيناً يَشْرَبُ بها المُقرَّبون » .

« تسنيم » أى : عينٌ تَسَنَّمُ عليهم من عُلُوٍّ .

وقيل : ميزابٌ يَنْصَبُّ عليهم من فوقهم .

ويقال : سُمِّى تسنيماً ؛ لأن ماءه يجرى فى الهواء مُتَسَنِّماً فينصبُّ فى أوانى أهل الجنة ؛

---

(١) كذا بالأصل ولعلها (بَدَتْ فى محياك) كى يستقيم الوزن .

(٢) هكذا فى ص وهى أصح مما فى م (الملكوب) فهى مشتبهة على الناسخ .

فمنهم مَنْ يُسْقَى مَزْجًا ، ومنهم مَنْ يُسْقى صِرْفاً .. الأولياء يُسْقَون مزجًا ، والخواصُ يُسْقَون صِرْفًا[1] .

قوله جل ذكره : « إنَّ الذين أجْرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون * وإذا مَرُّوا بهم يتغامزون » .

كانوا يضحكون استهزاءً بهم .. فاليومَ .. الذين آمنوا من الكفار يضحكون !

« فاليومَ الذين آمنوا من الكُفار يضحكون * عَلَى الأرائكِ ينظرون * هل ثُوِّبَ الكفَّارُ ما كانوا يفعلون؟»

« هل ... » استفهام يراد منه التقرير .

ويقال : إذا رأوا أهلَ النارِ فى النار يُعذَّبون لاتأخذهم بهم رأفة ، ولا تَرِقُّ لهم قلوبُهم ، بل يضحكون ويستهزئون ويُعَيِّرونهم .

---

(١) نفهم من هذا أن الخواص أعلى درجةً من الأولياء .

سُورَةُ الانشقاق

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »[1]

« بسم الله » : اسمٌ جليلٌ جلاله لا بالأشكال ، وجماله لا على احتذاء أمثال ، وأفعالُه لا بأغراضٍ وأعلال ، وقدرته لا باجتلابٍ ولا احتيال ، وعلمه لا بضرورة ولا استدلال ، فهو الذى لم يزل ولا يزال ، ولا يجوز عليه فناء ولا زوال .

قوله جل ذكره : « إذا السماء انشقت » .

« انشقت » : انصدعت .

« وأَذِنَت لربِّها وحُقَّتْ » .

أى قابَلَتْ أمرَ ربِّها بالسمع والطاعة . . وحقَّ لها أن تفعل ذلك .

« وإذا الأرضُ مُدَّتْ » .

بُسِطَتْ باندكاكِ آكامها وجبالِها حتى صارت ملساء ، وألقت ما فيها من الموتى والكنوز وتخلَّت عنها . . وقابلت أمر ربها بالسمع والطاعة .

وجواب هذه الأشياء فى قوله : « فملاقيه » أى يَلْقَى الإنسانُ ما يستحقه على أعماله .[2]

قوله جل ذكره : « يأيها الإنسانُ إنَّكَ كادِحٌ إلى ربِّك كَدْحاً فمُلاقيه » .

---

(١) نعيد إلى الذاكرة ما قلناه من قبل من حدوث افتراق بين النسختين بين تفسير بسملتى « المطففين » و « الانشقاق » .

(٢) يرى الكسائى – ويوافقه أبوجعفر النحاس وغيره – أن جواب القسم هو : « فأما من أوتى كتابه بيمينه .... » أى : إذا انشقت السماء فمن أوتى كتابه بيمينه فحكمه كذا ..

« يأيها الإنسان » : يأيها المُكلَّفُ .. إنَّك ساعٍ بما لَكَ سَعْيًا ستلقى جزاءه ؛ بالخير خيراً وبالشَّرِّ شَرًّا .

« فأمَّا مَنْ أُوتِيَ كتابَه بيمينه » .

وهو المؤمنُ المُحْسِنُ .

« فسوف يُحَاسَبُ حساباً يسيراً » .

أى حساباً لا مَشَقَّة فيه . ويقال : « حساباً يسيراً » أى يُسْمِعُه كلامَه — سبحانه — بلا واسطة ، فيُخَفِّفُ سماعُ خطابِه ما فى الحساب من عناء .

ويقال : « حساباً يسيراً » : لا يُذَكِّرُه ذنوبَه . ويقال : يقول : ألم أفعل كذا ؟ وألم أفعل كذا ؟ يعُدُّ عليه إحسانَه .. ولا يقول : ألم تفعل كذا ؟ لا يُذَكِّرُه عصيانَه .

« وينقَلِبُ إلى أهلِه مسروراً » .

أى بالنجاة والدرجات ، وما وَجَدَ من المناجاة ، وقبول الطاعات ، وغفران الزَّلات .

ويقال : بأن يُشَفِّعَه فيمن يتعلَّق به قلبُه . ويقال : بألا يفضحه .

ويقال : بأن يَلْقى ربَّه ويُكَلِّمَه قبل أنْ يُدْخِلَه الجنة فيَلْقى حَظِيَّتَه من الحورِ العين .

قوله جل ذكره : « وأمَّا مَنْ أُوتِيَ كتابَه وراءَ ظَهْره » .

وهو الكافر .

« فسوف يدعو ثُبُوراً » .

أى وَيْلاً .

« ويَصْلَى سعيراً » .

جهنم .

« إنَّه كان فى أهله مسروراً » .

من البَطَرِ[1] والمدح .

« إنَّه ظَنَّ أن لَّن يحور » .

أنه لن يرجعَ إلينا ، ولن يُبْعَثَ .

قوله جل ذكره : « فلا أُقْسِمُ بالشَّفَقِ » .

بالحُمْرَةِ التى تعقب غروبَ الشمس .

« والليلِ وما وَسَقَ » .

وما جَمَعَ وضمّ .

« والقَمَرِ إذا اتَّسَقَ » .

تمَّ واستوى واجتمع .

ويقال : الشَّفَقُ حين غربت شمسُ وصالهم ، وأُذِيقوا الفراقَ فى بعض أحوالهم ، وذلك زمانُ قبضٍ بعد بَسْطٍ ، وأوانُ فَرْقٍ عُقَيْبَ جَمْعٍ[2] . « والليل وما وسق » : ليالى غيبتهم وهم بوصف الاستياقِ ؛ أو ليالى وصالهم وهم فى روح التلاقى ، أو ليالى طَلَبِهم وهم بنعتِ القَلَقِ والاحتراقِ .

« والقمر إذا اتسق » : إذا ظَهَرَ سلطانُ العرفان على القلوب فلا بَخْسَ ولا نُقْصان .

قوله جل ذكره : « لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عن طَبَقٍ » .

أى حالاً بعد حال . وقيل : من أطباق السماء . ويقال : شِدَّةً بعد شدَّة .

ويقال : تاراتُ الإنسانِ طفلاً ثم شاباً ثم كهلاً ثم شيخاً .

ويقال : طالباً ثم واصلاً ثم مُتَّصِلاً .

ويقال : حالاً بعد حالٍ ، من الفقر والغِنَى ، والصحة والسَّقَم .

ويقال : حالاً بعد حالٍ فى الآخرة .

---

(١) هكذا فى ص وهى فى م (النظر) والسياق يقتضى (البطر) فهو من أشد آفات الطريق خطراً — كما نعرف من مذهب القشيرى .

(٢) فى م (وأوان فراق بعد جمع) والاصطلاحان الصوفيان الملائمان هما (الفرق والجمع) .

قوله جل ذكره : « فَمَا لَهُم لا يُؤْمِنون ؟ » .

أى فما الكُفَّارِ أُمَّتِكَ لا يُصَدِّقون . . وقد ظهرت البراهين ؟

« وإذا قُرِئَ عليهم القرآنُ
لا يَسْجُدون * بل الذين كفروا
يُكذِّبون * واللهُ أعلمُ بما يُوعُون » .

« يوعون » أى تنطوى عليه قلوبُهم — من أَوْعَيْتُ المتاعَ فى الظَّرْفِ أى جعلته فيه .

« فَبَشِّرْهم بعذابٍ أليم * إلّا الذين
آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ لهم أَجْرٌ
غيرُ ممنونٍ » .

« إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » فإنهم ليسوا منهم ، ولهم أجرٌ غيرُ مقطوع .

سورة البروج

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » : اسمُ مَنْ لا عقل يَكْتَنِهُه[1] ، اسمُ مَنْ لا مِثْلَ يُشْبِهُه ، اسمُ من لا فَهْمَ[2] يرتقى إليه بالتصوير ، اسمُ مَنْ لا علمَ ينتهى إليه بالتقدير[3] ، اسمُ مَنْ لم يَرَه بَصَرٌ إلّا واحدٌ — وهو أيضاً مُخْتَلَفٌ فيه[4] ، اسمُ مَنْ لا يَجْسُرُ أحدٌ أنْ يتكلّمَ بغير ما إذْنٍ فيه ، اسمُ مَنْ لا قُطْرَ يحويه ، ولا سِرَّ يُخفيه ، ولا أحدَ يصل إلى معرفته إلّا مَنْ يرتضيه .

قوله جل ذكره : « والسماءِ ذاتِ البروج » .

أراد البروج الأثنى عشر[5] .

« واليومِ الموعودِ » .

يوم القيامة .

وجوابُ القَسَمِ قوله : « إنَّ بَطْشَ ربِّك لشديد » .

قوله جل ذكره : « وشاهدٍ ومشهودٍ » .

يقال : الشاهدُ اللهُ ، والمشهودُ الخَلْقُ .

---

(١) أى يدرك كنهه .

(٢) هكذا فى النسختين ، ومع ذلك فإننا نرجح أنها ربما كانت فى الأصل (من لا وهم ...) فمن أقوال ذى النون : (كلما تصور فى وهمك فالله بخلاف ذلك) الرسالة ص ٤ .

(٣) نعرف فى الاصطلاح أن (التقدير) لله و(التدبير) للإنسان ، ولكن (التقدير) مستعمل هنا خاصاً بالإنسان ؛ أى أن أحداً لا يستطيع أن (يقدر) الله حق قدره .

(٤) يشير بذلك إلى اختلاف الآراء حول رؤية النبى (ص) ربه ليلة المعراج رؤية بصرية (الرسالة ص ١٧٥).

(٥) وهى التى تسير الشمس فى كل منها شهراً ، وهى : الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت .

ويقال : الشاهدُ الخَلْقُ ، والمشهودُ اللهُ ؛ يشهدونه اليومَ بقلوبهم ، وغداً بأبصارهم .

ويقال : الشاهدُ محمدٌ صلى الله عليه وسلم ، والمشهودُ القيامة ، قال تعالى : « وجئنا بك على هؤلاء شهيداً »[1] ، وقال فى القيامة : « ذلك يومٌ مجموعٌ له الناس وذلك يومٌ مشهود »[2] .

وقيل : الشاهد يومُ الجمعة[3] ، والمشهود يومُ عَرَفة .

ويقال : الشاهدُ المَلَكُ الذى يكتب العمل ، والشاهدُ الإنسانُ يشهد على نفسه ، وأعضاؤه تشهد عليه ؛ فهو شاهد وهو مشهود .

ويقال : الشاهدُ يومُ القيامة ، والمشهودُ الناس .

ويقال : المشهودُ هم الأمة لأنه صلّى الله عليه وسلم يشهد لهم وعليهم .

ويقال : الشاهدُ هذه الأمة ، والمشهودُ سائر الأمم .

ويقال : الشاهدُ الحجرُ الأسود لأنَّ فيه كتابَ العهد .

ويقال : الشاهدُ جميعُ الخَلْق ؛ يشهدون لله بالوحدانية ، والمشهود الله .

ويقال : الشاهدُ الله ؛ شهد لنفسه بالوحدانية ، والمشهودُ هو لأنه شهد لنفسه .

قولهجل ذكره : « قُتِلَ أصحابُ الأخدودِ * النارِ ذاتِ الوَقود » .

أى لُعِنوا . والأخدودُ : الحُفْرةُ فى الأرض إذا كانت مستطيلةً ، وقصتهم فى التفسير معلومة[4]

و« الوقود » الحطب .

وهم أقوامٌ كتموا إيمانَهم فلمَّا عَلِمَ مَلِكُهم بذلك أضرم عليهم ناراً عظيمة ، وألقاهم فيها .

---

(١) آية ٤١ سورة النساء .

(٢) آية ١٠٣ سورة هود .

(٣) خرّج ابن ماجة وغيره رواية عن أبى الدرداء قوله : قال رسول الله (ص) : « أكثروا من الصلاة علىّ يوم الجمعة فإنه يوم مشهود تشهده الملائكة » .

(٤) قيل هم من السجستان ، وقيل من نجران ، وقيل من القسطنطينية ، وقيل : هم من المجوس ، وقيل من اليهود ، وقيل من النصارى .

وآخِرُ مَنْ دَخَلَها امرأةٌ كان معها رضيعٌ ، وهمَّت أن ترجع ، فقال لها الولد : قِفى واصبرى .. فأنت على الحقّ .

وألقوها فى النار ، واقتحمتها ، و بينما كان أصحابُ الملك قعوداً حوله يشهدون ما يحدث ارتفعت النارُ من الأخدود وأحرقتهم جميعاً ، ونجا من كان فى النار من المؤمنين وسَلِموا .

قوله جل ذكره : « وما نَقَمُوا منهم إلاَّ أَنْ يُؤْمنوا باللهِ العزيزِ الحميد * الذى له مُلْكُ السموات والأرضِ واللهُ على كلِّ شىء شهيد » .

ما غَضبوا منهم إلاَّ لإيمانهم .

قوله جل ذكره : « إنَّ الذين فَتَنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذابُ جهنَّمَ ولهم عذاب الحريق » .

أى أحرقوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا عن كفرهم « فلهم عذاب جهنم » : نوعٌ من العذاب ، « ولهم عذابُ الحريق » : نوع آخر[1] .

قوله جل ذكره : « إنّ الذين آمنوا وعَملوا الصالحاتِ لهم جنَّاتٌ تجرى من تحتها الأنهارُ ذلكَ الفوزُ الكبير » .

« ذلك الفوز الكبير » : النجاة العظيمة .

« إنَّ بَطْشَ ربِّك لشديد » .

البطشُ الأخذ بالشدة .

« إنّه هو يُبْدِئُ ويُعيد » .

يُبدِئُ الخَلْق ثم يُعيدُهم بعد البعث .

---

(١) قد يكون العذاب الأول بالزمهرير فى جهنم ، والثانى بنار الحريق ؛ فكأنهم يعذبون ببردها وحرها والله أعلم .

ويقال : يبدئ بالعذاب ثم يُعيد ، وبالثواب ثم يُعيد .

ويقال : يبدئ على حُكْمِ العداوة والشقاوة ثم يعيد عليه ، ويبدئ على الضعف ويعيدهم إلى الضعف .

و يقال : يبدى الأحوال السَّنِيَّة فإذا وقعت حجبة يعيد ثانية .

و يقال : يبدى بالخذلان أموراً قبيحة ثم يتوب عليه ، فإذا نَقَضَ توبتَه فلأنه أعاد له من مقتضى الخذلان ما أجراه فى أول حاله .

ويقال : يبدى لطائفَ تعريفه ثم يعيد لتبقى تلك الأنوار أبداً لائحةً ، فلا يزال يبدى و يعيد إلى آخر العمر .

قوله جل ذكره : « وهو الغَفور الوَدُود » .

« الغفور » كثيرُ المغفرة ، «الودود» مبالغة من الوَادِّ ، و يكون بمعنى المودود ؛ فهو يغفر لهم كثيراً لأنه يَوَدُّهم ، ويغفرُ لهم كثيراً لأنهم يودُّونه .

قوله جل ذكره : « ذو العرش المجيد »

ذو المُلْكِ الرفيع ، والمَجْد الشريف .

« فعَّالٌ لمَا يُريد » .

لأنه مالِكٌ على الإطلاق ؛ فلا حَجْرَ عليه ولا حَظْرَ .

قوله جل ذكره : « هل أتاكَ حديثُ الجُنود » .

الجموع من الكفار .

« فِرْعَونَ وَثمُود »

وقد تقدم ذكر شأنهما .

« بل الذين كفروا فى تكذيب »

« الذين كفروا » يعنى مُشْرِكى مكة ؛ « فى تكذيب » للبعث والنشر .

« واللهُ مِن ورائهم محيط »

عالمٌ بهم .

« بل هو قرآنٌ مجيدٌ * فى لوح
محفوظ » .

« فى لوح محفوظ » مكتوبٍ فيه . وجاء فى التفسير : أنَّ اللوحَ المحفوظ خُلِقَ من دُرَّةٍ بيضاء ، دِفَّتَاه من ياقوتة حمراء عَرْضُها بين السماء والأرض ، وأعلاه متعلِّقٌ بالعرش ، وأسفله فى حِجْرِ مَلَكٍ كريم .

والقرآن كما هو محفوظ فى اللوح كذلك محفوظ فى قلوب المؤمنين ، قال تعالى : « بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم » فهو فى اللوح مكتوبٌ ، وفى القلوبِ محفوظٌ .

سُورةُ الطَّارِق

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » : اسمٌ عزيزٌ إذا أراد إعزازَ عبدٍ وَفَّقه لعرفانه ، ثم زيَّنَه بإحسانه ، ثم استخلصه بامتنانه ؛ فعَصَمَه من عِصيانه ، وقام بحسن التولِّي — في جميع أحواله — بشأنِه ، ثم قَبَضَه على إيمانه ، ثم بَوَّأَه في جنانه ، وأكرمه برضوانه ، ثم أكمل عليه نِعْمَتَه برؤيته وعيانه .

قوله جل ذكره : « والسماء والطارق »

أقسم بالسماء ، وبالنجمِ الذي يَطْرُق ليلا .

« وما أدراك ما الطارق ؟ »

استفهامٌ يراد منه تفخيم شأن هذا النجم .

« النجمُ الثاقِب »

المضيء العالي . وقيل : الذي ترمى به الشياطين .

ويقال : هي[1] نجوم المعرفة التي تدل على التوحيد يستضيءُ بنورها ويهتدي بها أولو البصائر .

« إنْ كُلُّ نَفْسٍ لمَّا عليها حافِظ »

ما مِنْ نَفْسٍ إلا عليها حافِظٌ من الملائكة ، يحفظ عليه عملَه ورزقَه وأجلَه ، ويحمله على دوامِ التيقُّظ وجميلِ التحفُّظ .

قوله جل ذكره : « فلينظرِ الإنسانُ مِمَّ خُلِق * خُلِقَ

(١) هكذا في م وهي في ص (هو نجم المعرفة ... إلخ) .

من ماءٍ دافقٍ * يخرجُ من بين الصُّلْبِ والترائب »

يخرج من صُلْبِ الأب ، وتريبةِ الأم .

وهو بذلك يحثُّه على النَّظَرِ والاستدلال حتى يعرف كمال قدرته وعلمه وإرادته — سبحانه .

« إنَّه على رَجْعِهِ لقادِرٌ »

إنه على بَعْثِهِ ، وخَلْقِهِ مرةً أخرى لقادِرٌ ؛ لأنه قادر على الـكمال — والقدرةُ على الشيء تقتضى القدرةَ على مِثْلِهِ ، والإعادة فى معنى الابتداء .

« يومَ تُبْلَى السرائرُ »

يوم تُمْتَحنُ الضمائر .

« فما لَه من قُوَّةٍ ولا ناصِرٍ »

أى ما لهذا الإنسان — يومئذٍ — من مُعينٍ يدفع عنه حُـكْمَ الله .

« والسماء ذاتِ الرَّجْعِ »

أى المطر .

« والأرضِ ذات الصَّدْعِ »

« الصدع » : الانشقاقُ بالنباتِ للزرع والشجر .

« إنَّه لقولٌ فَصْلٌ »

أى : إن القرآنَ لقولٌ جَزْمٌ .

« وما هو بالهَزْلِ »

الهزل ضد الجِدّ ، فليس القرآنُ بباطلٍ ولا لَعِبٍ .

قوله جل ذكره : « إنَّهم يكيدون كَيْداً »

أى يحتالون حيلةً .

« وأَكيدُ كَيْداً »

هم يحتالون حيلةً ، ونحن نُحْكِمُ فِعْلاً ونُبْرِمُ خَلْقاً ، ونجازيهم على كيدهم ، بما نعاملهم به من الاستدراج والإمهال .

« فَمَهِّل الكافرين أَمْهِلْهُم رُويداً »

أى أنظِرهم ، وأمهِلهم قليلا ، وأرْوِدْهم رويداً .

سُــورَةُ الأَعْــلى

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » : اسمٌ عزيزٌ مَنْ قَصَدَه وَجَدَه ، ومَنْ استسعفه حَمِدَه . مَنْ طَلَبَه عَرَفَه ، ومَنْ عَرَفَه لاطَفَه ، فإذا وَجَدَ لُطْفَه أَلِفَه ، وإذا أَلِفَه أَنِف أنْ يخَالِفه .

قوله جل ذكره : « سَبِّح اسمَ ربِّك الأَعْلَى »

أى سَبِّحْ ربَّك بمعرفة أسمائه ، واسبح بسِرِّك فى بحار علائه ، واستخرِجْ من جواهر عُلوِّه وسنائه ما تُرَصِّعُ به عِقْدَ مَدْحِه وثنائه .

« الذى خَلَقَ فَسَوَّى »

خَلق كلَّ ذى روحٍ فسَوَّى أجزاءه ، ورَكَّبَ أعضاءَه على ما خَصَّه به من النظم العجيب والتركيب البديع .

« والذى قَدَّرَ فَهَدَى »

أى قدَّر ما خَلَقَه ، فجَعَلَه على مقدار ما أراده ، وهدى كلَّ حيوانٍ إلى مافيه رشده من المنافع ، فيأخذ ما يُصْلِحه ويترك ما يضره — بحُكْم الإلهام .

ويقال : هَدَى قلوبَ الغافلين إلى طلب الدنيا فعمروها ، وهدى قلوبَ العابدين إلى طلب العقبى فآثروها ، وهدى قلوبَ الزاهدين إلى فناء الدنيا فرفضوها ، وهدى قلوبَ العلماءِ إلى النظر فى آياته والاستدلال بمصنوعاته فعرفوا تلك الآيات ولازموها .

(وهدى قلوبَ المريدين إلى عِزِّ وَصْفِه فآثروه ، واستفرغوا جُهْدَهم فطلبوه)[1] ، وهدى

---

(١) ما بين القوسين موجود فى ص وغير موجود فى م .

العارفين إلى قُدْس نعتِه فراقبوه ثم شاهدوه ، وهدى الموحِّدين إلى علاء سلطانه فى توحد كبريائه فتركوا ماسواه وهجروه ، وخرجوا عن كلِّ مألوفٍ لهم ومعهود[1] حتى قصدوه .
فلمّا ارتقوا عن حدِّ البرهان ثم عن حدِّ البيان ثم عمَّا كالعيان علموا أنَّه عزيزٌ ، وأنَّه وراء كلِّ فَصْلٍ ووَصْلٍ ، فرجعوا إلى موطنِ العَجْزِ فتوسَّدوه .

« والذى أخْرَجَ المرْعَى »

أى النبات .

« فجعَله غُثَاءً أحْوَى »

جعله هشيماً كالغثاء ، وهو الذى يقذفه السيل . و « أحوى » أسود .

« سنُقْرِئُك فلا تَنْسى »[2].

سنجمع القرآن فى قلبك — يا محمد — حِفْظاً حتى لا تنسى لأنا نحفظه عليك .

« إلاَّ ما شاء اللهُ إنَّه يَعْلَمُ الجَهْرَ وما يخفى » .

مما لا يدخل تحت التكليف فتنساه قبل التبليغ ولم يجب عليه أداؤه .

وهو — سبحانه — يعلم السِّرَّ والعلَن .

قوله جل ذكره : « فَذَكِّرْ إنْ نفعت الذِّكرى »

والذِّكرى تنفع لا محالة[3]، ولكنْ لِمَنْ وَفَّقَه اللهُ للاتعاظِ بها ، أمَّا مَنْ كان المعلومُ من حاله الكفرَ والإعراضَ فهو كما قيل :

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (معبود) وقد رجحنا (معهود) لتلاؤمها مع (مألوف) . ولكن إذا تذكرنا أن الصوفية يرون الانسياق وراء الهوى نوعاً من الشرك الخفى — قال تعالى : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه » — فيمكن فى ضوء ذلك قبول (معبود) أيضاً .

(٢) يرى الجنيد أن المعنى «فلا تنسى العمل به» ، وهذا من الآراء الحسنة التى يتمشى معها رأى القشيرى فى « إلا ما شاء الله » .

(٣) ولهذا تفسر (إن) فى الآية على معنى (ما) : أى فذكر ما نفعت الذكرى ، ولا يكون لها حينئذ معنى الشرط ، وتفسر على معنى (إذ) مثل : « وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » ، وعلى معنى (قد) .

وما انتفاعُ أخى الدنيـــا بمُقْلَتِهِ إذا استوَتْ عنده الأنوارُ والظُّـلَمُ

« سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى »

الذى يخشى الله ويخشى عقوبته .

« ويَتَجَنَّبُهَا الأشـقَى * الذى يَصْلَى النارَ الـكبرى * ثم لا يموتُ فيها ولا يحيا » .

أى يتجنَّبُ الذِّكْرَ الأشقَى الذى يَصْلَى النارَ الـكبرى ، ثم لا يموت فيها موتاً يريحه ، ولا يحيا حياةً تَلَذُّ له .

قوله جل ذكره : « قد أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى » .

مَنْ تَطَهَّرَ من الذنوبِ والعيوبِ ، ومشاهدة الخَلْقِ وأدَّى الزكاة — وَجَدَ النجاة ، والظَّفَرَ بالبُغْيَة ، والفوزَ بالطِّلبة .

« وذَكَرَ اسمَ ربِّه فَصَلَّى »

ذَكَرَ اسمَ ربِّه فى صلاته . ويقال : ذَكَره بالوحدانية وصَلَّى له .

« بل تُؤْثِرُون الحياةَ الدنيا »

تميلون إليها ؛ فتُقَدِّمون حظوظكم منها على حقوق الله تعالى .

[« والآخرةُ خـيْرٌ وأبْـقَى »

والآخرة للمؤمنين خيرٌ وأبقَى — من الدنيا — لطُلاَّبها .] (١)

قوله جل ذكره : « إنَّ هـذا لفى الصُّحُفِ الأولى * صُحُفِ إبراهيمَ وموسى »

إن هذا الوعظَ لفى الصحف المتقدمة ، وكذلك فى صحف إبراهيم وموسى وغيرهما ؛ لأنَّ التوحيدَ ، والوعدَ والوعيدَ . . لا تختلف باختلاف الشرائع .

---

(١) ما بين القوسين موجود فى م وغير موجود فى ص .

سُورَةُ الغَاشِيَة

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » : كلمةٌ من سمعها وفى قلبِه عرفانُه تلألأت أنوارُ قلبه ، وتفرَّقَتْ أنواعُ كُرَبِه ، وتضاعَفَتْ فى جماله طوارقُ حُبِّه ، وتحيَّرت فى جلالِه شوارقُ لُبِّه .

كلمةٌ مَنْ عرَفَها — وفى قلبِه إيمانُه — أحبَّها من داخل الفؤاد ، وهَجَرَ — فى طَلَبِها — الرُّقاد ، وتَرَكَ — لأَجْلِها — كلَّ همٍّ ومراد .

قوله جل ذكره : « هل أتاكَ حديثُ الغاشية ؟ » .

« الغاشية » المُجَلِّلَةُ ، يريد بها القيامة تَغْشَى الخَلْقَ ، تَغْشَى وجوهَ الكفَّار .

« وُجُوهٌ يومَئذٍ خاشعةٌ * عامِلَةٌ ناصِبَةٌ * تَصْلَى ناراً حامية » .

وجوهٌ — إذا جاءت القيامة — خاشعة أى ذليلة . عاملة ناصبة : النَّصَب التعب .

جاء فى التفسير : أنهم يُجَرُّون على وجوههم .

« تصلى ناراً حامية » تلزم ناراً شديدة الحرِّ .

ويقال : « عاملة » فى الدنيا بالمعاصى ، « ناصبة » فى الآخرة بالعذاب .

ويقال : « ناصبة » فى الدنيا « عاملة » لكن من غير إخلاص كعمل الرهبان[1] ، وفى معناه عملُ أهل النفاق .

---

(١) روى الضحاك عن ابن عباس قوله : «هم الذين أنصبوا أنفسهم فى الدنيا على معصية الله عز وجل ، وعلى الكفر ، مثل عبدة الأوثان ، وكفار أهل الكتاب مثل الرهبان وغيرهم ، لا يقبل الله — جل ثناؤه — منهم إلا ما كان خالصاً » .

« تُسْقَى من عينٍ آنية » .

تناهى حَرُّها .

« ليس لهم طعامٌ إلّا من ضريعٍ *
لا يُسْمِنُ ولا يُغْنى من جوعٍ » .

نَبْتٌ ينمو بالحجاز له شَوْكٌ ، وهو سمٌّ لا تأكله الدواب ، فإذا أكلوا ذلك فى النار يُغَصُّون ، فَيُسْقَوْنَ الزقُّوم .

وإن اتصافَ الأبدانِ — اليومَ — بصورة الطاعات مع فَقْدِ الأرواحِ وجدانَ المكاشفات (وفقدِ)[1] الأسرارِ أنوارَ المشاهدات ، (وفقدِ) القلبِ الإخلاصَ والصدق فى الاعتقادات لا يجدى خيراً ، ولاينفع شيئاً — وإنما هى كما قال : « عاملة ناصبة » .

قوله جل ذكره : « وجوهٌ يومئذٍ نَّاعمةٌ » .

أى : مُتَنَعِّمة ، ذات نعمةٍ ونضارةٍ .

« لِّسَعْيِها راضِيةٌ » .

حين وَجَدَتْ الثوابَ على سعيها ، والقبول لها .

« فى جَنَّةٍ عاليةٍ » .

عالية فى درجتها ومنزلتها وشرفها . هم بأبدانهم فى درجاتهم ، ولكن بأرواحهم مع الله فى عزيز مناجاتهم .

« لا تسمعُ فيها لاغيةً » .

لأنهم يسمعون بالله ؛ فليس فيها كلمةُ لغوٍ .

قومٌ يسمعون بالله ، وقومٌ يسمعون لله ، وقومٌ يسمعون من الله ، وفى الخبر : « كنت له سمعاً وبصراً فبى يَسْمَعُ وبى يُبْصِرُ »[2] .

---

(١) ما بين القوسين إضافة من جانبنا كى يكون السياق أكثر وضوحاً .

(٢) « ما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت عينه التى يبصر بها ، وسمعه الذى يسمع به ، ويده التى يبطش بها» أورده السراج فى لمعه ص ٨٨ . وهو حديث قدسى رواه البخارى عن أبى هريرة وأحمد عن عائشة ، والطبرانى فى الكبير عن أبى أمامة ، وابن السنى عن ميمون .

« فيها عينٌ جاريةٌ » .

أراد عيوناً ؛ لأن العين اسم جنس ، والعيون الجارية هنالك كثيرة ومختلفة .

ويقال : تلك العيون الجارية غداً لِمَنْ له — اليومَ — عيونٌ جارية بالبكاء[1] ، وغداً لهم عيونٌ ناظرةٌ بحُكم اللقاء .

« فيها سُرُرٌ مَّرفوعةٌ * وأكوابٌ مَّوضوعة * ونمارِقُ مصفوفةٌ * وزرابىُّ مبثوثةٌ » .

النمارق المصفوفة فى التفسير : الطنافس المبسوطة .

الزرابى المبثوثة فى التفسير : البُسُط المتفرقة .

وإنما خاطبهم على مقادير فهومهم[2] .

قوله جل ذكره : « أفلا يَنْظُرونَ إلى الإبِلِ كيف خُلِقَتْ ؟ » .

لمَّا ذَكَرَ وصفَ تلك السُّرُرِ المرفوعة المشيَّدة قالوا : كيف يصعدها المؤمن ؟ فقال : أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ؟ كيف إذا أرادوا الحَمْلَ عليها أو ركوبها تنزل ؟ فكذلك تلك السُّرُرُ تتطامن حتى يركبها الولىُّ .

وإنما أنزلت هذه الآيات على وجه التنبيه ، والاستدلال بالمخلوقات على كمال قدرته — سبحانه .

فالقومُ كانوا أصحابَ البوادى لا يرون شيئاً إلا السماءَ والأرضَ والجبالَ والجمالَ . . . فأَمَرَهم بالنظر فى هذه الأشياء .

---

(١) منذ عهد مبكر ظهرت طائفة البكّائين فى صفوف الزهاد ، وإن كان بعض الصوفية لا يتحمس للبكاء إمَّا لأن الدموع علامة شكوى ، وهم لايحبون أن يشكوا ، وإمَّا لأنها تنم عن ضعف الحال ، وهم يتمنون أن يكونوا راسخين كالجبال .

(٢) يتبع هذا فكرة القشيرى الأساسية عن وصف الآخرة : الأسماء أسماء ، والأعيان بخلاف ذلك .

وفى الإبل خصائص تدل على كمال قدرته وإنعامه جل شأنه ؛ منها : مافى إمكانهم من الانتفاع بظهورها للحَمْلِ والركوب ، ثم بنَسْلِها ، ثم بلحمها ولبنها ووَبَرِها . . . ثم من سهولة تسخيرها لهم ، حتى ليستطيع الصبىُّ أنْ يأخذَ بزِمامها ، فتنجرّ وراءه . والإبل تصبر على مقاساة العَطَش فى الأسفار الطويلة ، وهى تَقْوَى على أن تحملَ فوق ظهورها الكثيرَ من الحمولات .. ثم حِرَانُها إذا حقدت ، واسترواحُها إلى صوتِ مَنْ يحدوها عند الإعياء والتعب ، ثم ما يُعَلِّل المرء بما يناط بها من برِّها[1] .

« فَذَكِّرْ إنما أنت مُذَكِّرٌ * لَّست
عليهم بمصيطر[2] » .

لستَ عليهم بمُسَلَّطٍ ؛ فذَكِّر — يا محمد — بما أمرناك به ، فبذلك أمرناك[3] .

« إلَّا مَنْ تولَّىٰ وكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ
اللهُ العذابَ الأكبرَ » .

إلا مَنْ تولَّى عن الإيمان وكفر فيعذبه اللهُ بالخلودِ فى النار .

« إنَّ إلينا إيابَهُم * ثم إنَّ علينا
حِسابَهُم » .

إن إلينا رجوعَهم ، ثم نجازيهم على الخير والشرِّ .

---

(١) إشارة القشيرى الخاصة بالإبل استوفت المراد ، فمن المعلوم أن ضروب الحيوان المخالفة لا تخرج عن أربعة : حَلُوبة ، ورَكُوبة ، وأكُوله ، وحَمُولة . وقد استطاع القشيرى أن يقنع أن الإبل جمعت كل هذه المنافع .

(٢) بمصيطر ومسيطر ، أى بالصاد والسين (الصحاح) .

(٣) لم يقع القشيرى فيما وقع فيه بعض المفسرين حين قالوا : « إن فى الآية نسخاً بآيات القتال والجهاد » .. فالعذاب الأكبر فى الآخرة لا ينفى تعذيب الكفار بشتى ألوان التعذيب فى الدنيا ، ومنها القتل والأسر .

سُورَةُ الفَجْر

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

بسم الله كلمةٌ ما استولت على قلبٍ فقيرٍ فأقلقته ، وما تمكَّنت من سِرٍّ مُتَيَّمٍ فَشَتَّتْه ، وما استولت على روح محبٍّ فرحمته[1] . كلمةٌ قهَّارة للقلوب . . ولكن لا لكلٍّ قلب ، كلمةٌ لا سبيل لها لكلِّ عقل ، كلمة تكتفى من العابدين بقراءتهم لها ، ولكنها لا ترضى من المحبين إلا ببَذْلِ أرواحهم فيها .

قوله جل ذكره : « والفجرِ * وليالٍ عَشْرٍ » .

الفجرُ انفجارُ الصُّبح وهو اثنان : مستطيلٌ وقصير[2] ؛ فنى التفسير : إنه فَجْرُ المحرَّم لأنه ابتداء السنة كلها ، وقيل : فجر ذى الحجة .

ويقال : هو الصخور ينفجر منها الماء .

ويقال : أقسم به لأنَّه وقتُ عبادة الأولياء عند افتتاحهم النهار .

« وليالٍ عشر » قيل : هى عَشْرُ ذى الحجة ، ويقال : عَشْرُ المحرم ؛ لأن آخرها عاشوراء . ويقال : العَشْرُ الأخيرة من رمضان .

ويقال : هى العَشْرُ التى ذكرها اللهُ فى قصة موسى عليه السلام تمَّ به ميعاده بقوله : وأتممناها بعَشْر » .

---

(١) هكذا فى النسختين ، ولا نستبعد أنها فى الأصل : (فأراحته) ذلك لأن رحمة الله عامة ، للخاصة والكافة ، أما محبته — التى هى رحمة خاصة بالخواص — فهى المقصودة هنا (الرسالة ص ١٥٨) وهذه المحبة إذا استولت على روح محب أزعجته وما (أراحته) لأنها تتطلب بذل الروح ، واسترخاص المهجة .

(٢) فى النسختين (مستطيل ومستطير) ولم نفهم المقصود ، فوضعنا (قصير) محل مستطير كى يكون هناك بين فجر لعام كامل . وفجر ليوم واحد — والله سبحانه وتعالى أعلم .

ويقال : هو « فجرُ » قلوبِ العارفين إذا ارتقوا عن حدِّ العلم ، وأسفر صُبْحُ معارفِهم ، فاستغنوا عن ظلمة طلب البرهان[1] بما تجلَّى فى قلوبهم من البيان .

« والشَّفْـعِ والوَتْرِ » .

جاء فى التفاسير : الشفعُ يومُ النَّحْرِ ، والوتر يوم عَرَفَة[2] .

ويقال : آدم كان وتراً فشُفِـعَ بزوجته حواء .

وفى خبرٍ : إنها الصلوات منها وتر (كصلاة المغرب) ومنها شفع كصلاة الصُّبْح .

ويقال : الشفع الزوج من العَدَد ، والوتر الفَرْدُ من العدد .

ويقال : الشفع تضادُّ أوصاف الخَلْق : كالعـــلم والجهل ، والقدرة والعجز ، والحياة والموت . والوتر انفرادُ صفاتِ اللهِ ســبحانه عمَّا يضادُّها ؛ علم بلا جهلٍ ، وقدرة بلا عجزٍ ، وحياة بلا موتٍ .

ويقال : الشفعُ الإرادة والنية ، والوتر الهِمَّة ؛ لا تكتفى بالمخلوق ولا ســبيل لها إلى الله — لتَقَدُّسِه عن الوَصْلِ والفَصْل . . فبقيت الهِمَّةُ غريبةً .

ويقال : الشفع الزاهد والعابد ، لأن لـكلٍ منهما شكلاً وقريناً ، والوترُ المريدُ فهو كما قيل :

فريدٌ من الخِـلَّانِ فى كل بلدةٍ
إذا عَظُمَ المطلوبُ قَلَّ المســـاعدُ

« والليلِ إذا يَسْرِ » .

« يسرى » يمضى .

قوله جل ذكره . « هل فى ذلك قَسَمٌ لذى حِجْرٍ ؟ » .

« حِجْرٍ » . لُبٍّ . وجوابُ القَسَمِ : « إن ربَّـك لبالمرصاد » .

---

(١) أى عن النطاق العقلى .. والعقل — فى نظر الصوفية — مصاب بآفات التجويز والتحير والارتباط بالمحسات .

(٢) يوم عرفة وتر ، لأنه تاسع الأيام العشرة ، ويوم النحر شفع لأنه عاشرها . . وقد روى حديث بهذا المعنى عن جابر بن عبد الله .

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعلَ ربُّكَ بعادٍ *

إِرَمَ ذاتِ العِماد ... » .

ذكر قصص هؤلاء المتقدمين .. إلى قوله : « فَصَبَّ عليهم ربُّكَ سَوْطَ عذاب » أى : شدة العذاب .

« إنَّ ربَّك لبالمرصاد » .

لا يفوته شىء .

قوله جل ذكره : « فأمَّا الإنسانُ إذا ما آبتلاه ربُّه

فأَكْرَمَهُ ونَعَّمَهُ فيقولُ ربِّى أكْرَمَنِ *

وأمَّا إذا ما أبتلاه فَقَدَرَ عليهِ رِزْقَهُ

فيقولُ ربِّى أهانَنِ » .

« فيقول ربى أكرمنى » : أى : شَكَرَه .

« فَقَدَرَ عليه رزقَه » . أى : ضيَّق ، « فيقول ربى أهاننى » . أى : أذَلَّنى . كلا .. ليس الإذلالُ بالفقر إنما الإذلالُ بالخذلانِ للعصيان (١) .

قوله جل ذكره : « كَلَّا بل لَّا تُكْرِمون اليتيم »

أَى : أنتم تستحقون الإهانة على هذه الخصال المذمومة ؛ فلا تُكْرِمون اليتيمَ .

« ولا تَحَاضُّون على طعامِ المسكين *

وَتَأْكُلُون التُّراثَ أكلاً لَمًّا » .

لَمًّا . أى شديداً .

« وتُحِبُّونَ المالَ حُبًّا جَمًّا »

جَمًّا أى كثيراً .

---

(١) كما نعرف من مذهب القشيرى ، أقصى درجات الغضب : الخذلان للعصيان وأقصى درجات الرضا : التوفيق للطاعة .. وكلاهما من الله .

قوله جل ذكره : « كَلَّا إذا دُكَّتِ الأرضُ دَكًّا دَكًّا » .

أى : قامت القيامة .

« وجاء ربُّكَ والمَلَكُ صَفًّا صَفًّا » .

« وجاء ربُّك » أى الملائكة بأمره[1] .

ويقال : يفعل فعلاً فيُسميه مجيئاً .

« وجِيءَ يومئذٍ بجهنَّمَ يومئذٍ يَتَذَكَّرُ الإنسانُ وأنَّى له الذِّكرى ؟ ! »

يقال : تُقَاد جهنم بسبعين ألف زمام[2]

وفى ذلك اليوم يتذكر الإنسانُ . . ولا يَنْفَعه التذكُّر ، ولا يُقْبَلُ منه العُذْرُ .

« يقولُ يا ليتنى قَدَّمْتُ لحياتى »

أى : أَطَعْتُ ربِّى ونظرت لنفسى .

« فيومَئذٍ لَّا يُعَذِّبُ عذابَهَ أَحَدٌ »

أى : لا يعذِّب فى الدنيا أحدٌ مثلما يعذِّبه الله فى ذلك اليوم . . إذا قرئت الذال بالكسر .

أما إذا قرئت بالفتح[3] « لا يُعَذَّب » فالمعنى : لا يُعَذَّبُ أحدٌ مثلما يُعَذَّبُ هذا الكافر[4] .

قوله جل ذكره : « يٰأيتها النَّفْسُ المطمئنةُ » .

---

(١) أى : جاءهم ربُّك . أى : ظهرت آياته ، وأزيل الشك ، وصارت المعارف ضرورية ، وظهرت القدرة الإلهية . والمقصود نفى التحول من مكان إلى مكان عن الله ، فقد جلَّت الصمدية عن الارتباط بالتحول الحركى والتقييد الزمانى والمكانى .

(٢) «... كل زمام بيد سبعين ألف ملك ، لها تغيظ وزفير ، حتى تنصب عن يسار العرش » (ابن مسعود) — وفى صحيح مسلم حديث يرويه ابن مسعود بهذا المعنى .

(٣) بالفتح قراءة الكسائى « لايعذَّب » « ولا يوثَق » .

(٤) قيل : هو إبليس لأنه أشد المخلوقات عذاباً ، وقيل «هو أمية بن خلف لتناهيه فى كفره وعناده .

الروحُ المطمئنةُ إلى النفس .

ويقال : المطمئنةُ بالمعرفة : ويقال : المطمئنة بذكر الله .

ويقال : بالبشارة بالجنة . ويقال : النفس المطمئنة : الروح الساكنة[1]

« ٱرْجِعى إلى ربِّكِ راضيةً مَّرْضية »

راضيةً[2] عن الله ، مَرْضيةً من قِبَلِ الله .

« فادخُلى فى عبادى * وٱدْخُلى جَنَّتى » .

أى : فى عبادى الصالحين .

(١) تأخرت هذه العبارة الأخيرة إلى نهاية السورة فى النسختين فنقلناها إلى موضعها .

(٢) وردت (من) ولكننا وجدنا أن المعنى حينئذ لن يتغير فيما بين اسم الفاعل واسم المفعول ، فوضعنا (عن) بدلا من (من) مسترشدين بقوله تعالى : «رضى الله عنهم ورضوا عنه» . وإن كنا لا نستبعد أن (من) تؤدى معنى صوفياً : هو أنه حتى رضاهم عن الله (من) الله ؛ فليس للعبد حول ولا طول حتى يرضى أو يسخط .. إلا إذا كان ثمة فضل إلهى (من) الله .

سورة البلد

قوله جل ذكره : « بسم اللهِ الرحمن الرحيم »(١)

« بسم الله » كلمةٌ تُخبر عن جلالٍ أزلىّ ، وجمالٍ سرمدىٍّ ، جلالٍ ليس له زوال ، وجمالٍ ليس له انتقال ، جلالٍ لا بأغيارٍ(٢) وأمثال ، جمالٍ لا بصورةٍ ومثال ، وجلالٍ هو استحقاقُه لجبروته وجمالٍ هو استيجابُه للملكوته ، جلالٍ مَنْ كاشَفَه به فأوصافُه فناءٌ فى فناء ، وجمالٍ مَنْ لاطَفَه به فأحوالُه بقاءٌ فى بقاء .

قوله جل ذكره : « لا أُقْسِمُ بهذا البَلَدِ » .

أى : أُقسِم بهذا البلد ، وهو مكة .

« وأنتَ حِلٌّ بهذا البلد » .

وإنما أُحِلَّتْ له ساعةً واحدةً (٣).

« ووالدٍ وما وَلَد » .

كلِّ والدٍ وكلِّ مولود . وقيل : آدم وأولاده

وجواب القسم : « لقد خلقنا الإنسانَ فى كبد » .

ويقال : أُقسم بهذا البلد لأنك حِلٌّ به .. وبَلَدُ الحبيبِ حبيبٌ .

« لقد خلقنا الإنسانَ فى كَبَدٍ »

---

(١) مرة أخرى حدث اضطراب .. فتفسير البسملة هنا كما جاء فى م موضوع فى ص فى أول السورة القادمة : سورة الشمس .. والعكس فى م .

(٢) هكذا فى م وهى فى ص (باعتبار) والصحيح ما أثبتنا .

(٣) عن ابن عباس قال : « أحلَّت له ساعةٌ من نهار ثم أطبقت وحرِّمت إلى القيامة وذلك يوم فتح مكة . وثبت أن النبى (ص) قال : « إن الله حرَّم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهى حرامٌ إلى أن تقوم الساعة ، فلم تحل لأحدٍ قبلى ، ولاتحل لأحدٍ بعدى ، ولم تحل لى إلا ساعة من نهار » .

أى : فى مشقة ؛ فهو يقاسى شدائدَ الدنيا والآخرة .

ويقال : خَلَقَه فى بطن أمه (منتصباً رأسُه) فإذا أَذِنَ الله أن يخرج من بطن أمِّه تنكَّس رأسُه عند خروجه ، ثم فى القِماط وشدِّ الرِّباط . . . ثم إلى الصِّراط هو فى الهِياط والمِياط[1] .

قوله جل ذكره : « أيَحْسَبُ أَنْ لَّن يَقْدِرَ عليْه أحدٌ »

أى : لقوَّته وشجاعته عند نَفْسِه يقول :

« يقول أهْلَكْتُ مالاً لُّبَدًا » .

« لبداً » كثيراً ، فى عداوة محمد صلى الله عليه وسلم .[2]

« أيَحْسَبُ أنْ لَّم يَرَهُ أحدٌ » .

أليس يعلم أَنَّ اللهَ يراه ، وأنه مُطَّلِعٌ عليه ؟

قوله جل ذكره : « أَلَمْ نَجْعَلْ لَّه عينين * ولساناً وشفتين ؟ »

أى : ألم نخلقه سميعاً بصيراً متكلِّماً .

« وهديناهُ النَّجْدَيْنِ » .

ألهمناه طريق الخيرِ والشرِّ .

« فلاَ اقتحَمَ العقبةَ * وما أدْراكَ ما العقبةُ ؟ * فكُّ رقبةٍ * أو إطعامٌ فى يومٍ ذى مسغبةٍ * يتيما ذا مَقْرَبَةٍ * أوْ مسكيناً ذا متربةٍ » .

أى : فهلَّا اقتحم العقبة . « وما أدراك ما العقبة ؟ استفهام على التفخيم لشأنها .

و يقال : هى عَقَبَةٌ بين الجنة والنار يجاوزها مَنْ فَعَلَ ما قاله : وهو فكُّ رقبة : أى : إعتاقُ مملوك ، والفكُّ الإزالة . وأطعم فى يومٍ ذى مجاعةٍ وقحطٍ وشدَّةٍ يتيماً ذا قرابة ، أو « مسكيناً ذا متربة » : لا شىء له حتى كأنه قد التصق بالتراب من الجوع .

---

(١) يقال : هم فى هياط ومياط أى فى شر وجلَبة ، وقيل : فى دنوّ وتباعد (الوسيط) .

(٢) يقال : نزلت فى رجل من بنى جُمَح كان يقال له : أبو الأشدين ، وكان من أشد أعداء النبى (ص) . (قاله الكلبى) .

قوله جل ذكره : «ثم كان مِنَ الذين آمنوا وتواصَوْا بالصبرِ وتواصَوْا بالمَرْحَمة» .

أى : من الذين يرحم بعضهم بعضاً .

« أولئك أصحابُ الميْمَنة »

أى : أصحاب اليُمْنِ والبركة .

« والذين كفروا بآياتِنا هم أصحابُ المَشْأَمة * عليهم نارٌ مُؤْصَدَة » .

هم المشائيمُ على أنفسهم ، عليهم نارٌ مُطْبِقَة ؛ يعنى أبواب النيران (عليهم مغلقة) .

والعقبة التى يجب على الإنسان اقتحامها : نَفْسُه وهواه ، وما لم يَجُزْ تلك العقبة لا يفلح و « فك رقبة » هو إعتاقُ نَفْسِه من رِقِّ الأغراض والأشخاص .

ويكون فك الرقبة بأن يهدى مَنْ يفكه — من رق هواه ونفسه — إلى سلامته من شُحِّ نفسه ، و يرجعه إليه ، و يخرجه من ذُلِّه .

و يكون فكُّ الرقبة بالتَّحرُّزِ من التدبير ، والخروج من ظلمات الاختيار إلى سعة الرضاء .

و يقال : يطعم من كان فى متربة و يكون هو فى مسغبة .

« ثم كان من الذين آمنوا ... » أى تكون خاتمته على ذلك[1] .

---

(١) أى يبقى على ذلك حتى الوفاة .

سُورَةُ الشَّمْس

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » إخبارٌ عن وجودِ الحقِّ بنعتِ القِدَم . « الرحمن الرحيم » : إخبارٌ عن بقائه بوصف العَلاء والكَرَم .

كاشَفَ الأرواحَ بقوله : « بسم الله » فهيَّمها ، وكاشَفَ النفوسَ بقوله : « الرحمن الرحيم » فَتَيَّمها ؛ فالأرواحُ دَهْشَى فى كَشْفِ جلاله ، والنفوسُ عَطْشَى إلى لُطْفِ جماله [1].

قوله جل ذكره : « والشَّمسِ وضُحاها » .

ضُحَا الشمسِ صَدْرُ وقت طلوعها .

« والقمرِ إذا تَلاها » .

أى : تَبِعَها ؛ وذلك فى النصف الأول من الشهر .

« والنَّهارِ إذا جلَّاها » .

إذا جلَّى الشمسَ وكَشَفَها .

« والليلِ إذا يَغْشَاها » .

أى : يَغْشَى الشمسَ (فيذهب بضوئها) .

« والسماءِ وما بناها » .

أى وبنائها . ويقال : ومَنْ بناها [2]

---

(١) نذكر بما قلناه آنفا عن تعاكس وضع تفسيرى البسملة فيما بين «البلد» و «الشمس» فى النسختين م ، وص .

(٢) هذا القول الأخير اختاره الطبرى ، وقاله الحسن ومجاهد . وأهل الحجاز يقولون : سبحان (ما) سبَّحت له . أى سبحان من سبحت له .

« والأرضِ وما طحاها » .

أي : وطَحْوها . ويقال : ومَنْ طحاها (أي بسطها أو قسمها أو خلقها) .

« ونَفْسٍ وما سوّاها » .

ومن سوّى أجزاءها وأعضاءها .

« فألْهمها فُجورَها وتقْواها » .

أي : بأن خَذلَهَا ووَفَّقَهَا .

ويقال : فجورها : حركتها فى طلب الرزق ، وتقواها : سكونها بِحُكْمِ القدير .

وقيل : طريق الخير والشر .

قوله جل ذكره : « قد أفلَحَ مَنْ زَكَّاها » .

هذا جواب القَسَم . أي : « لقد أفلح من زكَّاها » .

ويقال : مَنْ زكَّاه اللهُ عزَّ وجلَّ .

« وقد خَابَ من دَسَّاها » .

أي : دسَّاها الله . وقيل : دسَّها[1] فى جملة الصالحين وليس منهم .

وقيل : خاب مَنْ دسَّ نَفْسَه بمعصية الله . وقيل دسَّاها : جعلها خسيسةً حقيرةً . وأصل الكلمة دسسها[2]

قوله جل ذكره : « كَذَّبَتْ ثمودُ بطَغْوَاها » .

« بطغواها » : لطغيانها ، وقيل : إن صالحاً قد مات ، فَكَفَرَ قومُه ، فأحياه اللهُ ، فدعاهم إلى الايمان ، فكذَّبوه ، وسألوه علامةً وهى الناقة ، فأتاهم صالح بما سألوا .

« إذ انْبَعَثَ أشقاها » .

---

(١) أي دسها صاحبها .

(٢) من التدسيس ، وهو إخفاء الشيء فى الشيء ، فأبدلت سينه ياءً كما يقال : قَصَّيْتُ أظفارى والأصل قصصت ، ومثله قولهم فى تضضض : تَقَضَّى .

« أشقاها » عاقِرُها .

« فقال لهم رسـولُ اللهِ ناقةَ اللهِ وسُقْيَاها » .

أي : إحذروا ناقةَ اللهِ ، واحذروا سقياها : أي : لا تتعرَّضوا لها .

« فكذَّبُوه فعَقَروها . . » .

أي كذَّبوا صالحًا ، فعقروا الناقةَ .

« . . . فدَمْدَمَ عليهم ربُّهم بِذَنْبِهِم فَسَوَّاها » .

أي : أهلكهم بُجْرمِهم ، « فسوَّاها » : أي أطبق عليهم العذاب[1] .

ويقال : سَوَّى بينهم ربُّهم فى العذاب لأنهم كلهم رضوا بعقر الناقة .

قوله جل ذكره : « ولا يخافُ عُقباها » .

أي : أن الله لا يخاف عاقبة ما فَعَلَ بهم من العقوبة .

ويقال : قد أفلح[2] مَنْ دَاوَمَ على العبادة ، وخابَ مَنْ قصَّرَ فيها .

وفائدة السورة : أنه أفلح مَنْ طَهَّرَ نَفْسَه عن الذنوبِ والعيوبِ ، ثم عن الأطماع فى الأعواض والأغراض ، ثم أَبْعَدَ نَفْسَه عن الاعتراض على الأقسام ، وعن ارتكاب الحرام . وقد خابَ من خانَ نَفْسَه ، وأهملها عن المراعاة ، ودَنَّسَهَا بالمخالفات ؛ فلم يرضَ بعَدَمِ المعانى حتى ضمَّ إلى فَقْرِها منها الدعاوى المظلمة ... فغرقت فى بحرِ الشقاء سفينتُه .

---

(١) بأن سوَّى عليهم الأرض .

(٢) هكذا فى ص وهى فى م (أصلح) وقد رجَّحنا ما أثبتنا ، فهكذا الآية ، ثم ما تلا هذه العبارة .

سُورَةُ اللَّيْل

قوله جل ذكره : « بسم اللهِ الرحمن الرحيم »

بسم الله كلمةٌ تُخْبِرُ عن إلهيةِ الله ؛ وهى استحقاقُه لنعوتِ المجد والتوحُّد ، وصفاتِ العزِّ والتفرُّد ؛ فَمَنْ تجرَّدَ فى طَلَبِه عن الكسلِ ، ولم يستوطنْ مركبَ العجزِ والفشلِ ، ووَضَعَ النظر موضعَه وَصَلَ بدليل العقل إلى عرفانه ، ومَنْ بَذَلَ روحَه ونفْسَه ووَدَّعَ فى الطلبِ راحته وأُنْسَه ، ولم يُعَرِّجْ فى أوطان الوقفة ظفر بحكم الوصل إلى شهود سلطانه ، والناسُ فيه بين مُوَفَّقٍ ومخذول ، أو مؤيَّدٍ ومردود .

قوله جل ذكره : « والليلِ إذا يَغْشَىٰ » .

يغشى الأفقَ ، وما بين السماء والأرض فيستره بظُلْمته .

والليلِ لأصحاب التحيُّر يستغرِق جميعَ أقطار أفكارهم فلا يهتدون الرشد .

« والنهارِ إذا تجلَّىٰ »

أنارَ وظَهرَ ، ووَضح وأَسفر .

ونهارُ أَهلِ العرفان بضياء قلوبهم وأسرارهم ، حتى لا يَخْفَى عليهم شئ ، فسكنوا بطلوعِ الشمس(1) عن تكلُّفِ إيقاد السراجِ (2)

« ومَا خَلَقَ الذَّكَرَ والأُنثى » .

أي : « من » خَلَقَ الذكر والأنثى ؛ وهو الله سبحانه :

« إنَّ سَعْيَكُم لَشَتَّىٰ » .

هذا جوابُ القَسَم ، والمعنى : إنَّ عملكم لمختلف ؛ فمنكم : مَنْ سَعْيُه فى طلب دنياه ، ومنكم مَنْ سعيُه فى شهواتِ نَفْسِه واتباع هواه ، ومنكم مَنْ فى طَلَبِ جاهِه ومُناه ، وآخر فى طلب عقباه ،

---

(1) يقصد شمس التوحيد .

(2) إذا طلعت شمس التوحيد لم تُغْنِ محاولات العقل ، لأن نورها يطغى على كل الأنوار .

وآخر فى تصحيح تقواه ، وآخر فى تصفية ذكراه ، وآخر فى القيام بحُسْنِ رضاه ، وآخر فى طلب مولاه .

ومنكم : من يجمع بين سعى النّفْس بالطاعة ، وسَعْى القلب بالإخلاص ، وسعى البَدَن بالقُرَب ، وسعى اللسان بذكر الله ، والقول الحَسَنِ للناس ، ودعاء الخَلْقِ إلى الله والنصيحة لهم .

ومنهم مَنْ سعيُه فى هلاكِ نَفْسِه وما فيه هلاكُ دنياه . . ومنهم . . ومنهم .

قوله جل ذِكْرُه : « فأمَّا مَنْ أعطى' واتَّقَى' * وصَدَّقَ بالحُسْنى' * فَسَنُيَسِّرُه لليُسْرَى' » .

« فأمَّا من أعطى » من مالِه ، « واتقى » مخالفَةَ ربِّه ...

ويقال : « أعطى » الإنصافَ من نَفْسِه ، « واتقى » طَلَبَ الإنصافِ لنفسه[1] . . .

ويقال : « اتقى » مساخِطَ الله . « وصدّق بالحسنى » : بالجنة ، أو بالكَرَّةِ الآخرة ، وبالمغفرةِ لأهل الكبائر ، وبالشفاعة من جهة الرسولِ صلى الله عليه وسلم ، وبالخَلَفِ[2] من قِبَلِ الله ... فَسَنُيَسِّرُه لليُسْرَى : أى نُسَهِّلُ عليه الطاعاتِ ، ونُكَرِّهُ إليه المخالفاتِ ، ونُشَهِّى إليه القُرَبَ ، ونُحَبِّبُ إليه الإيمانَ ، ونُزَيِّن فى قلبه الإحسان .

ويقال : الإقامة على طاعته والعود إلى ما عمله من عبادته .

« وأمَّا مَنْ بَخِلَ واستغنى' * وكَذَّبَ بالحسنى' * فَسَنُيَسِّرُه للعُسْرَى' » .

أما من مَنَعَ الواجبَ ، واستغنى فى اعتقاده ، وكَذَّبَ بالحسنى : أى بما ذَكَرْنا ، فسنيسره للعسرى ؛ فيقع فى المعصية ولم يُدَبِّرْها ، ونوقف[3] له أسبابَ المخالفة .

ويقال « أعطى » أعْرَضَ عن الدارين ، « واتّقى » أن يجعل لهما فى نفسه مقداراً .[4]

---

(1) من الفتوة أن تتحلَّى بالإنصاف وأن تتخلَّى عن الانتصاف . . هكذا قال الشيوخ .

(2) (الخَلَف) بالمعنى العام : إن الله يرث الأرض ومن عليها ، وبالمعنى الصوفى : «فالذين يفنيهم – فى حال الفناء والمحق – فهو عنهم خَلَف (انظر بسملة الأحقاف المجلد الخامس) .

(3) هكذا فى ص وهى فى م (ونوفّق) وهى مقبولة أيضاً (فالتوفيق) للعسرى هو التيسير لها كما فى الآية .. بل لعلّها أقرب إلى السياق مما فى ص .

(4) حتى يبتعد عن الأعواض والأغراض ، ويَنْقى قلبه لله وحده .

قوله جل ذكره : « وما يُغْنِى عنه مالُه إذا تَرَدّى »

يعنى : إذا مات .. فما الذى يغنى عنه ماله بعد موته ؟

قوله جل ذكره : « إن علينا لَلْهُدَى »

لأوليائنا ، الذين أرشدناهم . ويقال : « إن علينا للهدى » بنصيب الدلائل .

« وإنَّ لنا للآخِرَةَ والأُولى »

مُلْكاً ، نعطيه من نشاء .

« فأنْذَرْتُكم ناراً تَلَظَّى »

أى : تتلظَّى .

« لا يَصْلاها إلاَّ الأشْقَى »

أى : لا يُعَذَّبُ بها إلّا الأشقى ، وهو :

« الذى كَذَّبَ وتولى »

يعنى : كَفَرَ .

« وسَيُجَنَّبُها الأتقى * الذى يُؤْتِى مالَهُ يَتَزَكَّى »

يعْطِى الزكاةَ المفروضة .

ويقال يتَطَهَّر من الذنوب .

ونزلت الآية فى (أبى بكرٍ)[1] رضى الله عنه . والآية عامة .

---

(١) ما بين القوسين غير موجود فى م ، ويوجد فقط « رضى الله عنه » وفى م : يوجد فقط (والآية عامة) فأكلنا السياق .

ويروى : أن النبى (ص) مر ببلال وهو يعذب فى الله ويقول :

أحد أحد ، فلما نقل ذلك إلى أبى بكر ، عرف أبو بكر ما يريده النبى ، فذهب إلى أمية بن خلف ، واشترى بلالا وأعتقه ، فلما قال المشركون : ما أعتقه أبو بكر إلا ليدٍ كانت له عنده ، نزل قوله تعالى : «وما لأحد عنده من نعمة تجزى . إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى» .

« وما لأحَدٍ عنده مِنْ نِّعمةٍ تُجْزَى »

حتى تكون هذه مكافأةً له . ولا يفعل هذا ليَتَّخِذَ عند أحدٍ يَداً ، ولا يطلب منه مكافأةٍ :

« إلاَّ ٱبتغاءَ وَجْهِ ربِّه الأعلى »

أى : ليتقرَّبَ بها إلى الله .

« ولسوف يَرْضَىٰ »

يَرْضَى اللهُ عنه ، ويرضى هو بما يعطيه .

سُورَةُ الضُّحَى

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » اسمٌ لا يُشْبِهُهُ كُفْوٌ[١] فى ذاتِهِ وصفاتِهِ ، ولا يَستفِزُّهُ[٢] لَهْوٌ فى إثباتِ مصنوعاته ، ولا يعتريه سَهْوٌ فى عِلْمِهِ وحكمتِهِ ، ولا يعترضه لَغْوٌ فى قوله وكَلِمتِهِ .

فهو حكيمٌ لا يلهو ، وعليمٌ لا يسهو ، وحليمٌ يُثْبِتُ ويمحو ؛ فالصدق قَوْلُه ، والحقُّ حُكْمُهُ ، والخَلْقُ خَلْقُهُ والمُلْكُ مُلْكُهُ .

قوله جل ذكره : « والضُّحَى * والليلِ إذا سَجَا »

« والضحى » : ساعةٌ من النهار . أو النهارُ كلُّه يُسَمَّى ضُحًى . ويقال : أقسم بصلاة الضُّحى .

ويقال : الضحى الساعةُ التى كَلَّم فيها موسى عليه السلام .

« والليلِ إذا سجا » أى : ليلة المعراج ، و « سجا » : أى سَكَنَ ، ويقال : هو عامٌّ فى جِنْسِ الليلِ .

ويقال : « الضحى » وقت الشهود . « والليل إذا سجا » الذى قال : إنه لَيُغَانُ على قلبى[٣] . . . »

---

(١) أصلها « كفؤٌ » أى مماثل ، أو قوى قادر على تصريف العمل .

ويقرأ بضم الفاء وسكونها ، فإن كل اسم على ثلاثة أحرف أوله مضموم فإنه يجوز فى عينه الضم والاسكان إلا قوله تعالى « وجعلوا له من عباده جزءاً » (آية ١٥ سورة الزخرف) .

(٢) استفزه الشيء = استخفه ، واستفزه فلان = أثاره وأزعجه .

(٣) عن أغر مزينة قال : قال رسول الله (ص) : إنه ليغان على قلبى حتى أستغفر الله فى اليوم والليلة مائة مرة » أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى . وفى رواية لمسلم : « توبوا إلى ربكم ، فوالله إنى لأتوب إلى ربى تبارك وتعالى فى اليوم مائة مرة » .

ويقال : « الليل إذا سجا » حين ينزل اللهُ فيه إلى السماء الدنيا — على التأويل الذى يصحُّ فى وصفه[1] .

« ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وما قَلَىٰ »

ما قَطَعَ عنك الوحىَ وما أبغضك[2] .

وكان ذلك حين تأخَّر جبريلُ — عليه السلام — عنه أياماً[3] ، فقال أهل مكة : إن محمداً قد قلاه ربُّه . ثم أنزل اللهُ هذه السورة .

وقيل : احتبس عنه جبريل أربعين يوماً ، وقيل : اثنى عشر يوماً ، وقيل : خمسة وعشرين يوماً .

ويقال : سبب احتباسه أن يهودياً سأله عن قصة ذى القرنين وأصحاب الكهف ، فوَعَدَ الجوابَ ولم يقل : إن شاء الله[4] .

« وللآخرةُ خيرٌ لَّكَ من الأولى »

أى : ما يعطيك فى الآخرة خيرٌ لَكَ مما يعطيك فى الدنيا .

ويقال : ما أعطاك من الشفاعة والحوض ، وما يُلْبِسُك من لباس التوحيدِ — غداً — خيرٌ مما أعطاكَ اليومَ .

« ولسوفَ يُعْطِيكَ ربُّكَ فتَرْضَىٰ »

قيل : أفترضى بالعطاء عن المُعْطِى ؟ قال : لا .

قوله جل ذكره : « ألم يجدك يتيماً فآوى ؟ »

---

(١) تقدَّم التعليق على هذا الخبر فى هامش سبق .

(٢) هكذا فى ص وهى فى م (يغضبك) .

(٣) فى البخارى عن جندب بن سفيان قال : اشتكى رسول الله (ص) فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً فجاءت امرأة (هى العوراء بنت حرب أخت أبى سفيان ، وهى حمالة الحطب ، زوج أبى لهب) فقالت : يا محمد ، إنى لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك ، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاث ، فأنزل الله عز وجل «والضحى» .

(٤) يقال : إن جرواً دخل تحت السرير فى حجرته ومات ، فلما تغيب الوحى سأل خادمه خولة : يا خولة ما حدث فى بيتى ؟ ما لجبريل لا يأتينى ؟ فلما قامت إلى البيت فكنسته وأخبرته بما وجدت .. فلما عاده الوحى سأله عن سِرِّ تأخره فقال جبريل : أما علمت أنا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة ؟

قيل : إلى عمه أبى طالب .

ويقال : بل آواه إلى كَنَفِ ظِلّه ، وربَّاه بلطف رعايته .

ويقال : فآواكَ إلى بساطِ القربة بحيث انفردْتَ بمقامك ، فلم يُشَاركْك فيه أحدٌ .

« ووَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى »

أى : ضللْتَ فى شِعابِ مكة ، فَهَدَى إليكَ عَمَّكَ أبا طالبٍ فى حال صباك .

ويقال : « ضالًّا » فينا متحيِّراً . . فهديناك بنا إلينا .

ويقال : « ضالًّا » عن تفصيل الشرائع ؛ فهديناك إليهابأن عرَّفناك تفصيلَها .

ويقال : فيما بين الأقوام ضلالٌ فهداهم بك .

وقيل : « ضالًّا » للاستنشاء[1] فهداك لذلك .

ويقال « ضالاًّ » فى محبتنا ، فهديناك بنور القربة إلينا .

ويقال : « ضالاًّ » عن محبتى لكَ فعرَّفتك أَنِّى أُحِبُّك .

ويقال : جاهلًا بمحلِّ شرفِكَ ، فعرَّفْتُك قَدْرَكَ .

ويقال : مستتراً فى أهل مكة لا يعرفك أحدٌ فهديناهم إليك حتى عرفوك[2]

« ووجدك عائِلاً فأَغْنَى »

فى التفسير : فأغناكَ بمال خديجة .

ويقال : أغناكَ عن الإرادة والطلب بأن أرضاك بالفَقْد[3]

ويقال : أغناكَ بالنبوَّة والكتاب . ويقال : أغناك بالله .

---

(١) الكلمة غير واضحة الرسم فى النسختين ، وقد رجحنا هذه الكلمة لأنها أقرب إلى ما فى م ، ولأن من القصص السابقة ما يشير إلى أنه لم يقدم المشيئة فعوتب فى ذلك «ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله »

(٢) ربما تتفق هذه الإشارة مع ما جرت عليه العرب فى وصف الشجرة المنفردة فى الفلاة لا شجر معها بأنها ضالة يهتدى بها إلى الطريق لأنها علامة مميزة ، فهى معروفة لذاتها ، ولأنها علامة على الطريق هادية إليه .

(٣) هكذا فى م ، وهى فى ص (بالعقل) ، ولكننا نرجح ما جاء فى م ، ولا نستبعد أنها فى الأصل (الفقر) .. فالرضا فى حال الفقر أو (الفقد) أتم فى النعمة من الرضا فى حال الغنى .. وهل أعظم من الغنى بالله ؟ !

ويقال : أغناك عن السؤال حينما أعطاك ابتداء ؛ بلا سؤالٍ منك .

قوله جل ذكره : « فأمَّا اليتيمَ فلا تقهر »

فلا تُخِفْه ، وارفقْ به ، وقرِّبْه

« وأمَّا السَّائلَ فلا تَنْهَرْ »

أى : إمَّا أَنْ تُعْطِيَه . . أو تَرُدَّه برِفْقٍ ، أو وعدٍ .

ويقال : السائلُ عنَّا ، والسائلُ المتحيِّرُ فينا — لا تنهرهم ، فإنَّا نهديهم ، ونكشف مواضع سؤالهم عليهم . . فلاطِفْهم أنت فى القول .

« وأمَّا بنعمةِ ربِّك فَحَدِّث »

فاشكُرْ ، وصَرِّحْ بإحسانه إليك ، وإنعامه عليك .

سُورَةُ أَلَمْ نَشْرَح

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » اسمٌ عزيزٌ عَزَّ مَنْ التجأ إليه ، وجَلَّ مَنْ توكَّلَ عليه ، وفاز فى الدنيا والعُقْبَى مَنْ تَوَسَّلَ به إليه ؛ فَمَنْ تَقَرَّبَ منه قَرَّبَه ومَنْ شكا إليه حَقَّقَ له مَطْلَبَه ، ومَنْ رَفَعَ قصَّته إليه قَضَى مأربَه .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ نَشْرَحْ لكَ صَدْرَكَ ؟ »

أَلَمْ نُوَسِّعْ قَلْبَكَ للإسلام ؟ أَلَم نُلَيِّنه للإيمان ؟

ويقال : أَلَم نوسع صدرك بنور الرسالة ؟ أَلَم نوسِّع صدرك لقَبُولِ ما نورِدُ عليك .

« ووَضَعْنَا عنك وِزْرَكَ * الذى أنقضَ ظَهْرَكَ »

أى : إثمكَ قبل النبوَّة .

ويقال : عصمناكَ عن ارتكابِ الوِزْرِ ؛ فَوَضْعُه عنه بأنَّه لم يستوجبْه قطّ .

ويقال : خفضنا عنك أعباء النبوَّة وجعلناكَ محمولاً لا متحمِّلاً [1] .

ويقال : قويناك على التحمُّل من الخَلْق ، وقوَّيناك لمشاهـــدتنا ، وحفظنا عليك ما استحفظت [2] ، وحرسناكَ عن ملاحظة الخَلْقِ فيما شرَّفناك به .

---

(1) وهذه أقصى درجات الحب ، وقد مر بنا كيف قارن القشيرى بين مواقف موسى ، ومواقف المصطفى صلوات الله عليهما ، وكيف أوضح لنا أن موسى كان متحملا بينما كان نبيا محمولا .

(2) إشارة إلى القرآن ، الذى حفظ من التغيير والتحريف .. إلى الأبد .

« الذى أنقض ظهرك » : أى : أثقله ، ولولا حَمْلُنا عنك لَكُسِرَ .

« ورَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ »

بِذِكْرِنا ؛ فكما لا تَصِحُّ كلمةُ الشهادة إلا بى ، فإنها لا تَصِحُّ إلا بك .[1]

ويقال : رفعنا لك ذكرك بقول الناس : محمد رسول الله !

ويقال : أثبتنا لك شرف الرسالة .

« فإنَّ مع العُسْر يُسْراً * إنَّ مع العُسْر يُسْراً »

وفى الخبر : « لن يغلب عُسْرٌ يُسْرَيْن »[2] ومعناه : أن العسر بالألف واللام فى الموضعين للعهد — فهو واحد ، واليُسْر مُنَكَّرٌ فى الموضعين فهما شيئان . والعُسْر الواحد : ما كان فى الدنيا ، واليُسْران : أحدهما فى الدنيا من الخصب ، وزوال البلاء ، والثانى فى الآخرة من الجزاء ؛ وإذاً فعُسْرُ جميع المؤمنين واحد — وهو ما نابهم من شدائد الدنيا ، ويُسْرُهم اثنان : اليومَ بالكَشْفِ والصَّرْفِ[3] ، وغداً بالجزاء .

قوله جل ذكره : « فإذا فَرَغْتَ فانْصَبْ »

فإذا فَرَغْتَ من الصلاة المفروضة عليك فانْصَبْ فى الدعاء .

ويقال : فإذا فرغت من العبادة فانصب فى الشفاعة .

ويقال : فإذا فرغت من عبادة نَفْسِك فانْصَبْ بقلبك .

« وإلى ربِّك فارغَبْ »

فى جميع الأحوال .

ويقال : فإذا فرغت من تبليغ الرسالة فارغب فى الشفاعة .

---

(١) فلا تصح الشهادة شرعاً إلا إذا قلنا : .... وأن محمداً رسول الله .

(٢) البخارى ص ١٤٥ ح ٣ .

(٣) (الكشف) هنا ليس كما قد نفهم من قبيل المصطلح الصوفى ، بل هو كشف الغمة وصرف المحنة ، فهى لفظة عامة فى هذا السياق .

سُورَةُ التِّين

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

اسم « الله » يدلُّ على جلالِ مَنْ لم يَزَلْ ، ويُخْبِرُ عن جمالِ مَنْ لم يَزَلْ ، ينبه على إقبالِ مَنْ لم يَزَلْ ، يشير إلى إفضال من لم يَزَلْ ؛ فالعارف شهد[1] جلالَه فطَاش ، والصفيُّ شهد جمالَه فعاش ، والوليُّ شهد إقباله فارتاش ، والمريدُ يشهد إفضالَه فلا يطالب مع كفايته المعاش .

قوله جل ذكره : « والتينِ والزيتُونِ »

أقسم بالتين لما به من عظيمِ المِنَّةِ على الخَلْقِ حيث لم يجعل فيه النَّوى ، وخَلَّصَه من شائب التنغيص ، وجعله على مقدار اللُّقْمة لتكمل به اللذَّة . وجعل فى « الزيتون » من المنافع مثل الاستصباح والتأدُّم والاصطباغ به .

« وطُورِ سينينَ »

الجبل الذى كَلَّمَ الله موسى عليه . ولموضعِ قَدَمِ الأحبابِ حُرْمةٌ .

« وهذا البَلَدِ الأمينِ »

يعنى : مكة ، ولهذا البلد شرف كبير ، فهى بلدُ الحبيب ، وفيها البيت ؛ ولبيتِ الحبيبِ وبَلَدِ الحبيبِ قَدْرٌ ومنزلة.[2]

---

(١) من هنا يبدأ فى النسخة بياض فى النسخة ص يتلوه . سقوط حتّى بداية سورة العاديات . ولهذا نعتمد فيما بين الموضعين على النسخة م وحدها .

(٢) مما ذهب المفسرون فى تفسير : التين والزيتون وطور سنين ، والبلد الأمين قول بعضهم : إن التين إشارة إلى جبل دمشق وهو مأوى عيسى عليه السلام ، وبالزيتون جبل بيت المقدس فهو مقام الأنبياء جميعهم ، وطور سينين إشارة إلى موسى كليم الله ، والبلد الأمين إشارة إلى أن مكة بها بيت إبراهيم وبها دار محمد صلى الله عليه وسلم .. فكأن مطالع السورة تشير إلى النبوات البارزة .

قوله جل ذكره : « لقد خَلَقْنا الإنسانَ في أَحسنِ تقويم » .

في اعتدال قامته ، وحُسْنِ تركيب أعضائه . وهذا يدل على أنَّ الحقَّ — سبحانه — ليس له صورة ولا هيئة ؛ لأنَّ كلَّ صفةٍ اشترك فيها الخَلْقُ والحقُّ فالمبالغةُ للحقِّ . . كالعلم ، فالأعلمُ اللهُ ، والقدرة : فالأقدرُ اللهُ فلو اشترك الخلقُ والخالقُ في التركيب والصورة لكانَ الأحسن في الصورة اللهُ ... فلمَّا قال : « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم » عُلِمَ أنَّ الحقَّ — سبحانه — مُنَزَّهٌ عن التقويم وعن الصورة .[1]

قوله جل ذكره : « ثم رَدَدْناهُ أسفلَ سافلينَ »

أي : إلى أرذل العمر وهو حال الخَرَفِ[2] والهَرَم .

ويقال : « أسفل سافلين » : إلى النار والهاوية في أقبح صورة ؛ فيكون أوَّلُ الآيةِ عامًّا وآخرها خاصًّا بالكفّار .. كما أنَّ التأويلَ الأولَ — الذي هو حال الهَرَم — خاصٌّ في البعض؛ إذ ليس كلُّ الناسِ يبلغون حالَ الهَرَم .

« إلا الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ فلهم أَجْرٌ غيرُ ممنون »

أي : غير منقوص .

ويقال : « ثم رددناه أسفل سافلين » أي : إلى حال الشقاوة والكفر إلَّا المؤمنين .

قوله جل ذكره : « فما يُكَذِّبُك بعدُ بالدِّينِ »

أيها الإنسانُ . . مع كل هذا البرهان والبيان ؟

« أليسَ اللهُ بأحكمِ الحاكمين » ؟

---

(١) في هذا ردٌّ جميل مقنع على المشبهة ، وعلى كل ذي تصور وهمي للألوهية .

(٢) الخرف = فساد العقل بسبب كبر السنّ .

سُورَةُ العَلَق

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمةٌ سماعُها يوجِبُ أحدَ أمرين : « إمَّا صَحْواً وإمَّا مَحْواً » ؛ صحواً لِمَنْ سمعها بشاهد العلم فيستبصر بواضح برهانه ، أو محواً لمن سمعها بشاهد المعرفة لأنه يتحيَّر فى جلال سلطانه .

قوله جل ذكره : « اُقرأْ باسم ربِّكَ الذى خَلَقَ »

هذه السورة من أوّلِ ما نَزَلَ على المصطفى صلَّى الله عليه وسلم لما تعرَّض له جبريل فى الهواء ، ونَزَلَ عليه فقال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق » . فالناسُ كلُّهم مريدون — وهو صلى الله عليه وسلم كان مُرَادًا . فاستقبل الأمر بقوله : « ما أنا بقارئ » ، فقال له : اقرأ ، فقال : ما أنا بقارئ ، فقال له : إقرأ كما أقول لك ؛ اقرأ باسم ربك الذى خلق . أى خلقهم على ما هم به .

« خَلَقَ الإنسانَ مِنْ عَلَقٍ »

العَلَق جمع عَلَقَة ؛ كشجَرٍ وشجرة .. (والعَلَقةُ الدمُ الجامد فاذا جرى فهو المسفوح) .

« اُقْرأْ وربُّكَ الأكرمُ »

« الأكرم » : أى الكريم .

ويقال : الأكرم من كلِّ كريم .

« الذى عَلَّمَ بالقَلَمِ * عَلَّمَ الانسانَ ما لم يعلَم »

عَلَّمهم ما لم يعلموا : الضروريَّ ، والكسبيَّ .

« كَلاَّ إِنَّ الإنسانَ لَيَطْغَى * أنْ رآه استغنى »[1]

أى : يتجاوز حَدَّه إذا رأى فى نفسه أنه استغنى ؛ لأنه يَعْمَى عن مواضع افتقاره.

ولم يقل : إن استغنى بل قال : « أن رآه استغنى » فإذا لم يكن مُعْجَباً بنفسه، وكان مشاهداً لِحلِّ افتقاره — لم يكن طاغياً[2] .

قوله جل ذكره : « إنَّ إلى ربِّك الرُّجْعَى » .

أى : الرجوع يوم القيامة .

قوله جل ذكره : « أَرأيتَ الذى يَنهَى * عبداً إذا صلى »

أليس لو لم يفعل هذا كان خيراً له ؟ ففى الآية هذا الإضمار .

« أرَأيْتَ إنْ كان على الهُدَى * أو أمر بالتَّقْوى »

لكان خيراً له ؟

« أرأيتَ إنْ كذَّب وتولَّى »

كذَّب بالدِّين ، وتولَّى عن الهداية .

قوله جل ذكره : « ألم يعلم بأنَّ اللهَ يرى » ؟

أى : ما الذى يستحقُّه مَنْ هذه صفته ؟

والتخويفُ برؤية الله تنبيه على المراقبة ـ ومَنْ لم يَبْلُغْ حالَ المراقبة لم يَرْتَقِ منه إلى حال المشاهدة .

قوله جل ذكره : « كَلاَّ لَئِنْ لَمْ يَنتهِ لَنَسْفَعاً بالناصية * ناصيةٍ كاذِبَةٍ خاطئة »

---

(١) قيل نزلت فى أبى جهل حين نهى النبى «ص» عن الصلاة ، فأمر الله نبيه أن يصلى فى المسجد ويقرأ باسم الرب .. والذين يرون ذلك يرون أن السورة ليست من أوائل ما نزل من القرآن . أو يجوزون أن تكون أوائل السورة كذلك وأن بقيتها فى شأن أبى جهل – أى متأخرة .
روى البخارى عن ابن عباس : قال أبو جهل : لئن رأيت محمداً يصلى عند الكعبة لأطأن على عنقه ، فبلغ النبى ذلك فقال : لو فعل لأخذته الملائكة . (البخارى حـ ٣ ص ١٤٦) .

(٢) من أشد آفات الطريق خطراً ملاحظة النفس ، وناهيك بدعاواها .

لَنأْخُذَنَّ بناصيته (وهى شَعْرُ مُقَدَّم الرأس) أخْذَ إذلالٍ . ومعناه لنُسَوِّدَنَّ وَجْهَه .

وقوله : « ناصية كاذبة خاطئة » بدلٌ من قوله : « لنسفعاً بالناصية »[1]

« فَلْيَدْعُ ناديهُ * سَنَدْعُ الزبانية »

فليدعُ أهلَ ناديَه وأهل مجلسه ، وسندعو الزبانيةَ ونأمرهم بإهلاكه .

قوله جل ذكره : « كلاَّ لا تُطِعْهُ واسجُد واقترب »

أى : اقتربْ من شهود الربوبية بقلبك ، وقِفْ على بِساط العبودية بنَفْسك .

ويقال : فاسجُدْ بنفسِك ، واقترِبْ بسِرِّك[2] .

---

(١) نسبة الكذب والخطيئة إلى الناصية يقصد بها صاحب الناصية كقولهم : نهاره صائم وليله قائم ، أى هو صائم فى نهاره وقائم فى ليله .

(٢) السجود عبادة الظواهر ، ولهذا ربطها القشيرى بالنفس ، فكل ما يتصل بالظاهر يرتبط - عنده - بالنفس ، وأمّا الاقتراب فهو عبادة الباطن المرتبطة بالسرّ .

سورة القدر

قوله جل ذكره « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمةٌ تُحْضِرُ قلوبَ العلماء لتأمُّل الشواهد ، وتُسْكِرُ قلوبَ العارفين إذا وردوا المشاهِد . . فهؤلاء أحضرهم فبَصَّرَهم ، وعلى استدلالهم نصرهم .

وهؤلاء بشرابِ محابِّه أسكَرَهم ، وفى شهودِ جلالِه حَيَّرَهم .

قوله جل ذكره : « إنَّا أنزلناهُ فى ليلةِ القَدْرِ » .

فى ليلةٍ قَدَّرَ فيها الرحمةَ لأوليائه ، فى ليلةٍ يجد فيها العابدون قَدْرَ نفوسِهم ، ويشهد فيها العارفون قَدْرَ معبودهم . . وشتان بين وجودِ قَدْرٍ * وشهودِ قَدْرٍ ! فالهؤلاء وجودُ قَدْرٍ ولكن قدر أنفسهم ، ولهؤلاء شهود قدرٍ ولكن قدر معبودهم .

« وما أَدْراكَ ما ليلةُ القدْرِ » ؟

استفهامٌ على جهة التفخيم لشأن تلك الليلة .

« ليلةُ القدْرِ خيرٌ مِّن أَلْفِ شهرٍ » .

أى : هى خيرٌ من ألف شهر ليست فيها ليلة القدر . هى ليلةٌ قصيرةٌ على الأحباب لأنهم فيها فى مسامرةٍ وخطابٍ . . كما قيل :

يا ليلة من ليالى الدهـرِ   قابلت فيها بَدْرَها بِبَدْرِ
ولم تكن عن شَفَقٍ وفَجْرٍ   حتى تولّت وهى بِكْرُ الدهرِ

قوله جل ذكره : « تَنَزَّلُ الملائكةُ والرُّوحُ فيها بإذن رَبِّهم من كلِّ أَمْرٍ * سلامٌ هى حتَّى مطلعِ الفجر » .

« الروح فيها » : قيل جبريل . وقيل : مَلَكٌ عظيم

« بإذن ربهم » : أى بأمر ربهم .

« من كل أمر سلام » : أى مع كل مأمورٍ منهم سلامى عَلَى أوليائى[1] .

« هى حتى مطلع الفجر » : أى هى باقية إلى أن يطلع الفجر .

---

(١) قد يتأيد رأى القشيرى فى اختيار هذا النسق الذى يتم به الكلام بما يرويه أنس — قال : قال رسول الله (ص) : إذا كانت ليلة القدر نزل جبريل فى كبكبة (جماعه) من الملائكة ، يصلون ويسلمون على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله تعالى .

سُورَةُ لَمْ يَكُن

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » : اسمٌ عزيزٌ تَنَصَّل إليه المذنبون فَغَفَرَ لهم وَجبرَهم[1] ، وتوسَّلَ إليه المطيعون فوَصَلَهم ونَصَرَهم .

تَعَرَّفَ إليه العالِمون فبَصَّرَهم ، وَتَقَرَّب منه العارفون فَقَرَّبهم ... لكنه — سبحانه — في جلاله حَيَّرَهم[2] .

قوله جل ذكره : « لم يكُن الذين كَفَرُوا من أَهل الكتاب والمُشْرِكينَ مُنفَكِّينَ حتى تأتيهُم البَيِّنَةُ » .

« منفكين » : مُنْتَهين عن كفرهم حتى تأتيهم البيِّنة : وهى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى لم يزالوا مجتمعين عَلَى تصديقه ؛ لِمَا وَجَدوه فى كُتُبهم إلى أَنْ بَعَثَه الله تعالى . فلمّا بعَثَه حسدوه وكفروا .

« رسولٌ من الله يتلواْ صُحُفاً مُّطَهَّرَةً * فيها كُتُبٌ قَيِّمَةٌ » .

---

(١) فى النسخة م توجد بعد هذا الموضع العبارة التالية «وتوكَّل إليه العارفون فجبرهم» . ونستبعد وجودها فى الأصل ؛ لأن ترتيب العارفين لا يأتى بين المذنبين والمطيعين ، وإنما يأتى بعد « العالمين » ، كما هو ثابت فى النسخة على هذا النحو الذى أثبتناه هنا . كما أنَّ « جبرَهم » فعل يتصل بالزلاَّت والذنوب ... فيبدو أن العبارة متصلة بالمذنبين ، ويتأيد ما اخترناه بالسياق الذى نألفه فى أسلوب البسملة عند الشيخ ، فضلا عن خدمته للموسيقى والمعنى .. وهما العنصران الأساسيان فى نسيج البسملة عنده .

(٢) التحيُّر فى الجلال صفة مدح ، ولذا يقول يحيى بن معاذ : يا دليل المتحيرين زدنى تحيراً .. لأنه غرق فى بحر الوجود عند الشهود .

أى حتى يأتيهم رسول من الله يقرأ كُتُباً مُطَهَّرَةً عن تبديل الكفار .

« فيها كتب قيمة » [1] : مستوية ليس فيها اعوجاج .

قوله جل ذكره : « وَما تَفَرَّقَ الذين أوتوا الكتابَ
إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءتهم البيِّنَةُ » .

يعنى : القرآن .

قوله جل ذكره : « وما أُمِروا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ
له الدِّينَ حُنَفَاءَ ويقيموا الصلاةَ ويُؤْتُوا
الزكاةَ وذلك دِينُ القيِّمة » .

« مخلصين له الدين » أى موحِّدين لا يُشرِكون بالله شيئاً ؛ فالإخلاصُ أَلَّا يكونَ شىءٌ من حركاتك وسكناتك إلَّا لله .

ويقال : الإخلاصُ تصفيةُ العملِ من الخلَلِ .

« حنفاء » : مائلين إلى الحقِّ ، عادلين عن الباطل [2] .

« ويقيموا الصلاة . . وذلك دينُ القيِّمة » : أى دينُ المِلَّةِ القيمة ، والأمة القيِّمة ، والشريعة القيِّمة .

قوله جل ذكره : « إنَّ الذين كفروا من أهل الكتابِ
والمشركينَ فى نارِ جهنَّمَ خالدين فيها
أُولئك هم شَرُّ البَرِيَّة » .

« خالدين فيها » : مقيمين . « البريَّة » : الخليقة .

« إنَّ الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ
أولئك هم خَيْرُ البريَّة » .

---

(١) يرى القرطبى : أن « كتبا » هنا بمعنى الأحكام ؛ لأن كَتَبَ بمعنى حَكَمَ ، قال تعالى : « كَتَبَ اللهُ لأغلبنَّ » سورة المجادلة .

(٢) كلمة « حنيف » من الأضداد ، فهى تحمل معنى (الميل) عن الباطل و (الاستقامة) فى طريق الحق .

أى : خير الخلق ، وهذا يدل عَلَى أنهم أفضلُ من الملائكة .

قوله جل ذكره: « جزاؤهم عند ربِّهم جنَّاتُ عَدْنٍ
تجرى من تحتها الأنهارُ خالدين
فيها أبداً » .

« جزاؤهم » : أى ثوابهم فى الآخرة عَلَى طاعاتهم .

« تجرى من تحتِهَا الأنهار » أى : من تحت أشجارها الأنهار .

« رَضِىَ اللهُ عنهم ورَضُوا عنه » .

فلم تَبْقَ لهم مطالبةٌ إلَّا حققَهَا لهم .

« ذلك لِمَنْ خَشِىَ ربَّهُ » .

أى : خافَهُ فى الدنيا .

والرضا سرورُ القلب بمرِّ القضَا .

ويقال : هو سكونُ القلبِ تحت جَرَيان الحُكْم .

سُورَةُ الزّلزلة

قوله جل ذكره: « بسم الله الرحمن الرحيم ».

« بسم الله » كلمةٌ مَنْ تأمَّلَهَا بمعانيهَا وَوقفَ عَلَى ما أُودِعَ فيها رَتَعَتْ أسرارُه في رياضٍ من الأُنْس مونقةٍ، وأينعت أفكارُه بلوائح من اليقينِ مُشْرِقة، فهي عَلَى جَلال الحقِّ شاهدة، وهي على مايحيط به الذِّكْرُ ويأتي عليه الحَصْرُ زائدة.

قوله جل ذكره: « إِذَا زُلْزِلَتِ الأرضُ زِلْزَالَهَا * وأَخْرَجَتِ الأرضُ أثقالَهَا ».

أي: أمواتَهَا، وما فيهَا من الكنوز والدفائن.

« وقال الإنسانُ مالَهَا » ؟

يعني الكافرُ الذي لا يُؤمِنُ بها أي بالبعث[1].

« يومئذٍ تُحَدِّثُ أخبارَها ».

يومئذٍ تُخَبِّرُ الأرضُ:

« بأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لهَا ».

أي: إنما تفعَل ذلك بأمر الله.

---

(١) روى الضحاك عن ابن عباس أنه قال: «هو الأسود بن عبد الأسد» ويرى بعض المفسرين: أن الإنسان هنا هو كل إنسان من مؤمن وكافر لأن الجميع لا يعلمون أشراط الساعة في ابتداء أمرها إلى أن يتحققوا عمومها، ولذا يسأل بعضهم بعضاً.

أمَّا القشيري فقد نظر إليها من ناحية الاعتراف وجعل من يسأل عنها كافراً بها جاحداً لها. أمَّا المؤمن فلا حاجة له في السؤال.

«يومئذٍ يَصْدُرُ الناسُ أشتاتًا لِيُرَوْا[1] أعمالَهمْ » .

« أشتاتًا » : متفرِّقين . « لِيُرَوا أعمالَهم » ليُحاسَبوا .

قوله جل ذكره : « فمَنْ يعْمَلْ مِثْقالَ ذرَّةٍ خيراً يَرَهُ * ومَنْ يعْمَلْ مِثْقالَ ذرَّةٍ شرًّا يَرَهُ » .

فيُقَاسِي عناءه .

(1) هذه قراءة العامة . وقرأ الحسن والزهرى وقتادة والأعرج وابن عاصم وطلحة بفتحها : «لِيَرَوْا» .

سُورَةُ العَادِيَات

قوله جل ذكره : « بسم اللهِ الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » كلمةٌ غَيورٌ لا يَصْلُح لذكرها إلّا لسانٌ مصونٌ[1] ، عن اللّغْوِ والغيبة ، ولا يصلح لمعرفتها إلّا قلبٌ محروسٌ عن الغفلة والغيبة[2] ، ولا يصلح لمحبتها إلّا رُوحٌ محفوظةٌ عن العلاقة والحجبة .

قوله جل ذكره : « والعادياتِ ضَبْحًا » .

« العاديات » : الخيلُ التى تعدو[3] .

« ضبحاً » أى إذا ضَبحن ضبحاً ، والضَبْح : هو صوتُ أجوافها إذا عَدَوْنَ . ويقال : ضبحُها هو شِدةُ نَفَسِها عند العَدْوِ .

وقيل : « العاديات » : الإبل[4] .

وقيل : أقسم الله بأفراسِ الغزاة[5] .

« فالمُورياتِ قَدْحًا » .

تورى بحوافرها النار إذا عَدَتْ وأصابَتْ سنابِكُها الحجارة بالليل .

---

(١) من هذا الموضع تبدأ النسخة ص بعد البياض والسقوط اللذين أشرنا إليهما من قبل .

(٢) الغيبة المتصلة باللسان هى الكلام فى حق الغائب ، والغيبة المتصلة بالقلب هى ورود وارد من أى نوع يُعَطِّل الاتجاه الكامل نحو المحبوب ، كالتفكير فى الثواب أو الخوف من العقاب ، أو الطمع فى الأعواض ، أو استعجال شىء .. ونحو ذلك مما يشوب كأس المحبة من غيرية . .

(٣) العَدْوُ : هو تباعد الأرجل فى سرعة المشى .

(٤) هكذا فى ص وهى فى م (الليل) وهى خطأ فى النسخ والفعل المستعمل مع الإبل هو (ضبع) فتكون (ضبحا) هنا بحاء مبدلة عن عين (القرطبى ح٢٠ ص ١٥٦) .

(٥) فى الخبر : «من لم يعرف حرمة فرس الغازى ففيه شعبةٌ من النفاق » .

ويقال : الذين يورون النار بعد انصرافهم من الحرب .

ويقال : هى الأسِنَّة .

« فالمُغِيرات صُبْحاً » .

تُغِير على العدوّ صباحاً .

« فأثَرْنَ به نَقْعاً » .

أى : هَيَّجْنَ به غباراً .

« فوَسَطْنَ به جَمْعاً » .

أى : تَوَسَّطْنَ المكان ، أى : تتوسط الخيل بفوارسها جَمْعَ العَدُوِّ .

« إنَّ الإنسانَ لِربِّه لَكَنُودٌ » .

هذا هو جوابُ القَسَمِ .

« لكنود » : أى لكَفُور بالنعمة[1] .

« وإنه عَلَى ذلك لَشَهِيدٌ » .

أى : وإنه على كنوده لشهيد

« وإنَّه لِحُبِّ الخَيْرِ لشديدٌ » .

أى : وإنه لبخيلٌ لأجل حُبِّ المال[2] .

قوله جل ذكره : « أفلا يَعْلَمُ إذا بُعْثِرَ ما فى القبُور » .

أى : بُعِثَ الموتى .

« وحُصِّلَ ما فى الصُّدور » .

بُيِّنَ ما فى القلوب من الخير والشرِّ .

« إنَّ ربَّهم بهم يومَئِذٍ لَخبير » .

---

(١) روى عن ابن عباس : أن الكنود بلسان كندة وحضرموت : العاصى ، وبلسان ربيعة ومضر : الكفور ، وبلسان كنانة : البخيل السيءُ المَلَكَة .

(٢) قال تعالى : « إنْ ترك خيراً » آية ١٨٠ سورة البقرة .

أفلا يعلم أن اللهَ يُجازِيهم — ذلك اليومَ — على ما أسلفوا ، ثم قال عَلَى الاستئناف :
« إنّ ربهم بهم يومئـــذٍ لخبير » .

ويقال في معنى الـكَنُود[1] : هو الذى يَرَى ما إليه مِنْ البَلْوَى ، ولا يرى ما هو به مِنْ النُّعْمَى .

ويقال : هو الذى رأسُه على وسادة النعمة ، وقَلْبُه فى ميدان الغفلة .

ويقال : الـكَـنُود : الذى ينسى النِّعَم ويَعُدُّ المصائب .

وقوله : « وإنّه على ذلك لشهيد » ، يحتمل : وإنَّ اللهَ على حاله لشهيد .

---

(1) لعل القشيرى هنا مستفيد من قول ذى النون المصرى : الكنودُ : هو الذى إذا مسّه الشر جزوع ، وإذا مَسّه الخيرُ منوع ، يجزع من البلوى ، ويمنع الشكر على النعمى .

سُورَةُ القَارِعَة

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمةٌ إذا سمعها العاصون نَسُوا زَلَّتهم فى جنب رحمته ، وإذا سمعها العابدون نسوا صولتَهم فى جنب إلهيته .

كلمةٌ مَنْ سمعها ما غادَرَتْ له شغْلاً إلاَّ كَفَتْه ، ولا أمراً إلَّا أصلحَتْه ، ولا ذنباً إلَّا غفرَتْه ، ولا أَرَباً إلَّا قضَتْه .

قوله جل ذكره : « القارِعةُ * ما القارِعةُ » .

القارعةُ : اسمٌ من أسماء القيامة ، وهى صيغة « فاعلة » من القَرْع ، وهو الضربُ بشدَّة . سُمِّيت قارعة لأنها تقرعهم .

« وما أدْراكَ ما القارِعةُ » ؟ .

تهويلاً لها .

« يومَ يكونُ الناسُ كالفَرَاشِ المبثوثِ » .

أى : المُتَفَرِّق . . . وعند إعادتهم يركب بعضهم بعضا .

« وتـكونُ الجبالُ كالعِهْنِ المنفُوشِ » .

أى : كالصوف المصبوغ .

والمعنى فيه : أن أصحابَ الدعاوى[1] وأرباب القوة فى الدنيا يكونون — فى القيامة إذا

---

(١) هكذا فى ص وهى فى م (الدواعى) وهى خطأ من الناسخ ، وقد وردت صحيحة فيما بعد ؛ فالمقصود دعوى النفس .

بُعِثُوا — أضعفَ من كلِّ ضعيف ؛ لأن القُوى هنالك تسقط ، والدعاوى تَبْطُل .

قوله جل ذكره : « فأمَّا مَنْ ثَقُلَتْ موازينُه * فهُوَ فى عِيشَةٍ رَّاضية » .

مَنْ ثقلت موازينُه بالخيرات فهو فى عيشة راضية ؛ أى مَرْضية .

ووزنُ الأعمالِ يومئذٍ يكون بوزن الصحف . ويقال : يخلق بَدَلَ كلِّ جزء من أفعاله جوهراً ، وتُوزَنُ الجواهر ويكون ذلك وزن الأعمال .

« وأمَّا مَنْ خَفَّتْ موازِينُه * فأُمُّه هاوِيةٌ » .

مَنْ خَفَّتْ موازينه من الطاعات — وهم الكفارُ — فمأواه هاوية .

« وما أدْراكَ مَاهِيَهْ ؟ * نارٌ حامية » .

سؤالٌ على جهة التهويل[1] . ولم يَرِدْ الخبرُ بأن الأحوال توزَن ، ولكن يُجازَى كلٌّ بحالةٍ مما هو كَسْبٌ له ، أو وَصَلَ إلى أسبابها بكَسْبٍ منه .[2]

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (التحويل) وهى خطأ من الناسخ .

(٢) بعد أن تحدث عن ميزان الأعمال تحدث عن ميزان الأحوال .. ومن المعلوم أن الأعمال جهود كسبية ، والأحوال مواهب فيضية .. ولكن قد يكون فيها شىء من الكسب فمثلا : إذا رضى العبد بالقبض أنعم الحقُّ عليه بالبسط ، وإذا راعى حدود الوقت ظفر بمقضيات الوقت وإلا ... كان الوقت عليه مقتاً والإنسان لا يحاسب إلا على ما كسب .

سُورَةُ التَّكَاثُر

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » : اسمٌ عزيزٌ تقدَّسَ فى آزالِهِ عن كل مكان ، ولم يَحْتَجْ فى آباده إلى زمانٍ أو إلى مكان ؛ لا يقطعه حدٌّ فأنَّى يجوز فى وَصْفِهِ المكان ؟ ولا يقطعه عَدٌّ فأنَّى تجوز فى وَصْفِهِ الزيادةُ والنقصان ؟[1]

قوله جل ذكره : « أَلْهَاكُمُ التكاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ المقابِرَ » .

أى : شَغَلَكم تَفَاخُرُكم فيما بينكم إلى آخر أعماركم إلى أنْ مِتُّم .

ويقال : كانوا يفتخرون بآبائهم وأسلافهم ؛ فكانوا يشيدون بذكر الأحياء ، وبمن مضي من أسلافهم .

فقال لهم : شَغَلَكم تفاخركم فيما بينكم حتى عَدَدْتم أمواتكم مع أحيائكم . وأنساكم تكاثركم بالأموال والأولاد طاعةَ الله .

« كلَّا سوفَ تعلمون * ثم كلَّا سوفَ تعلمُون » .

على جهة التهويل .

« كلَّا لو تعلمون عِلْمَ اليقينِ » .

أى : لو علمتم حقَّ اليقين لارتدعتم عمَّا أنتم فيه من التكذيب .

---

(١) واضح مدى ارتباط اتجاه القشيرى فى إشارة البسملة بالجوِّ العام للسورة الذى ينبنى على اتخاذ الزيادة والنقصان مقياساً للتفاخر والادعاء .

« لَتَرَوُنَّ الجحيمَ * ثم لَتَرَوُنَّها عَيْنَ اليقين* ثم لَتُسْأَلُنَّ يومئذٍ عن النعيمِ ».

أراد جميعَ ما أعطاهم اللهُ من النعمة ، وطالَبهم بالشكر عليها .

ومن النعيم الذى يُسأَلُ عنه العبد تخفيفُ الشرائع ؛ والرُّخَصُ فى العبادات .

ويقال : الماء الحار فى الشتاء ، والماء البارد فى الصيف .

ويقال : منه الصحّةُ فى الجسد ، والفراغ .[1]

ويقال : الرضاء بالقضاء . ويقال : القناعة فى المعيشة .

ويقال : هو المصطفى صلى الله عليه وسلم .

---

(١) فى البخارى وفى سنن ابن ماجه : «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ» . ومعنى الغبن : أنهما نعمتان ولكن غالب الناس يصرفهما فى غير مجالهما .

سُورَةُ الْعَصْـــر

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

كلمةٌ مَنْ سَمِعَها لم يَدَّخِرْ عنها[1] مَالَه ؛ لأنَّه عَلِمَ أنه — سبحانه — يُحْسِنْ مآلَه ، ومَنْ عَرَفَهَا لم يُؤْثِرْ عليها نَفْسَه ؛ لأنَّه لم يجد بدونها أُنْسَه .

كلمةٌ مَنْ صَحِبَهَا لم يمنعْ عنها روحَه ؛ إذ وَجَدَ الحياةَ الأبدية له ممنوحة .[2]

قوله جل ذكره : « والعَصْرِ * إنَّ الإنسانَ لَفِي خُسْرٍ »

« العصر » : الدهر — أقسم به

ويقال : أراد به صلاةَ العصر . ويقال : هو العَشِيّ .

« الإنسان » : أراد به جِنْسَ الإنسان . « والخُسْر » : الخسران .

والمعنى : إن الإنسان لفى عقوبةٍ من ذنوبه . ثم استثنى المؤمنين فقال :

« إلَّا الذين آمنُوا وَعَمِلُوا الصالحاتِ
وتَوَاصَوْا بالحقِّ وتواصَوْا بالصَّبْرِ » .

الذين أخلصوا فى العبادة وتواصوا بما هو حقٌّ ، وتواصوا بما هو حَسَنٌ وجميلٌ ، وتواصوا بالصبر .

وفى بعض التفاسير : قوله : « الذين آمنوا » يعنى أبا بكر ، «وعملوا الصالحات» : يعنى عمر

---

(١) هكذا فى ص وهى فى م (عنه) .

(٢) هكذا فى م وهى في ص (مفتوحة) وإن كانت هناك زيادة كالميم تتلو الميم الأولى .

و « وتواصوا بالحقِّ » يعنى عثمان ، و « وتواصوا بالصبر » يعنى عليًّا — رضى الله عنهم أجمعين .[1]

والخسرانُ الذى يلحق الإنسان على قسمين : فى الأعمال ويتبيَّن ذلك فى المآل ، وفى الأحوال ويتبيَّن ذلك فى الوقت والحال ؛ وهو القبضُ بعد البسط ، والحجبةُ بعد القربة ، والرجوعُ إلى الرُّخَصِ بعد إيثار الأَشَقِّ والأَوْلَى .

« وتواصوا بالحقِّ » : وهو الإيثارُ مع الخَلْق ، والصدقُ مع الحقِّ .

« وتواصوا بالصبر » : على العافية . . . فلا صبرَ أتَمُّ منه .

ويقال : بالصبر مع الله . . وهو أشدُّ أقسام الصبر[2]

(١) تنسب هذه الرواية إلى أُبَىّ بن كعب الذى قال : قرأت على رسول الله (ص) « والعصر » ثم قلت : ما تفسيرها يا نبىّ الله ؟ فقال : « والعصر » قَسَمٌ من الله ، أقسم ربكم بآخر النهار « إن الإنسان لفى خسر » : أبو جهل .. إلى آخر الرواية كما نقلها القشيرى .

(٢) انظر «الرسالة» باب الصبر ص ٩٢ .

سُورَةُ الهُمَزَة

قوله جل ذكره: « بسم اللهِ الرحمن الرحيم »

« بسم الله » : اسمُ مَنْ لا غَرَضَ له فى أفعاله ، اسمُ من لا عِوَضَ عنه فى جلالِه وجمالِه . اسمُ مَنْ لا يصبِرُ العبدُ عنه مختاراً ، اسمُ مَنْ لا يَجِدُ الفقيرُ[1] من دونه قَراراً ، اسمُ مَنْ لا يَجِدُ أحدٌ من حُكْمِه فِراراً .

قوله جل ذكره : « ويلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ » .

يقال : رجلٌ هُمَزَةٌ لُمَزَة : أى كثيرُ الهَمْزِ واللَّمْزِ للناس وهو العيب والغيبة .

ويقال : الهُمَزَة الذى يقول فى الوجه ، واللُّمزة الذى يقول مِنْ خَلْفِه .

ويقال : الهَمْزُ الإشارةُ بالرأس والجَفْنِ وغيره ، واللَّمْزُ باللسان .

ويقال : الهُمَزَة الذى يقول ما فى الإنسان ، واللُّمَزَة الذى يقول ما ليس فيه .

قوله جل ذكره : « الذى جَمَعَ مالاً وعَدَّدَه » .

« جمّع » بالتشديد[2] على التكثير ، وبالتخفيف .

« يَحْسَبُ أَنَّ مالَه أَخْلَدَهُ » .

أى : يُبْقِيه فى الدنيا . . كلَّا ليس كذلك :

---

(١) الفقير هنا المقصود به الصوفىُّ المفتقر إلى الله ، انظر آخر السورة .

(٢) هكذا فى م وهى فى ص غير موجودة ، مما قد يشعر باحتمال انصراف الكلام إلى «عدّده» فهى أيضاً تقرأ على التشديد والتخفيف .

« كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فى الْحُطَمَةِ * وما أدْراكَ
ما الْحُطَمَةُ * نارُ اللهِ المُوقَدَةُ * الَّتى
تَطَّلع على الأَفئِدة » .

لَيُطْرَحَنَّ فى جهنمَ . « وما أدراك ما الحطمة » ؟ على جهة التهويل لها .

فهم فى نار الله الموقدة التى يبلغ أَلَمُها الفؤاد .

« إنَّها عليهم مُؤْصَدَةٌ » .

مُطْبقة .

« فى عَمَدٍ مُمَدَّدة » .

« عَمَد » : جمع عماد . وقيل : إنها عُمُدٌ من نارٍ تُمَدَّدُ وتُضْرَبُ عليهم ؛ كقوله : «أحاط بهم سرادقها »(1)

ويقال : الغِنَى بغيرِ اللهِ فَقْرٌ ، والأُنْسُ بغيره وَحْشَة ، والعِزُّ بغيره ذُلٌّ .

ويقال : الفقيرُ مَنْ استغنى بمالِه ، والحقيرُ : مَنْ استغنى بجاهِه ، والْمُفْلِسُ : مَنْ استغنى بطاعته ، والذليلُ : من استغنى بغير الله ، والجليلُ : من استغنى بالله .

ويقال : بَيَّنَ أن المعرفة إذا اتَّقَدتْ فى قلب المؤمن أحرقت كلَّ سُؤْلٍ وأَرَبٍ فيه ، ولذلك تقول جهنَّمُ — غداً — للمؤمن : « جُزْ ، يا مؤمن . . فإنَّ نورَكَ قد أطْفَأَ لهَبى » !

---

(1) آية ٢٩ سورة الكهف .

سُورَةُ الفِيل

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » : اسمُ غَنِيٍّ مَنْ أطاعَهُ أغناه ، ومَنْ خالَفَهُ أضَلَّه وأعماه .

اسمُ عزيزٍ مَنْ وافقه رَقَّاه إلى الرتبة العليا ، ومَنْ خالَفَهُ ألقاه فى المحنة الكبرى .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ تَرَ كيف فَعَلَ رَبُّكَ بأصحابِ الفيلِ » ؟ .

أَلَمْ يَنْتَهِ إليكَ فيما أُنزل عليك عِلْمُ ما فَعَلَ ربُّكَ بأصحاب الفيل ؟ .

وفى قصة أصحاب الفيل دلالة على تخصيصِ اللهِ البيتَ العتيقَ بالحِفْظِ والكلاءة . وذلك : أنَّ أبرهة — مَلِكَ اليمن — كان نصرانياً ، وبنى بيعةً لهم بصنعاء ، وأراد هَدْمَ الكعبة ليصرفَ الحجَّ إلى بيعتهم .

وقيل : نزل جماعةٌ من العرب ببلاد النجاشى ، وأوقدوا ناراً لحاجةٍ لهم ، ثم تغافلوا عنها ولم يُطفِئوها ، فهبَّت الريحُ وحَمَلَتْ النارَ إلى الكنيسة وأحرقتها ، فقَصَدَ أبرهةُ الكعبةَ لِيَهْدِمها بجيشه .

فلمَّا قَرُبَ من مكة أصاب مائتى جَمَلٍ لعبد المطلب ، فلمَّا أُخْبِرَ بذلك ركب إليهم ، فعَرفَهُ رجلان ، فقالا له :

إرجعْ . . فإنّ المَلِكَ غضبان .

فقال : واللاتِ والعُزَّى لا أرْجِعُ إلَّا بإبلي .

فقيل لأبرهة : هذا سَيِّدُ قريشٍ ببابك ؛ فأَذِنَ له ، وسأله عن حاجته ؛

فأجاب أبرهة : إنها لك غداً ، إذا تقدَّمْتُ إلى البيت[1] .

فعاد عبد المطلب إلى قريش ، وأخبرهم بما حدث ، ثم قام وأخذ بحلْقةِ باب الكعبة ، وهو يقول :

لا هُمَّ إنَّ العَبْدَ يمـــنعُ رَحْلَه فامنعْ حِلَالَكْ

لا يَغْلِبَنَّ صليبُهُمْ ومِحَالُهم عَدْواً مِحالَكْ

إنْ يدخلوا البـــلدَ الحرا مَ فأمرٌ ما بدالكْ[2]

فأرسل اللهُ عليهم طيراً أخضرَ[3] من جهة البحر طِوالَ الأعناق ، فى منقار كل طائرٍ حَجَرٌ وفى مخالبه حجران .

قيل : الحجَرةُ منها فوق العدس دون الحمص .

وقيل : فوق الحمص دون الفستق ، مكتوب على كل واحدة اسم صاحبها .

وقيل : مُخَطَّطَةٌ بالسَّواد . فأُمْطِرَتْ عليهم ، وماتوا كُلُّهم .

وقيل : كان الفيلُ ثمـــانيةً ؛ وقيل : كان فيلاً واحداً .

وفى رواية : إنه كان قبل مولده صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَـــلم بأربعين سنة .

وقيل : بثلاثة وعشرين سنة . وفى رواية « وُلِدْتُ عامَ الفيل[4] » .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهم فى تضليل » ؟

أى : مَكرَهمْ فى إبطال .

---

(١) قيل : إن النجاشى قال له : لقد أعجبتنى حين رأيتك ، ولكنى زهدت فيك حين كلمتنى .. أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتُها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئتُ لهدمه ؟ فقال له عبد المطلب : أنا رب الإبل .. أما البيت فله رب سيمنعه !

(٢) الحِلال جمع حِل . والمِحال : القوة . والعَدْو بالعين المهملة : الاعتداء .

(٣) قال سعيد بن جبير : هى طيرٌ خُضْر لها مناقير صُفْر .

(٤) و فى رواية : « ولدت يوم الفيل» . وقال قيس بن مخرمة : «ولدت أنا ورسول الله (ص) عام الفيل » .

« وأَرْسَلَ عليهم طيراً أبابيلَ » .

« أبابيل » : مجتمعةً ومتفرِّقةً .

« ترميهم بحجارةٍ من سِجِّيلٍ » .

قيل بالفارسية : سنكك أو كل — أى طينٌ طُبِخَ بالنار كالآجُر[1] .

« فَجَعَلَهم كَعَصْفٍ مأكول » .

« كعصفٍ » : كأطرافِ الزرع قبل أن يدرك . « مأكول » أى ثَمرَهُ مأكول .

ويقال : إذا كان عبد المطلب — وهو كافرٌ — أخلص فى التجائه إلى الله فى استدفاع البلاء عن البيت — فاللهُ لم يُخَيِّبْ رجاءَهُ .. ، وسَمِعَ دُعاءَهُ . . . فالمؤمِنُ المخلصُ إذا دعا ربَّه لا يردُّهُ خائباً .

ويقال : إنما أُجيب لأنَّه لم يسألْ اللهَ لِنَفْسِه ، وإنما لأجْلِ البيت . . وما كان لله لا يضيع .

(١) أخرج الفريابى عن مجاهد قال : سجيل بالفارسيه أولها حجارة وآخرها طين . (نقله السيوطي فى إتقانه حـ١ ص ١٣٨ فى باب ماوقع فى القرآن بغير لغة العرب .

سُورَةُ قُرَيْش

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم » : الباء فى « بسم » تشير إلى براءة سِرِّ الموحِّدين عن حسبان الحِدثان ، وعن كلِّ شىء ممَّا لم يكن فكان ، وتشير إلى الإنقطاع إلى اللهِ فى السَّرَّاء والضرَّاء ، والشِّدَّةِ والرخاء .

والسين تشير إلى سكونهم فى جميع أحوالهم تحت جريان ما يبدو من الغيب بشرط مراعاة الأدب .

والميم تشير إلى مِنَّةِ اللهِ عليهم بالتوفيق[1] لِمَا تحقَّقُوا به من معرفته ، وتخلَّقوا به مِنْ طاعته[2] .

قوله جل ذكرهُ : « لإيلافِ قُرَيشٍ * إيلافِهِم رحلةَ الشتاء والصيف » .

« الإيلاف » : مصدر آلَفَ ، إذا جَعَلْتَهُ يَأْلَف . . وهو أَلِفَ إِلْفاً[3] .

والمعنى : جعلهم كعصفٍ مأكولٍ لإيلافِ قريْشٍ ، أى ليَأْلَفوا رحلتهم فى الشتاء والصيف .

وكانت لهم رحلتان للامتيار[4] : رحلةٌ إلى الشام فى القيظ ، ورحلة إلى اليمن فى الشتاء .

---

(١) هكذا فى ص وهى فى م (بالتحقيق) .

(٢) يستطيع القارئ أن يربط بين فحوى البسملة كما يتذوقها القشيرى هنا وبين الجو العام للسورة .

(٣) عند هذه النقطة تنتهى النسخة (ص) ونعتمد فيما بقى من الكتاب على النسخة م .

(٤) الامتيار طلب الميرة وجمعُها .

والمعنى : أنعم اللهُ عليهم بإهلاكِ عدوِّهم ليؤلِّفَهم رحلتيهم .

وقيل : فليعبدوا ربَّ هذا البيتِ لإيلافِ قريشٍ ، كأنه أَعْظَمَ المِنَّةَ عليهم . وأَمرَهم بالعبادة :

« فلْيَعبدوا ربَّ هذا البيتِ * الذى أطْعَمَهُم من جوعٍ » .

فليعبدوه لِمَا أنعم به عليهم .

وقيل : فليعبدوا ربَّ هذا البيت الذى أطعمهم من جوعٍ بعد ما أصابهم من القحط حينما دعا عليهم الرسولُ صلى الله عليه وسلم[1] .

« وآمَنَهُمْ من خوف » .

حين جعَلَ الحرَمَ آمِناً ، وأجارَهم من عدوِّهم .

ويقال : أنعم عليهم بأن كفاهم الرحلتين بجلْبِ الناسِ الميرةَ إليهم من الشام ومن اليمن .

وَوجْهُ المِنَّةِ فى الإطعام والأمان هو أن يتفرَّغوا إلى عبادة الله ؛ فإنَّ مَنْ لم يكن مكْفِيَّ الأمور لا يتفرَّغُ إلى الطاعة ، ولا تساعده القوة ولا القلبُ — إلَّا عند السلامة بكلِّ وجهٍ وقد قال تعالى :

« ولنبلونكم بشىء من الخوفِ والجوعِ[2] » فقدَّم الخوف على جميع أنواع البلاء .

---

(١) دعا عليهم الرسول (ص) لمَّا كذَّبوه وقال : « اللهم اجعلها عليهم سنين كسِنِى يوسف » فاشتد القحط ، فقالوا : يا محمد ادعُ الله لنا فإنَّا مؤمنون ، فدعا فأخصبت الأرض ، وحملوا الطعام إلى سائر البلدان .

(٢) آية ١٥٥ سورة البقرة .

سُورةُ الدّين [1]

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » كلمةٌ سماعُها غِذاء أرواح المحبِّين ، ضياء أسرار الواجدين ، شفاءُ قلوبِ المُتَيَّمين ، بلاءُ مُهج المساكين ، دواء كلِّ فقيرٍ مسكين [2] .

قوله جل ذكره : « أرأيتَ الذى يُكذِّبُ بالدِّين » .

نزلت الآية على جهة التوبيخ ، والتعجُّبِ من شأن تظلُّم اليتيمِ من الكفار .

فقال : أرأيتَ الذى يكذِّب بالدين ، وبالحساب والجزاء ؟

« فذلكَ الذى يَدُعُّ اليتيمَ » .

يدفعه بجفوة ، ويقال : يدفعه عن حقِّه [3] .

« ولا يَحُضُّ على طعامِ المسكين » .

أى : لا يَحُثُّ على إطعام المسكين ، وإنما يدعُّ اليتيم ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قد نزع الرحمةَ من قلبه ، ولا تنزع الرحمة إلَّا من قلبٍ شقىٍّ .

وهو لا يحث على طعام المسكين ، لأنه فى شُحِّ نَفْسِه وأَمْرِ بُخْلِه .

قوله جل ذكره : « فَوَيْلٌ للمُصَلِّينَ * الذين هُم عن صلاتِهم ساهون * الذين هم يُرَاءون »

---

(١) يقول السيوطى فى إتقانه : تسمى سورة أرأيت ، وسورة الدين، وسورة الماعون (الإتقان حـ١ ص ٥٥)

(٢) مرة أخرى نلفت النظر إلى ما بين إشارات البسملة والجو العام للسورة .

(٣) قال ابن جريج : نزلت فى أبى سفيان ، وكان ينحر فى كل أسبوع جَزُوراً فطَلَبَ منه يتيم شيئاً ، فقرَعه بعصاه .

السَّاهى عن الصلاة الذى لا يُصَلِّى . ولم يقل : الذين هم فى صلاتهم ساهون . . ولو قال ذلك لكان الأمرُ عظيماً .

« الذين هم يُراءون » : أى يصلون ويفعلون ذلك على رؤية الناس — لا إخلاصَ لهم « ويمنَعونَ المَاعُون » .

الماعون : مثل الماء ، والنار ، والكلأ ، والفأس ، والقِدْر وغير ذلك من آلةِ البيت ، ويدخل فى هذا : البُخْلُ ، والشُّحُّ بما ينفع الخَلْقَ مما هو مُمْكِنٌ ومُسْتَطاع .

سُورَةُ الكَوْثَر

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » اسمٌ يُجَلُّ العبدُ بإجلاله ولا يجل هو إلا باستحقاقِ عُلُوِّه فى آزالِه .
اسمٌ عزيزٌ أَعَزَّ مَنْ شاء بأفضالِه وإقبالِه؛ وأَذَلَّ أعداءه بسلاسله وأغلالِه ، والتخليدِ فى جحيمِه وأنكالِه .

قوله جل ذكره : « إِنَّا أعطيناك الكوثَرَ » .

« الكوثر » : أى الخير الكثير . ويقال : هو نَهَرٌ فى الجنة .

ويقال : النبوَّةُ والكتابُ . وقيل : تخفيف الشريعة .

ويقال : كثرةُ أُمَّتِه .

ويقال : الأصحابُ والأشياع . ويقال : نورٌ فى قلبه .

ويقال : معرفته بربوبيته .

« فَصَلِّ لِرَبِّك وانْحَرْ » .

أى صَلِّ صلاةَ العيد « وانحر » النُّسُكَ(1)

ويقال : جمع له فى الأمر بين : العبادة البدنية ، والمالية .

ويقال « وانحر » أى استقبِلْ القِبْلَةَ بنحرك . أو ارفع يديك فى صلاتك إلى نحرك(2)

---

(1) فى البخارى وغيره : قال رسول الله (ص) «أول ما نبدأ به فى يومنا هذا أن نصلّىَ ، ثم نرجع فننحر ، مَنْ فَعَلَ فقد أصاب نُسُكَنَا ، ومَنْ ذَبَحَ قبل فإنما هو لحمٌ قَدَّمه لأهله ، ليس من النُّسُكِ فى شىء لأن ترتيب الآية : صلاة ثم نحر . وقال أنس : كان النبى (ص) ينحر ثم يصلى حتى نزلت .

(2) عن على رضى الله عنه : لمَّا نزلت الآية سأل النبىُّ جبريلَ : ما هذه النحيرة التى أمرنى الله بها ؟ قال : ليست بنحيرة ولكنه يأمرك إذا تحرَّمت للصلاة أن ترفع يديك إذا كبَّرْتَ .. فزينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة .

ويقال : ضَعْ يمينك على يسارك فى الصلاة واجعلها تحت نَحْرِك .

« إنَّ شَانِئَكَ هو الأَبْتَر » .

أى : لا يُذْكَرُ بخيرٍ ، مُنْقَطِعٌ عنه كل خير .[1]

(١) قيل : هو العاص ، وقيل : هو أبو جهل ، وقيل : هو عقبة بن أبى مُعيط . والأبتر من الرجال : من لا وَلَدَ له ، أو مات أبناؤه وبقيت بناته .

سُورَةُ الْكَافِرُون [1]

قوله جل ذكره « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمةٌ مَنْ آمَنَ بها أَمِنَ مِنْ زوال النُّعمى ، وحَظِيَ بنعيم الدنيا والعُقبى ، وسَعِدَ سعادةً لا يَشْقى ، ووَجَدَ مُلكاً لا يَفْنى ، وبَقِيَ فى العزِّ والعُلَى .

قوله جل ذكره : « قُلْ يٰأيُّها الكافرونَ * لا أعْبُدُ ما تَعْبُدُون » .

من أصنامكم .

« ولا أنتم عَابدونَ ما أعبُدُ » .

« ما » أعبد أى « من » أعبد .

« ولا أنا عابدٌ ما عَبَدْتُم » .

فى زمانكم .

« ولا أنتم عابِدونَ ما أعبُدُ » .

كَرَّرَ اللفظ على جهة التأكيد .

« لكم دينُكُم ولِيَ دين » .

أى : لكم جزاؤكم على دينكم ، ولى الجزاءُ على دينى .

---

(1) من أسمائها : سورة العبادة ، والمقشقشة .

والعبودية[1] القيام بأمره على الوجه الذى به أَمَرَ ، وبالقَدْر الذى به أَمَرَ ، وفى الوقت الذى فيه أَمَر .

ويقال : صِدْقُ العبودية فى تَرْكِ الاختيار ، ويظهر ذلك فى السكون تحت تصاريف الأقدار من غير انكسار .

ويقال : العبودية انتفاء الكراهية بكلٍّ وجهٍ من القلب كيفما صَرَّفَك مولاك .

(١) واضح أن إشارة القشيرى تستند إلى «العبودية» بينما الآيات تتحدث عن «العبادة» ولكن الصلة وثيقة بين كليهما وبين «العبودة» : ارجع فى ذلك إلى رسالة القشيرى ص ٩٩ .

سُورَةُ النَّصْر

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » : اسمٌ كريمٌ يُبْصِرُ ويَسْتُرُ ، ويَعْلَمُ ويَحْلُمُ [1] ، ويمدح ولا يَفْضَح ، ويعفو عن جميع ما يجترم العبدُ ويصفح ؛ يَعْصَى العبدُ على التوالى ، ويَغْفِرُ الحقُّ ولا يُبالى .

قوله جل ذكره : « إذا جاء نَصْرُ اللهِ والفتحُ » .

النصرُ الظَّفَرُ بالعدوِّ ، و « الفتح » فتح مكة .

« ورأيتَ الناسَ يَدْخُلونَ فى دِينِ اللهِ أفواجاً » .

يُسْلِمون جماعاتٍ جماعاتٍ .

« فَسَبِّحْ بِحَمْدِ ربِّكَ واستغفِرهُ » .

أَكْثِرْ حَمْدَ ربِّكَ ، وصلِّ له ، وقَدِّسْه .

ويقال : صَلِّ شكراً لهذه النعمة .

« واستغفِرْه » وسَلْ مغفرته .

« إنّه كان توّاباً » .

لِمَنْ تاب ؛ فإنه يقبل توبته .

ويقال : نصرة الله — سبحانه — له بأنْ أفناه عن نَفْسِه ، وأبعد عنه أحكامَ البشرية ، وصفَّاه من الكدورات النفسانية . وأمَّا « الفتح » : فهو أنْ رَقَّاه إلى محلِّ الدنوِّ ، واستخلصه بخصائص الزلفة ، وألبسه لِباسَ الجمع ، واصطلمه عنه ، وكان له عنه ، ولَنَفْسِه — سبحانه — منه ، وأظهر عليه ما كان مستوراً من قَبْلُ من أسرارِ الحقِّ ، وعَرَّفَه — من كمال معرفته به — ما كان جميعُ الخَلْقِ متعطشا إليه [2] .

---

(1) فى ص (يحكم) ولكننا آثرنا أن تكون (يَحْلُمُ) مرجحين أن ذلك أقرب إلى الأصل ، لأن الحِلْم هنا أقرب إلى السياق .

(2) تعبر هذه الفقرة تعبيراً صادقاً عن مدى نظرة الصوفية إلى المصطفى على أنه «الصوفىّ الأول» .

سُورَةُ أبى لَهَب

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » كلمة جبَّارة للمذنبين ، تجبر أعمالَهم ، وتحقِّق آمالَهم ، وهى للعارفين تُصغِّر فى أعينهم أحوالَهم ، وتُكَمِّل — عن شواهدِهم — امتحاءهم[1] واستئصالَهم ، وتحقِّق لهم — بعد فنائهم عنهم — وصالَهم .

قوله جل ذكره : « تَبَّتْ يدا أبى لَهَبٍ وتَبَّ » .

أى : خَسِرَت يداه .

« ما أغنى عنهُ مالُهُ وما كَسَبَ » .

ما أغنى عنه مالُه ولا كَسْبُه الخبيثُ — شيئاً .

وقيل : « ما كسب » : وَلَدُه[2] .

قوله جل ذكره : « سَيَصْلَى ناراً ذات لَهَب * وامرأتُه حَمَّالَةَ[3] الحطبِ » .

يلزمها إذا دَخَلَها ؛ فلا براحَ له منها . وامرأتُه أيضاً ستَصْلَى النارَ معه .

« فى جيدِها حَبْلٌ مِّنْ مَّسَدٍ » .

---

(١) فى ص (امتحانهم) والصواب أن تكون (امتحاءهم) أى حصول «المحو» لهم .

(٢) حين قال أبولهب : «إن كان ما يقوله ابن أخى حقاً فإنى أفدى نفسى بما لى وولدى» فنزل : « ما أغنى عنه ماله وما كسب » .

(٣) وعلى الرفع قراءة نافع . وقرأ عاصم بالنصب على الذمّ كأنها اشتهرت بذلك — كقوله تعالى : «ملعونين أينما ثُقِفوا » آية ٦١ سورة الأحزاب .

« مَسَدٌ » شيء مفتول، وكانت تحمل الشوك وتنقله وتبثه فى طريقِ رسول الله عليه الصلاة والسلام .

و يقال : سُحْقًا لِمَنْ لا يعرف قَدْرَكَ ـ يامحمد . وبُعْدًا لِمَنْ لم يشهد ما خصصناكَ به مِنْ رَفْعِ محلِّك ، وإكبارِ شأنِك ... ومَنْ ناصبَكَ كيف ينفعه مالُهُ ؟ والذى أَقْميناه لأجلكَ وقد (أساء)[1] أعمالَه .. فإنَّ إلى الهوانِ والخزْيِ مآله ، و إنَّ على أقبحِ حالٍ حالَ امرأته وحالَه .

---

(١) ما بين القوسين من عندنا فهي فى النسخة م مشتبهة .

سُورَةُ الإخْلَاص

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمة عزيزة عَزَّ لسانٌ ذَكَرَها ، وأعَزُّ منه قلبٌ عَرَفَها ، وأعزُّ من هذا رُوحٌ أحَبَّها ، وأعزُّ من هذا سِرٌّ شهدها .

ليس كلُّ مَنْ قصدها وَجَدَها ، ولا كلُّ مَنْ وَجَدَها بَقِيَ معها .

قوله جل ذكره : « قُلْ هو اللهُ أحَدٌ » .

لمَّا قال المشركون : أنسُبْ لنا ربَّكَ . أنزل اللهُ تعالى : « قل هو الله أحد »[1] فمعنى « هو » أى : الذى سألتم عنه « هو » الله . ومعنى « أحد » أى : هو أحدٌ .

ويقال : « هو » مبتدأ ، « والله » خبره و « أحد » خبرٌ ثانٍ كقولهم :

هذا حلوٌ حامض .

« اللهُ الصَّمَدُ » .

« الصمد » : السيِّدُ الذى يُصْمَدُ إليه فى الحوائج ، ويُقصَدُ إليه فى المطالب . ويقال : الكاملُ فى استحقاق صفات المدح .

ويرجِّح تحقيقُ قولِ مَنْ قال : إنه الذى لا جوفَ له إلى أنه واحدٌ لا (. . .)[2] فى ذاته .

---

(١) روى الترمذى ذلك عن أبى العالية . وقيل : الآية جوابٌ لسؤال المشركين : صِفْ لنا ربَّك ، أمِنْ ذهب هو أم من نحاس أم من صُفْرٍ ؟

(٢) مشتبهة .

« لم يَلِدْ ولم يُولَدْ » .

ليس بوالدٍ ولا مولود .

« ولم يكن لَهُ كُفواً أحد » .

تقديره . لم يكن أحدٌ كفواً له .

و« أحد » أصله وَحْدٌ ، ووِحَدٌ ، وواحد بمعنًى ، وكونه واحداً : أنه لا قسيمَ له ولا شبيهَ له ولا شريكَ له .

ويقال : السورة بعضها تفسيرٌ لبعض ؛ مَنْ هو الله ؟ هو الله . مَنْ الله ؟ الأحد ، مَنْ الأحد ؟ الصمد ، مَنْ الصمد ؟ الذى لم يلد ولم يولَد ، مَنْ الذى لم يلد ولم يولَد؟ الذى لم يكن له كفواً أحد .

و يقال : كاشَفَ الأسرارَ بقوله : « هو » . وكاشَفَ الأرواحَ بقوله : « الله » وكاشَفَ القلوبَ بقوله : « أحد » . وكاشَفَ نفوسَ المؤمنين بباقى السورة .

ويقال : كاشَفَ الوالهين بقوله : « هو » ، والموحِّدين بقوله : « الله » والعارفين بقوله : « أحد » والعلماء بقوله : « الصمد » ، والعقلاء بقوله : « لم يلد ولم يولد » ... إلى آخره .

و يقال : لَمَّا بسطوا لسانَ الذمِّ فى الله أمَرَ نبيَّنا بأَنْ يَرُدَّ عليهم فقال : « قل هو اللهُ أحد » : أى ذُبَّ عنى ما قالوا ، فأنت أَوْلى بذلك . وحينما بسطوا لسان الذمِّ فى النبيِّ صلى الله عليه وسلم تولَّى الحقُّ الردَّ عليهم ، فقال : « ن . والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربِّكَ بمجنون » وقال : « والنجم إذا هوى . ما ضلَّ صاحبكم وما غوى » أى أنا أذبُّ عنك ؛ فأنا أَوْلى بذلك منك .

ويقال : خاطَبَ الذين هم خاص الخواص بقوله : « هو » فاستقلوا ، ثم زاد لمن نزل عنهم فقال : « الله » ، ثم زاد فى البيان لمنْ نزل عنهم .

فقال : « أحدٌ » ثم لمن نزل عنهم فقال : « الصـــــمد » .

ويقال : الصَّمَدُ الذي ليس عند الخَلْقِ منه إلا الاسم والصفة .

ويقال : الصمدُ الذى تقدَّس عن إحاطةِ عِلْمِ المخلوقِ به وعن إدراكِ بَصَرِهم له ، وعن إشرافِ معارفهم عليه .

ويقال : تقدَّسَ بصمديته عن وقوف المعارف عليه .

ويقال : تَنَزَّه عن وقوف العقول عليه .

سُورَةُ الفَلَق

قوله جل ذكره : « بسم اللهِ الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » : اسمٌ عزيزٌ إذا تجلَّى لقَلبٍ فإنْ لاطَفَهُ بجماله أحياه ، وإنْ كاشَفه بجلاله أبادَه وأفناه ؛ فالعبدُ فى حالتى : بقاء وفناء ، ومحوٍ وإثباتٍ ، ووَجْدٍ وفَقْدٍ .

قوله جل ذكره : « قل أعوذُ بربِّ الفَلَقِ » .

أى أمتنع وأعتصم بربِّ الفَلَق . والفلقُ الصُّبْحُ .

ويقال : هو الخَلْقُ كلُّهم[1] . وقيل الفَلَقُ وادٍ فى جهنم[2] .

« مِنْ شرِّ ما خَلَقَ » .

أى من الشرور كلِّها .

« ومِنْ شرِّ غاسِقٍ إذا وقَبَ » .

قيل : الليلُ إذا دَخَلَ . وفى خبرٍ : أنه صلَّى الله عليه وسلم أخذ بيد عائشة ونَظَرَ إلى القمر فقال : « يا عائشة ، تَعَوَّذِى باللهِ من شرِّ هذا فإنه الغاسقُ إذا وقب[3] » .

« ومن شرِّ النَّفَّاثاتِ فى العُقَدِ » .

وهن الســـــواحر اللواتى ينفخن فى عُقَد الخَيط (عند الرُّقية) ويوهمنَّ إدخالَ الضررِ بذلك .

---

(١) أى هو كل ما انفلق من حيوان وصبح ونوىً وحَبٍّ ونبات وغيره ..

(٢) تأخر وضع هذه العبارة قليلا فأثبتناه فى موضعه .

(٣) رواه الترمذى . وقال أبو عيسى : هو حديث صحيح .

« ومن شرِّ حاسدٍ إذا حَسَد » .

والحَسَدُ شرُّ الأخلاق .

وفى السورة تعليمُ استدفاع الشرور من الله . ومَنْ صَحَّ توكُّلُه على الله فهو الذى صحَّ تحقُّقُه بالله ، فإذا توكَّلَ لم يُوَفِّقْه اللهُ للتوكُّلِ إلَّا والمعلومُ من حاله أنه يكفيه ما توكَّلَ به عليه ؛ وإنَّ العبدَ به حاجةٌ إلى دَفْعِ البلاء عنه — فإنْ أَخَذَ فى التحرُّز من[1] تدبيره وحَوْله وقُوَّته ، وفَهْمِهِ وبصيرته فى كلِّ وقت استراح من تعب تردُّدِ القلبِ فى التدبير ، وعن قريبٍ يُرَقَّى إلى حالة الرضا . . كُفِيَ مُرَادَه أم لا . وعند ذلك الملك الأعظم ، فهو بظاهره لا يفتر عن الاستعاذة ، وبقلبه لا يخلو من التسليم والرضا .[2]

---

(١) بعد (من) كلمة منبهمة فى الرسم أقرب ما تكون إلى (حيلته) .

(٢) معنى هذا أن تمامَ التوكُّل على الله أعظمُ مانع للعبد من أن يُلِمَّ به مكروه نتيجة سِحْرٍ أو حَسَدٍ ونحوهما ، فلن يصيب العبدَ إلا ما كتبه الله له .

سُورَةُ النَّاس

قوله جل ذكره : « بسم اللهِ الرحمن الرحيم »

بسم الله الذى قصرت عنه العقولُ فوقفت ، وعَجَزَت العلومُ فتحيرَّت ، وتقاصَرَت المعارفُ فخَجِلَت ، وانقطعت الفُهُومُ فدهشت .. وهو بنعت علائِه ووصفِ سنائه وبهائه وعِزِّ كبريائه يُعْلَمُ ولكنَّ الإحاطةَ فى العلمِ به مُحالٌ ، ويُرَى ولكنَّ الإدراكَ فى وصفه مستحيلٌ ، ويُعْرَف ولكنَّ الإشرافَ فى نعته غير صحيح .[1]

قوله جل ذكره : « قُل أعُوذُ بِربِّ النَّاسِ » .

أعتصِمْ بربِّ الناسِ خالِقِهِم وسيِّدِهِم .

« مَلِكِ النَّاسِ » .

أى مالِكِهِم جميعهم .

« إلٰهِ النَّاسِ » .

القادرِ على إيجادِهِم .

« مِنْ شَرِّ الوَسْوَاسِ الخَنَّاسِ » .

من حديثِ النَّفْسِ بما هو كالصوتِ الخفىِّ .

ويقال : مِنْ شرِّ ذى الوسواس .

ويقال : من شرِّ الوسوسة التى تكون بين الجِنَّةِ والناس .

---

(١) فقد جلَّت الصمدية أن يستشرف منها عالِمٌ بعلمه أو واهِمٌ بوهمه ، أو عارف بمعرفته .. وكلٌّ ماهنالك هو شهود (الفعل) الإلهى لا (الذات) الإلهية .

« والخنَّاس » الذى يغيب ويخنس عن ذِكْرِ الله . وهو من أوصاف الشيطان .

« الذى يُوَسْوِسُ فى صُدورِ النَّاسِ *
مِنْ الجِنَّةِ والناس » .

قيل : « الناس » يقع لفظها على الجنِّ والإِنْسِ جميعاً — كما قال تعالى :

« وإذ صَرفْنا إليك نفراً من الجنِّ »[1] فسمَّاهم نفراً ، وكما قال :

« يعوذُون برجالٍ من الجنِّ »[2] فسمَّاهم رجالاً . فعلى هذا استعاذ من الشيطان الذى يوسوس فى صدور الناس ، والشيطانُ الذى له تسلُّطٌ على الناسِ كالوسواس ؛ فللنَّفْس من قِبَلِ العبد هواجسُ ، وهواجِسُ النَّفْسِ ووساوسُ الشيطانِ يتقاربان ؛ إذ أن ما يدعو إلى متابعة الشهوة أو الضلالة فى الدين أو إلى ارتكاب المعصية ، أو إلى الخصال الذميمة — فهو نتيجة الوساوس والهواجس .

وبالعلم يُمَيِّزُ[3] بين الإلهام وبين الخواطرِ الصحيحة وبين الوساوس[4] .

(ومما تجب معرفته)[5] أن الشيطان إذا دعا إلى محظورٍ فإنْ خالَفْتَه يَدَعْ ذلك (ثم) يدعوك إلى معصيةٍ أخرى ؛ إذ لا غَرَضَ له إلا الإقامة على دعائك (. . . .[6]) غير مختلفة .

(١) آية ٢٩ سورة الأحقاف .

(٢) آية ٦ سورة الجن .

(٣) فى النص كلمة منبهمة اخترنا (يميز) طبقاً لرأى القشيرى كما سيتضح من الهامش التالى .

(٤) « الخاطر خطاب يَرِدُ على الضمائر ؛ وقد يكون بإلقاء الشيطان وقد يكون من أحاديث النفس أو من قِبَلِ الحق ؛ فإذا كان من المَلَك فهو الإلهام ، وإذا كان من قِبَلِ النفس قيل له : الهواجس ، وإذا كان من قبل الشيطان فهو الوسواس ، وإذا كان من قِبَلِ الله — سبحانه — وإلقائه فى القلب فهو خاطرُ حقٍّ .. وإذا كان من قبل الملك فإنما يعلم صدقه بموافقة العلم .... » رسالة القشيرى ص ٤٦ و ٤٧ .

(٥) هذه إضافة من جانبنا ليتماسك السياق ويتضح .

(٦) مشتبهة .

خاتمة الكتاب

بعونه تعالى انتهى تحقيق كتاب « لطائف الإشارات » للإمام القشيرى فى غُرّة رجب من عام ١٣٩٠ هـ وقد استغرق هذا العمل نحو خمسِ سنواتٍ كوامل ، قطعنا فيها رحلةً أضنت الجسمَ والبصر والفكر ، ولكنها أمتعت القلبَ ، وأيقظت الروح ، وأنعشت السِّرَّ .

ولست أحبُّ — متأثرًا الصوفية — أن أحدِّث القارئ عن مقدار ما لقيت من متاعب . . فهذا ضربٌ من دعوى النفس . . وإنما أترك ذلك للقارئ . وقبل كل شىء أضرع إلى الله — وحده — أن يحتسب هذا العمل لى ذخراً عنده ، وأن يمحوَ — إن شاء — من ديوانى بعض خطاياى .

كما أدعو الله أن ينفع به كافة المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها بمقدار ما له من قيمة علمية نادرة ، وبمقدار ما لصاحبه — رضى الله عنه — من قَدْرٍ جليلٍ فى تراثنا العظيم .

والواقع . . أنَّ أعظمَ ما يفعمنى بالسعادة من دواعٍ هو هذا الاستقبالُ الذى حظى به الكتاب ، فقد وصلتنى رسائل عديدة من أقطارٍ شتَّى ، ومن علماء أجلاء من نواحٍ نائية كلها تحثُّ على المسير ، وتغذِّى العزم ، وتلهم الصبرَ على إتمام هذا العمل الشاق .

ولا أحب أن أختم كلمتى قبل أن أعتذر للقارئ عما قد يكون فى الكتاب من قصور أو تقصير ، ترجع أسباب بعضه لى ، وتقع تبعته علىَّ ، ويعود بعضه إلى المطبعة — فنحن شريكان فيه كما يرجع الكثير منها إلى النُّسَّاخ . .

ولا عجب فى ذلك فالرحلة طويلة ، ودروبها متشعبة . ولكننا نَعِد — إذا شاء اللهُ وظهرت للكتاب طبعات أخرى — أن نتحاشى قَدْرَ الوسع كل هذه الوجوه . وأكون

سعيداً لو أشرك القرّاء أنفسهم معى فى ذلك ؛ فبعثوا إلىّ بملاحظهم ، فلم يعد الكتابُ منذ الآن قاصراً علىّ وحدى .

كما أعد — إن شاء الله — بتدارك ما جاء فى الكتاب من عيوب الشعر التى حالت الظروف القاهرة دون تداركها .

لقد كان رائدنا فى هذه المرحلة من التحقيق أن يصل المتن الصوفىُّ للناس ، ولكننا فى المراحل التالية سننهض — بحول الله وقوته — بكثيرٍ من الأعمال التى تتصل بالشروح ، وبالمصطلحات ، وبالقضايا الأساسية التى نهض بها الكتاب . . فليس « لطائف الإشارات » بأقلّ من « الرسالة » التى حظيت باهتمام الأجيال المتعاقبة .

وأخيراً ، فإنى أتمنى أن أكون بإخراج هذا الكتاب قد وفيت بعض الدّين الذى فى عنقى للإمام الجليل عبد الكريم القشيرى — رضى الله عنه وأرضاه .

وفقنا الله جميعاً إلى الخير .

دكتور إبراهيم بسيونى

أستاذ بكلية الألسن — الزيتون — القاهرة

الفهـرس

اسم السورة	الصفحة
الحجرات	٥
ق	١٥
الذاريات	٢٧
الطـــور	٣٩
النجـــم	٤٨
القمـــر	٦١
الـرحمن	٧٠
الواقعـــة	٨٤
الحـــديد	٩٨
المجـــادلة	١١٦
الحشر	١٢٤
الممتحنـــة	١٣٧
الصـــف	١٤٣
الجمعـــة	١٤٩
المنـــافقون	١٥٥
التغـابن	١٦٠
الطلاق	١٦٦
التحـــريم	١٧٢
الملـــك	١٧٨
القـلم	١٨٤
الحاقـــة	١٩٢
المعـــارج	١٩٦
نـــوح	٢٠٢
الجن	٢٠٥

اسم السورة	الصفحة
المزمل	٢٠٩
المدثر	٢١٥
القيامة	٢٢٢
الانسان	٢٢٨
المرسلات	٢٣٨
النبأ	٢٤٣
النازعات	٢٤٩
عبس	٢٥٥
التكوير	٢٦٠
الانفطار	٢٦٤
المطففين	٢٦٧
الانشقاق	٢٧٣
البروج	٢٧٧
الطارق	٢٨٢
الاعلى	٢٨٥
الغاشية	٢٨٨
الفجر	٢٩٢
البلد	٢٩٧
الشمس	٣٠٠
الليل	٣٠٣
الضحى	٣٠٧
ألم نشرح	٣١١
التين	٣١٣
العلق	٣١٥
القدر	٣١٨
لم يكن	٣٢٠
الزلزلة	٣٢٣
العاديات	٣٢٥
القارعة	٣٢٨
التكاثر	٣٣٠
العصر	٣٣٢

اسم السورة	الصفحة
الهمــزة	٣٣٤
الفيــل	٣٣٦
قـــريش	٣٣٩
الدين	٣٤١
الكوثر	٣٤٣
الكافرون	٣٤٥
النصر	٣٤٧
أبى لهب	٣٤٨
الاخلاص	٣٥٠
الفـلق	٣٥٣
الناس	٣٥٥
خاتمة الكتاب	٣٥٧

انتهى

المطبعة الثقافية

رقم الايداع بدار الكتب ٢٤٠٠/١٩٧١

الثمن ٨٠ قرشا